

د. زکای نجیب محمود

عربی
بین
ثقافتین

دارالشروق



عرجا بين ثقافتين

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣

فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تالكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا : داشروق - تالكس : SHOROK 20175 LE

الدكتور زكي نجيب محمود

عربيا بين ثقافتين

دار الشروق

مقدمة

لقد أتيت مؤلف هذا الكتاب حياة ثقافية امتدت به منذ شبابه الباكر حتى انتصف العقد التاسع من عمره ، ولبت طوال هذه السنين مفتوحة النوافذ على الثقافة الغربية والثقافة العربية معا . إلا أن أسلوب التلقى لهاتين الثقافتين قد اختلف مرحلة بعد مرحلة من مراحل العمر ، فلفترة طويلة ظلت الثقافة الغربية وحدها تقريبا هي التي تقدم في صيغة دراسية منظمة بحكم دراستها في المدارس . وكانت الثقافة العربية عندئذ تسيرها جنبا إلى جنب من باب الهواية الحرة ، إذ تعلق المؤلف وهو بعد في غض شبابه بقراءة ما وقعت عليه يده من التراث الأدبي العربي . ودواوين الشعراء بصفة خاصة ، وكان يجد في ذلك متعة شديدة لما انطوت عليه فطرته من ميل إلى الذوق الفني عموما . والفن الأدبي خصوصا .

فلما انتصف به العمر . كان قد حصل في الجانب الغربي من ثقافته على قدر كبير . منه ما كان مدروسا في معاهد التعليم ومنه ما كان مقروءا في مطالعته الخاصة ، كما كان قد حصل من الجانب العربي في تكوينه الثقافي قدراً كبيراً جاء معظمه عن طريق الميول

الخاصة والجهود الذاتية - إذا صح هذا التعبير - ومنذ ذلك الحين أخذ شيء من القلق يساوره لما أحسه من عرج في بنائه الثقافي ، خصوصا وان محصوله من ثقافة الغرب كان يدعمه سند قوى من حضارة عصرية تقوم على أساسه ، وتبرهن بذلك على مدى صلاحيته في عالم التطبيق في حين أن محصوله من التراث الثقافي المأثور عن أسلافه لم يعد ينعكس منه شيء يذكر في الحياة الحضارية كما يعرفها هذا العصر ، وإنما يستند على سند حضارى ذهب زمانه ، فانكب انكباً على ذلك التراث ، ماكان قد حصده منه مضافاً إلى مأخذ سبيله إلى حصده ، محاولاً أن ينفذ إلى جوهره ومحوره لتصبح المقارنة ممكنة بينه وبين ماكان يعرفه عن جوهر هذا العصر ومحوره ، لعله يلتمس بين الجانبين موقفاً يحقق الحفاظ على الجوهر الأول ، والدخول في قلب الجوهر الثاني في صيغة واحدة ، إذا وجدها كانت خير مايقدمه إلى أبناء الجيل الجديد من شباب المثقفين ، وقد يجدون فيه مايستحق النظر .

ولئن كانت هذه المحاولة الساعية إلى إيجاد تلك الصيغة الثقافية للمواطن العربي الجديد قد غلبت على جميع ما اتجه إليه فكره وقلمه منذ سنة ١٩٦٠ ، فإن هذا الكتاب الذى أقدمه بين يدي القارئ . قد احتوى على جهد مكثف في هذا السبيل ، يصطبغ بلون خاص إذا قورن بغيره من الجهود السابقة ، إذ اختار المؤلف مجموعة من الروايات التى تصلح للإطلاع منها على مواضع اختلاف جذرية بين الثقافتين أدت إلى مذاقين مختلفين لحياة الإنسان . وذلك تمهيدا للنظر

من جديد نظرة فاحصة ، فرما تبين أن ما حسبناه اختلافا يضرب إلى الجذور ويستحيل على المصالحة والتوفيق ، إنما هو في حقيقته أكثر مرونة مما حسبنا ، بحيث يصبح في حدود المستطاع أن نقترح صيغة تجمع الطرفين دون تضحية بما هو أساسى وجوهري في كل من الطرفين .

فاختار المؤلف أول ما اختار ، فكرة « المبادئ » لعمق موضعها من البنيان الثقافى فالمبادئ عند العربى حقائق لا تقبل الجدل ، ومنها يبدأ الإنسان لينى عليها ما يتلاءم مع طبيعتها ، ومن ثم يتحقق عنصر الدوام فى المناخ الثقافى العربى ، وأما أبناء الغرب من أهل هذا العصر العلمى بصفة خاصة ، فقد أخذوا ينظرون إلى « المبادئ » من حيث هى فروض ، يعتمد بقاؤها على نجاح النتائج المتولدة عنها ، فيصبح سؤالنا إزاء هذين الموقفين هو : هل هنالك ما يمكن تعديله فى النظرة العربية حتى لا يتورط العربى فى ثبات يؤدي به إلى ضعف وعجز ، مبقيا على ثبات الجانب الذى لا بد من بقائه ، ولأنه فى الوقت نفسه سبيل إلى قدرة وقوة ؟ وكان الجواب بالإيجاب ، إذ ليس هنالك ما يمنع التفرقة بين مبادئ تتصل بالعقيدة فتبقى ومبادئ أخرى من صنع الإنسان فتخضع للتغيير إذا كان ازدهار الحياة يقتضى ذلك التغيير .

وكانت الزاوية الثانية التى نظر منها المؤلف إلى كلتا الثقافتين ، هى زاوية النظر العلمى إلى أوضاع الحياة بحيث تكون الكلمة الفاصلة للعلم وما يقرره ، فهذا العصر القائم هو عصر علم فى المقام الأول ،

ليس فقط بمعناه الذى عرفه الأقدمون من عرب وغير عرب ، وأعنى توليد النتائج استدلالا صحيحا من نصوص بين أيدينا ، بل إن علم هذا العصر قد اتجه بصفة أساسية نحو ظواهر الكون لاستخراج قوانينها ، وبالكشف عن قوانين ظاهرة معينة يصبح الإنسان قادرا على تسخيرها ومن هنا جاءت هذه القدرة الهائلة التى سيطر بها أصحاب الحضارة العصرية على ظواهر الطبيعة على نحو ما نرى ، وواضح أن العربى فى عصرنا لم يضيف إلى الحياة العلمية فى صورتها الجديدة شيئا . واكتفى بالحصول على ما ينتج عنها جاهزا وبلا عناء مما دفع كثيرين منا إلى التهكم على العلم الجديد واتهامه بأنه حصرم مر لا يجرى على السعى فى سبيله . وذلك من قبيل الشعور بالعجز والرغبة فى الدفاع عن النفس ، لكن المؤلف يسأل جادا : هل فى تراثنا الفكرى ما يمنع العربى عن المشاركة فى جهود العلم الجديد ؟ ثم يأخذ المؤلف فى تحليلات مفصلة مستفيضة بطريقة التفكير التى مارسها العربى فى شتى ميادين الحياة ليرى كيف نشأت وبماذا تميزت ؟ فيجد أن من أهم ما يميز العربى استناده إلى حقيقة كبرى مجردة إلى أقصى درجات التجريد ثم يستولدها نتائجها ، وهو موقف نراه متمثلا عند العربى فى حياته العلمية وفى حياته الدينية معا ، ثم هو موقف تشريه من طبيعة بيئته الصحراوية من جهة ومن عقيدة التوحيد فى مجال الدين من جهة أخرى ، وإذا كان ذلك كذلك فلن يتعذر على العربى - إذا صحت عزمته - أن تطور هذه الوقفة الاستدلالية بحيث يضيف إليها فرعا يقام فيه الاستدلال على أساس ما قد حصلته المشاهدات من

خصائص الظواهر ، وهذا هو نفسه ما فعلته الوروى فى نهضتها حين
اضافت إلى صورة العلم القديم صورة جديدة تواجه ظواهر الكون
مواجهة مباشرة ، والمهم هنا هو أن منطق العقل قد لازم العربى ،
مجدولا مع حياة وجدانية تستغنى عن ذلك المنطق ، منذ عرفته الدنيا
وعرفها ، فلا هو كمن استغرقه الوجدان كما استغرق أما أخرى فى
الشرق الأقصى ، ولا هو كمن كاد يستغرقه منطق العقل كما فعل مع
أم أخرى فى الغرب .

على هذا النحو أخذ مؤلف الكتاب ينتقل مع أطراف المشكلة
طرفا بعد طرف ، وقد رأى أن يقدم إلى القارئ فى الفصل الأخير بقسميه
« صورة مصغرة » يلخص فيها تسلسل الخطوات الفكرية التى سار بها فى
أحاديثه المسهبة المليئة بتفصيلاتها .

وبالله التوفيق

يناير ١٩٩٠

زكى نجيب محمود

هَذَا الْكَاتِبُ الْعَرَبِيُّ

أُخِذَتْ أَنْوَالُ الزَّمَنِ تَنْسَجُ خِيوطَهَا ، مُتَفَاوِتُهُ فِي قُوَّتِهَا ، مُتَبَايِنَةُ فِي أَلْوَانِهَا ، مَدَى ثَمَانِيَةِ عَقُودٍ مِنَ السَّنِينَ ، فَكَانَ الَّذِي نَسَجْتَهُ هُوَ هَذَا الْكَاتِبُ الَّذِي يَتَقَدَّمُ إِلَيْكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَبِأَحَادِيثٍ أُخْرَى يَتَوَالَى ظُهُورُهَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لَعَلَّهُ يُوَفِّقُ إِلَى صُورَةٍ يَتِمَنَّاهَا لِلْمَوَاطِنِ الْعَرَبِيِّ ، تَتَأَلَّفُ فِيهَا الْعُنَاصِرُ تَأَلَّفًا يَصُونُ لَهُ وَحْدَتَهُ وَشَخْصِيَّتَهُ ، ثُمَّ تَتِيحُ لَهُ التَّفَرُّقُ وَالنَّصْرُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي كَثُرَتْ سَبَاعُهُ وَضَبَاعُهُ يَضْرُسُ بِأَنْبِيَائِهَا مَنْ لَمْ يَحَازِرْ - كَمَا قَالَ شَاعِرُنَا زَهِيرٌ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ مَوْضُوعُ هَذَا الْحَدِيثِ وَمَا سَوْفَ يَتْلُوهُ ، فَلَا مَنَاجَاةَ لَنَا مِنْ اخْتِلَافَاتٍ فِي الرَّأْيِ بَيْنَ كَاتِبٍ وَقَارِئٍ ، وَبَيْنَ قَارِئٍ وَقَارِئٍ ، إِذِ الْحَدِيثُ عَنِ الْمَوَاطِنِ الْعَرَبِيِّ وَكَيْفَ يَحْمِلُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ، إِنَّمَا هُوَ حَدِيثٌ مُبَاحٌ لِكُلِّ مَنْ فَكَّ الْخَطَّ وَمَنْ لَمْ يَفْكِهِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ لِحَسْبَانِهِ حَدِيثًا هِينًا لَيْنًا ، فِي وَسْعِ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَدُلَّ فِيهِ بِدَلْوٍ مَعَ سَائِرِ الدَّلَاءِ ؟ وَمَنْ هُنَا أَخَذَ هَذَا الْكَاتِبُ حَيْطَتَهُ مِنْذُ الْكَلِمَةِ الْأُولَى ، فَجَعَلَ الْعُنْوَانَ الْعَامَّ يُشِيرُ فِي صِرَاحَةٍ إِلَى أَنَّ الرَّأْيَ الْمَعْرُوضَ - فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَفِيمَا يَحْيَى بَعْدَهُ مِنْ أَحَادِيثَ - رَأْيٌ « لِعَرَبِيٍّ » وَلِكُلِّ عَرَبِيٍّ

آخر أن يقول ماشاء ، فذلك لن ينفي أن « عربيا » ما كانت له رؤية فيما يجب أن يتألف في كيان المواطن العربي من عناصر .
لم يكد هذا الكاتب يبدأ في ترتيب أفكاره التي يريد عرضها ، حتى ظهرت له صورة من طفولته الباكرة ، تصلح أن تكون نقطة البدء ، فلقد تذكر يوما كان فيه تلميذا في السنة الثانية الابتدائية ، وكان الدرس درسا في اللغة الإنجليزية ، وكان موضوع المطالعة بضعة أسطر جاءت في كتاب المطالعة وتحت صورة حصان وقف بجواره غلام ، وقرأ أحد التلاميذ السطر الأول ، وكانت هذه هي كلماته :

What a Nice Horse Ahmed Has*

فقال المدرس : كيف ترون الترجمة العربية لهذه الجملة ؟ فرفعت الأصابع تريد الإجابة ، وطلب المدرس من تلميذ أن يجيء بما عنده ، ثم دار الأمر على النحو التالي :

- التلميذ الأول : أحمد عنده حصان جميل .
- المدرس : لا ، هذه عبارة لاتكفي .
- التلميذ الثاني : عند أحمد حصان جميل .
- المدرس : ولا هذه عبارة تكفي .
- التلميذ الثالث : ما أجمل حصان أحمد .
- المدرس : أنت أحسن قليلا ، لكنها عبارة مازالت ناقصة .

ولم تعد هنالك أصابع مرفوعة ، وهنا قدم المدرس ماعنده ، فقال في نطق هادئ عميق الصوت ، بعد أن مد ذراعه اليمنى ليتكىء

بأصابعها على منضدة إلى جانبه ، وثنى ذراعه اليسرى واضعا يده على خصره ! « ياله من حصان جميل عند أحمد » ، ولقد مضت حتى الآن ثلاثة وسبعون عاما ، منذ سمع طفل العاشرة ترجمة المدرس للجملة المعروضة ، ومع ذلك فلا يزال هذا الكاتب يذكر كيف أحس النشوة بتلك العبارة الجميلة ، وكيف أدرك بوجوده أن الترجمة العربية في عبارة المدرس قد جاءت مطابقة أكمل تطابق مع الأصل الإنجليزي .

وأقول إنه أدرك ذلك التطابق بوجوده ، لأنه بالطبع لم يكن في تلك السن الباكرة قادرا على التحليل العقلي ، وكبر الطفل شابا ، فرجلا ، فشيخا ، وبقيت تلك اللحظة راسخة في ذاكرته ، أضاف إليها على مراحل العمر قدرة تزايدت مع الدراسة ، على الفهم الأشمل والأعمق ، فطرح على نفسه ذات يوم سؤالا يسأل به عن المقارنة الدقيقة بين تلك الجملة عن أحمد وحصانه الجميل ، في صورتها الإنجليزية والعربية ، لعله يقع على السر الذي أدركه طفل العاشرة بوجوده ، حين أدرك التطابق بين الجملة في صورتها ، فكان أول ما أجاب به هذا الكاتب عن السؤال الذي طرحه على نفسه ، هو أن هناك فرقا بين مجموعتين من المفردات اللغوية المستخدمة في كل من الصورتين : أما المجموعة الأولى فتتألف من العناصر المشتركة بين الحالتين ، والتي لم يكن لأحد مفر من أن يجعلها مشتركة ، وهي في هذه الحالة ثلاثة عناصر ، أحمد ، والحصان ، وجميل ، وأما المجموعة الثانية فتتألف من العناصر المعبرة عن الواقع النفسى عند

المتحدث ، وهى فى هذه الحالة - بالنسبة إلى الجملة العربية - « ياله من » و « عند » ، ومايقابلها فى الصورة الإنجليزية ، وإذا دققنا النظر فى هذه المجموعة الثانية ، وجدنا اختلافا واضحا بين الصورتين الإنجليزية والعربية ، ولهذا الاختلاف أهمية كبرى سنشير إليها بعد قليل ، فقول العربى « ياله من » بعيد عن قول الإنجليزي فيما يقابل ذلك ، وقول العربى « عند » أحمد ، مختلف اختلافا له مغزاه عن قول الإنجليزي « يملكه » أحمد ، فبينما « الملكية » التى يشار إليها فى الجملة الإنجليزية توهم بدوام العلاقة بين المالك ومايملكه ، نرى « العندية » فى الجملة العربية متضمنة معنى الزوال ، لأن العندية مجرد صلة مكانية ، قد تكون اليوم ولا تكون غدا .

وهنا نعرض على القارئ الأهمية الكبرى - بالنسبة إلى موضوعنا - التى نراها كامنة فى الفرق بين الصورة العربية والصورة الإنجليزية لجملة واحدة مما يجرى على ألسنة الأطفال ، وهو فرق نستطيع بعد ذلك تكبيره ، فنجدته فارقا بين ثقافتين : الثقافة العربية من جهة ، والثقافة الإنجليزية ، أو قل على نحو التقريب الثقافة الغربية من جهة أخرى ، فقد رأينا فى الجملة البسيطة التى تحدثت عن حصان أحمد وكم هو جميل ، مما ورد فى مطالعة إنجليزية لأطفال فى سن العاشرة أو مادونها ، أن الصورة الإنجليزية والصورة المتمثلة فى ترجمتها العربية ، تتلاقيان حتما فى عناصر مشتركة ، هى فى هذه الحالة المعينة : الحصان ، وأحمد ، وجميل ، لكنها مختلفتان فى طريقة التعبير عن وقع الجمال فى نفس الرأى ، كما تختلفان كذلك فى تصور

العلاقة بين الحصان وصاحبه ، وهى علاقة عبرت عنها اللغة العربية بما يشير إلى مجرد « التجاور » فى مكان واحد ، كل هذا والأمر هنا هو أمر ترجمة من اللغة الأولى إلى اللغة الثانية ، ترجمة شهدنا لها بالدقة فما معنى هذه المقارنة بين الصورتين ؟ معناها أن الثقافتين المختلفتين ، إنما تختلفان فى الموقف « النفسى » تجاه الوقائع ، لكنهما لا تختلفان فى الوقائع ذاتها ، فالعربى والإنجليزى معا - فى الموقف الذى نحن بصدده الآن - لا يوسع أيا منهما إلا أن يقر بوجود حصان وصاحبه ، فإذا هما افترضا معا أن الحصان « جميل » أراد كل منهما أن يعبر عن ذلك الجمال المفترض ، اختلف أحدهما عن الآخر فى طريقة التعبير من جهة ، وفى المضمون النفسى الذى يريد أن يعبر عنه من جهة أخرى وذلك هو نفسه الموقف الذى نراه ماثلا أمامنا ، إذا ما أجرينا المقارنة بين ثقافتين بأكملهما ، لابين جملتين وردت إحداهما فى كتاب إنجليزى يطالعه أطفال صغار ، وأوردنا الأخرى فى ترجمة عربية لها ، فإذا نحن تأملنا الجسم الضخم الذى نسميه « ثقافة عربية » ، والجسم الضخم الآخر الذى نسميه « ثقافة إنجليزية » وجدنا مشاركة محتومة فى « وقائع » ، لأن الوقائع تفرض نفسها على الناس فرضا ، فالأرض أرض ، والسماء سماء ، والبحر بحر ، وهذا أرنب وتلك ذبابة ، وإذا أراد رجلان من رجال « العلم » ، أحدهما عربى والآخر إنجليزى ، أن يبحثا فى صخر الأرض ، أو فى أفلاك السماء ، أو فى ملوحة البحر ، أو فى التركيب العضوى للأرنب والذبابة ، كان الاتفاق بينهما كاملا فى تحديد « الموضوع » ، ثم انحصرت التفاوت بينهما

بعد ذلك فى القدرة العلمية عند البحث فى تفصيلات ذلك الموضوع ، وأما إذا ما كان الأمر أمر وقفة « نفسية » تجاه موضوع ما من موضوعات الواقع فعندئذ يكون الاختلاف - كبر ذلك الاختلاف أو صغره - قال الكلب « نجس » عند العربى ويحب الحذر من ملامسته ، مع أنه عند الإنجليزى فرد من أفراد الأسرة التى يتنمى إليها ، والذبابة عند العربى شئ قد يستهان به ، لكنها عند الإنجليزى خطر مخيف .

وننقل هذا القول نفسه إلى مستوى « العلم » - و « العلم » فى هذه الحالة هو علم النفس - فيصبح كما يلى : أننا إذا حللنا الحياة الإنسانية إلى أصغر وحداتها ، وجدنا تلك الوحدة الأولية طريقاً مؤلفاً من ثلاث حلقات ، اثنتان منها ظاهرتان لمن شاء أن يرى ، والثالثة مطوية فى جوف الإنسان ، فأولى الحلقات هى أن يتلقى الإنسان من العالم الذى حوله « مؤثرات » تقع على حواسه المختلفة ، من بصر أو سمع أو غيرهما من أعضاء الحس ، كأن تتلقى العين ضوءاً أو أن تتلقى الأذن صوتاً ، وهكذا ، والحلقة الثانية هى أن تفعل تلك المؤثرات فعلها فى مكونات الكيان العضوى ، مما قد يسهل تحليله وتحديدده أو يتعذر ، والذى يهمنا فى سياق حديثنا هذا ، هو أن هنالك مجموعة ضخمة ومعقدة ومتشابكة من عناصر تكمن فى بواطننا ، منها الغرائز ، ومنها المشاعر ، ومنها ذكريات عما قد تعلمناه ونشأنا عليه ، ومنها اعتقادات وعقائد آمنّا بها حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من نفوسنا ، ومنها « قيم » بثت فىنا منذ كنا رضعاً على حجور أمهاتنا ، تراكمت فأصبحت فى توجيهنا مثل الدقة فى السفينة ، وهى هى نفسها التى

نجملها كلها فى كائن موحد ونطلق عليه اسم « الضمير » هذه
المكونات كلها التى تكمن طى نفوسنا هى التى تتلقى المؤثرات الآتية
إلينا من العالم المحيط بنا ، فتأثر على نحو ما ، يختلف باختلاف
الأفراد فى الأسرة الواحدة ، أو فى الشعب الواحد . ثم تختلف بين
الشعب الواحد المعين وسائر الشعوب ، وأخيرا تجيء الحلقة الثالثة ،
وهى النمط السلوكى الذى ينتج عن الطريقة التى تأثرنا بها فى الحلقة
الثانية فقد يرى شخصان شيئا ما (وهذه هى الحلقة الأولى) فيتأثر
كل منهما بما يراه على نحو متفق مع مكنونه النفسى (وهذه هى الحلقة
الثانية) وأخيرا يسلك كل منهما وفق ما يوجهه إليه ذلك التأثر الباطنى
(وهذه هى الحلقة الثالثة) ، ونخذ مثلا لذلك زعيما يهيب بأمرته أن
تثور على ما يحق بها من استعباد أو استبداد وظلم ، فيتلقى صيخته
مواطنوه ، كما يتلقاها المستعبد لهؤلاء المواطنين ، فيكون الأثر الداخلى
عند المواطنين تمجيذا لصيحة زعيمهم واستجابة لها ، فى حين يكون
الأثر للصيحة نفسها عند من استعبد واستبد وظلم ، فرعا ونفورا ،
فإذا ما انتقل الفريقان من مرحلة التأثر الداخلى إلى مرحلة السلوك
الخارجى رأينا « ثورة من الفريق الأول - فريق المواطنين - ورأينا
« مقاومة للثورة » عند الفريق الثانى - فريق المستلطين استعبادا
واستبدادا وظلما - وهكذا نرى المؤثر الواحد المعين ، يلتقى بنوعين من
مكون النفس ، فيخرج نمطان مختلفان للسلوك ، وقد يكون من
الضرورى هنا ، أن يعلم القارئ بأن رد الحياة الإنسانية بكل
تعقيداتها ، إلى وحدات ثلاثية الحلقات ، مسألة لا يجمع عليها كل

علماء النفس المحدثين والمعاصرين ، إذ قد يردّها فريق منهم إلى وحدات ثنائية الحلقات ، بحيث لا يكون هناك إلا « مؤثر » يقع على حواس الإنسان من خارج ، و « استجابة » سلوكية تنبئ عليه ؛ فهذا الرأى يسقط من حسابه ما هو مكنون في الكيان العضوى ، وعذرهم في ذلك هو إصرارهم على أن يصبح علم النفس « علما » كأي علم آخر يبحث في ظاهرة تخضع للملاحظة والحساب فهم لا يريدون أن ينكروا أن للنفس مكنونها ، لكنهم لا يريدون أن يقيموا عليه « علما » لأنه خاف مجهول ؛ شأنهم في ذلك شأن عالم في الفيزياء أو الكيمياء ، يرصد ما « يظهر » ويستخرج قوانينه ، مسقطا من حسابه ما يخفى سواء عليه أكان ذلك الخافى موجودا أم كان معدوما ، فأمره موكل إلى غير « العلم » من مجالات الاهتمام .

وعلى هذا الأساس العلمى في تحليل الحياة الإنسانية إلى وحداتها البسيطة ، نتقل بجديثنا إلى « الثقافات » وكيف تختص كل ثقافة بما يميزها ، ثم كيف هى في الوقت نفسه تتفاعل مع ثقافات أخرى مما قد تلتقى به في حرب أو في سلم ، ففي الحلقة الأولى من الحلقات الثلاث (إذا أخذنا بثلاثية الحلقات في الوحدات البسيطة) وأعنى بالحلقة الأولى ما أسلفناه ، وهو أنها مرحلة « إدراكية » يتلقى فيها الكائن الحى - إنسان وغير إنسان - مؤثرات بيئته المحيطة به ، وهنا لابد أن تختلف مجموعة المؤثرات في ساكن الصحراء عنها في ساكن الأرض المخضرة بزرعها ، وأن تختلف مجموعة المؤثرات في ساكن السهل عنها في ساكن الجبل ، وفيمن تتصل حياته بالبحر عمن

تتصل حياته باليابس هذا كله من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الشعوب أو الأفراد الذين يحيون في بيئة واحدة من حيث الظروف الطبيعية ، يعودون فيختلفون فيما بينهم في هذه الحلقة الأولى - أعنى مرحلة استقبال الإنسان للمؤثرات الخارجية - اختلافا تعليميا وتربويا ، بمعنى أن تنشأ جماعة منهم على نمط من التعليم والتربية يفتح أعينهم وآذانهم وسائر حواسهم لما يجري حولهم ، فيدركون منه مالا تدركه جماعة أخرى تحيط بها الظروف الطبيعية نفسها ، لكنها لم تجد تربية وتعلما يعملان على دقة الإدراك واتساع أفقه وعمق أغواره ، مع أن المرئى هو نفسه المرئى عند الجماعة الأولى ، والمسموع هو المسموع ، فينتهى الأمر بالجماعتين إلى اختلاف ثقافى بعيد المدى ، ورغم تجانس المؤثرات الطبيعية التى تؤثر بها عوامل البيئة فى كل منهما ، ففي الجماعة الأولى نجد المعرفة الواعية قد غرزت وتنوعت حتى ليستقل بها أصحابها إلى ارتقاء على مستوى العلوم المختلفة ، وما يترتب على تلك العلوم من نتائج فى دنيا العمل والتطبيق ، وأما الجماعة الثانية فتصدمها المؤثرات نفسها ، لكنها تكون كماء المطر ينزل على صخرة صماء فينحدر على سطحها دون أن تستجيب له الصخرة بنبتة خضراء ، وتكون العلة فى ذلك الجذب فى الجماعة الثانية افتقارها إلى تربية وتعليم .

تلك - إذن - هى الحلقة الأولى من الحلقات الثلاث ، وما قد تحدثه من تباين ثقافى بين الأفراد وبين الشعوب ، وهو تباين تستطيع - كما ترى - أن تقول عنه أنه مما يمكن التغلب عليه إذا أردنا

له أن يزول ، لأنه تباين لم ينشأ عن ضرورة حتمية بقدر مانشأ عن عوامل متغيرة ، فإذا لاحظنا - مثلاً - أن حياة الثقافة العربية الآن - التي هي حياتنا ، نحيها كل يوم في ساعات العمل وفي ساعات الفراغ ، أقول إننا إذا لاحظنا أن حياة الثقافة العربية قد بلغت من الفقر حدا لا يجوز لها معه أن تطمع في أن تكون ذات أثر في توجيه التيارات الفكرية في العالم ، فلا هي تملك الأثر الفعال في سياسة ولا في اقتصاد ولا في عقيدة ، فالسياسة توضع هناك في محائى الشياطين ، ولا ندرى نحن إلا أن نجد الكوارث قد حلت توقعنا في حبالها وقوع الأشل العاجز ، والاقتصاد يضطرب بموجه صعودا وهبوطا هناك في أوكار الأبالة ، فما نحن إلا وقد رأينا العالم قد انقسم إلى شمال غنى بموارد الجنوب بعد أن يخضعها للعلم والصناعة ، وإلى جنوب باع موارده بثمن بخس واشترى صناعات الشمال بثمن مرتفع ، ولم يعد يملك سوى أن يمد إلى أبالة الشمال أكف الضراعة يطلب العون والقرض والصدقات ، وفي دنيا العقائد ترانا وقد اتسعت في حياتنا فجوات واسعة وعميقة بين « إيمان » نصوغه لفظا « وعمل » لا يكاد يمت إلى ذلك الإيمان بسبب من الأسباب ، أقول مرة أخرى : إننا إذا لاحظنا أن حياتنا الثقافية العربية قد بلغت هذا الحد من الضحالة والعوز ، فليس يعنى ذلك - مادنا عند الحلقة الأولى التي هي مرحلة الانطباع بما حولنا من مؤثرات - أننا أمام عقبة يستحيل علينا اقتحامها ، بل الأمر فيها على غير ذلك ، لأن نقص الإدراك نقيصة تعالجها في جيل واحد تربية سليمة وتعليم منتج ،

وليس فى إصلاح المرحلة الإدراكية أو فى تغييرها من حال الفقر إلى حال الغنى ، ومن حالة الغموض إلى حالة الدقة ، ليس فى أى شىء من ذلك التغيير ما يمس شخصيتنا العربية بحيث نخشى أن يظهر من أولى أمرنا من يعارضه ويقاومه .

فإذا انتقلنا بانظارنا إلى الحلقة الثانية ، حيث مكونات البواطن التى أسلفنا ذكرها ، فهنا نجد العقبة العصية التى تستدعى النظر الهادئ المتأمل ، إذ هاهنا يكمن المصدر الحقيقى لما تنوع به الثقافات المختلفة بين أفراد الشعب الواحد أولاً ، ثم بين شعب ، وسائر الشعوب ثانياً ، فالمؤثرات التى ينطبع بها الإنسان آتية إليه من خارجه ، لاقيمة لها فى ذاتها معزولة عن وقوعها فى ذلك المضمون الحشوى الذى يكمن فى جوانح صدورنا ، أن حدثاً واحداً معيناً قد يضحك إنساناً ويبكى إنساناً آخر ، فالحدث هو نفسه الحدث عند كليهما لكن كوامن النفس فى أحدهما ليست هى كوامن النفس فى الآخر ، ضع لها من نار على ورقة تشتعل ، لكن ضع ذلك اللهب على ماء ينطفئ ، وفى ذلك المضمون الحشوى تتشكل الرؤية الثقافية فى الفرد الواحد ، وفى مجموع الشعب ، فإذا كان لأحد أن يغير من نفسه ، أو من شعبه ، رؤيته الثقافية ، ليستبدل بالضعف قوة ، وبالجهل علماً ، وبالفقر غنى ، وبالمرض النفسى صحة وعافية ، فقليل من ذلك ما يعتمد على مرحلة الإدراك الأولى ، بالقياس إلى الكثير الصعب الذى لا بد من عمله لتغيير المضمون الحشوى الذى أشرنا إليه ، والذى أشار إليه فلاسفة أقدمون - مثل أفلاطون وفرانسيس

يكون- بأنه بمنزلة كهف قعد فيه ساكنه بحيث أدار ظهره لفتحة الخروج ، واتجه ببصره نحو الجدار الداخلى ، فلا يعرف عن الدنيا الخارجية شيئا إلا ظلالات يراها تتحرك على الجدران منعكسة عن المارة فى الطريق العام ، مضافا إليها مخزون نفسه ، ومع ذلك فالوهم يخيل له أنه يعرف عن الدنيا حقائقها .

ولكن متى وكيف يلجأ « العاقل » إلى تغيير مضمونه الحشوى هذا الذى بفعله تتشكل رؤية الإنسان ؟ إن الجواب عن هذا السؤال مرهونة بالحلقة الثالثة ، التى هى مرحلة السلوك ، فسلوك الإنسان - كما قلنا - هو محصلة تنشأ مما وقع عليه من مؤثرات خارجية ، بعد أن تتلقاها مخزونات الباطن فتوجه فعلها بحسب مايتفق مع عناصرها ، وعندئذ تقتضى منا الحكمة أن نرقب سلوكنا هذا ، الذى وجهته مخزونات نفوسنا ، لنرى إلى أى النهايات ينتهى بنا ؟ هوينتهى بنا إلى ضعف أم إلى قوة ؟ إلى مرض أم إلى عافية ؟ إلى رفاهية أم إلى شظف العيش ؟ فإن وجدناه سلوكا تتعثر به خطواتنا ، وتتكس به حياتنا ، وجبت علينا عندئذ مراجعة نفوسنا وماقد انطوت عليه من مخزونات الأفكار التى قد تكون باطلة ، والعواطف التى قد تكون مضللة والرغبات التى قد تكون مؤذية بنا إلى دمار ، كان علينا أن نغير من طرائق التربية والتعليم ، لنصوغ أبناءنا صياغة جديدة تبرا مما أصبنا به نحن من معوقات .

على أننا إذ نرقب سلوكنا لنرى إلى أى النهايات ينتهى بنا ، فلسنا نريد أن تكون المنفعة وحدها مدار الحكم بالنجاح والفشل ، بل

المدار هو مقومات « الشخصية » التي نريدها لأنفسنا ، ومن تلك المقومات ما قد يتطلب منا النصيحة وليس النفع في صورته المادية من كسب أكثر وجاه أقوى ، وهاهنا تأتي نماذج البطولات في تاريخنا لتجعل منها هاديا يهدينا إلى ما ينبغي أن يتوافر لنا من عناصر الشخصية العربية المنشودة .

إنها هي الحلقة الوسطى التي تتطلب منا طول النظر وحسن التدبير ، لأنها هي التي تتجمع فيها الدوافع الحركية نحو سلوك يتلاءم مع طبيعتها ، أنه لا يكفي أن نملأ الذاكرة بمعارف ومعلومات لا ينجم عنها عاطفة دافعة نحو الهدف الذي نريده ، والمهم هو أن نحرص على شحن المعرفة بالانفعال لها ، كما هي الحال مع القصائد وهي في شدة حرارتها ، ماذا يجدى أن تملأ وسائل الإعلام دنيانا صياحا بأغان وطنية إذا جاءت تلك الأغاني مثيرة للضحك من تفاهة معانيها ؟ إنها على الأرجح تحدث عند الملتقى تأثيرا عكسيا لمجرد شعوره بأنه لا مؤلفها ولا ملحنها ولا مؤديها بالغناء صادق مع نفسه وهو يفعل ما يفعله ، ان هناك جماعات من الناس لا تجد لها تاريخا فتصيد لنفسها أسطورة تحيا بها وتعرف كيف تجعلها أسطورة تحرك الناس إلى القوة ، ونحن نحمل وراء ظهورنا تاريخا حقيقيا شهده الزمان وشهد له ، وهو تاريخ لو تقسمه أهل الكوكب الأرضي جميعا لكفاهم دافعا شريفا نحو هدف شريف ، ومع ذلك لم نستطع نحن أصحابه أن نستوحيه سداد العمل لنحقق القوة التي نعتمد بها من الهوى والهوان .

إنها هي الحلقة الوسطى التي تستحق منا كل العناية في تربيتنا

لأبنائنا وبناتنا ، ففيها ترسخ العقائد صحيحة أو مغلوطة مهوشة ، وفيها تكمن « الارادة » قوية أو ضعيفة ، وفيها تنبت الميول والرغبات والأهواء والحب والكراهية والرضا والسخط والقلق والطمأنينة ، وسائر تلك القوى الدافعة لصاحبها أو المانعة ، الصاعدة بحاملها نحو الذرا أو الهابطة به إلى الحضيض ، فإذا هي انحرفت انحرف صاحبها وإذا هي استقامت استقام ، إنها هي الحلقة الثانية التي يتغير محزونها فيتغير سلوكنا ، وهي هي الحلقة التي لا يغير الله ما بنا من تحاذل وتفكك وتسيب ولا مبالة ، إلا إذا بدأنا نحن البشر فغيرناها بصلاح التربية وحسن التعليم ورشاد الإعلام .

وثقافة الفرد أو ثقافة الشعب في مجموعه ، لم تخلق للزينة والزخرف والمباهاة والتفاخر ، وإنما خلقت لتكون أداة فعل حقيقي على أرض الواقع وتحت سمائه ، فعلا يمهّد السبل نحو الصحة والقوة والعزة والعلم والإبداع ، إننا إذا رأينا أمتنا العربية قد وهنت عراها ، وإذا وجدنا الأفراد في كل قطر واحد قد أعوزتهم أعز خصائص العربي كما هو مرسوم الملامح في ديننا وفي شعرنا وأدبنا وفي كثير جدا من ميادين الحياة ، فذلك لأن الحلقة الثانية من خريطة حياتنا قد شابت بما امتلأت به من عوامل الأنانية والطغيان والانحراف ، ليس المهم في الحياة الثقافية أن نقول : هذه ثقافتنا وتلك ثقافة الغرباء ، وإنما المهم هو أن نقول هذا عنصر ضعيف في بنائنا الثقافي لا يؤدي بنا إلى عزة ، فلنستبدل به ذلك العنصر لأنه أفعل أثرا .

أرأيت إلى مدرس اللغة الإنجليزية الذى حدثك عنه فى أول هذا الحديث ؟.

أرأيت كيف وقف بنا ونحن صغار فى سن العاشرة أو مادننا ، أمام جملة إنجليزية بسيطة يريد لها أكمل ترجمة عربية ممكنة ، ولقد انار أمامنا الطريق ، فالوقائع هى الوقائع لاسييل إلى تبديلها ، بل ولا حاجة بنا إلى ذلك التبديل ، فهى وقائع لمن يصغها بالإنجليزية كما هى وقائع كذلك لمن يصوغها بالعربية ، وأما الروابط الجمالية التى ربطت تلك الوقائع فى عبارة واحدة وتعبير واحد ، فلكل لغة وجدان أصحابها ومايتحقق به ذلك الوجدان .

وهكذا قل فى البناء الثقافى كله ، نثقف به فردا ، أو شعبا ، أو أمة قوامها عدة شعوب ، فلا تنكر للواقع ، ثم يحىء المبدعون للثقافة فيخدمون أمتهم فى وجدانها الخاص .

أين نضع المبادئ ؟

تعالوا نبدأ طريقنا معا من بدايته ؟ فقد رددنا فى حديثنا السابق حياة الإنسان بكل تعقيداتها وتفصيلاتها ، إلى وحداتها البسيطة ، على غرار ما يحلل الفيزيائى أو الكيميائى قطعة من مادة ليردها إلى عناصرها الأولية ، فيغير هذا التحليل لما نريد فهمه يستحيل علينا ذلك الفهم إذا أردناه على الوجه الأكمل ، فوجدنا أبسط الوحدات التى تتركب من تجمعاتها وتركيباتها حياة الإنسان كما نراها فى أنفسنا وفى سوانا من الناس ، مؤلفة من ثلاث حلقات : أولاها حلقة المعرفة التى ندرك بها ما ندركه مما يحيط بنا ، أو مما نحسه فى أنفسنا وهى معرفة نحصلها من المؤثرات التى تتلقاها حواسنا ضوءاً أو صوتاً أو لمساً أو ما تصادف أن يكون ؟ وثانيها حلقة قوامها ذلك المحتوى المعقد الذى يكمن فى باطن الإنسان ، بعضه فطرى كالغرائز والانفعالات . وبعضه الآخر مكتسب كالعواطف التى تؤسس على انفعالات وكالعقائد التى يتلقاها الفرد من مجتمعه وكالأفكار التى تبدأ أفكاراً ثم ترسخ مع الزمن فى نفس حاملها حتى ليحسبها جزءاً لا يتجزأ من فطرته ؟ هذه العناصر وأمثالها هى التى تتكون منها الحلقة الثانية وهى التى تتلقى ماتقله إليها

الحواس من مؤثرات جاءت من مصادرها الخارجية أو الداخلية ،
تتلقاها الحلقة الثانية بكل ما شحنت به من مخزونات العواطف والغرائز
وما إليها ، لتصبغها بصبغتها هي ، وتشكلها على الصورة التي تهواها
هي ؟ ولما كان المخزون الباطني يختلف في تفصيلاته من فرد إلى فرد ،
ثم من شعب إلى شعب ، كانت المؤثرات التي جاءتنا من العالم
الخارجي ، معرضة لكل ضروب التشكيل والتلون التي تضطلع به
مكونات النفس ، فلا يكفي أن يتأثر شخصان بمؤثر واحد معين
لنضمن أن نجىء حياتهما على صورة واحدة ، لأن ذلك المؤثر سيدخل
عند كل منهما في مصنع داخلي مختلف والله أعلم على أية صورة يخرج
ذلك المؤثر من المصنع الداخلي عند كل منهما ؟ ومن هنا كانت
خطورة هذه الحلقة الثانية - كما أسلفنا في حديثنا السابق لأنها هي
« النفس » التي قد تكون أمانة بالسوء مرة ، أو تكون لوامة مرة ، أو
تألمها رحمة الله فتكون مطمئنة مرة ثالثة ؟ وعلى أساس ما يتجده ذلك
المصنع الداخلي لصاحبه تجيء الحلقة الثالثة - التي هي السلوك
الظاهر - الذي يؤدي به سالكه ما يؤديه من عمل - أو من كف عن
العمل - مما يقع فيما يشاهده منه الآخرون .

ولكل حلقة من تلك الحلقات الثلاث ضوابطها التي تختص
بها ، فإذا كانت مهمة الحلقة الأولى هي أن تزود صاحبها بمعرفة
يعرفها عن عالمه المحيط به ، كي يتصرف على أساس ما يعرفه ، فإن
ضوابط تلك الحلقة المعرفية تدور كلها حول أن تكون المعرفة التي
تنقلها إلى صاحبها معرفة صحيحة لئلا يضل الطريق في سلوكه الذي

سيرته على ماقد عرف ؟ فلا بد للعين أن تكون دقيقة الإبصار فإن لم تكن استعانت بالمناظير فإن لم تسعفها المناظير لجأ الإنسان في هذه الحالة العاجزة إلى مبصر يعينه ؟ ولا بد للأذن أن تكون جيدة السمع ، وهكذا قل في سائر الحواس على أن الحواس لو سلمت كلها من العطب ، ينبغى أن يكون وراءها إرادة متعمدة من الإنسان المسئول تلزمه بالأمانة في نقل المعرفة التي تلقاها ، وبالصبر على المشاق إذا كان طريقه إلى المعرفة عن طريق حواسه فيه ما يشق عليه ، وهكذا تقوم بحكم الضرورة ضوابط كثيرة ملزمة للإنسان في الحلقة المعرفية الأولى ، ليضمن لمعرفته أكبر قدر من الصواب ، ولقد أمكن استقطاب مجموعة القيم الضابطة للمعرفة تحت عنوان واحد ، أو قل تحت قيمة واحدة ، هي قيمة « الحق » .

فإذا انتقلنا إلى الحلقة الثانية ، تلك الحلقة المعتمدة بضابها ، المحيرة بعنادها المربكة بنخصوتها وتراثها المالكة لزام صاحبها وكأنه مطية لها ، ألجمتها لتتحكم في تسييره في أى اتجاه شاءت هي له أن يسير ؟ ومع كل هذه الطبيعة المتمردة العاصية في الحلقة الثانية ، فلها ضوابطها ، وإن تكن الضوابط هذه المرة شديدة المرونة في معانيها ومقاصدها حتى وكأنها لاضوابط ، لقد كانت ضوابط « الحق » في الحلقة الأولى مما يمكن تحديده تحديدا فاصلا وحاسما ، وحسبك أن تعلم بأنها هي نفسها القواعد التي يتناولها بالبحث « علم المنطق » الذى أمكنه أن يبلغ دقة رياضية لانفلت منها شعرة ، في صياغته للقواعد التي تسيّر عليها الحركة العقلية الاستدلالية لتجىء النتيجة

العلمية آخر الأمر يقينا لا يمتثل الشك ، وذلك فى العلوم المتقدمة فى تطبيق المنهج العلمى وعلوم الطبيعة أو نجىء تلك النتيجة على درجة عالية من احتمال الصدق ، وذلك فى العلوم الإنسانية التى لم تبلغ بعد دقة العلوم الطبيعية وإن تكن سائرة على الطريق نحو أن تبلغ تلك الغاية .

كان ذلك هو شأن المعايير الضابطة فى الحلقة المعرفية الأولى ، حتى إذا ما انتقلنا إلى المرحلة « الوجدانية » الثانية ، التى تتلقى المعرفة المحصلة لتلجمها وتتحكم فى تشكيلها وتلوينها ثم فى توجيهها الوجهة التى نريدها لها ، وجدنا الضوابط هنا - كما قلنا مرنة عائمة ، ولقد استقطبت ضوابط هذه الحلقة تحت اسم واحد ، أو تحت « قيمة » كبرى واحدة هى قيمة الجمال ، ولا أنبتك كم ألف مرة تكرر ذكر « الجمال » على لسان هذا الكاتب ، منذ عرف فى صباه الباكر أن القيم الكبرى ، التى تنطوى تحتها جميع القيم الإنسانية هى ثلاث : الحق والجمال والخير ؟ ولا بد أن تكون أنت كذلك أيها القارئ قد أجريت لسانك بهذه الأسماء الثلاثة دون أن يستوقفك هذا الاسم الغامض المبهم « جمال » مزعوما له أنه يجمع فى معناه مجموعة الضوابط التى يظن أنها ترسم طريق السير الصحيح لمكونات الحلقة الثانية التى هى حلقة وسطى بين حلقة « المعرفة » فى طرف أول ، وحلقة « العمل » فى طرف آخر .

كان هذا الكاتب لعشرات السنين يمر على اسم « الجمال » - من حيث هو اسم على إحدى القيم الثلاث الكبرى - مرور الكرام كما

يقال ، لا يحاسبه ولا يحاسب نفسه ، ولا يراجعه أو يراجع نفسه متسائلا : بأى معنى يراد منا أن نفهم « الجمال » على أنه اسم شامل لضوابط مكونات النفس من غرائز وعواطف وانفعالات وعقائد وأفكار بثت في مخزون النفس بغير تحديد ولا توضيح إلى آخر هذه الأسرة العجيبة من عناصر ذلك المخزون الحبيء في صدورنا والذي يريد أن يكون صاحب الحق المطلق في أن يقول لصاحبه « نعم » و « لا » تجاه ما يصادفه من مواقف تريد منه أن يتصرف على هذا الوجه أو ذاك ، فلفظ « الجمال » معروف وشائع على كل لسان ، ومن هنا يحىء معظم الخطر في إساءة الفهم حين يراد لما يسمى « بالجمال » أن يكون هو الضابط الذى نرجع إليه في ترشيد « النفس » بمكوناتها التى أشرنا إليها فلقد ألف الناس أن يستخدموا صفة « الجمال » ليصفوا بها عادة حسناء ، أو زهرة أو بستانا أو شفق الشمس عند غروبها ، فكيف تمكن هذا المدار الذى تدور فى فلكه تلك الاستعمالات وما يماثلها ، أن يكون هو المقصود حين يراد « للجمال » أن يكون المعيار المرجعى الضابط « للنفس » وما انطوت عليه من مكونات ذكرنا لك بعضها ؟.

وكانت اللحظة التى أوقفت هذا الكاتب موقف الحذر إزاء هذه الكلمة ومعناها - وذلك فى مجال الفكر الفلسفى أو النقدى وليس فى مجال الحياة اليومية العابرة - أقول إن اللحظة التى أوقفت هذا الكاتب موقف الحذر فى فهم مصطلح « الجمال » هى تلك اللحظة التى كان يراجع فيها بطاقات الكتب فى مكتبة الجامعة ، باحثا عن

كتاب بعينه للصوفي المعروف « ابن عربي » وإذا به يقع بين البطاقات على بطاقة لكتاب له عنوانه « الجمال والجلال » فأخذته الدهشة والفرحة معا ، لأن المشتغلين بالفكر الفلسفي لم يعرفوا أن الفكر العربي قد اشتمل فيما اشتمل ، على نظرية خاصة « بالجمال » كالتى نجد أمثلة لها عند فلاسفة الغرب ، وعند المحدثين منهم بصفة خاصة ، لأن تنظير « الجمال » لم تكمل صورته على الوجه الذى أصبح معروفا عند أصحاب الفكر الفلسفي ، إلا على يدى « بندتو كروتشه » الفيلسوف الإيطالى الحديث الذى ربما عرفه الناس من معارضته لموسوليني معارضة انزلت به الأذى ، أكثر مما عرفوه ذا فلسفة خاصة فى فكرة « الجمال » أو فى غيرها .

لهذا أخذت هذا الكاتب دهشة وفرحة عندما علم أن لابن عربي كتابا عن « الجمال والجلال » وقبل أن أمضى فى الحديث أود للقارئ أن يعرف لمحة سريعة عن الفرق بين « الجمال » و « الجلال » فى المصطلح الفلسفي ؟ وربما كان أقرب طريق لبيان الفرق أن نسوق أمثلة فيها المقارنة بين المعنيين ؟ .. فإذا كان مفهوما لنا أن نصف بالجمال « غادة حسناء ، وزهرة ويستانا فإن الذى يوصف بالجلال » من حيث هو مصطلح فلسفي فى هذا المجال « البحر ، والصحراء ، والجبل ، والمبنى الضخم ذو الأعمدة الشاخخة وما إلى ذلك ؟ فبينما تثير موضوعات الجمال مشاعر الرقة والتناسق ، فإن ماثيره موضوعات « الجلال » هو الشعور بالعظمة والقوة واللانهاية .

ونعود إلى ابن عربي فى كتابه « الجمال والجلال » فقد استخرجه

هذا الكاتب من خزانته فوجده كتاباً صغيراً ، بحيث يمكن قراءته في بضع ساعات ، فانكب عليه ليقراً ، وإذا بالمعنى المقصود عند المؤلف هو مما لا يطرأ على بال الباحث في يومنا « فالجمال » الذى يتحدث عنه ابن عربى ، هو مجموعة الآيات الكريمة التى تبشر المؤمنين برحمة الله وعفوه وغفرانه وحسن ثوابه ؟ و « الجلال » عنده هو مجموعة الآيات الكريمة التى تتوعد الكافرين بجهم وسعيرها ؟ على أن ابن عربى يبين لنا كيف تجيء آيات الجمال وآيات الجلال فى الكتاب الكريم متعاقبتين فواحدة من هذه تتبعها واحدة من تلك .

وهكذا عاد هذا الكاتب إلى حيرته بالنسبة إلى معنى « الجمال » كما يريد المصطلح السائد . وهو مصطلح - كما ذكرنا - يشير إلى الجمال - بين جوانب أخرى - من حيث هو قيمة ضابطة للحلقة الوسطى ، التى هى مكن الجانب الوجدانى من الإنسان فبأى معنى ، نفهم هذا المصطلح فى هذا السياق ؟ وعلى أى أساس يتم انضباط الحياة الوجدانية وترشيدها ؟ هنا قد يساعدنا أن نذكر استخدامات مختلفة فى لغتنا لكلمة « جمال » وما اشتق منها ؟ فمن هذه الاستعمالات للكلمة يجوز أن ينبثق معناها المقصود حين تجيء اسماً يسمى « قيمة من القيم الكبرى الثلاث الضابطة لحياة الإنسان الفكرية والعملية على السواء . وهى الحق والجمال والخير ؟ فنحن نغزى من أصابته كارثة بقولنا : صبراً جميلاً ؟ ونذكر بين فضائل السلوك « عرفان الجميل » ونقول إن فلاناً يجامل فلاناً ؟ ونقول إنه « يحمل » بنا أن نفعل كذا .. ألا ينبثق لنا من هذه الاستعمالات المتباينة معنى « الرحمة » و « العون » وتخفيف

العبء عن المكروث ؟ وكلها معان تتفق مع اتجاه ابن عربى فى تناوله « للجمال » فى الكتيب الذى أشرنا إليه وإذا كان هذا هو المقصود ؟ فأظن أن شيئا من الفهم الصحيح لمعيار الجمال من حيث هو وإحدى القيم الكبرى الثلاث إذ يناط به ترشيد الحياة الوجدانية عند الإنسان إلى طريق مستقيم ؟ فإذا نظرنا على ضوء هذا المعنى إلى مختلف العناصر التى منها يتألف مضمون الحلقة الثانية وهى التى جعلناها مرحلة وسطى فى الحياة الإنسانية بين « المعرفة » من ناحية والإجراء السلوكى لما قد عرفناه من ناحية أخرى ، أقول إننا إذا نظرنا إلى عناصر تلك الحلقة الوسطى ووجدناها تتباين فى غرائز ، وانفعالات وعواطف واعتقادات فبما يجب وما يجوز وما يمتنع وجدنا معنى مفهوما فى ترشيد هذه المتباينات كلها بضوابط « التسامح » أو « العفو » أو الرحمة أو المواساة أو غير ذلك من الصفات التى تجرى مجراها ، وإذن فذلك هو معنى « الجمال » حين يكون معيارا بين معايير ثلاثة أجمع كل ذى شأن على أنها هى الضوابط التى منها وفى اطارها ينشأ الإنسان فى أكمل صورة إنسانية ممكنة .

ولعلك تستطيع الآن أن ترى كيف تتفاوت درجة الدقة فى تحديد المعنى بين قيمة « الحق » فى مجال المعرفة والعلم ، وقيمة الجمال فى مجال الجانب الوجدانى من حياة الإنسان ، فبينما نجد معايير الصديق العلمى على درجة من الدقة مكنت المشتغلين بالعلوم من الاتفاق على ما هو صحيح مقبول وما هو خطأ مرفوض ، نرى مثل هذا الاتفاق فى المجال الوجدانى متعذرا فى كثير جدا من الحالات ، فهذا يجب مايكرهه

ذاك ، ومانستريح له النفس عند زيد يكون هو نفسه مصدر القلق عند خالد؟ إذ مادام المعيار الضابط في هذا المجال ، هو- كما ذكرنا- المجال بمعان تدور حول طمأنينة النفس ، فهو معيار مبهم الحدود؟ ومن هنا كان الرأى عند هذا الكاتب ، هو أن نجعل مثلنا الأعلى في تربية أبنائنا وبناتنا ، أن يقوى الجانب العقلى العلمى المعرفى منهم ، وأن يخفت صوت الوجدان الذى هو قلب الحلقة الثانية في تحليلنا الذى قدمناه للحياة الإنسانية .

وبقيت الحلقة الثالثة التى هى مرحلة «التنفيذ» لما قد أدركناه أولاً في الحلقة الأولى ، وماشكلناه على هوانا ثانيا في المرحلة الثانية؟ ومرحلة التنفيذ هذه هى مرحلة السلوك مرحلة الفعل ، مرحلة «الأخلاق» فكلمة «أخلاق» ينصب معناها مباشرة على مجال السلوك؟.. ولهذا كانت القيمة الكبرى هنا ، وأعنى المعيار الذى يقاس إليه نصيب الفعل المعين من الأخلاقية هو «الخير» فكل الفضائل إنما عدت فضائل لكونها مؤدية آخر الأمر إلى مافيه الخير للإنسان فرداً أو جماعة ، وقد لا يظهر ذلك بصورة سريعة ومباشرة بل قد لايجىء هذا الخير لفاعل الفضيلة في حياته الدنيا ، فيكون جزاؤه الحسن في الحياة الآخرة .

وهنا في مجال الأخلاق ترد «المبادئ» التى جعلناها هدفاً من هذا الحديث لأن فهمها فيها صحيحاً ركن أساسى في استقامة الحياة الثقافية كلها وبصفة خاصة حين تتفاعل الثقافات بعضها مع بعض أخذاً وعطاء لأن أحداً لايجادل في أن مثل هذا التفاعل أمر لا مفر

منه ، فالتاس من ثقافات مختلفة يلتقون بعضنا بعض ، ولا مئاص
عندئذ من أن يأخذ بعضهم عن بعض ، أرادوا ذلك عن عمد
وتدبير أم لم يريدوه ، فإذا ما جاءت مرحلة التقويم النظرى لرجال
الفكر فى بلد معين ، إذ يحاولون النظر فيما أخذه مواطنوهم عن
شعوب أخرى من صور الفكر والأدب والحياة العملية ليروا مقدار ما
أصابوا فيما أخذوه عن الغرباء ومقدار ما أخطأوا فعندئذ يكون مناط
الحكم بالقبول أو بالرفض هو المساس « بمبادئهم » الأخلاقية الأصيلة
التي تعد من أقوى ركائز الشخصية القومية لشعب من الشعوب . فما
الذى نعينه بكلمة « مبادئ » ؟ وهل يجوز أو لايجوز لجماعة من الناس
أن تغير هذا المبدأ أو ذاك من مبادئها الأصيلة وإذا كان ذلك جائزا
فمتى يجوز ؟

إن كلمة « مبدأ » تدل بذاتها على معناها دلالة واضحة مباشرة
مستقيمة ، لانلجأ فيها إلى تشبيه أو مجاز ؟ فالمبدأ هو النقطة أو الفكرة
التي نبدأ منها السير فى عملية التفكير ؟ وذلك لأن العملية الفكرية
مستحيلة بغير فكرة ماتوضع افتراضا على أنها صحيحة ، ومن تلك
الفكرة المسلم بها يستدل العقل مايستدله من نتائج ، وتكون تلك
النتائج صحيحة على أساس الفكرة التي بدأنا منها خطواتنا
الاستدلالية ؟ ولقد سبق لهذا الكاتب فى مناسبات كثيرة أن حدد
المعنى المقصود بكلمة « عقل » لأنها كلمة بالغة الأهمية فى حياة
الفكر ، تتردد على الألسنة دون أن يكون معناها الدقيق حاضرا عند
من يستخدمها ، فكثيرا مانقع فى خطأ وخلط ، فلإنسان بحكم

طبيعته أكثر من وسيلة إدراكية يدرك بها صحة الأفكار أو بطلانها ، وأجدى تلك الوسائل هى وسيلة الإدراك العقلى ، وهى الوسيلة الخاصة بالتفكير العلمى أيا كان الموضوع المطروح للبحث العلمى ، إذن فمن المهم أن نعرف ماذا يميز هذا النمط الإدراكى المعين الذى يكون العقل وسيلته ونعيد مذكرناه فى مناسبات كثيرة سابقة وهو أن الفاصل الذى يميز « العقل » عن سائر وسائل الإدراك هو أنه حركة انتقالية من مقدمة إلى نتيجة تترتب عليها أى أنه يدرك الحقيقة التى يدركها بطريق غير مباشر ، إذ لابد له أن يتخذ وسيطا يوصله إلى الحقيقة المراد الوصول إليها ، والوسيط هو المقدمة التى ينتقل منها إلى نتیجتها ؟ لكن قارن هذا الطريق العقلى بالطريق الإيمانى فى رؤية الحق ، تجد الفرق واضحا ، فبينما يريد العقل وسيطا يتكى عليه لينفذ منه إلى حقيقة ما ترى الإيمان يلمع بالحقيقة لمعا مباشرا بلا وسيط من مقدمة أو مقدمات .

فقيام « مبدأ » إذن - ضرورى للعملية الفكرية أيا كانت ؟ فإذا كان المجال مجال علم رياضى ، رأيت عند بداية الطريق حقائق تؤخذ مأخذ التسليم بغير برهان لا لأنه يستحيل على عالم الرياضة أن يبدأ من سواها بل لأنه لابد له من شىء يبدأ منه ليستدل وبراعة العالم النابع فى علم الرياضة ، هو أنه حين يختار ما يبدأ منه سيره الرياضى - يعرف كيف يختار البداية التى تنتج نتائج نافعة فى دنيا التطبيق ، وفى العلوم الطبيعية كذلك لابد من فكرة أو أفكار توضع فى البدء على سبيل الاقتراح أى على سبيل افتراض أنها صحيحة نستدل منها

ما يمكن استدلاله من قوانين علمية ثم يكون لسلامة التطبيق على دنيا الواقع الحكم الفصل فى قبول ما كنا قد وضعناه موضع الاقتراح أو الافتراض كل ذلك معروف وواضح بالنسبة إلى بدايات السير العقلى وطريقة ذلك السير، حتى إذا ما انتقلنا إلى مجال القيم الأخلاقية ، رأينا فجأة أن كلمة « مبدأ » قد تعلق بها شىء من التقديس لم يكن لها فى مجالات العلوم مع أن الموقف واحد فى الحالتين ، فى مجال الأخلاق ، إذا أردنا أن نحكم على فعل ما بالقبول أو بالرفض ، ترانا نرتد به إلى قاعدة عامة لنرى إذا كان أو لم يكن مستدلا منها ؟ فهناك - مثلا - مبدأ عام ينهى عن السرقة فإذا حدث أن اقترف شخص ما فعل السرقة - حكمنا على فعلته بالأخلاقية ، استنادا إلى المبدأ العام ، فنأين جاء الفرق بين مبدأ يبدأ منه عالم فى الرياضة أو فى علم طبيعى ، ليستدل منه ، ومبدأ وضعته الأخلاق ليستدل منه ما يجوز فعله وما لا يجوز ؟ لماذا هو أمر مشروع للعالم فى أى مجال علمى أن يتخذ لنفسه نقطة بدء أخرى إذا ثبت له أن النقطة التى كان بدأ منها أول مرة لم توصله إلى نتائج مفيدة فى التطبيق ثم نحرم مثل هذا التبديل على مجال الفكر الأخلاقى ؟ فقد يحدث بالفعل أن مبدأ خلقيا معينا كان نافعا فى صورة من صور الحياة ولم يعد ينفع فى صورة أخرى استحدثتها الحياة فى ظل حضارة جديدة ، ومع ذلك فهناك عرف عام بين الناس بأن المبدأ الأخلاقى يجب أن يظل مبدأ أخلاقيا مهما كانت نتائجه من نفع أو ضرر ونحن نسأل هنا عن الفرق الذى يبيح لعالم الرياضة أو عالم الطبيعة أن يغير مبادئه ولا يبيح ذلك لعالم

الأخلاق ؟ إن الإجابة على هذا السؤال - في رأى هذا الكاتب - ستضع أيدينا على فارق بعيد المغزى بين الثقافة العربية في جانب من أهم جوانبها وبين ثقافة الغرب في عصره العلمى الصناعى الراهن . الفارق الجوهرى بين « المبدأ » في مجال العلوم والمبدأ في مجال الأخلاق - فيما يرى هذا الكاتب - هو أن المبدأ - في الحالة الأولى ليس مطلوباً لذاته بقدر ما هو مطلوب للنتائج التى تتولد عنه أى أنه وسيلة توصلنا إلى غاية وليس هو نفسه الغاية التى نريد الوصول إليها ؟ كالطبيب وهو يشخص مرض المريض ، لا يستهدف التشخيص لذاته ، وإلا لاكتفى به وترك مريضه كما وجده بل هو يقوم بهذا التشخيص ليكون بين يديه بمثابة نقطة البدء التى يستتج منها خطوات العلاج المؤدى إلى الغاية المقصودة والتى هى شفاء المريض من علته ، وأما المبدأ في عالم الأخلاق فهو إلى جانب كونه نقطة بدء فهو كذلك يشير إلى الغاية المراد الوصول إليها فإذا كان المبدأ - مثلاً - التمسك بالحق والصبر على ما يحيط بذلك التمسك من مشاق فهو أيضاً المنتهى لأن غاية الغايات هنا هى أن ينشأ مجتمع قائم على حق لا يشوبه باطل .

تلك واحدة مما يفرق بين « المبدأ » في مجال العلوم ، والمبدأ في مجال الأخلاق ، وأما الثانية فهى أن معظم المبادئ الخلقية جاءت إلى الناس وحياً مع رسالات السماء ، وليست من صنع البشر ، وأكثر ما يسهل رجال الفكر أن يصنعوه إزاء تلك المبادئ هو أن يحللوها استخراجاً لمضامينها ، وإذا كانت هنالك طائفة أخرى من مبادئ

الأخلاق قد انبثقت للإنسان من واقع حياته العملية ، كأن نقول - مثلاً - إننا نأخذ مبدأ بحماية التعليم لجميع المواطنين ، إعمالاً لفكرة المساواة ، إذن يكون أمامنا مجموعتان من المبادئ الخلقية : مجموعة نزلت وحياً - لا يتم الإيمان بالعقيدة الدينية إلا إذا شمل الإيمان بها ، ومجموعة أخرى نشأت من واقع الحياة الإنسانية فيصبح من حق الإنسان أن يغيرها إذا تغيرت صورة حياته العملية .

ذلك هو الموقف بالنسبة إلى مبادئ الأخلاق - في رأى هذا الكاتب - وهو موقف يوضح لماذا يمتنع على الإنسان أن يغير مبدأ أخلاقياً إذا ما كان بين المجموعة الموحى بها في رسالة الدين ، حتى لو ظن أنه مبدأ لا يوصل الإنسان إلى حياة مزدهرة لأن التبعية الأخلاقية في هذه الحالة تمتد حتى تجاوز الحياة الدنيا إلى عالم الخلد ؟ لكن مثل هذا الموقف لا يلتزم مع الحياة العلمية الصناعية الراهنة في جميع حالاتها ، ومن هنا نشأت عند رجال الفكر في الغرب فكرة أخرى ، مؤداها أن نعامل مبادئ الأخلاق بمثل ما نعامل الفروض في مجالات البحث العلمي أى أن يظل المبدأ قائماً ومعمولاً به ظالماً هو الوسيلة الناجحة في تحقيق الأهداف المنشودة ، أما إذا تبين عن مبدأ منها أنه عائق في طريق النجاح استبدلنا به سواه مما عساه يوصلنا إلى غاياتنا كما نفعل في مجال البحث العلمي سواء بسواء .

كان السؤال الذى طرحناه في هذا الصدد يسأل لماذا يباح للباحث العلمى أن يغير فروضه - التى هى بمثابة نقاط البدء في منهج البحث العلمى - إذا ثبت له أنها فروض لا تؤدى إلى النتائج المطلوبة

ولايأاح مثل ذلك التغير بالنسبة إلى مبادئ الأخلاق إذا ثبت أنها معوقات فى طريق السير الناجح المثمر ؟ ولقد قدمنا عن هذا السؤال جوابنا فوضحنا الفوارق بين الحالتين .

فإذا كان هذا الكاتب العربى يبحث فى حقيقة موقفه بين الثقافتين فهنا هو ذا يبرز أين يتفق وأين يختلف ؟ لقد أسلفنا فى هذا الحديث وفى الحديث الذى سبقه أساسا علميا لحقيقة الحياة الإنسانية ، وهو أساس يبين لنا الوحدات الأولية البسيطة التى تبنى عليها تلك الحياة وكل وحدة منها مؤلفة من ثلاث حلقات معرفة بالواقع ومضمون محتلط العناصر مخبوء فى بواطن الإنسان ثم سلوك عملى قائم على تلك المعرفة الأولى بعد أن شكلتها ولونتها العناصر الباطنية ، فأين فى هذه الحلقات الثلاث تقع مبادئ الأخلاق ؟ الجواب عند أعلام من مفكرى الغرب - فيما نتصور - هو أنها تقع فى الحلقة المعرفية الواقعية الأولى ولذلك فهى قابلة للتغير كلما تغيرت تلك المعرفة وأما الجواب عند هذا الكاتب العربى فهو أن تلك المبادئ مجموعتان مجموعة منها جاءت مع الوحي الدينى فتكون بهذا جزءا من العقيدة وبالتالى فوقها هو الحلقة النفسية الثانية ، ومجموعة أخرى ولدتها خبرة الإنسان فى حياته العملية واذن فصدرها معرفة بشرية وبذلك يكون مكانها هو الحلقة المعرفية الأولى وبهذه النظرة الحذرة يستطيع صاحبنا العربى أن يجمع بين الثقافتين فى وقفة واحدة فيغير من هيكل حياته مايمكن أن يتغير لاحقا بموكب العصر ويصون الثوابت لينجو بحياته من التحلل والدمار .

العروبة موقف

لم يكد هذا الكاتب يجاوز عامه العشرين ، حتى انغمس إلى قمة رأسه في بحر الحياة الثقافية كما يصطحب موجهها من حوله ، وكان من أبرز القضايا التي شغلت الأعلام في مصر عندئذ ، إلتواء المصرى لأى عهد من تاريخه الطويل يعود ؟ وفى تلك المعركة القلمية الساخنة ، كان الصوت العالى الذى يملأ الأسماع هو القائلين بوجوب انتماء المصرى من حيث الأساس ، إلى العصر الفرعونى ، ففضلا عن كون هذا الانتماء حقيقة تاريخية لا يجوز لها أن توضع بين الناس موضع «الرأى» الذى يقبله فريق ويرفضه فريق ، فهو انتماء فيه من الجهد ما يرتفع به عن مضمار التنافس مع سواء ، فمن ذا الذى « يبيع سمما مقشورا بسمم غير مقشور » ؟ « كما قال ابن المقفع » على أن أولئك الأعلام الذين دعوا يومئذ إلى الانتماء الفرعونى للمصرى ، لم يريدوا - بالطبع - لتلك الدعوة المصرية أن تشمل الجانب الدينى . فهل كان فى وسع ذلك الشاب أن يخرج من الممعنة بشىء غير الذى جرت به أقدر الأعلام ؟ وهكذا كان ، وهكذا دامت به الحال فترة من الزمن لم تقل عن عقدين ، لكنه خلال تلك الفترة كان

يتحول من مرحلة الانفعال إلى مرحلة العقل ، فلم يعد أمره مقصورا على أن يتلقى ما يكتبه له سواه ، بل أضاف إلى ذلك جانباً آخر يشارك به في الرأي يكتبه لمن يقرأ وهو تحول من شأنه أن يصطحب شعورا بالتبعة العقلية يشه في ضمير الكاتب ، فأنت إذ تقرأ ما كتبه آخرون ، فقد تقبل في صمت وقد ترفض في صمت فلا يؤرق ضميرك شيء أما إذا كتبت ليقراً آخرون ، فهاهنا نحس عند كل عبارة تخطها وازع الضمير يراجعك ومحاسبك ، فتأخذ في نوع من إمعان فكرك فيما تريد أن تقدمه لقارئك ، وتتساءل عند كل كلمة ، : ترى أهى الكلمة التى تؤمن على حمل المعنى المراد نقله إلى الناس ؟ وحصيله هذه النقلة من موقف قارئ غير مسئول عما قرأ ، إلى موقف كاتب مسئول أمام ضميره عن صدق ما يكتبه ودقة معناه ، أقول إن حصيله ذلك هى إطالة النظر فى الفكرة قبل عرضها لا سيما إذا كان لها من الخطورة ما لفكرة « الانتماء » من خطورة .

أصحیح مادعا إليه أعلامنا فى مصر خلال العشرينات - ولا أقول « العشرينيات » - وما بعدها بقليل من أن مسألة الانتماء المصرى هى مسألة تضع المصرى بين ضدين ، فهو إما إلى هذا الضد منها وإما إلى ذلك أى أنه إما يرتد بانتمائه إلى أصوله الفرعونية القديمة وإما أن يقف من ماضيه عند ولادة تاريخه العربى ؟ . اللهم لا . فذلك لا يختلف كثيرا عن شجرة تسأل نفسها : أترجع أصولها إلى الجدور أم إلى الجذع والفروع ؟ ومنذ تبين لهذا الكاتب أن الأمر هو من الوضوح بحيث لا يحتمل مجرد السؤال ، لم يعد يساوره شك ،

على أن ذلك اليقين القاطع ، لاينفى أن يتطلب موضوع الانتماء تحليلات كثيرة توضح ما غمض منه ، وهكذا فعلت في مناسبات سابقة ، وهكذا أفعل الآن ، فلقد قرأت منذ لأكثر من كاتب يعيدون النعمة القديمة على أوتار جديدة ، كأن يقولوا أننا إذا تحدثنا عن « التراث » فلا يكون المقصود هو ثقافة الصحراء ، بل المقصود هو ما أبدعه الوادى المزروع منذ فجر التاريخ ، والذين يقولون ذلك فإنما يقولونه بلغة الصحراء ، يقولونه وكأن الأمر أمر اختيار بين ضدين : فإما هذا الضد وإما ذلك الضد ، ولا يرون الحقيقة الجغرافية الناصعة وهى أن الوطن العربى الكبير إنما هو صحراء واحدة فسيحة الأرجاء تمتد من المحيط إلى الخليج - كما نقول - وتتخللها « واحات » بعضها كبير وبعضها صغير ووادى النيل هو واحة كبرى فى صحراء الوطن العربى فإذا كانت حياة الزراعة فيه قد غرست فى أهله نزعات تتفق وحياة المزارع فكذلك الصحراء المحيطة بهم قد تركت بدورها نزعات بدوية ومن هنا وجب الحذر عند التعميم فأخلاق المصرى نسيج متألف الخيوط بين زراعة وبدواة ، وإذا لم يكن الأمر كذلك لما رأينا الفلاح المصرى فى القرى يستمع أحسن ما يستمع إليه فى أوقات فراغه « قبل عصر التليفزيون » إلى قصة عنزة وقصة أبى زيد الهلالى وكلتاها تعكس فروسية البدو ، إن الوطن العربى هو ذلك الامتداد الصحراوى العظيم ، الذى زركشت حوافيه وأواسطه ببقاع خضراء تكبر هنا وتصغر هناك وليست مصر استثناء يشد عن هذه الصورة ، وإذا أفلتت منا هذه الحقيقة الأساسية أفلتت

منا بالتالى مصباح كاشف ينير لنا الطريق إلى فهم صحيح لجوهر « الثقافة العربية » .

إن الشبه جد قريب بين الرواى الموهوب فى اهتدائه إلى المحور المركزى الذى تدور حوله الشخصية التى يريد تصويرها فى روايته وبين رجل الثقافة فى بحثه عن المحور الأساسى الذى تدور حوله ثقافة شعب معين فى كلتا الحالتين يجد الباحث أمامه تفصيلات لا حصر لها ، فحياة الفرد الواحد وأكثر منها حياة الشعب الواحد ، أو الأمة الواحدة ، خضم هائل من الأحداث التى قد تبدو للوهلة الأولى متفرقات مبعثرة لاسبيل إلى جمعها فى كيان عضوى واحد ، إلا أن الأديب الرواى الموهوب أو مؤرخ الثقافات المتمرس يستطيع أن يخترق تلك الكثرة من أحداث الحياة العملية وأوضاعها ليصل عند القاع إلى ذلك الينبوع المستتر ، الذى منه انبعثت تلك الكثرة من أحداث الحياة ، وإذا وقع الأديب الرواى ، أو مؤرخ الثقافة المعينة ، على ذلك الينبوع الخبئى كان بمثابة من وقع على المفتاح الذى تفتح به الأبواب المغلقة ، وعندئذ يظهر الفرد المراد تصويره فى رواية الأديب ، ويظهر جوهر الحياة الثقافية التى يراد تصويرها وتصويرها .

فإذا صح ما زعمناه من « صحراوية » فى أساس الوطن العربى بأكمله - ممتدا من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى - كان لنا بذلك « مفتاح » الفهم لما نحن بصددده ، وهو « الثقافة العربية » لافرق فى ذلك بين قديمها وحديثها . وهذا يتضمن - بالطبع - اعترافا مسبقا

منا ، بأن هنالك واقعا حقيقيا اسمه « الثقافة العربية » وأن التاريخ قد امتد بهذا الواقع الحقيقي منذ العصر الفلاني في الماضي وإلى يومنا هذا ، أما إذا زعم لنا زاعم بأن مثل هذا الشيء لا وجود له في التاريخ ، أو أنه كان موجودا في الماضي ولم يعد له اليوم وجود ، فإنه يصبح من العبث أن نمضى مع مثل هذا الزاعم المنكر في الحديث .

الغرض الذى نبدأ به حديثنا - إذن - هو أن شيئا اسمه « الثقافة العربية وثقافة مصر جزء منها » كان موجودا ومازال موجودا وكل ما يطلب منا إزائه هو أن نقدم « المفتاح » الذى نفتح به مغاليقه لنراه رؤية العين ، والمفتاح الذى يقدمه كاتب هذه السطور هو « صحراوية » الثقافة العربية وأول خطوة نخطوها بعد هذه البداية المقترحة هى أن نأخذ في البحث عما توحيه الصحراء لساكنها عن الكون وعن الإنسان وحياته وعما وراء الكون والإنسان ، إذا احسنا أن التفسير لا يتم إلا إذا آمنا بأن هنالك « وراء » غير منظور فهل نقول قولا عجبا إذا قلنا إن أول ما توحى به الصحراء لساكنها هو فكرة اللانهاية ؟ إن بصر الرأى أينما توجه ، وجد امتدادا لا يعرف أين ينتهى ، ولا كيف ينتهى ، فإذا ما أقبل الليل واتجه البصر إلى السماء شهد أرتال النجوم التى تفوق العد والاحصاء ، فبأى المعانى تنطبع نفس الصحراوي وقلبه وعقله ، وهو يشهد تلك اللامتناهيات مكانا وزمانا يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، إذا هى لم تنطبع بفكرة اللانهاية الذى يسرح فيه الخيال ، ويفوص في أغواره الفكر المتأمل لبيدع

ذلك الخيال وهذا الفكر ما يبدعانه من معان يسوقها المفكر ويصوغها الشاعر ويهتدى بها الفنان ؟.

وهنا قد يستوقفني قارئ ليصرخ في وجهي قائلاً : على رسلك يا أخانا فقد شطحت بنا شطحا يضل ولا يهدى ، أن قوله هذا إذا صح على ساكن الصحراء فكيف يصح على ساكن الوادى الأخضر ، ؟
إننا حتى لو أخذنا بما قدمته إلينا من أن الوديان المزروعة وفي مقدمتها وادى النيل إن هى إلا واحات كبرى فى الجسم الصحراوى العظيم ، فهذا لا ينبى عن الواحة أنها واحة خضراء تختلف فى طبيعتها وفيما توحى به إلى ساكنها ، عن الصحراء ورمالها ومثل هذا القائل يشبه من يجترئ بقعة من رقعة أرض لينكر عليها صلاتها بما يجاورها ، فكأن ساكن البيت الذى يطل على بحر أو على صحراء لا يتأثر بهواء البحر أو برمال الصحراء ، إن الخط الرفيع الذى يفصل وادى مصر عن صحرائها هو نفسه الذى أظهر للمصرى شدة الصلة بين الحياة الدنيا وحياة الخلد ، لقد رأى المصرى كيف يمكن أن يضع إحدى قدميه فى أرضه المزروعة ، وأن يضع الأخرى على أرض الصحراء . ليعلم علم اليقين أن النقلة من دار الحياة العابرة إلى دار الحياة السرمدية مداها خطوة قصيرة فكان للمصرى ما كان فى حياته الثقافية ، من دين ومن أدب وفن ، مما أقامه على تلك العروة الوثقى التى تصل الدارين .

ومن هذا الانطباع الأول عن « اللامتاهى » تولدت عند « الصحراوى » نتائج تشكلت بها وجهة النظر العربية كان من أهمها

وأعمقها أثرا ، فكرة العربى عن ديمومة « المبادئ » وثباتها وأهم تلك المبادئ الثابتة الدائمة التى لا يحوز لها أن تتغير معها تغيرت ظروف التاريخ ، مبادئ الأخلاق وهنا تجب علينا وقفة شارحة ، فالإنسان فى حياته العملية لا بد له من قواعد عامة يستعين بها على معرفة الطرق المأمونة للسلوك لا فرق فى ذلك بين إنسان العصر الحجرى وإنسان الكمبيوتر والصعود إلى القمر وتلك القواعد العامة الهادية إلى صور السلوك المأمونة من سوء العواقب هى ما يسمونها « بمبادئ الأخلاق » ، ومادام أمرها كذلك فإن الدنيا لم تعرف مجتمعا بشريا بغير أخلاق ، لكن اختلاف جماعة من الناس عن جماعة ، فيما يختص بوجهة النظر إلى تلك القواعد الأخلاقية يمكنهم فى تصور كل منها الحقيقة تلك القواعد ماذا تكون ، وفى مصدرها الذى جاءت منه ، أما هذا المصدر فقد تتصوره جماعة بأنه مادلت عليه الخبرة البشرية فيما مضى من التمييز بين سلوك يضر وسلوك ينفع ، وعن طريق هذه الخبرة تجمعت مجموعة من الصور السلوكية التى ثبت نفعها وسلامتها من سوء النتائج فكانت هذه المجموعة هى « مبادئ الأخلاق » وهكذا كان للجماعات المختلفة وجهات نظر مختلفة عن المصدر الذى نبعث منه تلك المبادئ ، يهمنها وجهة النظر « الصحراوية » - أو قل « العربية » - وهى أن مصدر تلك المبادئ الأخلاقية إنما هو ذلك « اللامتناهى » الذى رسخت صورته فى القلوب ثم تأيدت تلك الصورة وازدادت رسوخا عندما نزل بها وحى من رب العالمين إلى الأنبياء والمرسل لينشروها فى الناس ، حتى أصبحت الصور السلوكية

المطلوبة لاستد في صوابها على نفعها ، نعم أنها بالفعل نافعة ، لكن الذى يجعلها « مبادئ » هو أن نزل بها وحى من الله سبحانه وتعالى وأنه تنتج لنا نتيجة بالغة الأهمية عن هذا الموقف ، وهى أن « مبادئ الأخلاق » لا تبدل ولا تزول ، فى حين أن من اقتصر على جانب المنفعة فى « رؤيته للأخلاق » مستعد لاستبدال مبدأً بمبدأ آخر إذا أثبت له خيرة الحياة أن الصورة السلوكية القائمة لم تعد تصلح ، فالعربى - إذن - متميز بمخيلين ، فهو أولاً يجعل مصدر الأخلاق وحياً ، وهو ثانياً يجعل مبادئها ثابتة لا تتحول ولا تتبدل حتى إذا خيل للإنسان أن مبدأً معيناً منها لم يعد يؤدى بالناس إلى منفعة ظاهرة ، قال العربى إن الله أعلم من الإنسان بما ينفع وما يضر وغنى عن البيان أن نشير إلى الملائمة الوثيقة عند العربى بين انطباعه باللاتهاج من الكون الذى يحيط به ، وبين ما يهليه إليه الوحى اللبى من وجوب المبادئ الأخلاقية وجوباً لا يتغير بتغير الأحداث .

وعند هذه النقطة نتحصر حديثنا فى « المصرى » موغلين به فيما قبل الفتح العربى الإسلامى ، فإذا نجد فى تاريخه الأسبق عن الرؤية الأخلاقية ؟ ، أنراه من الجماعة التى أقامت مبادئها الأخلاقية على خبرة الحياة الماضية فى هذه الدنيا ؟ أم نراه من الجماعة التى تستمد رؤيتها الأخلاقية من انطباعها باللامتناهى ، ومن اعتمادها - بالتالى - فى خلود الحياة الآخرة ؟ أظن أن الجواب واضح ليس فقط لمن « درس » التاريخ المصرى القديم بل هو واضح كذلك لمن « يحس » بروح ذلك التاريخ ، فالعامل المصرى القديم يعمل والفتان المصرى

القديم يبدع والمحارب المصرى القديم يحارب ، والوالد المصرى القديم ينصح ولده ، لا بما يتبدل خلال الحياة الدنيا من نفع أو ضرر ، بل بما يرضى رب الخليقة يوم أن يكون حساب ، وإنما لنرى على جدران المعابد المصرية القديمة صورة « الميزان » الذى سوف يوزن به الأعمال يوم الحساب .. فهذا هو الرؤية « الصحراوية » للأخلاق لم يغير منها أن يكون فى قلب الصحراء المصرية واد مزروع .

المثل الأعلى عند العربى - إذن - هو ثبات « المبادئ » التى على أساسها يحكم على سلوك الإنسان بالاستقامة أو الانحراف وهو ثبات مستمد من الحقيقة الكونية كما ينطبع بها ساكن الصحراء ثم جاءت الرسائل السماوية لتؤكد ، وأود هنا أن أعيد القول مرة أخرى ، دفعا للخلط الذى كثيرا ما يقع فى ظنون الناس ، بأن القيم الأخلاقية ذاتها لا يكاد يختلف عليها شعب مع شعب ، لكن الاختلاف إنما يظهر عند عملية التنظير ، فنسأل أولا عن مصدر القيم لنعلم من أين جاءت ؟ وثانيا نسأل عن تلك القيم أيجوز لها أن تتغير مدلولاتها مع تغير الظروف ؟ وموقف العربى فى ذلك هو أن تلك القيم هى التى تحكم المتغيرات ولكنها لا تتغير معها ، وأن مصدرها وحى السماء من ناحية ، وما يتركه المشهد الكونى عند الإنسان من أثر ينطبع به .

ولعل سؤالا يعن للقارئ فيقول : كيف نزع من القيم الأخلاقية مشتركة بين سائر الجماعات الإنسانية - أو قل إنها تكاد تكون كذلك - ثم نقرر فى الوقت نفسه بأن جماعة من الناس قد تقبل تغيير المبادئ الأخلاقية إذا استوجبت الظروف المتغيرة ذلك التغيير ، وأن جماعة

أخرى ترفض قابلية تلك المبادئ لمثل ذلك التغيير؟ والجواب الذى يزيل قسطا كبيرا من هذه المفارقة هو أن «أسماء» القيم الأخلاقية لا اختلاف عليها ، فليس هنالك على وجه الأرض من يوصى - عن مبدأ - بالحياة والقتل ، والسرقه ، والأنانية إلخ .. فالكل يجمع على وجوب الأمانة ، وحق الحياة وحق الملكية والتعاون إلخ .. لكن هذه الأسماء - لحسن الحظ - ليست محددة المعانى تحديدا كالذى نجده فى المصطلحات الرياضية ، المثلث والمربع والدائرة ، ولقد كانت هذه المسألة نفسها هى ماتعرض له سقراط ، إذ جاء ليرفع فى عالم الفكر لواء « تربيض » الأخلاق أى أن تحدد مفاهيم الأخلاق على نحو ما تحدد مفاهيم الرياضة حتى لايتعرض الناس لفوضى الفهم ، وبالتالي يتعرضون لفوضى السلوك وأحسب أن المسألة مازالت تغرى بالتعرض لها ، وأما من الوجهة العملية بالضرورة تقضى بمرونة المعنى لأنه لا أمل فى دقة رياضية لهذه الأسماء القيمية ، خذ - مثلا - حق الملكية فإذا أقررنا هذا الحق للإنسان فهل يجوز لرجل واحد - تبعا لذلك - أن يترك ليملك العالم إذا أوتى القدرة على ذلك ، أو أن هناك إدراكا فطريا عند الإنسان يوجب وضع الحدود والقيود وإذا أنكرنا حق الملكية على الأفراد - كما تتصور الشيوعية - فهل تصل بهذه الأفكار حدا يحرم الفرد من ملكية ثيابه ؟ أو أن هنالك إدراكا فطريا عند الإنسان يوجب أن يترك للفرد حدا أدنى من أشياء يملكها ؟ وهكذا قل فى شتى القيم من حيث ثباتها وتغيرها ، فلا الذى يؤمن بوجوب ثباتها « كما هى الحال بالنسبة إلى الرؤية العربية » يريد بذلك الثبات

أن يؤخذ على إطلاقه كما تفعل مع مفاهيم الرياضة ولا الذى لايمانح .. فى تغيير المبادئ الأخلاقية إذا تغيرت الظروف بحيث لم تعد تلك المبادئ صالحة لها ، يريد بذلك أن تمحى « القيم » محو ، بل يريد أن تفهم على أسس تريد من مروتها حتى تتلاءم مع الأوضاع الحضارية المستحدثة .

ومثل هذا الثبات الذى تزيد فيه اللسوجة أو تقل مع ظروف الواقع هو الذى نعتيه حين تجمعه صورة مثلى أمام العربى ، وأنا لنضغط هنا على عبارة « صورة مثلى » لأن القارئ قد ينظر إلى واقع الحياة العربية فىرى حياة العربى - على وجه الاجمال - بعيدة بعدا شديدا من ذلك المثل الأعلى .. لكن ثقافات الشعوب إنما تقاس بأهدافها وليس بواقعها فى مراحل ضعفها كالرجل القوى تصيبه علة فتلزمه القراش حتى يشقى فلا تتروى عنه صفة « القوة » تأسيسا على فترة مرضه .

ولا نريد أن نترك هذه الخاصة الخلقية من خواص الرؤية العربية دون أن نثبت حقيقة لغوية تلفت النظر عند من يمعن النظر فى اللغة العربية فعتنذ يجد فى الأسماء الدالة على علاقات اجتماعية ، بعدا خلقيا كامنا فى صميم معناها مما يدل على عمق النظرة الخلقية عند العربى ، فكلمة « صديق » تقيم فى صلب حروفها صفة « الصديق » كأنما يراد القول بأن « الصديق » شرط أساسى للصدقة وكلمة « جار » تحمل فى صلب مبناها أن « يجير » الجار جاره إذا استجار ، وإلا بطل معناها ، وكلمة « صهر » تحمل فى معناها صفة

« الانصهار » فإذا لم يكن هناك قابلية أن تنصر الأسرتان عند الزواج - أعنى أسرة الزوج وأسرة الزوجة - كان ذلك معناه امتناع التكافؤ ، وكلمة « مرء » تقضى بحكم حروفها ان تكون « المروءة » صفة للإنسان ، وكلمة « أمة » تشارك بحروفها كلمة « أم » مما يقضى أن تكون الروابط بين أبناء الأمة الواحدة هي نفسها روابط الرحم وهكذا وهكذا .

هذا الذى اسلفناه عن الوقفة الأخلاقية عند العربى والتى هي مستوحاة فى المقام الأول من روح « الصحراء » فى لانهايتها البادية وفى ثباتها النسبى ، إنما يبين للقارئ جانباً واحداً من جوانب « العروبة » كما ينبغى أن تعيها فالعروبة فى جوهرها « موقف » من الكون ومن الحياة ، يتميز مما عداه من مواقف تفقهها الثقافات الأخرى لسنا بذلك نريد أن نفاضل بين ثقافة ، وثقافة ، ولكننا نميز ثقافة عما عداها ، فليست العروبة دالة على عرق معين بل هي اسم يشار به إلى مركب ثقافى معين من شأنه أن يهيب لمن يتشربه ويعيش تحت مظله « موقفاً » يستلهمه عند ردود الفعل كلما صادفه على طريق الحياة العملية حدث مثير وننتقل إلى جانب آخر من جوانب ذلك الموقف العربى ، وهو « الذوق » الفنى وسنرى أن العربى قد استوحى الصحراء قيمه الجمالية فى دنيا الفن ، على نحو ما استوحى قيمه الأخلاقية كما رأينا فلا يزال « المفتاح » هو نفسه المفتاح وأعنى انطباع ساكن الصحراء باللانهاية وبالثبات النسبى فكيف ترى أن يصاغ « الذوق » الفنى نتيجة لهذا الانطباع ؟ إن أول ما يقفز إلى الخاطر قفراً

جواباً عن هذا السؤال هو أن يكون مدار الإبداع الفنى « صورة مجردة » قبل أن تنصب العناية على تحليل الأفراد ومن هنا جاء الأدب العربى القديم أبعد ما يكون الأدب عن فن الرواية أو فن المسرحية كما عرفها الغرب ، وعرفناه نحن حديثاً عن الغرب ، ولا عجب إن رفض العرب ترجمة الأدب اليونانى القديم بمسرحياته وملاحمه - عندما ترجموا كل ما عداه من فلسفة وعلم لقد كان المرحوم توفيق الحكيم فى مقدمته المستفيضة التى قدم بها مسرحية « أوديب » قد طرح هذا السؤال : لماذا لم ينتج العربى أدب المسرح ؟ ثم حاول الجواب وعرض عدة إجابات ممكنة ، لكنه نقدها جميعاً ليستقر هو على ما ظنه الجواب الصحيح وهو أن العربى بدوى يرتحل من متجع للكلاً إلى متجع فلا تمكنه حياته تلك من القرار فى مدينة ولا مسرح إلا حيث الحياة مستقرة فى مكان ، وحدث لكاتب هذه السطور أن قرأ تلك المقدمة عند ظهورها ونشر رداً عليها يذكر منه الآن أن الاستقرار فى مدن قد توافر للعربى طوال العصر الإسلامى : فى بغداد ، ودمشق ، والقاهرة وغيرها من العواصم الكبرى ، فلماذا لم ينشأ المسرح عندما توافرت له الظروف المستقرة ؟ وأما التعليل الصحيح فى ظن كاتب هذه السطور فهو أن العربى - عن مبدأ - يتعلق بالكلى المجرد أكثر جداً مما يتعلق « بالأفراد » والمسرح « وكذلك الرواية » بضاعتها أفراد من الناس يتفاعلون فتظهر لكل منهم شخصيته المتفردة بخصائصها خلال ذلك التفاعل .

ولاشك أن معظم الطاقة الفنية عند العرب الأولين ، قد أنصب

على الشعر إذن فلنتمتع النظر إلى فن الشعر العربي لنلمح أخص خصائص الإبداع عند الفنان العربي فأما من حيث الشكل فأول ما يستوقف السمع - بالطبع - تكرارا نمطيا لتفعيلات بينها مع تكرار قافية واحدة فما الذى أوحى للعربي بهذه الصورة فى إبداعه ؟ أوحى بها إليه ماقد انطبع به من الواقع الكونى الذى يحيط به وأعنى طبيعة الصحراء فى لانهايتها البادية وفى ثباتها الظاهر. إن القصيدة العربية تعرف كيف تبدأ ولا تعرف كيف تنتهى تماما كما يدير الإنسان بصره فى أرض الصحراء وفى سملاتها فليس هنالك الجبل الذى يصد سرحة البصر ولا الجدار الذى يحبسها أن تلك السرحة تبدأ جولانها من نقطة معينة ولا يوقفها إلا ضرورات الشاعر نفسه كأن يعمل السير أو أن يضعف دون المضى فيه ، أو أن الزمن يعاجله ... إلى القارئ الذى يكرر قافية القصيدة بيتا منها بعد بيت عندما يصل إلى القافية الأخيرة فى البيت الأخير لا يحس عندئذ بأن انتهاء رحلته قد فرضتها الضرورة بل يحس إحساس من وقف أثناء رحلته ليستريح ثم يستأنف الحركة إذا وجد مايسعفه ، ألسنت ترى فى هذه الحقيقة الفنية فى الشعر العربى - إذا كنت قد أصبت فى تصويرها - انعكاسا لطبيعة الصحراء عند من يدير البصر فى فسيح آفاقها .

أتظن أن الشاعر العربى إذا وصف ناقته أو جواده وإذا تغزل فى عبلة أو فى ليلى ، كان يريد حقا أن يصف الكائن المفرد المعين الذى يعنيه ، لا ، ليس هذا ما يظنه هذا الكاتب على الأقل ، بل إن الشاعر العربى فى كل حالاته تلك إنما يصف ما يراه المثل الأعلى

للجواد أو للناقة أو للمرأة ، لأنه فى عمق أعماقه متعلق بالمثل المجرد ، لا بالمثل الجزئى مما يرى على الأرض وذلك استلهاما لديمومة الحقيقة الصحراوية التى تحيط به فهو مؤمن فى حياته الفنية ، كما هو مؤمن فى حياته الدينية بأن « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك » فلماذا يحرص فنه الشعرى - وغير الشعرى - فى زيد كما يحيا أو فى عمرو كما يعيش ؟ إنه يتكىء على هذا الفرد أو ذاك على هذا الطفل أو ذاك على هذه الواقعة الجزئية أو تلك لينفذ منها إلى ما هو أقرب إلى المثل الأفلاطونى فى الموضوع الذى يعالجه تلك هى « العروبة » فى خصائصها والعربى هو من تجسدت فيه تلك الخصائص .

٢

ختمنا حديثنا السابق بلمحة سريعة عن الشعر العربى ، وكيف نجىء نمطية أوزانه وقوافيه انعكاسا لروح الصحراء كما ينطبع بها ساكنوها ، وذلك من حيث الشكل ، وأما المحتوى الوجدانى فهو كذلك يأتى وكأنه الصدى للانهاية والدوام ، اللذين يراهما ويحسهما ساكن الصحراء فى الحقيقة الكونية التى تحيط به ، فالقلاة اليوم هى القلاة بالأمس ، وكتبان الرمال هى الكتبان ، ونجوم السماء والشمس والقمر ، هى النجوم والشمس والقمر ، كل شىء مسطور أمام العين فى وضوح ، فقلما تغيم السماء لتحجب الرؤية ، وقلما يشبع الهواء برطوبة تتغير بها ملامح الأشياء ، ومن هنا كان تعلق الشاعر

بالمثال لا بالمثل ، فالكاثن الجزئى المفرد ، كهذا الجواد ، وهذه الناقه ، وهذه الحسناء ، لا يقف الشاعر عند فرديتها وخصوصيتها ، بل ينفذ منها إلى ما يكون عليه مثلها الأعلى كما يتصوره خياله ؟ فالأفراد يحيثون ويذهبون ، يولدون ويموتون ، وأما المثال الكامن وراءها فتأبث دائم لا يتحول ولا يزول ، فقد أصاب من قال عن إيوان كسرى الذى وصفه البحترى فى قصيدته السينية ، قد بقى على الدهر من حيث هو شعر فى ديوان ، لكنه سرعان مازال من حيث هو قصر وإيوان ، ربما قيل هذا عن كل شعر وكل فن ، فى المقارنة بالأشياء التى دار حولها ذلك الشعر وهذا الفن لكنه فى ظن هذا الكاتب ، يتمثل فى الشعر العربى أكثر مما يتمثل فى سواه ، وذلك للسبب الذى ذكرناه- وهو أن الشاعر العربى- عن مبدأ وفطرة- يتجه بخياله نحو « المثال » خلال « المثل » ، وتلك هى خصيصة من خصائص العروبة ، فهكذا توحى الصحراء لأبنائها ، والصحراء هى مسرح العربى أينما كان ، فيما تمتد به الرقعة بين المحيط الأطلسى والخليج العربى .

ولم تقتصر هذه الخاصة العربية على الشعر ، بل جاوزته لتشمل ضروب الفن رسماً وزخرفة ، وانظر إلى الرسوم على السجاد ، أو حيثما جاءت ، تجد الفنان يكتفى مما يصوره - طائراً ، أو غزالة أو شجرة - بالخطوط الهيكلية التى تحدد الإطار ، وقلما يعنى بتفصيله من تفصيلات الجسم ، وذلك لأنه يحاول أن يستصنى من الشئ « فكرته » أو « روحه » . ، لأنها هى التى يكتب لها الدوام . فكان

الفنان العربى قد أراد أن يرسم « النوع » وليس فردا من أفراده « والنوع » ذو ثبات ودوام ، وأما أفراده فإلى زوال ، ولنلاحظ فى هذه المناسبة ، أن ذلك هو الفرق دائما بين دنيا الكائنات الجزئية كما تقع على حواسنا ، وعالم « الأفكار » كما يرتسم فى رؤوس العلماء ؟ فالعلماء يحيون مع جمهور الناس فى دنيا الأشياء ، يبيعونها ويشترونها ، ويأكلونها ويلبسونها ، ويرونها بالأعين ويمسونها بالأيدى ، لكنهم - دون جمهور الناس - يستخلصون من تلك الأشياء ما قد جسده من أفكار ، ليجعلوا هذه الأفكار بعد ذلك موضوع اهتمامهم ، يخرجون منها القوانين العلمية التى بفضلها يمكن للإنسان بعد ذلك أن يرتد إلى دنيا الأشياء فيلجمها ويسخرها لخدمة أهدافه .

وشئ كهذا يحدث أيضا فى الإبداع الفنى ، فالفنان - مهما يكن وسيطه الفنى صوتا أو لونا - أو كلمة - هو أيضا يعيش مع جمهور الناس فى دنيا الأشياء ، لكنه - دون جمهور الناس - يستخلص من تلك الأشياء سرها الذى هو جوهر حقيقتها ، ثم يعود فيجسد ذلك السرفيا يبدعه من ألوان الفن ، وأنه لنى مقدور المدرب المتمرس ، أن يسمع معزوفة موسيقية ، فيقول : هذه موسيقى عربية - أو أن يرى صورة فنية فيقول : هذا فن عربى ، أو أيا ما كان انتهاؤه ، وكذلك قل فى سائر الفنون ، لماذا ؟ لأن الفنان الأصيل يتشرب حياة أمته حتى وكأنها تجرى فى دمائه ، ثم تلهمه الموهبة الفنية شكلا ما ، ليث فيه ما كان قد تشربه وتمثله ، وهكذا يكون الفرق بين الحياة وهى

« معاشة » والحياة وهى مقامة فى مبدعات الفن والأدب ، ولكم عجب هذا الكاتب من رجال نضعهم فى حياتنا الثقافية فى مكان الريادة ، يخلطون بين هذين الطرفين : الحياة كما يعيشها الناس من جهة - والحياة كما يعرضها الابداع الفنى والأدبى من جهة أخرى ، ويظهر هذا الخلط أكثر ما يظهر عندما يدور الحديث حول « الثقافة » ومعناها ، وعندئذ قد يصادفك من يقول - وكأنه قد اكتشف قارة جديدة - إن الثقافة هى مجموع ما يعيش به الناس من طعام ، وثياب ، ومسكن ، وطريقة حكم وطريقة بناء الأسرة - وعقيدة دينية إلى آخر هذه المكونات التى تتجسد فى حياة الناس العملية ، أما الفنون والآداب والفكر فأمور قد تهتم قلة قليلة ، لكنها فى عزلة عن الحقيقة المعاشة ؟ والذى يفوت هؤلاء - هو كما ترى - الفرق بين الجانبين فهذه هى حياة كما يعيشها الناس من جهة وبين هؤلاء الناس أصحاب موهبة فى فن أو أدب - ثم تلك هى - من جهة ثانية - انعكاسات الحياة المعاشة فى مبدعات لا تشبه فى ظاهرها ما هو معاش بالفعل . لكنها تخلص لسرها وجوهر حقيقتها ، ويعتقد هذا الكاتب أننا لو أدركنا فى وضوح ذلك الفرق بين الطرفين لتقلصت إلى حد كبير دعوى الدعاة إلى « ثقافة جماهيرية » إذ ماذا يكون معناها ، اللهم إلا فى دنيا الكلمة ؟ افرض أن بين أيدينا مجموعة مما أبدعه كبار رجال الفن والأدب عندنا : قطعة موسيقية لعبد الوهاب ، ورواية لنجيب محفوظ ، ولوحات لصلاح طاهر .. فقل لى بالله كيف أبسط هذه المبدعات لتصبح ثقافة جماهيرية إن كل ما يطلب منا عندئذ هو أن

نبين للعجاء كيف ترى حياتها التي تحياها مكثفة ومبلورة في تلك المعروفة ، أو الرواية أو اللوحة .

ولم يشذ الفنان العربي عن دستور أى فنان وكل فنان ، فكان أن استخلص في فنه روح الحياة العربية ، فإذا أردنا - إذن - أن نرى « العروبة » في جوهرها وصميمها ، فلننعم بالفكر في مبدعات الفن العربي ، وسوف تمثل أمامنا عندئذ صفة تميز العربي في رؤيته للكون والحياة فإذا كان العربي قد انطبع من محيطه الكونى بفكرة اللامتناهى والثابت والدائم ، فإذا يكون الفن الذى يوضح هذه الرؤية ، إذا لم يكن هو الفن الذى يستخدم أسلوب « التجريد » إلى أقصى درجاته ، وأقصى درجاته هي الأشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ودوائر وما إليها ؟ وهكذا كان ، فالزخارف الفنية في الفن العربي سواء أكانت على جدران المساجد والمساكن ، أم كانت نقوشا على خزف أو خشب ، أو نحاس تقام في معظمها على أسسس هندسية فنعيد هنا ما قلناه عن تصاوير الطيور والغزلان والنبات عند الفنان العربي أنه قد استهدف ، « الفكرة » الكامنة في الشيء ولم يستهدف جسده المادى ، أو هو بعبارة أخرى قد بحث عن الثابت وراء المتغير وبحث عن الدائم الذى يسقط من حسابه ما يزول ويفنى وتلك هي « العروبة » وذلك هو موقفها من الحياة وأحداثها .

إن رؤية العربي لحقائق الوجود من حوله ، تنجح به نحو التجريد الذى أشرنا إليه ، تجريدا يزيل به القشور العارضة في سبيل الوصول إلى اللب والصميم وهو تجريد قد بلغ به - كما رأينا - حد التجريد

الهندسى فى إبداعه الفنى ؟ وإن شيئاً يوحى بتلك النزعة الهندسية - يستوقف أسماعنا فى العبارة العربية البليغة ، فهأنا نجد قارئ الأدب العربى نفسه وكأنما هو ازاء أنغام من معزوفة موسيقية أحكم بناؤها حتى لينسى أنه أمام « كلمات » من اللغة جاءت لتحمل إليه مضمونا ذا « معنى » ولقد يساء استخدام هذا الجانب المنغوم فى تركيب العبارة العربية إساءة تجعل الكاتب يرص نفثات تطرب السمع وتخلو من المعنى لكننا نتحدث هنا عن البلاغة العربية على أيدى أربابها الذين يعرفون كيف يرسلون جواهر المعانى على أجنحة النغم ، وما أكثر ما يختلط الأمر بين الحالتين عند العاجزين فتجرى أقلامهم بلفظ منغوم ثم لا معنى وقد يحدث الخلط عند آخرين على صورة أخرى حين يمدحهم وهم بأنه إذا أراد الكاتب « معنى » فلن يحمل له ذلك المعنى إلا لفظ منفر قبيح ، بيد أن الفرق بين الحالتين حالة اللفظ المنغوم المثلث بالمعنى ، وحالة اللفظ المنغوم الأجوف هو كالفرق بين إنسان قوى فنى ، وإنسان هزيل كسيع ، فهما متساويان فى ظاهر الأعضاء وأما « الحياة » الكامنة فى تلك الأعضاء فشتان ما بين صحة ومرض .

تلك ملاحظة عابرة حتى لا نخلط فى الظاهرة الواحدة بين قوة وضعف ، ونعود إلى ما كنا بصدد الحديث عنه ، وهو أن المزاج الفنى عند العربى يميل به إلى التجريد ، وعلة ذلك أن الفكرة أو الصورة المجردة . أبقي على الدهر من المفردات الجزئية العينية والتجريد بدوره إذا ما بلغ حده الأقصى ، أو ما يدنوه من حده الأقصى ،

كان في صورة رياضية أو ما يشبهها ، وأن هذا الكاتب ليزعم بأن بلاغة العبارة العربية كثيرا جدا ما تقتضى ضربا من النظم الموسيقى ، - سواء أكان ذلك النظم المنغوم ظاهرا أم مستترا - وأذكر في هذا السياق يوما بعيدا بعيدا كنت فيه مع صديق نقرأ صفحة من كتاب للدكتور طه حسين ، « وقد نسيت ما هو » فلفت سمعنا نغم في العبارات المتتابعة كالمرج الهادئ ، فأعدنا القراءة وكأننا نطقت شفاها في لحظة واحدة فرحة ، لنقول إنها أسطر سبكت كل كلماتها في التفعيلات من عروض الشعر العربي ، ولم يكن الكاتب - بالطبع - قد قصد عامدا أن يجرى كلماته في تلك التفعيلات ، ولكن القلم البليغ يسيل بسبائك اللفظ كما تسيل الأوتار بأنغامها .

وقد ترجع عند الأديب العربي أو الفنان العربي ، تلك النزعة « الهندسية » حتى لتجاوز حدودها فيطنى القلب على حشوه ، كما هي الحال (في رأى هذا الكاتب) في أدب « المقامات » وكما هي الحال أيضا في كتاب « الفصول والغايات » لأبي العلاء المعري ، على أن « المقامات » والفصول والغايات فيها قوة زادت عن حدها حتى أصبحت كمعضلات المصارعين أو حملة الأثقال في عالم الرياضة البدنية ، لكن تضخم النزعة الهندسية في الكتابة الأدبية قد يحىء على صورة المريض بالورم أو بالبدانة المترهلة كما قد حدث عند أصحاب النثر المسجوع في فترات الركافة والضعف .

ونزوع العربي نحو التجريد في فكرة وأدبه وفنه ، قد أدى به إلى ميل شديد نحو تكثيف المعنى الكبير في أقصر عبارة ممكنة . ومن هذا

التكثيف نشأت عنده الأقوال الحكيمة التي يسهل حفظها ويكثر دورانها على الألسنة في أحاديث الناس العابرة ؟ والشعر العربي ملئ بالأبيات التي تحمل الحكمة منظومة ، فتزداد - سهولة حفظها وكثرة دورانها فضلا عن جمال لفظها ، وقد يضاف هنا - إذا أردنا تعليل هذه الظاهرة - أقول قد يضاف إلى نزعة التجريد الهندسي ، كثرة التجوال في حياة العربي قبل أن يستقر في مدن ، كأنما أراد أن يضع خبرته في أقراص صغيرة ليسهل حملها في ترحاله المتصل ، ولقد قرأت لابن جني في كتابه « الخصائص » تعليقا يلفت النظر يقول فيه إن آيات القرآن الكريم إذا وجهت الخطاب إلى العرب أوجزت العبارة في لفظ قليل ، وأما إذا وجهت الخطاب إلى بني إسرائيل ، فهي تطيل وإذا صح هذا التعليق ، كان مؤيدا لما ذكرناه عن المزاج العربي في صياغته لفكره وأدبه وفنه .

اللغة هي نفوس أصحابها وقلوبهم ، وعقولهم جميعا ، هي مرآة حياتهم في ظاهرها وفي باطنها معا ، إنه لولا اللغة لاندرج الإنسان مع الحيوان الأعجم في عالم البكم ، وإذا لم تكن للإنسان لغته فماذا يكشف عن حقيقته حيا ناطقا عاقلا عالما شاعرا ؟ إنها هي حياة الفرد موصولا بسائر الأفراد في يومه ، وهي حياته موصولا بأسلافه في تاريخ واحد ، وهي حياته موصولا بأبنائه وأبناء أبنائه إلى ما شاء الله للأمة أن يمتد بها تاريخ ، إلا أن الكون ليصبح كله كتلة حين الصمت لولا كلمتان كلمة الله جل وعلا : وكلمة الإنسان ، أن الكلمة إذ تشرف وتسمو تصنع القديس والعالم والشاعر والفيلسوف ،

وهى إذ تسفل بفحشها تصنع الفجار؟ لقد بدأت الإنسانية بآدم عليه السلام ، وبدأ آدم بأسماء الكائنات علمه إياها ربه ليملك بها زمام مسمياتها فالعلم بالاسم هو فى الأساس علم بطبيعة مسماه ، وإذا عرف الإنسان طبيعة شىء فقد عرف كيف يتحكم فيه ويسخره ؟ ومن هنا كانت للغة البشرية قوتها وسلطانها .

والحديث عن اللغة وصلتها بأصحابها روحا وعقلا وقلبا ووجودا وعدما ، حديث يطول ، فإذا - إذن ، يمكن أن يخرج الناطق بالعربية عن عروبه ؟ إن اللغة العربية - كأية لغة أخرى ولا سيما اللغات التى صحبتها حضارات - ليست عند من يجيئونها علما وفكرا وأدبا ، مجرد أصوات تلفو بها الألسنة والشفاه نسمعها كما نسمع خشخشة الحصى أو كما نسمع زقزقة العصافير ، بل هى أنفس وقلوب وعقول تحولت باللغة من باطن إلى ظاهر ، فإذا قرأت علما فأنت إنما تطالع « عقلا » توجد فى دماغ صاحبه ، وقد سلك نفسه فى لغة لتراه ؟ وإذا قرأت شعرا ، فإنما هذا الذى تقرأه هو « قلب » الشاعر وقد وضع نبضاته فى كلمات لتسمعها وماذا تكون « العروبة » إذا لم تكن ضروبا من فكر ومن وجدان تجلت بعد خفائها فى صدور أصحابها تجلت فى رموز لغوية خلقت لتحملها ولتعرضها على الأبصار والأسماع ؟ وفى اللغة العربية - عند تحليلها - صفات تفرعت عن جذع واحد ، وهو ما توحى به الصحراء لساكنيها - ليس فقط فى اشتقاق أسرة كبيرة من المفردات تشتق كلها من أصل ثلاثى واحد ؟ تماما كما تتكون فى المجتمع الصحراوى عشائر وقبائل تلتقى كلها عند

جد واحد ؟ بل إن الأثر الصحراوي في اللغة يظهر كذلك فيما قد أسلفنا ذكره من تنوع نحو هندسة في بناء الجملة عندما يرتفع الكلام إلى ذروة الفن الأدبي يشف لنا آخر الأمر عن إيقاع يتضمن شيئا يشبه الأشكال الهندسية ، أو المعادلات الرياضية ، شأن العربي في نزوعه نحو « التجريد » إستلهاما للامتناهي الصحراوي الذي يحيط به ما امتد به البصر إلى أبعد الآفاق .. أفيجوز بعد هذا لكاتب أو شاعر أن يتنصل من أصول صحراوية هي ماثلة في كل ما قد أجرى به القلم ؟ إن كاتب هذه الكلمات ليشعر بما يشعر به كل مصرى واع بمصريته ، وعيه في الوقت نفسه بعروبه ، فهو لا يريد لمصريته أن تمحى بعروبه كما لا يريد لعروبه أن تتنافى مع مصريته على أنه في هذا الذي يريده لا يرضى لنفسه أن تؤخذ الأحكام قسرا واعتباطا ويلتزم أمام عقله بأن يبحث عن الأسس القوية التي يستند إليها حين يزعم أن عروبة المصرى ليست شيئا طارئا جاء إليه مع الفتح العربى في أوائل القرن السابع الميلادى اللهم إلا اسم العروبة وأما الجوهر فهو هو الجوهر الذى بنيت عليه ثقافات الرقعة الجغرافية التى هى الوطن العربى الكبير حيث تمتد الصحراء - بكل ما فيها من أقاليم اخضرت بزرعها - فأوحت طبيعة ذلك الامتداد الصحراوى بما أوحت به - من رؤية عامة هى التى أنتجت لغات المنطقة كلها بأصول مشتركة أو متشابهة كما انتجت نمطا عاما مشتركا أو متشابها في البنية الاجتماعية وفى الفكر وفى الأدب وفى الفن جميعا وأن هذا الكاتب ليود - قبل أن يستطرد به الحديث - أن يذكر القارئ بحقيقة

عن نفسه ذكرها في حديثه السابق - وهي أنه لبث عقدين من الزمن - أو قل ما يقرب من ثلاثة عقود - متأثرا بما كان قد قرأه شابا لأعلام الفكر في مصر بأن المصري إذا أراد عودة إلى أصوله الثقافية وجب عليه أن يرتد إلى العصر الفرعوني - وليس إلى الأصل العربي ، وكأن الفكرتين متناقضتان - لكنه اعنى هذا الكاتب - بحمد الله حمدا كثيرا أن أشرقت عليه الحقيقة فيما بعد ناصعة الوضوح ، وهي ألا تناقض من حيث الأساس ، بين الوقفة الثقافية التي وقفها المصري القديم ، والوقفة التي وقفها بعد ذلك في أى عصر من عصور تاريخه ، مع تحفظ ضرورى وهو أن ثبات الإطار الواحد المعين ، لا ينفى أن ينخرط في هذا الإطار الثابت مضمونات حضارية مختلفة . إنه لا جدال في أن لكل فرد من الناس هويته التي يجب أن يتحقق لها شرطان ليظل ذلك الفرد هو ما هو على مدى سنوات - عمره ، مهما تغيرت أحداث حياته وتطوراتها وإذا لم يكن الأمر كذلك ، كما هى الحال مع بعض الأمراض النفسية - وجب أن يعرض الأمر على طبيب مختص ؟ وما يقال عن الفرد الواحد من الناس ، يقال مثله على الأمم والشعوب فالأمة المعينة أو الشعب المعين - لم يكن ليصبح ذا تاريخ إلا إذا ظل الشعب على ثبات في هويته - أو ظلت الأمة المعينة على ذلك الثبات - برغم تكرار الأحداث وتقلبات العصور ، وأما الشرطان اللذان يجب أن يتوافرا للهوية لكي تثبت على وحدانيتهما فهما أولا - أن تتألف من كثرة عناصرها وحدة تجعل منها كيانا عضويا موحدًا في كل لحظة أو في كل

فترة من تاريخها بمعنى أن يكون لها هدف موحد تتجه إليه بمختلف أعضائها ومختلف مناشطها ؟ فالهدف الواحد من شأنه أن يستقطب كثرة الأفراد وكثرة العناصر وكثرة المواهب وكثرة الأعمال بحيث يجعل تلك الكثرة العددية نسيجاً متصلاً وأما الشرط الثاني فهو استمرارية تلك الوحدة اللحظية على طول الزمن ، وما أكثر ما كسبه الفلاسفة في هذين الشرطين : شرط الوحدة اللحظية وشرط الاستمرارية والصمود ، عندما تناولوا مشكلة الهوية ! ولعلها من أعقد المشكلات التي تستعصى على التعريف والتحديد ، وإني لأستغفر الله إن كنت أجاوز الحدود المشروعة حين أشير هنا إلى الآيتين الكريمتين الخاصتين بالذات الإلهية وهما : (قل هو الله أحد الله الصمد) ففيها تتوافر الصفتان اللازمتان لوحداية الذات ؟ فالأحادية تعنى اتساق الصفات الإلهية المتمثل بعضها في أسماء الله الحسنى ولقد كان مما تناوله المفكرون الإسلاميون منذ القرن الثاني الهجري فصاعداً ، التوفيق بين كثرة الصفات الإلهية ووحدانية الذات وأقل ما يقال في هذا السبيل هو أن يكون بين مجموعة الصفات - على اختلافها تألف يوحدتها في ذات واحدة - على أن يضاف إلى ذلك التوحد « صمود » يجعله توحداً من الأزل إلى الأبد وذلك كله إنما يتحقق بالنسبة إلى الذات الإلهية على صورة مطلقة لا استثناء فيها ؛ لكنه كذلك مطلوب له أن يتحقق على صورة نسبية ومحدودة في الذات الإنسانية فرداً كان أم كان شعباً أو جماعة يراد لها أن تكون موحدة الكيان .

وهكذا ننظر إلى الشعب المصرى في إطاره التاريخى ، فنراه من

أكثر شعوب الأرض تحقيقا للشرطين اللذين يكفلان للهوية قيامها فقد كان موحد الروح في كل فترة من فترات تاريخه ثم كان على صمود في وحدته تلك عبر العصور المتعاقبة ؟ ونقول ذلك استنادا إلى آثاره التي تدل على تعاون ، فأعماله الخالدة من الصنف الذي لا تنجزه يد واحدة ؟ ومع ذلك ففي أمثال هذه التعميمات الواسعة يكفيننا رجحان الصواب إذا امتنع اليقين وأرجح الظن أنه عندما جاء الإسلام إلى مصر فأسلمت وجاءت العربية فتعرب لسانها ، لم يكن انتقالها من القديم إلى الجديد صدمة نفسية ثقافية ، بقدر ما كان انتقالا سهلا ميسرا إذ جاءت العقيدة الدينية إلى شعب متدين تدينا مبرا من الوثنية منذ آلاف السنين ، وكانت اللغة الوافدة من الأسرة اللغوية نفسها التي تسود هذه المنطقة الجغرافية جميعا ، مع اختلافات نوعية بين لغة منها ولغة ؟ فاللغة المصرية القديمة (ولا أعنى الكتابة - الهيروغليفية) قائمة على الأسس التي تقوم عليها اللغات المجاورة (كما قرأت في نتائج الأبحاث العلمية التي اضطلع بها نفر من علماء « المصريين الفرعونية » إذن فمن الناحية الدينية كان المصرى منذ قديم مؤمنا باليوم الآخر وما فيه من حساب وكانت الأسس الأخلاقية التي يحيا حياته على هداها والتي يحاسب يوم القيامة على ميزانها ، هي الأسس التي تتعلق بها المثل العليا ؟ وأما من الناحية اللغوية ، التي لها أبلغ الأثر في صياغة العقل والوجدان معا فالتشابه بين القديم والحديث أشد من أن يغض عنه النظر ؛ فإذا قلنا إن « عروبة » المصرى إنما أخذت اسمها هذا منذ كانت فيها « عربية » فلا بد أن

نضيف إلى هذا القول استدراكا يؤكد أن « مضمون » العروبة الثقافي كان مصريا منذ عرف التاريخ مصر ، فحضارتها كانت في المقام الأول حضارة دين وأخلاق وفن ، تدور جميعا حول فكرة الحياة الآخرة .

على أن ثبات الهوية لحاملها - فردا كان أم شعبا - وهو الثبات الذى نزعمه للمصري قبل الفتح العربى وبعده - فى امتداد واحد متصل ، أقول إن ثبات الهوية هذا لا يننى أن يكون ثباتا فى ركائز البناء وأما ما يقام على هذه الركائز من مضمون حضارى فلا بد له أن يتغير مع تغير الحضارات وإلا فلو جمد المضمون مع الركائز على صورة واحدة فلن يكون بمنجاة من فناء كالفناء الذى محيت به فصائل الديناصور ، وقد كان لهذا الحيوان القديم من الضخامة ما ينافس به ضخامة الهرم الأكبر زال بسبب تلك الضخامة نفسها التى لم تعرف كيف تصطنع خفة الحركة عندما جاء عصر جديد يقتضى الحركة الخفيفة السريعة فذبل المسكين فى مريضه وذوى وأصبح فى ذمة التاريخ تاريخ الحيوان.

أراد الله لهذه الرقعة المباركة من الأرض ، التى أصبحت فى عصرنا الراهن يشار إليها باسم « الشرق الأوسط » ، أن تكون مهبط الوحي الدينى لكل ما عرفه الإنسان من ديانات ينزل وحيا من السماء على نبي أو رسول ، ولا بد أن يكون لذلك معناه ومغزاه ؟ وربما كان ذلك كذلك لأنه لبث حيناً من الدهر معموراً وحده بحضارات أو ما يشبه البدايات الأولى لقيام الحضارات ، أو ربما كان ذلك لأنه - كما أسلفنا القول فى إحدائنا السابقة - رقعة من الأرض نشأت فيها وديان خصبة اخضرت بزرعها وعمرت بأهلها فى وسط صحراوي فسيح الأرجاء ، يوحى لسكانه بفكرة اللامتناهى الثابت الدائم ، مما هيا هؤلاء لتقبل الوحي الدينى من إله واحد أحد صمد لا تحده حدود ؛ وأيا ما كان التعليل ، فهذه حقيقة تاريخية قبلها ونقيم عليها النتائج ، وهى أن أبناء هذه الأرض المباركة « تدينوا » بدين منذ فجر التاريخ ، لم يكن عن وحى إلى نبي أو رسول حيناً ، وكان وحياً إلى نبي أو رسول حيناً آخر ، لكنه كان فى كلتا الحالتين يقيم بنيانه على أسس من « الأخلاق » لينضبط بها سلوك الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، تمهيدا لمحاسنته يوم الحساب فى الحياة الآخرة .

فلئن كان عصر الناس هذا قد جعل « العلم » أساساً للبناء الحضارى ، ثم تأتى بعده سائر فروع الحياة الثقافية من دين وأدب وفن ، وكأنما أتت تلك الفروع كالتتابع لتخدم العلم وتتسبب إليه ،

فإن الحضارات السابقة ، وفي مقدمتها مظهر منها في اقليمنا - إقليم الشرق الأوسط - قد جعلت «الدين» (وإذا قلنا «الدين» فقد قلنا «قواعد الأخلاق») أساسا للبناء الحضارى ، ويأتى «العلم» بعد ذلك ليؤدى دوره فى ذلك البناء ، فلما جاء الإسلام ، آخرا الديانات التى نزلت على نبي ورسول ، جعل العلم جزءا من الدين ، ولم يعد فى الأمر بينهما تابع ومتبوع ؛ فجزء من دين الإسلام لا يتجزأ ، أن يكون المؤمن ذا علم بما حوله من ظواهر الكون ، ما اسعفته فى ذلك قدراته ، ومثل هذا العلم الذى يستهدف عبادة الله سبحانه وتعالى بمعرفة خلقه معرفة تمكن صاحبها من الإلمام بقدر المستطاع - بمعجزات هذا الخلق ؛ وانظر إلى آيات القرآن الكريم عن «القراءة» كيف تتابع فيها نوعان من «القراءة» التى أصبحت فرضا مفروضا على المسلم وفق قدرته فى ذلك ، فأولى القراءتين قراءة «المخلوق» كما خلقه خالقه سبحانه وتعالى ، وليبدأ الإنسان بدراسة نفسه مخلوقا من مخلوقات الله ، ليرى معجزة الخلق متمثلا فى الإنسان يخلق من علق ، فيصبح هو ذلك الإنسان العالم العامل العابد ، الكاتب الفنان الصانع الزراع ، منشئ الحضارات التى تعمر كوكب الأرض ؛ وأما ثانية القراءتين فهى أيضا عن الإنسان ، لكنها هذه المرة متجهة إلى موروث فيما كتب الأولون ، يضاف إليه ما أنتجه أبناء الحاضر ، ليتلقى أبناء الغد عن ماضيهم كله ما يتلقونه ليضيفوا بدورهم ما يضيفونه من «علم» بالوجود ؛ تقول الآيات الكريمة : «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق» (هذه هى أولى القراءتين) «اقرأ

وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (وهذه هى القراءة الثانية) وكلتا القراءتين عملية عقلية علمية : فعلم بخلق الله للإنسان أولا ، وعلم بما خطه قلم الإنسان ثانيا ، لكنهما إلى جانب كونهما « علما » يقتضى من صاحبه اعمال العقل فهما فى الوقت نفسه « دين » يوجب على المتدين به واجبا مفروضا : ونكتفى بهذا المثل مما يمكن استخراجه من الكتاب الكريم ، أدلة نتبين منها طبيعة « الرؤية » الإسلامية لحياة الإنسان . مما يوضح لنا جانبا من أهم الجوانب التى يتألف منه حقيقة « العروبة » وجوهرها .

لقد كان « العربى » (وأعنى ساكن هذه الرقعة الفسيحة من الأرض الصحراوية الممتدة من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، بما يتناثر فيها من أرض خضراء بزرعها ، قد تكبر حتى تكون وديانا لأنهار جاءتها من خارج حدودها ، وقد تصغر حتى تكون واحة صغيرة) أقول إن أهل هذا الامتداد الجغرافى الواحد ، قد اظهروا خلال تاريخهم الثقافى الطويل ، قدرة لا تقاس إليهم فيها شعوب أخرى كثيرة ، على دمج الدين والعلم فى موقف واحد وظهر ذلك بصفة خاصة فى ظل الإسلام ، لأنه دين نص نصوصا مباشرة على وجوب اعمال المسلم لعقله ، فى تدبر خلق الله من حوله ؛ وقد يجدر بنا فى هذا الموضع من سياق الحديث ، أن نشير إلى حقيقة ثقافية شهدتها التاريخ ، وكانت لها آثارها فى مجرى الأحداث ، وهى ذلك التباين الحاد فى وجهة النظر العامة بين اليونان القديمة وجارتها فارس (وهى اليوم « إيران ») مما أدى إلى حروب بينهما ، ومدار ذلك

التباين هو غلبة التفكير العقلى ووضوح أحكامه فى اليونان ، وغلبة الرؤية الصوفية المغلفة بضباب الغموض على الفرس ، وأرجح الظن أنه عندما خرج الإسكندر الأكبر يحيشه من اليونان ، مستهدفاً أن يجمع العالم المعروف له تحت لواء ثقافى واحد ، كان المقصود بذلك أساساً هو أن يطوع جارته فارس للرؤية «العقلية» ، وربما كان التقسيم الجزائى الغامض ، الذى يقسم به العالم إلى «شرق» و «غرب» بحيث يتضمن هذا التقسيم أن تكون كلمة «شرق» هنا دالة على ثقافة تغلب عليها العاطفة الذاتية وأن تكون كلمة «غرب» دالة على ثقافة من نوع آخر إذ تغلب عليها دقة التفكير العقلى وموضوعيته ووضوحه ، أقول إنه ربما كان هذا التقسيم راجعاً فى الاصل إلى ما كان بين يونان وفارس من تباين ثقافى أدى إلى ما أدى إليه من خلاف بلغ حد القتال ، ثم جاء «العرب» الحديث والمعاصر ليظل على ذلك الرأى فى تصنيف الشعوب وثقافتها مع تفرقه بين ما هو «أقصى» فى بلدان الشرق وما هو «أوسط» و «أدنى» ؛ متجاهلاً الموقف العربى وطبيعته التى جاءت لتدمج الطرفين فى صيغة واحدة ، ولكن لماذا نعجب من أهل «الغرب» فى تمسكهم بهذا التقسيم الثقافى ، إذا كان العرب أنفسهم يتبنون هذا التقسيم ويتحمسون له ، وعلى أساسه يقبلون فكرة ويرفضون أخرى ، وبذلك تضعيهم منهم حقائق الأمور ، بما فيها حقيقة أنفسهم .

وحقيقة العربى فى موقفه ، كما يشهد بذلك تاريخه ، هو أنه شرق وغرب معاً ؟ فلا هو إلى عاطفة صرف ، ولا هو إلى عقل صرف ؛

ولنا أن نتعقب ما أنتجه أعلامنا الأقدمون لتبين في وضوح أن النظرة الفعلية ، وما يتبعها من « علم » في شتى الميادين كانت هي الغالبة ، لكنها كانت « مبطنة » بالوجدان (إذا صح هذا التعبير) ففضلا عن نبوغ أفراد منهم في مجال العلم وحده ، ونبوغ أفراد آخرين في مجال التصوف وحده ، فإن اندماج الجانبين في ناتج واحد أمر مألوف بينهم ؛ فإذا كانت اليونان القديمة قد تميزت بالتفكير العقلي الصرف متمثلا في علومهم وفلسفتهم ، فقد ترجم العرب عن اليونان معظم تلك العلوم والفلسفة ، مما يدل على قدرة العربي على تمثيل المحصول العقلي وهو في أعلى ذروته ، ولا أظن أن شيئا يذكر من تلك العلوم والفلسفة قد ترجمته الهند أو الصين رغم ما كانتا عليه من حضارة ، مما يدل على قابلية العربي للنظر العقلي المجرد ؛ وفي الوقت نفسه قام العرب الأولون بنقل التصوف عن أعلامه من فرس وهنود ، مما يبين أن العربي في طبيعته استعداد لمثل هذه الوقفة ، على أن ما يهمننا هنا في المقام الأول ، ليس هو أن تقوى الطبيعة العربية على تقبل هذا الجانب العقلي وحده متمثلا في أفراد ، وعلى تقبل ذلك الجانب الصوفي وحده متمثلا في أفراد آخرين . بل الذي يهمننا في سياق حديثنا هذا هو أن نرى الجانبين معا مجتمعين في كل عربي ، بدرجات متفاوتة مقاديرها ؛ وتلك هي إحدى السمات الهامة ، التي تميز بها « العروبة » من حيث هي « موقف » ثقافي فريد ، لا هو « شرق » ولا هو « غرب » ولكنها عروبة العربي .

هكذا جاءت للعربي ، أو إن شئت فقل جاءت للشرق

أوسطى ، قاعدته الأولى التى ارتكز عليها لينطلق فى أجوائه الثقافية من أرضه وسمائه ، فأرضه منبسطة صحراوى لاتحده حدود البصر ، اللهم إلا وديانا شقتها أنهار نبعت من مصادر خارج الحدود ، وأما سماؤه فصافية معظم الزمن ، فجال فيها النظر ليرى عالما آخر لا تحيط بحدوده عين ؛ مع هذه اللامتناهيات تحت قدميه وفوق رأسه ، نزلت ديانات وحيا من الله سبحانه وتعالى على أنبياء ورسل تعاقبوا دهرًا بعد دهر مدى قرون طوال ، تنادى الإنسان أن آمن بإله واحد أحد خلق السموات والأرض وما بينهما ؛ فتكونت عند ساكن هذه الرقعة المباركة من الأرض ، خبرة وعقيدة : خبرة مما يرى ، وعقيدة مما أوحى إلى الأنبياء والرسل ، ومؤداهما معا هو أن يضع بين يديه تلك « المبادئ » الكبرى ، التى هى خبرة نفسية وديانة روحية فى آن معا ، ومن تلك المبادئ المطلقة له أن يشتق ما استطاع أن يستنبطه لنفسه من نتائج وقوانين ، تكون هى قواعد سلوكه من جانبها الأخلاقى ، كما تكون هى علومه العقلية التى يستضىء بها طريقه إلى معرفة ظواهر الكون معرفة صحيحة .

وبرع العربى فى هذا الموقف الاستنباطى ، الذى ينتزع النتائج من مبادئها ؛ لكنه على مر الزمن ، حفظ شيئا ونسى شيئا ، وكان الذى حفظه جيدا هو أن يجيد قراءة ما خطه قلم ، ليستخرج من كلماته وعباراته ما يتولد عنها مما كان كائنا فى جوفها ؛ وأما الذى نسيه - على الأعم الأغلب - فهو قراءة « الأشياء » قراءة مباشرة ، و « الأشياء » ، أو الظواهر ، هى خلق الله عز وجل ، أمره الدين أن

يقرأها ليستخرج سرها المكنون ما وسعه ذلك ؛ ومن الجانب الأول الذى حفظه العربى وبرع فيه تكونت معارفه وعلومه فى معظم الحالات ، إلا جانباً صغيراً قرئت فيه « الأشياء » فكان أن ظهر للعرب علماء الفلك ، والكيمياء ، والضوء ، والطب ، وأما الجزء الأكبر من علوم الطبيعة فقد تولاها الغرب وحده بعد نهضته من عصوره الوسطى ، وأخذ العربى ينقلها عنه إلى يومنا هذا ؛ وإننا إذ نذكر هذا ، فإنما نذكره لتذكرك به أن هدفنا ليس هو الإشادة العمياء بالعربى وموقفه ، بل هو مجرد الوصف لما هو واقع ، لتؤيد صحبته ، ونصححه أوجه النقص فيه .

وما دمتما قد ذكرنا « الواقع » وحقيقته ، فهنا سؤال يطرح نفسه عن نصيب هذا الواقع والاهتمام به من موقف العربى ، وأنه لسؤال له خطورته ويتطلب الروية فى الجواب ، وذلك لأن منضج العقل ، الذى نطلق عليه عادة فى حياتنا العملية اسم « سن الرشد » وهى السن التى إذا بلغها شاب ، أصبحت له حقوق فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وأصبحت عليه واجبات ، فترفع عنه الوصاية ، ويكون حر الإرادة فى تصرف شئونه ، ويكتسب حق الانتخاب - ومن جهة أخرى يحق عليه التجنيد والدفاع عن وطنه وهكذا ؛ كل هذه الحقوق والواجبات تنشأ عند سن « الرشد » على افتراض مضمّر . هو أن الإنسان عند تلك السن يكون قد خرج من مرحلة المراهقة الحائلة ، ودخل مرحلة النضج العقلى ، الذى يتميز أول ما يتميز ، بانضباط العلاقة بين الإنسان والواقع ؛ فيرى الحقائق الواقعة كما هى

واقعة ، لا يتوهم فيها ما ليس فيها ، ولا يغض النظر عن جانب من جوانبها ، ليستطيع بعد ذلك أن يقبلها عن علم بها ، أو أن يعدلها على أساس علمه بها .

لكن أفراد الناس ، وكذلك الشعوب ، يتفاوتون في القدرة على إدراك الواقع على حقيقته ، وبالتالي فهم يتفاوتون في القدرة على تغييره إذا وجب عليه أن يتغير ؛ وفي هذا السياق يأتي سؤالنا : ما نصيب « الواقع » ودقة إدراكه من « الرؤية » العربية التي تتألف « العروبة » ومعناها .

قد يتساءل القارئ همسا لنفسه : وهل شهدت الدنيا إنسانا ، بل هل شهدت كائنا حيا على إطلاق من نبات أو حيوان ، فضلا عن الإنسان ، قد تجاهل « الواقع » الذي يحتويه فمن هذا الواقع يأكل الكائن الحي طعامه ، ويشرب مائه ، ويعد مأواه الذي يعتصم به ، وسائر شئون حياته صغيرها وكبيرها ؟ فمن أين يجيء السؤال - إذن - عن علاقة العربي بواقعه الذي يعيش فيه ؟ وهنا يكون المتسائل قد فاته إدراك فارق هام بين فوارق عديدة تميز الإنسان دون سائر الأحياء ، وهو فارق « الخيال » الذي قد يعلو في مرتبته فيصبح وسيلة إبداع للعالم والأديب والفنان ، إذ هو عندئذ خيال يضم الأجزاء المتفرقة لتصبح بناء واحد : نظرية علمية ، أو قصيدة من الشعر ، أو معزوفة موسيقية ، وهكذا ، ولكنه كذلك قد يهبط في مرتبته ليصبح اخلاطا من تهاوهم لا تبني شيئا ، وبالتالي تكون أوهاما وهلوسة لا تعني شيئا ، إلا أن تضل صاحبها عن سواء سبيله ، لأنها تصرفه عن

واقع الأشياء فلا يراها كما هى واقعة ؛ وأن الأفراد ليتفاوتون ، كما تتفاوت الشعوب بوجه عام ، فى النشأة والتربية والاستعداد الفطرى ، تفاوتاً يؤدى بهم إلى تفاوت فى القدرة على التعامل مع وقائع الأشياء على حقائقها ، حتى لقد رأى عالم النفس « وليم جيمس » أن أفراد الناس يمكن قسمتهم قسمين من حيث الرؤية العامة لدنياهم ، والتصرف فى حياتهم العملية على أساس هذه الرؤية ، ويطلق على أحد القسمين عبارة « أصحاب الأدمغة الصلبة » ، كما يطلق على القسم الآخر عبارة « أصحاب الأدمغة اللينة » ، وهو يدرج تحت القسم الأول رجال العلوم الرياضية والطبيعية ، ورجال الأعمال على اختلافهم ، وقادة الجيوش وهكذا ، وكلهم يلتزم حدود الواقع أمام أبصارهم وتحت أيديهم ، حتى وهم يحاولون تغييره ليصبح واقعا آخر ، إذ كيف تغير شيئا إذا كنت ساهيا عن حقيقته الراهنة ؟ وأما تحت القسم الثانى فهو يدرج المتصوفة ، والشعراء ، ورجال الأدب والفن بصفة عامة ، لأنهم بحكم مزاجهم المجبول فى فطرتهم ، يهربون من خشونة الواقع وقسوته وغلظته ، ويقيمون بما يبدعونه واقعا جديدا ، يتترعونه من خيالهم انتزاعا ليعيشوا فيه .

فليس الأمر- إذن- من قبيل اللغوان نسأل عن العربى ما موقفه من « الواقع » ؟ وليس من شك فى أن الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال تهدينا إلى التصور الصحيح لما أسميناه « بالعروبة » ؛ على أن الرأى الصحيح فى هذا- فيما يبدو لهذا الكاتب - ليس قريب

المنال ، مما يتطلب منا شيئا من الروية والتدبر ، فالعربى - من جهة -
«شاعر» فى المقام الأول ، ولكنه - من جهة أخرى مضطر بحكم
بيئته الصحراوية المتجانسة تجانسا شديدا ، أن يدقق النظر ليقع بصره
على ما يميز جزءا من جزء ، وإلا فالأرجح أن يضل الطريق إذا ما
انتقل من مكان إلى مكان ؛ أنه يلحظ معالم الأرض ، كما يلحظ
مواقع النجوم ، ويركز انتباهه فيما يتميز به الحيوان ، والطير ، واتجاه
الرياح ، وغير ذلك من مكونات بيئته ؛ ولك فى هذا الصدد أن
تراجع ذاكرتك فيما تحفظه من شعر الأقدمين ، لترى كم ترد فى سياقه
لقطات حسية دقيقة التصوير لما يراه العربى وما يسمعه .

ومع هذا كله فالحقيقة الكبرى فى طبيعة العربى هو أنه - كما قلنا -
«شاعر» فى المقام الأول ؛ لقد عرض الجاحظ فى الصفحات الأولى
من المجلد الأول من موسوعته عن «الحيوان» ، مقارنة سريعة بين
أربعة شعوب من ذوى الثقافات ، ليحدد الصفة الغالبة على كل
منها ، وهى ثقافات الهند ، وفارس ، واليونان ، والعرب ، وجاءت
هذه المقارنة بمناسية تعليقه الجيد على ما كان قائما عندئذ فى «دار
الحكمة» بمدينة بغداد ، من ترجمة عن اليونانية علوما وفلسفة إلى
اللغة العربية ، وهنا قال ما معناه إنه إذا كان اليونان قد تميزوا
«بالكتاب» (أى بالمؤلفات فى العلم) فالعرب قد تميزوا بالشعر ؛
ولهذا فقد يسهل على العربى أن ينقل عن اليونانى فلسفته وعلمه ،
وأما اليونانى ، أو غير اليونانى ، فمحال عليه أن يترجم الشعر العربى
إلى لغته ؛ وبذلك يستطيع العربى أن يضم إلى حصيلته فكر

الآخرين ، وأما هؤلاء الآخرون فلن يتاح لهم قط أن يعرفوا من هو العربي ، لأن جوهر العربي شعره ، والشعر مكتوب عليه ألا يجاوز حدود وطنه .

وإذا كان ذلك كذلك ، إذن فقد انفتح أمامنا طريق الإجابة عن السؤال الذى طرحناه لنعلم شيئا عن العلاقة بين العربي و « الواقع » ، فما علينا سوى أن نسأل : ماذا تؤدي إليه طبيعة الشعر فى هذا الصدد ؟ إن الشعر ليفقد جوهره إذا غابت عنه قوة الخيال ، والخيال المقصود هنا هو ذلك النوع الذى يعلو بصاحبه إلى درجة يستطيع عندها أن يؤلف بين خبرات استقاها الشاعر متفرقات من حياته العملية إذ هو يرسل البصر فى جنبات الكون ليرى ، وينصت بأذنيه لسمع ، ومن حصيد المرئى والمسموع ، وما كان قد أضيف إليه من حالات وتحولات فى وجدان الشاعر ، يبنى فى خيال الشاعر بيتا جديدا هو بيت الشاعر ، أو أبياته التى تؤلف قصيدة الشاعر ، وفى إقامة الشاعر لعالمه الخاص ، من لبنات مستمدة من الحياة كما وقعت وكما تقع ، يستحل مجاوزة القوانين الطبيعية التى تحكم الأشياء فى عالم الواقع ، ليضع لها هو ما يسنه لها من قوانين ، وبذلك يحىء العالم الشعرى الذى أقامه الشاعر ، عالما جديدا كل الجدة ، لا شأن للواقع به اللهم إلا موازنة بين العالمين يبحث عنها الناقد ليستخرجها من الخفاء إلى العلن ؛ إن الصبر فى دنيا الواقع لا ينطق ، لكن الشاعر يستحل أن ينطقه بما أراد له وكيفما أراد ؛ والشجر لا يعزف موسيقى على أوتار ، لكن الشاعر يحل له أن يجعل الشجرة عازفة للنغم على

أوتارها ، إن البرق والرعد يحدثان بقوانين تعرفها العلوم ، وليس لها « نفس » تغضب وتثور لكن الشاعر من حقه إذا أراد ، أن يتصورهما ثورة غاضبة ، وأن يتصور المطر بكاء أو طلقات من الرصاص في حومة القتال ، كما شاء ... وهكذا ، فالفاصل الحاد الحاسم بين « العلم » و « الشعر » هو أن العلم لا يرى من الواقع إلا ظواهره البادية للحواس ، ليستخرج قوانينه التي تحكم سلوكه ، فالصخر صخر ، والشجر شجر ، والرعد والبرق والمطر رعد وبرق ومطر ، ولكل شيء مسالك مفروضة عليه ، ومهمة العلم استخراج القوانين التي تنظم تلك المسالك ، وأما الشعر (والفن بكل أنواعه) فليس ذلك شأنه ، وإنما شأنه أن يخلع المشاعر الإنسانية على كل شيء في الطبيعة وكأنها قد أصبحت إناسا مع الناس .

ونحن نقول عن العربي إنه في المقام الأول شاعر ، أو له رؤية الشاعر ، فإذا كانت تلك هي حقيقة أمرة ، إذن فعلاقته بالواقع هي أن يحدد منه لقطات حسية يشاهدها متفرقة ، فيحفظها في وعيه ليستهديها خلال حياته العملية ؛ ومن هذه اللقطات الحسية ذاتها يبنى الشاعر العربي ما يبينه من بيوت الخيال ؛ ومعنى ذلك هو أن علاقة العربي بالواقع هي تلك اللقطات الحسية المتناثرة ، يستق بها في حياته العملية ، وأما « الرؤية » ، العامة للحياة ، أو « وجهة النظر » التي يتوجه بها إلى الوجود الكوني ، أو « الموقف » الذي يقفه إزاء ما يحيط به فهي أقرب إلى طبيعة الشعر ، فإياه وكأنه يحيا بين جدوان ما يشعر هو به ، حتى يجوز أن تصطبغ الدنيا الخارجية بما تصطبغ به من

أحداث ، ومن أفكار ، وهو هناك في موقفه ، يستدفي النظره
الشاعره ، حتى وإن قرأ وعرف ما قد صخبته به الدنيا من تقلبات .
لقد ذكرنا فيما أسلفناه ، أن هذه الأحاديث لم تكتب للإشادة
بالعروبة في موقفها أيا كان ذلك الموقف وما يقتضيه ، ولكنها كتبت
وصفا موضوعيا لما يظنه كاتبها أنه وصف أمين ، ومع ذلك فهو
اجتهاد فردى قد يخطئ وقد يصيب ، فإذا صدق ما أوردناه عن
طبيعة الشاعر في «العروبة» وموقفها ، كان حتماً على العربى أن يغير
من موقفه بعض الشيء ، بالإضافة لا بالحذف ، فلبق على
«الشاعر» الكامن في قلوبنا ، حتى لا نفوت على أنفسنا سمة من أبرز
سماتنا ومن أجملها ، على أن نضيف في تنشئة أجيالنا الجديدة نظرة
«العلم» كلما اقتضى الموقف التزام الواقع في حدوده وقوانينه
الصارمة ، وانظر إن شئت إلى الحياة العربية في تاريخها الحديث ،
لترى كم دهمتها المفاجآت ، التى لم تكن فى الحقيقة مفاجئة ، بل
لبثت كل واحدة منها تغزل خيوطها وتنسج مؤامراتها أعواما طوالا ،
ونحن عنها غافلون ، أو كالأفلىن ، لأننا ربما عرفنا شيئا عما يدبر لنا فى
سواد الليل ، لكننا نسهو ونغضى لانشغالنا بما بناه لنا الخيال فى
رعوسنا ، حتى إذا ما أصبح علينا صباح فجأتنا المفاجأة التى لم تكن
قد ولدت منذ لحظة ، بل ظلت هناك تبيض وتفرخ فى صدور
مدبريها أو فى جحورهم ، لتباغتنا وكأنها بنت لحظتها .

وكما راينا فى وقفة العربى «الشاعر» دفئا جميلا تشوبه غفوة يسهو
بها عن مواجهة الواقع برؤية علمية كلما اقتضى الأمر ذلك ، حماية

لنفسه ، وتقريرا لذاته فى دنيا التنافس والعدوان التى كتب علينا ولنا أن تكون ديانا ، فكذلك نلاحظ مثل هذه الشائبة فى سمة أخرى من سمات « العروبة » ، فليس ثمة من شك فيما يعرف به العربى من بناء اجتماعى - قبيلة ، أو أسرة ، أو أمة تضم القبائل والأسرة يكفل للفرد أن يجد مكانا فى جماعته ، وهو مكان يعطيه حقوقا ويفرض عليه واجبات ؛ وإننا لنفقد الشيء الكثير إذا فقدنا مثل هذا الانتماء الأسرى الحميم ، لكننا كذلك نفقد كثيرا جدا من طاقتنا ، الحيوية إذا بولغ فى طغيان النظام الأسرى أو القبلى أو الوطنى والقومى على الفرد ، بحيث تقيد حريته بأكثر من القيود التى تفرضها ضرورة الاجتماع ، ونحدد قدراته المبدعة إذا كان من أصحاب المواهب ، أكثر مما تحتتمه ضرورة الحياة الاجتماعية من حدود .

وهكذا ترى أن « العروبة » موقف مركب من عناصر اشتقت بعض أصولها مما توحى الصحراء إلى ساكنيها ، من رؤية عامة تتعلق باللامتناهى أكثر مما تشغلها العبارات الجزئية الزائلات ، وبالثابت أكثر مما تتعلق بالمتغير ، وبالمجرد أكثر مما يلهيها المتعين ؛ ومن هذا الموقف تهبأت شعوب المنطقة بقلوبها لتقبل الديانات المنزلة وحيا إلى الأنبياء والرسل (وجميعها نزل فى هذه المنطقة) ومن ثم أصبحت عقيدة التوحيد مدارا للوقفة العربية ، حتى فعلت فعلها فى تشكيل النمط الثقافى العربى - الذى هو أساس « العروبة » وجوهرها : فالأدب (والشعر منه بصفة خاصة) يكثف الحكمة المستخلصة من الحياة الجارية ، والفن يتزع نحو التجريد الذى يرتفع حتى يبلغ أن

يكون أشكالا هندسية وما يتركب منها والبناء الاجتماعي يتبلور في النظام الأسرى أو القبلى الذى يجعل مثله الأعلى تكاملا وتعاوناً ووحدة بناء ، ولئن كان الواقع العربى الحديث قد انحرف عن تلك الرؤية العربية المتميزة ، فقد جاء انحرافه هذا فى اتجاهين ، أحدهما نكسة أفرزتها الأوضاع السياسية الحديثة ، محليا وعالميا ، وإذن فهو انحراف لا بد لنا من تقويمه ، وأما ثانيهما فانحراف نحو الأفضل والأكمل ، وذلك فى المواضيع التى اضطرننا فيها إلى تعديل ما هو تقليدى فى ثقافتنا من شأنه أن يعرقل النمو ، فأحللنا مكانه عناصر قوة مما انتجته حضارة هذا العصر وثقافته ، وإذن فثقل هذا الانحراف جدير بالموازرة والتأييد .

هذا هو عصرنا

١

ليس العصر من العصور عددا من السنين يكبر حيناً ليمتد بضعة قرون ، ويصغر حيناً ليكفيه قرن واحد أو بعض قرن ، وإنما «العصر» المعين هو «فكرة» أساسية تسود الحياة ، وتصبح محورا تدور حوله مسالك الناس ومناشطهم ، حتى إذا ما تطورت تلك المسالك والمناشط ، بحيث لم تعد «فكرة» العصر - تكفيها ينبوعا تنبثق منه المبادئ والقواعد ومواصفات الحياة العملية ، أخذت «فكرة» جديدة في الظهور والانتشار والرسوخ ، حتى تصبح بدورها محورا تدور حوله رحي الحياة ، وعندئذ ينظر الناس فإذا هم في عصر جديد ؟ فإذا حدث لفرد من الناس أو لفئة منهم ، أن تخلفت في رءوسهم فكرة عصر مضى ، ثم نشطوا على أساسها وسلكوا فالأرجح ألا تسعفهم فكرتهم القديمة تلك بما يتطلبه العصر القائم من صور الحياة فيصبحون - بالضرورة - كالغرباء في قومهم ، حتى لتلتفت إليهم الأنظار دهشة - وذلك على أفضل الفروض ، أو تلتفت إليهم ساخرة - وذلك على الأعم الأغلب - ولا ينفع المتخلف عن «فكرة» عصره أن يقارن للناس بين الفكرتين . أي بين العصرين ،

ليبين لهم كم كانت الأولى طيبة فاضلة خيرة أصيلة ، لأن الحكم في مثل هذه المقارنة ، مرهون بالنتائج التي تعود على الناس من ضروب العلم ، والقوة ، والثراء وغير ذلك مما يرفع « كيف » الحياة في مجمل نواحيها وأطرافها ؟ والأرجح - كما قلت - هو أن تكون الفكرة الجديدة أصلح لذلك الارتفاع الكيفي المنشود ، من « الفكرة » التي ذهبت وذهب عصرها معها وها هي ذى قصة « أهل الكهف » للذين غيهم نومهم نحو ثلاثة قرون عن تيار التغير فأصبحوا في قومهم غرباء ، إلى الحد الذي أخرجهم ودفع بهم إلى العودة حيث كانوا ، إيثاراً للموت على حياة المنبؤ في أرضه .

ولابد « للفكرة » الجديدة التي يتولد عنها عصر جديد ، أن تبلغ من الغزارة حداً من شأنه أن يفسح المجال لأفكار فرعية تنبثق منها ولفروع من تلك الفروع حتى تظل الحياة على تشعبها وتعقدها وكثرة الأفراد والجماعات التي تستظل بظلها ؟ فإذا أخذنا الفترة التي امتدت بالغرب من عصوره الوسطى إلى اليوم - وهي نحو أربعة قرون - على أنها عصر جديد واحد أعقب ما يطلق عليه في تاريخهم اسم « العصور الوسطى » كانت « الفكرة الجديدة » التي ميزته عن سابقه ، هي أن يضيفوا إلى قراءة الكتب الموروثة عن أسلافهم (وأقول : إن يضيفوا ولا أقول : أن يحلوا محلها) قراءة ظواهر الطبيعة قراءة مباشرة ، لعلمهم يخرجون بما يخرجون به من قوانين العلم الطبيعي التي من شأنها أن تزيد من قدرة الإنسان على تسخير الطبيعة لخدمته ، وأعظم ما ينتج له عن ذلك التسخير هو التحرر من قيود هي أقسى ما يتعرض

له الإنسان من قيود ، وأعنى القيود التى تفرضها طبائع الأشياء على الإنسان قبل أن يعرف كيف يلجمها فيمسك بأعنتها ويسيرها كيفما أراد لها أن تسير؟ ولك أن تلقى بلمحة خاطفة إلى ما قد حققه الإنسان لنفسه من سيادة بمعرفته لقوانين الضوء والصوت والكهرباء والجازبية إلخ ...

لكن تلك القرون الأربعة التى يمكن ضمها معا تحت فكرة واحدة جديدة هى فكرة قراءة الطبيعة قراءة مباشرة يمكن كذلك أن تتفرع بين أيدينا إلى عصور فرعية ، يمتد كل عصر منها قرنا واحدا على التقريب ، ولكل من تلك الفروع خصائصه المميزة التى تجعل منه عصرا قائما بذاته ، وعلى هذا الأساس ننظر الآن إلى عصرنا الفرعى الذى نعيش فيه ، وأعنى هذا القرن العشرين ، فما هى « الفكرة » الجديدة التى باتت محور الرعى ، وميزت هذا القرن عن سابقه وأرجو القارئ ألا ينسى إننا نتحدث الآن عن « الغرب » المتمثل فى أوروبا وأمريكا الشمالية لأن حضارة العصر من صنعه ، ثم سارت معه على الطريق بعض أقطار الشرق الأقصى كاليابان وأما بقية العالم فقد كفاها أن تأخذ ولا تعطى وأعود بعد ذلك فأسأل : ماذا كانت « الفكرة » الفرعية الجديدة التى عملت على أن يكون القرن العشرون وحدة حضارية قائمة بذاتها ؟

ولكى نجيب عن ذلك أريدك أن تقف معى لحظة عند مفترق القرنين : التاسع عشر والعشرين ، لندير أبصارنا ، فى مجال العلوم متسائلين : هل حدث فيها من جديد ؟ وعندئذ سيجيبنا الجواب

واضحاً نعم ، فإذا كان العصر بمعناه الواسع الذى يشمل كل ما أعقب العصور الوسطى قد عرف بخروج العلماء من محابسهم ليجوبوا ، الأرض والبحر وأفلاك السماء ، كاشفين عن كل مستور غطاءه ما أسعفتهم قدراتهم فى هذا السبيل ، ومع الكشف يقرءون صحائف الكون فيعلمون ظواهره أقول إنه إذا كان العصر الحديث بمعناه الذى امتد أربعة قرون ، قد كان مداره « قراءة » الطبيعة قراءة مباشرة ، بعد أن كان شغل العلماء الشاغل قبل ذلك هو أن ينكبوا داخل الجدران يقرءون صحف السابقين ، فإن « العصر » بمعناه الأضيق الذى يقتصر على القرن العشرين وحده ، لا يزال استمراراً للاتجاه نفسه ، إلا أن قراءته للطبيعة مختلفة الأساس عما كانت عليه ؟ وقد تسأل أليس كتاب الطبيعة هو هو نفسه الكتاب الذى قرأه جاليليو ونيوتن ؟ فنجيب نعم هو هو الكتاب ، لكن الذى اختلف فى القرن العشرين ، هو الزاوية التى ينظر منها إلى المادة المقرءة وأحب فى هذه المناسبة أن ألفت نظر القارئ إلى نقطة مهمة فى دنيا العلم هى أن الظاهرة المعروضة للبحث ، ولنفرض مثلاً أنها ظاهرة الضوء ، لا تبوح بسرّها طواعية بل إن العالم الباحث هو الذى يقدح ذهنه ليهتدى إلى طريقة تجعل الظاهرة تفصح عن قوانينها فعلماء « الضوء » قد ابتكروا من عندهم فكرة هى أن يحاولوا قراءة ظاهرة « الضوء » بطريقة « هندسية » أى كما تقرأ أشكال الهندسة من خطوط وزوايا أنهم لا يرون هذه الخطوط والزوايا فى « الضوء » بادئ ذى بدء بل يرونه كما تراه أنت وكما أراه أنا حين ننظر إلى ضوء الشمس أو ضوء المصباح ،

ولكنهم - أعنى علماء الضوء - افترضوا من عندهم أن سر قوانين الضوء قد ينكشف لهم إذ هم نظروا إلى الظاهرة من هذه الزاوية الهندسية وقد كان أن دبروا التجارب التي يحصلون بها على خيط رفيع من الضوء يشبه الخط المستقيم ويسقطونه على مرآة ، فأروه ينعكس على سطحها بزاوية قاسوها فوجدوها مساوية لزاوية سقوط الضوء على سطح المرآة ، إذن فهي هو ذا قانون علمي عن ظاهرة الضوء وهكذا .

ونعود إلى حديثنا عن عصرنا بالمعنى الضيق الذي يحصر العصر في القرن العشرين فنقول إنه استمرار للثلاثة القرون السابقة في الاتجاه بالجهود العلمية نحو قراءة الطبيعة قراءة مباشرة ، إلا أن القراءة اختلفت أيجديتها عما كانت ، فبعد أن كان أساسها عند نيوتن وغيره من علماء الفترة السابقة هو أن أى شىء يبقى على حاله ، عاجزا عن أن يغير شيئا من وضعه ، حتى يأتيه عامل خارجي فيغيره ، فالجسم المتحرك في اتجاه ما يظل متحركا في هذا الاتجاه لا ينحرف عنه إلا إذا صدمه جسم آخر فيتغير لا يتغير إلا بفعل عامل خارجي ، هو الأساس الذي نقرأ عليه ظواهر الطبيعة في مسالكها جاء هذا القرن العشرون ليغير أساس القراءة فيجعل التغير نتيجة اعتمال داخلي في الشىء المتغير بالإضافة إلى ما قد يكون هنالك من مؤثرات خارجية ، ولماذا غير العلماء أساس القراءة ؟ أنهم فعلوا ذلك حين رأوا أن الفرض السابق قد ترك مشكلات بغير حل ، فكان لابد من بحث عن رؤية جديدة تفسر كل ما هنالك من ظواهر ، فمثلا كان قانون الجاذبية عند نيوتن مقبولا في الاجسام التي تقع في خبرة الإنسان ، لكنه لم يكن يصدق على طرفين الأجسام ذات الأبعاد

الفلكية البعيدة كالضوء الآتى من مصادر نائية يبعد ملايين السنين الضوئية وكذلك لم يكن يصدق على المكان اللامتناهى فى الصغر ، كحركات الالكترونات داخل الذرة فالالكترون يقفز من فلك إلى فلك آخر غير مقيد بقانون الجاذبية عند نيوتن ، وهكذا كانت هنالك مشكلات لاتحلها الرؤية النيوتونية التى كانت لها السيادة نحو قرنين ، وكان محورها أن المكان مطلق وأن الزمان مطلق ، وأن قوانين المادة فى حركتها حتمية الحدوث .

وجاء عصرنا ليرى غير ذلك ، فقرأ ظواهر الكون على أساس ، « النسبية » لا على أساس أن حقائق الكون مطلقة ، بمعنى أن كتلة أى شىء تتغير بتغير سرعته وأن أطوال الأشياء تتغير بتغير اتجاه حركتها وتفصيلات كثيرة فى هذا الصدد يعرفها العلماء المختصون لكن الذى يهمنا نحن ممن لا يعلمون إلا أقل من القليل عن تفصيلات العلوم الطبيعية وقوانينها هو أن التغير قد شمل طبيعة القانون العلمى نفسه ، فبعد أن كان يقينا رياضيا محتوما ، أصبح عملية إحصائية تنتهى بنا إلى درجة عالية من « الاحتمال » وذلك لأن الظاهرة الطبيعية لم نعد ننظر إليها على أنها محددة تحديدا قاطعا ، بل هى فى حقيقتها الموضوعية مذبذبة ولذلك فمقاييس أطوالها وأحجامها وسرعاتها إلخ تتغير قليلا فى كل مرة ويقتضى الأمر أن تؤخذ تلك المقاييس عدة مرات ليستخرج متوسطها فضلا عن أن أجهزة القياس نفسها تزداد دقة كلما تقدم العلم ، بل إن « تعريف » تقدم العلم هو ازدياد الدقة فى أجهزته ومع زيادة الدقة فى الجهاز تتغير أرقام المقاييس .

كان الفكر العلمى إبان القرن الماضى قد أخذ يتراكم فى توكيده
للرؤية الجديدة التى تجعل تغير الأشياء - والأحياء منها بوجه خاص -
مرهونا باعتمال كيانها الداخلى ، أى أن التغير لم يعد مقصورا على
العوامل الخارجية وحدها ، وجاءت أواخر القرن الماضى وأوائل هذا
القرن بذروة ذلك التراكم فى نظرية النسبية عند اينشتين فإذا يكون
وقع ذلك كله على « الإنسان » حين يتأمل حقيقة وجوده وصورة
العلاقات التى تربطه بالآخرين ؟ قد يدهشك أن نلقى هذا السؤال
عقب اللوحة الخاطفة التى قدمناها عن تغير الرؤية عند علماء الطبيعة
عما كانت عليه رؤية العلماء فى القرون السابقة ودع عنك رؤية ما
قبل هذا وذاك من عصورهم الوسطى لكن علم العلماء فى أى عصر
لا يخاطب الخلاء بل إنه علم يتبعه تطبيق والتطبيق لا يكون إلا فى
دنيا الناس ، فمحال أن يكون لعلم العصر المعين اتجاه وأن يكون لأهل
العصر اتجاه مضاد ، كل ما فى الأمر هو أن تغير النظرة العلمية يسبق
تغير الحياة العملية ريثما ينتقل التغير من النظر إلى التطبيق على أن
الأرجح أن يكون علم العلماء قد سبقه بفترة قد تطول يسودها مناخ
عام ينسج خيوطه السابقون لعصورهم من رجال الفكر والأدب
والفن وهذا هو بالفعل ما قد حدث فى حالتنا هذه فقد ظهر من
الفلاسفة والمفكرين ورجال الأدب والفن ، ابتداء من رومانسية
العشرات الأولى من القرن الماضى التى تبدت فى كبار الشعراء
والروائيين وفى فلسفة هيغل المثالية ثم فى فلسفة شوبنهاور ونيتشة التى
تجعل أولوية الحياة فى إرادتها قبل أن تكون فى تعقلها وكلها اتجاهات

تحول محور الارتكاز في تطور الحياة من تأثير العوامل الخارجية إلى اعتمال الدوافع الداخلية وانعكس الاتجاه نفسه في أواسط القرن الماضي على مفكرين من أمثال ماركس وفرويد وربما كان الشذوذ الوحيد هو نظرية « دارون » في التطور وكان ظهورها في أواسط القرن الماضي أيضا فهي وإن سارت عصرها في توجيه الاهتمام نحو فكرة التطور إلا أنها جعلت. تطور الكائنات الحية نتيجة عوامل البيئة الخارجية التي ترغب الكائن الحي على أن يتكيف لبيئته وإلا كان مصيره سرعة الفناء ، وهو اتجاه جاء عصرنا ليعلن نقيضه - وهو أن حياة الكائن الحي من الداخل هي التي بفاعليتها تملئ على البيئة شروطها وذلك بأن تغيرها لتجعلها أصلح لبقائها .

إلا أن العصر الواحد لا بد أن يسوده آخر الأمر صوت واحد ، وإلا فلا هو « عصر » ولا هو يحيا كما تريد له الحياة السوية أن يحيا ، فإذا كان العلم والفكر والفن والأدب قد عملت كلها خلال القرن الماضي وأوائل هذا القرن على أن تجعل الطبيعة تتحرك من داخلها - حتى ما هو مادي منها - فهل يمكن أن يأتي إنسان القرن العشرين ليترك نفسه فريسة عوامل خارجية تشكله كما أرادت ؟ تسعده أو تشقيه كما تشاء ، على أن زوال رؤية عامة لتأخذ مكانها رؤية جديدة ، تنتشر حتى تصبح هي الرأي العام بين الجماهير لا بد له من رجة كبرى تهز أوضاعا بالية فتهدمها لتقام أوضاع جديدة وكانت هذه الرجة هي التي تمثلت في حريين عالميتين وفي سلسلة من الثورات توسطتها أو أعقبتها مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية وبينها ثورة مصر

١٩١٩ وثورتها ١٩٥٢ أولاهما عقب الحرب العالمية الأولى والثانية عقب الحرب العالمية الثانية وثورات أخرى رأيناها بعد ذلك بقليل في بعض أقطار العالم العربي وفي كثير من بلدان القارتين الآسيوية والإفريقية فإذا أرادت كل هذه الثورات لشعوبها ؟ الجواب في ضوء ما ذكرناه هو أنها أرادت حياة الإنسان فردا أو شعبا أن يكون له ما لسائر كائنات الأرض والسماء من إرادة تغيير نفسها بنفسها .

لكن شيئا يلفت أنظارنا فيما تميزت به العناصر المختلفة التي أخذت في الظهور منذ أواخر القرن الماضي والتي اتجهت منذ ظهورها تتصافر عنصرا مع عنصر لينتهي أمرها إلى أن ينسج بعضها مع بعض في حياة هي الحياة التي يحياها العالم الآن وذلك هو أن تلك العناصر المستحدثة كانت تنطوى على ضدين في وقت واحد إذ تنطوى على ما من شأنه أن يزيد من حرية الإنسان مما يقيدته في انطلاقة فكره ونشاطه ثم ينطوى في الوقت نفسه على ما يزيد قيوده قيودا من نوع جديد وأول ما نذكره في هذا الصدد هو ما أخذ يظهر منذ أواخر القرن الماضي وطفق منذ ظهوره وإلى يومنا هذا يشب وثبات سريعة جبارة حتى لقد أوشك أن يطوى الحياة الإنسانية بكل أطرافها تحت جناحيه وأعني به « العلم التكنولوجي » وهنا أود للقارئ أن يمعن النظر في قولنا « العلم التكنولوجي » ليلم بما تعنيه على وجه الدقة حتى لا تنقلب عليه العادة التي لا بد أن تكون قد تجمدت فيه من كثرة تكرار هذه العبارة أو ما يقرب منها مأخوذة عن غير فهم صحيح فأولا لا ينبغي لنا أن نتجاهل حقيقة هامة هي أن هذا الطراز الجديد

من « العلم » يختلف اختلافا بعيدا عن صور « العلم » التي سبقت فيما سبق من مراحل التاريخ ، وأساس الاختلاف هو استخدام الأجهزة في عملية البحث العلمى بصفة أساسية ولم يكن العلم فى تاريخه كله قد عرف قبل ذلك استخدام أجهزة تساعد على دقة البحث إلا بدرجة لا تكاد تستحق الذكر ، وحتى ذلك القليل من الأجهزة الذى كان إنما كان على درجة من البساطة شديدة لا تقاس بما نألفه اليوم فى أجهزة العلم من دقة بعيدة المدى وثانيا يحسن بنا أن نكون على وعى يقظ بأن معنى كلمة تكنولوجيا فى هذا السياق ليس كما أصبح شائعا فى الناس الآلات التى تنتج آخر الأمر ليستخدمها الناس فى حياتهم من مصانع وأدوات للحياة اليومية كالسيارات وأسلحة القتال والثلاجات وغيرها فهذه كلها ثمرات نتجت عن العلم التكنولوجى فكلمة تكنولوجيا عندما استعملت لأول مرة فى المجال العلمى إنما قصد بها منهج البحث العلمى عن طريق استخدام أجهزة تساعد على دقة النتائج وإذا جاز لنا أن نصف عصرنا بأنه عصر التكنولوجيا فذلك لأن الأجهزة العلمية قد كثرت وتنوعت وازدادت دقة حتى أصبحت ملمحا بارزا من ملامح العصر ولم يكن العصر الواحد من العصور السابقة يعرف فى ميادينه العلمية إلا عددا قليلا وبسيطا من أجهزة البحث العلمى بحيث لم يكن من حقه أن يصف نفسه بهذه الصفة وثالثا أن الأجهزة العلمية قد أخذت تتطور بسرعة شديدة حتى لتتعاقب الأجيال فى كل نوع منها تعاقبا سرعانا ما ينسخ جديدها قديمها مما يعمل على تغير وجه الحياة تغيرا يفوق شطحات

الأحلام وكان لهذا التغير السريع أثره العميق في بنية المجتمع إذ أصبحت الخبرة الأكثر في أيدي الشباب بعد أن كانت على مدى التاريخ في أيدي الشيوخ .

وأخذت الآلات الناتجة عن العلم التكنولوجي من الكثرة والكفاءة بحيث وصلت إلى بيت الريفي في قراه وكفوره ونجوعه ولأول مرة في تاريخ الإنسان يمد « العلم » أطرافه بما ينتج عنه إلى أبعد بعيد من حياة الناس اليومية ، لقد كان العلم فيما مضى يشغل جماعة العلماء فيجئ ويمضي دون أن يشعر بمجيئه ومضيه إلا أقل من القليل بين أفراد يعدون على الأصابع ولو أن تلك الآلات التي أنتجها العلم وجهازه كانت ضعيفة الأثر في الجانب الكيفي من حياة الإنسان لما حق لنا أن نطيل عنها الحديث ولكنها جاءت لتزيد من حرية الإنسان بما لم تستطع أن تحققه كل القرون الماضية مجتمعة فخذ معنى « الحرية » من أى جانب شئت تجدها قد زادت بفضل أجهزة العلم وما نتج عنها من آلات وأدوات زيادة تلفت النظر ألم يكن الإنسان إلى عهد قريب يحمل الأثقال على ظهره وكفيه كأنه دابة من دواب الحيوان ؟ بل إنه لا يزال كذلك في كثير من بلدان العالم المتخلف ؟ فجاءت الآلة لتحمل عنه هذه الأثقال وانظر إلى العمارة تبنى في بلادنا وإلى العمارة تبنى في بلد تقدمت آلاته فالإنسان عندنا لا يزال يحمل الحجارة والرمل وكل ما تتطلبه عملية البناء والإنسان في البلد المتقدم لم يعد يحمل شيئاً تلك إذن حرية بدنية انتقل منها إلى حرية « عقلية » وانظر كم يستعين الإنسان في بلد متقدم بالجهاز والآلة على معرفة ما لم

يكن ليعرفه أحد من قبل إذا اعتمد على حواسه وحدها وعلى قوته
الذهنية وحدها وبديهي أن حرية العقل مقرونة بسعة المعرفة إذ ماذا
تجدي كلمة حرية في مجال التفكير إذا لم يكن في حوزة الإنسان معرفة
بطبائع الأشياء التي يريد أن يكون « حرا » في استخدامها ؟ الحق أننا
نقول لغوا إذا مضينا في ذكر ما قد بات جزءا لا يتجزأ من حياة
الإنسان المعاصر وكل ما في الأمر من اختلاف بين إنسان هنا وإنسان
هناك هو اختلاف في درجة الحرية البدنية والعقلية فكلما ازداد
استخدام الأجهزة والآلات ازدادت معه الحرية ، وكلما قل قلت
ولكن هل جاءتنا تكنولوجيا بما جاءت به من حرية البدن والعقل
منحة خالصة من الشوائب والأضداد ؟ كلا ، كلا فحياة الإنسان لا
تعطيه النعمة إلا إذا اقتصت منه الثمن باهظا كأنها المراهي اليهودي في
مسرحة « تاجر البندقية » قد أعطى ليسترد مقابل ما أعطاه لحما ودما
من جسد من نعم بعبثاته وهكذا أنعمت علينا تكنولوجيا العصر بحرية
لم يكن أسلافنا ليحلموا بجزء منها لكنها أعطت بشاها ما اقتصت
أضعافه يمينها ، قيودا على قيود لم يكن ليشقى بها أسلافنا فالعامل في
مصنع حديث ينتج الكثرة الغزيرة أما هو في شخصه فقد سلبه ذلك
المصنع نفسه فرديته وحريته وجعله لا يزيد إلا قليلا على أى مسمار أو
ترس من مسامير الآلات وتروسها أنه يعمل من الصباح إلى غروب
الشمس دون أن يعلم ماذا صنع ولماذا ؟ لأنه مكلف بجزء يسير لا
معنى له عنده يكرره ويكرره آلاف المرات دون أن يدري كيف
بدأت السيرة وإلى أية غاية تنتهى ؟ فأصيب العامل بما نقرأ عنه من

ويلات الحياة الصناعية : قلق وتمزق واغتراب وملل ويأس وضعية
إيمان بقيمته وقيمة حياته .

وانظر إلى أمثلة من الأجهزة التي تنتجها مصانع التكنولوجيا مما له
صلة بحياة الإنسان الخاصة كالراديو والتلفزيون تجدد إلى جانب
فوائدها العظيمة في طريق المعرفة والتنوير وفي التسوية بين عباد الله
غنيهم وفقيرهم في قضاء أوقات الفراغ فجميعهم على السواء
يشاهدون ويسمعون ما يشهده الجميع ويسمعونه ولكن اقلب صفحة
هذه النعمة لترى النعمة كامنة في ظهرها فأولا - كان حتما محتوما
بطبيعة الحال أن تراعى أغلبية الجمهور فيما تعرضه هذه الأدوات ومن
ثم وجب تبسيط المعرفة وتسطيحها ؟ ووجب كذلك تفتيتها وجبات
مجزأة بحيث لا يزيد عرض الموضوع الواحد على أكثر من بضع دقائق
ومن هذه الأشياء المبتورة أصبحت تتكون ثقافة من يتثقف ، ومع
ذلك فلا تقاس هذه البلوى بالنكبة الكبرى التي تلحق بحرية الإنسان
فتأمل كم أعطتنا من حرية العقل بما قدمته لنا من معارف وكم
سلبت من حرياتنا حين حتمت على المستقبل أن ييلع المر ولا
تناقش ، وتبلغ النكبة أقصاها عندما يهبط على الشعب مستبد
وعندئذ فلا يسمع المتلقى إلا كلمة واحدة هي كلمته ، ولا غرابة أن
نجد زعيم الانقلاب حيثما وقع انقلاب يسرع أول مايسرع إلى دار
الإذاعة فإذا سيطر عليها فقد قطع معظم الطريق إلى ذروته ولا نقول
شيئا عن ويلات الحروب الحديثة بما أمدتها به العلم الحديث وتقنياته
فذلك مكرور معاد ومعلوم للكبار وللصغار .

وللحديث بقية نستكمل بها صورة عصرنا وأين يقع العربى منه
وأين يقع هو من قلب العربى وعقله .

٢

فتح القرن العشرون أبوابه على أفكار ضخمة غزيرة الثراء ،
أفرزتها عقول الجبابرة من أبناء القرن الماضى ، ولكن القرن الماضى لم
ينعم ولم يشق بالعيش فى ظلال أفكاره ، وترك لخلفائه من أبناء هذا
القرن العشرين ، أن يحللوها ويبسطوها ويطوروها ، لتخرج بهم آخر
الأمر من حياة ذهب عهدها ، إلى حياة جديدة فى عهد جديد ،
وكانت هذه هى سنة الحياة الفكرية على امتداد تاريخها ، فرجال
الفكر يفرزون فكرهم الرامى إلى التطوير والتعديل ، ثم يذهبون مع
ذهاب جيلهم دون أن يتسع لهم الوقت ليروا ثمرات فكرهم وقد
سارت بأرجلها على الأرض أو طارت بأجنحتها فى السماء ، لأن
هذه الغمار الحية التى تتفتق عنها الأفكار ، إنما هى مقسومة للجيل
اللاحق أو الأجيال اللاحقة ، وهكذا كان الأمر حين ورثنا نحن أبناء
هذا القرن العشرين ، عن القرن الماضى ، وكان علينا نحن أن نستولد
تلك الأفكار نتأججها لنحيا بها ولها ، ولقد أسلفنا لك القول فى حديثنا
الماضى ، بأن تلك الأفكار الضخمة القوية الغنية بما انطوت عليه من
غزارة الفحوى ، وإن تكن قد اختلفت مياديتها ، إلا أنها جميعا
أوشكت أن تدور معا على مدار واحد ، هو أن الحقيقة الكونية فى

مجموعها ، وأن كل كائن حى مفرد من كائناتها ، جوهره « الحركة »
وليس « السكون » ، وأن كل شىء تنبع له حركته التى يتغير بها
ويتطور من داخله ، وليس كل التغير ناشئا عن فعل العوامل
الخارجية .

وكان من الطبيعى أن تتولد عن هذا التحول رؤية علمية
جديدة ، ترى الأشياء نامية متطورة متغيرة ، بعد أن كانت الفكرة
العلمية قائمة على افتراض الثبات والسكون والدوام على حالة
واحدة ، فلا يتحرك ساكن إلا بعامل خارجى يحركه ، ولا يسكن
متحرك إلا بعامل خارجى يوقف حركته ، وكان السؤال إذا مارأى
الناس متحركا أن يسألوا : ما الذى بث فيه الحركة ، فأصبح السؤال
إذا مارأى الناس ساكنا أن يسألوا ما الذى جمده فيه حركته ؟
واختصارا كان الثبات الساكن هو الأساس المفترض ، فأصبح التغير
المتحرك هو ذلك الأساس ، ولا عجب أن ترى ذلك كله قد
انعكس فى فلسفات « التطور » التى شغلت كثيرين من فلاسفة القرن
الماضى والقرن الحالى على السواء .

ومع هذا التغير فى الرؤية العلمية ، من السكونية إلى الحركية ،
أضيفت للعلم قوة منهجية تتمثل فى استخدامه للأجهزة فى بحوثه
استخداما على نطاق واسع ، حتى أصبحت هذه الظاهرة معلما من
أبرز معالم عصرنا ، وهى ظاهرة التكنولوجيا أو « التقنيات » . وقد
أسلفنا لك فى حديثنا الماضى أن المعنى الأساسى لهذه الكلمة كان يشير
إلى منهج البحث ، ولكنه اتسع مع الأيام ليضيف جانبا آخر ، وهو

الشائع اليوم بين الناس ، وذلك هو أن يطلق هذا الاسم نفسه على المصنوعات التي تنتج عن استخدام ذلك المنهج ، وبعبارة قصيرة نقول إن التعبير الصحيح بادئ الأمر ، هو قولهم ، العلم بالتكنولوجيا ، ثم غلب على الناس اليوم أن يقولوا « العلم والتكنولوجيا » كان العلم شيء يسبق ، والتكنولوجيا شيء آخر يتبعه في الظهور .

وفتحت أبواب القرن العشرين ، فيما فتحت عليه ، على هذا الضرب الجديد من العلم الذي يقام على أجهزة ، وينتج بدوره أجهزة ، وكانت لهذه الحداثة العلمية حسناتها وسيئاتها ، كان لها خيرها وشرها ، وفي طليعة خيراتها - كما بينا في الحديث السابق - ما كسبته للإنسان من حرية يتحرر بها من قيود الطبيعة المادية ، بعد أن طال العهد بالإنسان عبدا لها ، فمن ذا الذي استطاع من بنى الإنسان ، منذ دب إنسان على الأرض بقدميه ، أن يغوص في أغوار البحر كما غاص إنسان اليوم ، أو أن يطير في أطباق السماء كما طار ، أو أن يسرع في انتقاله على اليابسة كما أسرع ؟ من ذا استطاع في كل من شهدهم التاريخ ، أن يخترق الجدران بضروب الأشعة ليرى ما وراءها ويسمع ؟ فطبيب اليوم يكشف في جسم مريضه عن كل خبيء مستور في القلب والرئتين والمعدة والأمعاء ، دون أن ينخدش خدش في جسم المريض .. ومن ذا الذي استطاع من أطباء الأمس القريب والبعيد ، أن يستبدل في الإنسان المريض بقلبه التالف قلبا صحيحا ، وبكليته الفاسدة كلية سليمة ؟ من الذي أرغم جفاف

الصحراء أن ينتج الغلال والخضر والزهور كما أرغمه إنسان اليوم ، ثم من ذا الذى جرؤ أن يصنع ما يشبه العقل الإنسانى فى جهاز كما جرؤ إنسان اليوم !!!

ولن نستطرد أكثر من هذا فى ذكر ضروب من سيطرة الإنسان على تمرد المادة وعنادها بفضل العلم الجديد وتقنياته ، لكى نقلب صفحته الأخرى التى ملئت بقيود واغلال قيدت الإنسان وغلته بسبب العلم الجديد وتقنياته ، وقد ذكرنا فى حديثنا الماضى أمثلة لذلك فيها الكفاية ، إلا أن إنسان العصر لم يقف عاجزا أمام هذه العلوم ، نعم بنجرها ويشقى بشرها وهو فى حيرة من أمره ، بل هو يحاول أن يجد لسموم حضارته الجديدة ، لعلها التقنى الجديد ، ترياقها ، فإذا كان العلم الجديد بما يفرضه على طبيعة الإنسان من ضوابط وقيود ، قد سلبه تلقائيته الفطرية ، بمثل ما أضاف له حرية إزاء الظواهر الطبيعية التى لم يكن له إزاءها حول ولا قوة ، فقد شاع فى نفسه شعور بالضيق للتلقائية الحرة التى ضاعت ، أكثر مما شاع فيها من رضى وطمأنينة بالحرية المكسوبة ، التى امتدت بشيء من السيادة على عناصر الطبيعة التى تحيط به ، ومن ثم راح ينشئ لنفسه أدبا جديدا ، وفنا جديدا ، روعى فيهما أن تكون النبرة الذاتية الخاصة بالمبدع ، أعلى صوتا وأبرز ظهورا من الجانب الذى يشير إلى وقائع الكون الخارجى وقوانينها ، راجيا بذلك أن يعتدل له الميزان بين داخل وخارج ، أو بين ذات وموضوع .

فرأينا فى الأدب الجديد صورا اغترفها الأديب المبدع من ذات

نفسه اغترافا ، حتى ليكاد المتلقي أن يتعذر عليه الفهم ، إذ الفهم ميسور حين تكون الإشارة إلى « واقع » مشترك بين المبدع من جهة والمتلقي للثمرة إبداعه من جهة أخرى ، أما حين تنعدم ، أو تكاد تنعدم تلك الحلقة الوسطى ، فهأنا يتعذر جدا في كثير من الأحيان أن نجد المتلقي ما يفهمه حق الفهم فيما يطالعه من شعر أو رواية أو مسرحية من الأدب الجديد ، اللهم إلا أن يتولى ذلك دارس متمكن ، يستطيع أن يرجع إلى مراجع المكتبة الأدبية ، ليتعقب الغوامض إلى أصولها عساها تضيء له ما قد غمض عليه واستعصى ، وهذا هو ما رأيناه في الأدب الأوروبي الجديد عقب الحرب العالمية الأولى ، بل وإن مبدعى الأدب عندئذ لم يجعلوا أمرهم سرا على الناس ، وأعلن بعضهم صراحة بأنه قد تعمد الغموض إلا على القادرين ، وأما العامة من جمهور القراء - إذا جاز هذا القول - فلم يكونوا عندهم بذوى خطر يحسب له حساب ، وإلا فكيف أمكن أن تصل بهم الغفلة وسهولة الانقياد حدا يستسلمون معه للسانة الذين تغريهم حرفة السياسة وحقاقتها أن ييثوا الفرقة بين الإنسان والإنسان ، ويشعلوا الحروب نارا لا تبتقى ولا تذر ، وإذا لم يكن أمر المبدعين للأدب في العشرات الأولى من هذا القرن هو كذلك « في الغرب » فلمن - إذن - كتب « جيمس جويس » روايته « يوليسيز » عصية الفهم إلا على الدارسين ، ولمن كتب « ازراباوند » شعره الذى ملأه بمفردات من لغات مختلفة يكاد يستحيل على قارئ فوق متوسط القراء أن يقرأ ليفهم ، إلا إذا قرأ وهو فى مكتبة جامعية تعددت فيها قواميس

اللغات ، لا يستثنى منها اللغة الصينية واليابانية .
كان ذلك ضربا من ضروب الألغاز في أدب هذا القرن في
عشرات أعوامه الأولى ، وكان بعض التعليل لتلك الظاهرة هو أن
مبدع الأدب قد أراد أن يطلق لنفسه العنان إقرارا وتثبيتا لوجودها ،
فيشعر بحريته الشخصية وقد ردت إليه بعد الذى فقدته في عالم العلم
والصناعة ، بما في ذلك العالم من ضوابط وضوابط !! لكن ذلك
لم يكن هو الضرب الوحيد فيما لجأ إليه مبدعو الأدب في هذا
الصدد ، بل لجأ نفر كبير منهم عن عمد وتدبير ، إلى مركبات لغوية
لا تفهم بالطريقة المألوفة لفهم المقروء ، قائلين في ذلك إنهم
لا يعرضون على الناس « فكرا » واضح الحدود حتى يطالبهم القراء
بالفهم المحدد الصريح ، لأن ذلك أمر متروك « للعلم » في ميادينه ،
وأما الأدب فتصاغ عبارته « لتوحى » ، فإذا أفلحت في الإيحاء
للقارئ بالحالة النفسية المطلوب اشاعتها في النفوس ، فقد أفلح
الأدب في أداء رسالته .

وربما كان اتجاه الفن الجديد إلى التمرد على « علمية » عصرنا وما
قد طغت به على روح الإنسان المتطلعة بطبيعتها ، الحرة في تلقائيتها
وفي تفرداها ، أقول إنه ربما كان التمرد على نمطية العلم والصناعة في
عصرنا ، أوضح ظهورا في الفن منه في أى مجال آخر ، فكلنا يلحظ
كم تحلل الفنان التشكيلي الجديد من الروابط التى تربط مبدعاته
بصور الأشياء كما تقع في الخارج ، وطفق ذلك الفنان يبتكر لحريته
تلك أسلوبا جديدا في كل يوم ، فهو اليوم « تجريدى » وكان

بالأمس « تكعيبيا » أو « سرياليا » ، وسوف يكون غدا مزيجا من هذا وذاك ، إنه لا يريد أن يكون مسئولا في إبداعه الفني إلا عن طريقة استخدامه للألوان والخطوط والفراغ والملاء في مسطح لوحته ، فهو - كما شاع القول - ينتج « موسيقى للعين » كما ينشئ الموسيقىار موسيقى للأذن ، فهل يجوز لسماع المعزوفة أن يسأل الموسيقىار : أين المقابل الموضوعى لمعزوفتك في الطبيعة التى تحيط بنا ؟! فإذا كان هذا السؤال غير وارد فى دنيا الأنغام ، فيجب كذلك ألا يرد فى دنيا الألوان والخطوط ، ووراء هذه الحرية الذاتية فى الإبداع الفنى ، يكمن الدافع الأساسى ، وهو أن تقنين العلم والصناعة فى عصرنا قد أزحق روح الإنسان وأرهقها ، فانتقم لنفسه بأسرافه فى الركون إلى ذات نفسه فيما يقوله شعرا وما يعزفه موسيقى وما يرسمه ألوانا وخطوطا ، لاسلطان عليه فى ذلك إلا قواعد الفن ذاته .

وهنا نخرج بالحديث إلى الأدب العربى وإلى الفن العربى كما نراهما الآن ، لنلاحظ فيها ملامح مما قد جرى فى الغرب ردا لفعل العلم والصناعة هناك ، فلا يسعنا إلا التساؤل فى شىء من العجب : لأى المؤثرات فى حياتنا العربية يستجيب رجال الأدب والفن عندنا ؟.. إن العربى لم يشارك العالم الحديث فى علمه وفى صناعته بأكثر من أنه يشتري مؤلفاته العلمية ليتعلم العلوم الحديثة .. ويشتري مصنوعات الجديدة لينعم بها ، فلا هو عانى فى ساحة العلوم إبداعا ، ولا هو قد مارس حياة الصانع وهو يبتكر فى صناعته أشكالا جديدة ، فما الذى

ضغط على نفس العربي حتى ضاقت ودفعته دفعا إلى التمرّد في دنيا الإبداع الأدبي والفني ، إنفاذا لتلقائيتها الطبيعية التي أفقدتها إياها معاناة العلم في انضباطه ، ومكابدات الصناعات في دقتها ؟ بل إن العربي في الحربين العالميتين الأولى والثانية لم يشارك محاربا في ساحات القتال ، وإنما كان موقفه موقف المتفرج ، كلا ، بل كان موقفه موقف من وقف يتنظر حكم القضاء فيه ، إذ أن تلك الحروب إنما وقعت بين ضباع يقتتلون على فريسة ، وبين الفرائس المقتتل عليها كانت الفريسة العربية !!

أفيحل للشاعر العربي-أو الأديب العربي ، أو الفنان العربي- أن تضيق له نفس وأن يضطرب له قلب بذات الصورة التي ضاقت بها نفس الشاعر في الغرب واضطرب قلبه ؟ ومع ذلك فقد شاع فينا شعر جديد انصرف فيه الشاعر إلى ذات نفسه انصرافا تاما ، وأخذ يغترف من تياره الشعوري الباطني ما ليس يفهم له معنى إلا صاحبه ، أو ناقد متحذلق يدعى أنه يعلم ؟ نعم لقد كان مايريده الشاعر دائما- أيا كان مكانه وزمانه - لاينكشف كله للقارئ ، بل يظل بعض المعنى المقصود حبيسا في « بطن الشاعر- كما كان العرب يقولون - لكن تبقى بين المعلوم والمجهول من معنى الشعر المعروض ، نسبة معقولة ، ومن هنا استطاع القارئون أو السامعون درجة من الفهم ، حتى ولو بعدت مسافة المكان وفترة الزمان ، وإلا فكيف يتاح للعربي اليوم أن يفهم بدرجة كافية ، شعرا أنشده أصحابه منذ خمسة عشر قرنا ؟ لكن اقرأ لشاعر عربي جديد ، أو استمع ، تجدك أمام مركبات لفظية قد

تردعك بشفايتها ، وإيحائها ، وهى فى كل الحالات تشير إلى باطن أكثر جدا مما تشير إلى ظاهر ، وسؤالنا المطروح هنا هو : ماذا دعا شاعرنا الجديد إلى هذه الضبابية الموحية وليس هناك فى حياته العصرية إلا سلبية يتلقى بها علوم الغرباء ومصنوعاتهم ؟!! ربما جاءك الجواب بأن أزماتهم فى الوطن العربى من نوع مختلف عن أزمات المبدعين فى الغرب ، لكنها أزمات على أية حال جاءت ، فإذا كانوا فى الغرب قد ضاقوا صدرا بضبط العلم ودقة العمل فى المصانع ، فنحن قد ضاقت صدورنا هنا بأفاعيل السياسة الخارجية ، ومظالم السياسة الداخلية ، فقد تزهق نفوسهم هناك معاملة العلم ومصانع الإنتاج ، وتزهق نفوسنا هنا معتقلات وصور مختلفة من الاضطهاد والتعذيب والانتقام وكم الأفواه ، فضلا عن ضيق اقتصادى فى العيش تتعذر مع الحرية لو أردناها ، فأى عجب - إذن - أن ينكب الشاعر على ما قد طواه بين ضلوعه من هموم ؟ وجوابنا على ذلك هو حيرة لا تعرف كيف تجيب ، اللهم إلا « حدسا » نرى به ما لا نملك له برهان العقل ، والذى نراه بذلك الحدس المبهم هو أنه مادامت قد اختلفت همومنا نوعا عن همومهم ، إذ اختلفت مصدرا وطبيعة ، فقد كان المتوقع المرجح - إذا لم تتدخل سلبية المحاكاة العمياء - أن يجرى رد الفعل على صورة عربية فريدة فى نوعها وطبيعتها ، وهذا الذى نقوله الآن يصدق على الأدب صدقه على الفن بجميع أشكاله ، ونسوق مثلا : فقد نشأ فى الغرب أدب « العبث » أو ما أسميناه نحن عندئذ بأدب « اللامعقول » ، وكان الدافع إليه هناك هو الدافع نفسه

الذى بسطناه فيما سلف ، وهو أن ظروف الحياة العصرية قد مزقت المجتمع الإنسانى شعوباً وافراداً ، تمزقاً نشأ عنه عدم التفاهم بين متكلم وسامع أو بين كاتب وقارئ ، إذ أنسدت قنوات التفاهم بين الطرفين ، فما يقصده المتكلم لا يصل إلى قلب السامع ، لاختلاف نظرتيه ، فيجيب جواباً بعيداً عن سياق الحديث ، وهكذا جاء هذا الأدب إنعكاساً للحياة المعاصرة هناك ، فأغرى أدهم العبثى هذا بعض أدبائنا لينسجوا على منواله وكان اعتراضنا عندئذ هو أن مادفت إليه ضرورات الحياة هناك ليس حتماً أن يكون هو ماتدفع إليه الضرورة هنا ، ففيم المحاكاة ؟.. أنهم هناك قد شبعوا إلى حد التخمّة علماً وصناعة ، فضاقت صدورهم ، وأما نحن فلم نعبّر بعد عتبة الدخول إلى دنيا العلم والصناعة ، اللهم إلا فى صورة سلبية متلقية ، ليس فيها عناء المبادرة والكشف والإبداع ، فلماذا نفرغ حينئذ إلى العبث كما يفزعون ؟.

والمفارقة التى تلفت النظر حقاً ، هو أننا قد نسرع إلى الأخذ بكل بدعة جديدة تظهر فى الغرب ، إذا جاءت فى ميادين الأدب والفن ، لاتقف لنرى فى تلك البدعة مايمكن أن يلتئم منها بتيارنا الذوقى ومالايمكن ، فى الوقت الذى نتردد ألف مرة إذا مادعينا إلى الأخذ بالجانب المنهجى من الحياة العقلية العلمية عندهم ، حتى لقد انقضى على لقائنا الحديث مع الغرب نحو قرنين ، دون أن نفتتح صدورنا وعقولنا للواقفة العقلية العلمية التى هى عماد الحضارة الحديثة ، لأنها هى التى انتهت بهذه الحضارة إلى مايميزها من علمية

النظر حتى في المجالات التي لم يكن مألوفاً من قبل أن يندرج في دائرة المنهج العلمي ، وبصفة خاصة ما يختص منها بالإنسان وحياته الفردية والاجتماعية ، فإذا كانت حياة الغرب في حضارته الجديدة تقوم على ركيزتين : إحداهما علم من النوع التكنولوجي الجديد ، والأخرى فنون وآداب جديدة تسرف في الاغتراف من تيار الشعور الداخلي. لعل ذلك يعين الإنسان على تقرير ذاته أمام طوفان الآلات التي يتدفق بها العلم ، والتي من شأنها أن تحوله ليكون عبداً لها بعد أن كان الظن أن يكون سيدها ، أقول إنه إذا كانت حضارة الغرب الحديث تقوم على هاتين الركيزتين ، فقد كان موقف العربي الحديث منهما هو أن يفتح ذراعيه في فرحة الطفل ، ليستقبل كل جديد في ناحية الفن والأدب ، وأن يعرض عن قبول الوقفة العقلية العلمية إلا في حدود ما يحفظه أثناء دراسته ، حفظاً لا يصاحبه قلب مطمئن مؤمن ، مع أن منطق الحياة السوية يصرخ بأنه إذا كان الإنسان ليقبل أحد الجانبين دون الآخر لأي سبب من الأسباب ، فالجانب المتصل بالذات الإنسانية وذوقها - وهو جانب الفنون والآداب - هو الذي لا يؤخذ عن الغرباء بل يترك لينبع وينمو داخل الحدود ، وأما الجانب العقلي العلمي فهو مشترك بين الناس جميعاً ، فلا خير في أن يأخذه عربي عن يوناني أو عن هندي أو عن إنجليزي أو عن شاعر له الحظ من سائر الشعوب أن يكون له السبق في علم أو ما يترتب على علم ، لأن ذلك كله وليد العقل ، والعقل إنساني مشترك ولا بد لنا أن نذكر هنا عن آباءنا العرب الأولين ، حين فتحو أبوابهم ونوافذهم على

الحضارات القديمة المجاورة لهم ، لينقلوا عنهم ما أرادوا نقله ، لم يترددوا في نقل كل ما استطاعوا الحصول عليه من نواتج العقل البشرى ، كالعلوم والفلسفة ، لكنهم أحجموا على نقل الأدب ، إذ لم يتصوروا إلا أن يكون الأدب نباتا محليا ينبت في وطنه الذى يتسمى إليه ..

وربما تساءل قارئ هامسا لنفسه : لماذا يزعم لنا هذا الكاتب - كما رأيناه يزعم دائما - أن العربى الحديث قد تردد في قبول الجانب العقلى العلمى من حضارة الغرب الحديث ، وهامى ذى جامعاتنا وسائر معاهدنا الدراسية ، مكبة على ذلك العلم بشتى فروعه ومختلف درجاته ، والجواب على ذلك هو أن نطلب من القارئ المتسائل أن يفرق بين « حفظ » ما نثلقاه من علوم الغرب ، ثم ممارسة تلك المادة المحفوظة في حياتنا العملية ممارسة تنحس في حدودها ، وبين حالة أخرى يتشرب فيها منهج ذلك العلم ليستعمله - أولا - في المشاركة الإيجابية في الكشف العلمى ، و - ثانيا - ليحمل ذلك المنهج العلمى في صدره ميزانا يزن به الأفكار العامة ، كلما نشأت عند الناس فكرة يقابلون بها مشكلة عرضت لهم في حياتهم .

لكن انظر حولك بعين نزيهة ، وارقب شعور العربى كما يعبر عنه في مناسبات كثيرة ، نحو « العلم » وحدود قدرته ، ونحو « العقل » وعجزه ، ولم يكن مثل هذا الحذر في تقدير الإنسان لقدراته ليشير القلق ، لأنه حذر مطلوب حتى لا يسرف الإنسان في ذلك التقدير إسراف الطفل الغرير الذى يمد ذراعه ليمسك بالقمر ، لولا أن العربى

حين يسخر من منجزات العلم الحديث ، ويهزأ بالعقل الإنساني وقدرته ، إنما يفعل ذلك على ظن منه بأن مثل هذه الوقفة ترضى ضميره الديني ، وبأنها وقفة تتضمن أن اعتزاز الإنسان بعقله ، واعتداده بقدرته العلمية كما تشهد بها منجزاته الحديثة ، فيه جرأة على رب العالمين ، الذي هو العليم والذي هو القدير ، وكأن أحدا من الناس على مدار الكوكب الأرضي جميعا ، يسبق إلى وهمه في مثل هذا السياق ، إنه خالق عقل نفسه ، ولذلك فهو صاحب الفضل في كل مايتيج عن ذلك العقل من علم ومنشآت ونظم ، كلا ، إن شيطانا وسوس للعربي منذ نهض في أوائل القرن الماضي وإلى يومنا ، بأن العقل وقدراته رجس ، فلا يجوز الاقتراب منها بأكثر من أطراف الأنامل ، وإن شئت أن تتبين ذلك ، فقارن مقارنة متأنية بين معظم أوطان الجنس الأصفر - الصين - واليابان ، وكوريا ، وتايوان وغيرها - في الروح التي يأخذون بها الجانب العلمي والصناعي من الحضارة الحديثة ، دون أن يكون في ذلك اهدار للذرة واحدة من قوميتهم ، أقول : قارن تلك الروح بروح العربي إزاء هذا الجانب ، ولو كان العربي في غنى عن العلم ومنجزاته لقلنا معه : كفى الله المؤمنين شر القتال .. لكنه من أكثر أهل الأرض إقبالا على شراء تلك المنجزات ، يذكرني ذلك بخبر سمعته عن صديق ، أعيده هنا لنضحك تخفيفا مما يثقل قلوبنا بالحسرة والأسى ، على عربي أراد له الله سبحانه وتعالى أن تكون له الريادة ، وأراد لنفسه التبعية ، فيقول الخبر ان بلدا عربيا يقع على شاطئ بحر يكثر فيه السمك ،

لكن أهله لا يصيدونه لأنهم لا يأكلونه ، وجاءت إلى أرضهم شركة أوروبية وأقامت مصنعا ، فيصاد السمك ويقوم المصنع بتجهيزه وتعليبه ، فأقبل الناس عندئذ على شرائه في صورته المصنعة !! ولتذكر أن الشركة الأوروبية قد استخدمت أهل البلد في عملية الصيد وقام مصنعها بالاعداد والتعليب ، وفي هذا الخبر موازاة مع ما كنا بصدد الحديث فيه ، فقد وهبنا خالقنا عز وجل « عقولا » لتنجز ما يتفق مع طبيعة العقل ، وطبيعته فكر وعلم وزراعة وصناعة إلخ .. فاهملنا عقولنا في ادمغتها ، عزوفا عن إعمالها فيما خلقت لتؤديه ، فلما أنجز الغرب ما أنجزه بعلمه ، اشتريناه !!!

لكل عصر فكرة تميزه ، لا يشذ عن ذلك عصرنا ، وفكرته - أساسا - هي أن يقرأ الطبيعة قراءة جديدة ، لم يقرأها من قبل عصر آخر ، وهي قراءة نتجت عنها للإنسان حسنات وسيئات ، فن العلوم الجديدة وتطبيقاتها نشأت حرية أوسع أفقا وأعمق غورا ، حين تحرر الإنسان بفضلها من عوائق الطبيعة ، لكن المصدر نفسه قد أدى إلى قيود من نوع جديد فرضت على الإنسان ، كادت تُفقد هويته وذاتيته ، لولا فنون جديدة وآداب جديدة وبعض النظم الجديدة ، عملت كلها على إعادة التوازن ، وهذا هو عصرنا بخيره وبشره ، ولست أطالب العربي بأن يسبح في بحره عن صمم وعمى ، بل أطلبه بأن يشارك بنصيب في الامساك بعجلة القيادة ، ليحمل مع غيره تبعات عصر هو يعيش فيه ...

حوار غريب جرى بين هذا الكاتب ونفسه ، عندما أمسك بالقلم ليكتب هذا الجزء الثالث من حديثه عن هذا العصر الذى هو عصرنا ، فانقسمت نفسه قسمين : سائلا ومجيبا .. وفيم الغرابة ؟ أليست هذه هى طبيعة العملية الفكرية كلما وقعت لإنسان ؟ ماذا تكون « الفكرة » - أية فكرة وكل فكرة بلا استثناء - إن لم تكن عند صاحبها جوابا عن سؤال دارت به نفسه وإن لم ينحدر بين شفتيه لفظا مسموعا ؟ كل فكرة هى جواب عن سؤال فقد كان موضوع ما غامضا عند السؤال ، وأصبح واضحا بدرجة ما عند الجواب ؟ ولكن لا علينا فإذا سألت النفس السائلة عند هذا الكاتب لحظة امساكه بالقلم ليكتب ، وبماذا أجابت النفس المجيبة ؟

- بدأت السائلة فقالت : مهلا ! ألا تلاحظ أن فترة الزمن التى تسميها « عصرنا » تكاد هى نفسها أن تكون فترة الأعوام التى امتدت بك على هذه الأرض ؟

- قالت المجيبة : أى والله إنها ليكادان يتطابقان ، فقد امتد بي العمر حتى أمسك بالقرن العشرين من طرفيه ، أو هو أو شك على ذلك ، ولكن ماذا تريدن بسؤالك ؟

- قالت السائلة : لقد طافت بي فكرة أردت عرضها ، وهى أن أسألك : ألا يكون من الطريف ومن المفيد أن يجيء حديثك هذه المرة عن عصرنا حديثا عن صورة العصر مجسدة فى خبرتك ؟ فتحدث

أيها الكاتب عن نفسك تتحدث عن عصرك من الزاوية التي رأيته منها .

- قالت المحببة : وهل تظنين أن أمامي طريقا غير هذا الطريق ؟
ومن أين يغرف الكاتب مادة حديثة إذا لم يعترفها من تجاربه ؟..
وهنا بدأت أكتب لأضع حقيقة أولى بين يدي القارئ ، وهي
أنى رجل قسمت له حياة هادئة أهدأ ماتكون الحياة ، قضى معظمها
(أم أقول « كلها ») فى بحر من كلمات قارئا حينا ، كاتبها حينا ، وكان
ذلك منذ خرج من برعم الطفولة ، أنه لم يواجه صور الحياة فى
زحمة الطريق ، بل التقط ما التقطه منها حين وقعت عيناه عليها
(وكانت له عندئذ عينان) مرسومة فى كلمات ، فكان كلما وقع على
شئ منها بدت له الكلمات كأنها مصابيح يفهم على ضوءها ألغازا ،
مما شاهده بالفعل فى مسالك الناس : وما يكون « العصر » الذى
نتحدث عنه ، إلا أناسا وما سلكوا ؟ ومن السلوك ما يبنى ومنه
ما يهدم ، أو يذهب فى الهواء هباء مع الهباء .

وصورة الحياة خلال هذا القرن العشرين ، هى - كما انطبع بها
صاحب هذه الكلمات - حروب وثورات تملأ النصف الأول من
القرن ، فكانها القووس تهوى على البنيان العتيق لتهدمه ، يتلوه ريع
القرن ، جاء كأنه الصدى لتلك الحروب والثورات لأنه شغل نفسه
بأن يبيل البنيان المتهاوى ركاما من الانقراض ثم بدأت بعد ذلك بشائر
رفع الأنقاض لتخلو الأرض لبنيان جديد يقام على فكر جديد ،
والأمل هو أن يتحقق هذا الحلم إبان القرن الحادى والعشرين ، فإما

أولى هذه المراحل الثلاث فهي التى شهدت حربين عالميتين : الأولى فيما بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ولم تقع أنبأؤها على مسمع هذا الكاتب إلا كما تقع أواخر الصدى ، صوتا خافتا محيت حروفه ومعلمه ففقد المعنى ، وأما الثانية فكان صاحبنا يتنقل مع العمر بين الشباب والرجولة ، ومع ذلك فلم يدرك أبعادها ومغزاها كل الإدراك ، مع أنه قضى شطرا منها فى إنجلترا دارسا فشهد شررها من بعيد فعرف لمحة من ضراوتها وهى حرب امتدت ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، ومع الحربين العالميتين ، وقعت فى الفترة التى نتحدث عنها ، ثورات وحروب إقليمية كانت بالنسبة إلى الحربين العالميتين بمثابة الهوامش التى تورد تفصيلات توضح ما قد ورد فى المتون ، وذلك إذا رأينا فى تلكما الحربين ما يشير إلى انقلاب حضارى وشيك الوقوع ، تتغير فيه أوضاع العالم تغيرا ينقله من قديم إلى جديد ، ومن الثورات نذكر ثورة روسيا سنة ١٩١٧ ، وثورة مصر سنة ١٩١٩ ومعها ثورة الهند ، ومن الحروب الإقليمية نذكر الحرب الأهلية فى أسبانيا فى الثلاثينيات بين اليمين واليسار ، وكان من أهم معالم تلك الفترة « فاشية » موسوليني فى إيطاليا « ونازية » هتلر فى ألمانيا - مرحلة صخب بدوى المدافع فى ساحات القتال وبهتافات الحناجر فى شوارع المدن ، وبملايين الضحايا سالت دماؤهم لتشهد على غفلة الإنسان وهو يمسك بالزمن حتى لاتتحرك خطاه ولتشهد فى الوقت نفسه على طموح الإنسان ، وهو يدفع الزمن دفعا لينقل قدميه سائرا بالناس إلى أمام .

ولقد أراد الله لهذا الكاتب أن يكون رفيق كتاب متعلما ومعلما ،
وصاحب فكر حر ناقد يبحث في وقائع الدنيا عن « أفكارها » التي
تخفيها وراء ظاهرها وحامل قلم يرصد ما قد اختلجت به نفسه من
رؤى ، فرأيناه خلال ما وعاه من تلك الحروب والثورات ، قد
استخلص لنفسه شيئا من لبابها كما يراها ، وكان من ذلك اللباب
الذى استخلصه ، والذى وجد مصداقه فيما يحياه هو فى شخصه وفيما
يكابده فى تلك الحياة من شد وجذب ، أقول إنه كان قد رأى فى
اللباب الذى استخلصه مما حوله ، ومما يحس ويعى أن هذا العصر
بجروبه وثوراته قد جاء إلى الناس باضداد لم يستطيعوا حتى هذا اليوم
أن يوفقوا بينها لتستقيم بهم حياة وتستقر .

وفى مقدمة هذه الأضداد ما تطلبه العصر من حرية للإنسان
الفرد ، وما تطلبه فى الوقت نفسه من سيطرة الجماعة على كل فرد من
أفرادها ، ومن تكون هذه الجماعة ؟ إنها فى معظم الحالات تكون
متمثلة فى إرادة حاكمها وفى لسانه ، فما يريده هو يصبح بقدرة قادر
ما تريده الجماعة كلها ، وما ينطق به لسانه هو يكون بمشيئة الله ناطقا
بما تريد الجماعة- أن تقوله لو كان لها لسان ، لقد كان صاحب هذه
الكلمات شابا فى فترة الثورات والحروب ، كان قارئنا دعوبا للكتاب
العرب ولبعض الأعلام من كتاب الغرب ، فكان أعمق الأثر فيما
تركه هذا كله فى نفسه ، هو أن الأولوية الأولى فى القيم الإنسانية ،
إنما تكون لحرية الفرد فكرا ونشاطا ، مع ما يراعى فى هذه الحرية
الفردية من عدم العدوان على حريات الآخرين ، وكيف يخرج بتبjiجة

غير هذه النتيجة ، مادام قد قرأ متفهما مترويا ، ما كتبه أحمد لطفي السيد ، وطه حسين والعقاد وهيكل وسلامة موسى وغيرهم من أعلام ذلك الجيل ؟ ثم كيف يخرج بنتيجة غير هذه عن حرية الفرد من الناس فكرا وفعلا ، بعد أن قرأ شيئا كثيرا بما كتبه الطليعة الفكرية في إنجلترا بصفة خاصة ممن أطلقوا على أنفسهم منذ أوائل القرن اسم «جماعة بلومزبرى» إن كل كاتب من أولئك وهؤلاء كان يترك قارئه وقد ارتسمت في ذهنه للإنسان الذى يحترم إنسانيته فردا قوى الاعتداد بفرديته لأنه مسئول وحده أمام ضميره ومسئول وحده أمام الله سبحانه وتعالى عما نطق به لسانه وما قدمته يده ، أيقول يومئذ إذا سئل عن ضلالة اقترفها : لقد خطب الزعيم في الجمهور فقال : ؟ بالحق أو بالباطل خرج صاحبنا مما قرأه لأعلام عصرنا ، هنا وهناك ، بأن للفرد الإنسانى حقوقه التى تنبع له من فطرته التى فطره خالقه عليها ولا تمنح له هبة من أحد وعلى رأس القائمة فى تلك الحقوق الفطرية حق « الحرية » على أن تفهم عند الناس فهما مستنيرا فهى دائما قوة تبنى ويستحيل على طبيعتها أن تكون عامل هدم ، إلا أن تهدم العوائق التى تصادفها على الطريق ، لكن العصر نفسه الذى نادى بشأره بحرية الإنسان فردا مسئولا ، قد حمل فى أعطافه رسالة أخرى ، فحواها أن يتكفل جمهور الناس فى الجماعة المعينة ليجعلوا الحياة مشاركة متساوية بين الجميع ، عاليهم مع سافلهم عند السفوح ، أو سافلهم مع عاليهم عند الذرى ، وكما كان محالا - من الوجهة العملية - أن تتحقق هذه المشاركة المتساوية إلا إذا أمسك

بالزمام زعيم قوى القبضة صارخ الصوت ، فلتكن هذه سنة الحياة الإنسانية ، ومن هنا تولدت نظم سياسية فى كثير جدا من بلدان العالم الثالث ، التى ظفرت بحرياتها السياسية بعد الحرب العالمية الثانية ونتيجة لها كفرت بحرية الفرد مستقلا عن قومه ، إذن فلا مجال لأحزاب تصطرع فى الرأى ولا موضع للجهود فردية يسير بها أصحابها ليحققوا نجاحا لأنفسهم فى دنيا الاقتصاد إلى آخر ما نعرفه فى هذا السبيل .

ولا يدري صاحب هذه الكلمات كم من الناس هم الذين أحسوا بالتضاد بين الدعوتين اللتين جاء بهما عصرنا : دعوته إلى حرية الإنسان ، ودعوته إلى حياة المشاركة المتساوية بين الناس ومشاركة تمحو الفوارق التى قد تفضل منهم إنسانا على إنسان ، لكنه - أعنى هذا الكاتب - قد أحس ذلك التضاد فى كل نفس شهقت به رثائه أو زفرت ، فلو أنه كان ممن يحبون لأنفسهم فكرا لحاز له أن ينطوى على أفكاره التى قد تتولد له عما يجب وما يجوز وما يمتنع فلا يحس بفكره أحد ومن ثم فلا يلحظ حدة التضاد الذى أشرنا إليه فيما يخص حق « الحرية » كما جاء عصرنا مبشرا به ، لكنه - أعنى هذا الكاتب - قد وضع لسانه فى سن قلمه منذ زمن بعيد ، منذ أن كان فى عشرينيات عمره الأولى أحس به القراء أو لم يحسوا فذلك لا يننى شيئا من صدق هذا القول ، لكن الذى أحس بما يكتبه منذ ذلك الزمان البعيد هى إدارة الحكومة التى لم يكن ليعلم أين تسكن ولا من يمثلها .

ولم يكن قط هذا الكاتب ممن تعلقت نفوسهم بالسياسة ، إلا كما يتأثر كل عابر سبيل من المواطنين ، حتى نتوقع لإدارة الحكم أن تمد بصرها وسمعها لتزى وتسمع ما يكتبه شاب هو من غمار الشباب - نعم ، إنه لا يتواضع إذ يقول هذا القول عن موقعه من الناس يومئذ - وإنما كان كل اهتمامه معلقا بمستويات الفكر التى تتصل بمواقع الحياة اتصالا وثيقا ولكنها فى الوقت نفسه تعلو عن أرض هذه الحياة العملية بضع درجات لتصل إلى مبادئها ومراميها ، وما هو إلا وقد أطبق عليه سدة الحكم ذات يوم ، والشاب لم يزل فى باكورة حياته الفكرية ليجروه إلى تحقيق إدارى طال فيه السؤال وطال الجواب :

س : ماذا تعنى بقولك كذا وكيت ؟

ج - عنيت هذا وعنيت ذاك من المعانى .. وعاد الشاب إلى بيته وهو يسمع دقات قلبه فى صدره لأنه خلق لحياة هادئة ولم يكن من هدوء الحياة ما تعرض له ، ذلك اليوم ، وكان سؤاله لنفسه شبيها بسؤال هاملت : أتريدها حياة أم تريدها ضريا من الموت ؟. لا ، لا بل أريدها حياة إذن فلأحمل تبعات الحياة ، المسئولة ، وسوف أمضى . وذلك هو عصرنا فى اضداده التى بشر به ، إذ أعطى الإنسان الفرد يمينه حق الحرية المسئولة ، ثم أسرع فمحاهها حين نادى بوجوب المشاركة المتساوية برغم ما قد فرق الله سبحانه وتعالى بين عباده فجعلهم درجات : فى قوة العضل وفى قدرة العقل وفى الهدى ، وفى كل جانب من جوانب حياتهم .

ويقترن بهذا التضاد بين حق الإنسان فردا وحقه عضوا في جماعة تضاد آخر على نطاق أوسع ، وهو أن نادى بضرورة استقلالية الشعوب من قبضة مستعمرها ونادى إلى جانب ذلك بضرورة اجتماع الشعوب في هيئة دولية تكون لتلك الشعوب وسيطا للمحاوراة والمشاورة فيما قد يعترضها من مشكلات إلى هنا والكلام معقول لا ينبئ بالتناقض ، إلا أن هذا التناقض سرعان ما يظهر في صورتين : الأولى هي أن وفود الدول الأعضاء إذ هي في طريقها إلى مجمع الصفاء والإخاء والمحاوراة والمشاورة ، إنما تحمل في حقائبها روحا قومية متزمتة متعصبة ، تعترم أن تقول ما عندها ، وإلا تنصت إلى ما يقوله الآخرون ، وتنتهى الجلسات ولا إخاء ولا صفاء ولا محاوراة ولا مشاورة ، وأما الصورة الثانية فهي أقسى وأبشع وخلاصتها أن خمس دول كبرى قد خصت نفسها بحق ، هو أن ترفض أى قرار تصل إليه سائر الدول ، ولا تراه في صالحها على أن رفضها هذا لا ينصب عليها وحدها بل هو كاف لهدم القرار من أساسه بالنسبة إلى الجميع ، وما معنى هذا ؟ معناه أن تلك الدول الكبرى الخمس بمثابة من يقول لعشرات الدول الأخرى : نحن أيها السادة أخوة متساوون ، إلا أننا نحن الدول الكبرى سادة وحدنا ما نفعنا يقوم وما ليس ينفعنا يهدم ، ولعنة الله على من يجرؤ فيدعى بأن التناقض أمر تأباه فطرة العقول - وهذا هو عصرنا .

هذه - إذن - واحدة وأما الأخرى فهي عن فكرة « العدالة » مقرونة بالمساواة وهي - كحق الحرية للأفراد وللشعوب - من أهم

الحقوق الإنسانية التي ركز عليها « إعلان حقوق الإنسان » الذي صدر عن هيئة الأمم المتحدة في باريس في ديسمبر من سنة ١٩٤٨ ، أى أنها حقوق يريد لها عصرنا أن تتحقق ، لكن ما أبعد المسافة بين الأمنية وتطبيقها ، نعم أنها لمن حسنات عصرنا أن نجد ضميره الاجتماعي العام أشد يقظة مما عرفه الإنسان في القرون الماضية بدليل أنه قد أصبح مألوفاً لنا أن نجد هيئات تسهم عن طوعية في الدفاع عن حقوق الإنسان في غير أوطانها ، كما هي الحال - مثلاً - في مؤسسة العفو الدولية - ومقرها في إنجلترا - تتعقب بدقة في كل أقطار العالم حالات الاعتداء على تلك الحقوق من قبل الحكومات لتعلن عنها بكل وسائل الإعلان ردعاً للمعتدى ، كما أصبح مألوفاً لنا أن نجد حركات تعاونية تنشط تلقائياً في أى مكان من العالم لتعمل على إعانة الشعوب المنكوبة في وجه من وجوه حياتها ، كما قد حدث في أقطار كثيرة لمعونة الشعوب الأفريقية إزاء ما أصابها من جفاف وما حدث كذلك من جهود دولية لمساعدة السودان عندما نكب بالسيول وفيضان النيل في صيف ١٩٨٨ .

كل ذلك محسوب للعصر الراهن ، لكنه لا ينبئ صوراً من الظلم الظالم الذي يلحق شعوباً أو فئات مظلومة ولا يتحرك لها ضمير ، فالإرهاب تقترفه دولة معززة عند حاة العصر وهذاته غير الإرهاب تؤديه جماعة ليس لها نصيب من الرضى عند هؤلاء الحماة الهداة ، حدث لهذا الكاتب أن ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية خلال العام الجامعى ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ، أستاذاً زائراً بناء على اتفاقية عقدت

عامئذ بين أمريكا ومصر لتبادل الأساتذة ، فكان نصيبه أن يقع الاختيار عليه ، وهناك عينت له خلال الفصل الدراسي الأول ، جامعة من جامعات الجنوب ، حيث التفرقة العنصرية كانت على أشدها لقد كان يعلم قبل سفره كثيرا من تلك التفرقة بين البيض والسود (أو «الزنج» كما وجدتهم يقولون) لكن محال على خيال أن يتخيل ماذا تعني تلك التفرقة في الواقع العملي حتى يراه بعينه ، وتصادف أن قرأصاحبنا في صحيفة يومية تصدر في البلد الذي كان يقضى فيه النصف الأول من مهمته خبرا يروى عن محاكمة مواطن أبيض قتل مواطنا أسود في حانة ، ولنلاحظ هنا أنه بينما يسمح للبيض أن يرتادوا أماكن السود فإنه لا يسمح للسود أن يرتادوا أماكن البيض ، وجاء في الخبر المنشور في الصحيفة عن محاكمة القاتل الأبيض ، نص العبارة التي نطق بها القاضي بحكمه ، وفيه يقول مخاطبا المتهم ما معناه : لقد قضت المحكمة بسجنك ستين ، لا لأنك قتلت رجلا أسود بل لأنك سمحت لنفسك أن تخالط السود ، فوصلت بذلك جنسين أراد لها الله أن يفصلا ، قرأ صاحبنا هذه العبارة فنقلها نقلا حرفيا في مذكراته لأنه كان يعد مادة لكتاب يصدره عن أيامه في أمريكا خلال زيارته الأولى ، ولم يمض بعد ذلك يومان ، حتى اجتمع صاحبنا مع مدير الجامعة في حفل عشاء وجلس معه على المائدة وفي سمر تبادلناه ، سأل مدير الجامعة الضيف المصري قائلا : بماذا انطبعت نفسك عن بلادنا فأجاب الأستاذ إجابة تعتمد أن يورد فيها دهشته لحكم المحكمة في قضية الأبيض قاتل

الأسود ففضلا عن غرابة أن يحكم على جريمة قتل متعمد بالسجن ستين ، فقد كان الأغرب هو حيثيات الحكم وهنا أطرق مدير الجامعة لحظة ، ثم قال : لقد عوقب القاضي الذى أصدر هذا الحكم - وأود أن أذكر القارئ بأن ذلك كان منذ خمسة وثلاثين عاما (ونحن الآن فى سنة ١٩٨٨) ولا أدرى إلى أى حد قد تغيرت الصورة بالنسبة إلى التفرقة العنصرية فى أمريكا .

ومادام الحديث قد انتهى بنا إلى التفرقة العنصرية فلا يجد هذا الكاتب بدا من ذكر الموقف فى جنوب أفريقيا بين الأقلية البيضاء الحاكمة والأكثرية السوداء صاحبة الحق الأول فى أرضها وليس من القراء من لا يعلم حقيقة ما يجرى هناك من تفرقة عنصرية بين اللونين ، وشئ كهذا يراود خيال اليهود فى إسرائيل بالنسبة إلى عرب الأرض المحتلة ، فلقد ظلم اليهود على أيدي النازية فى ألمانيا الهتلرية ، وليس فى العالم كله منصف لم يغضب لهذا الظلم فهل يعقل أن يتقم اليهودى المظلوم فى حكم النازى لنفسه من الفلسطينى فى بلده ؟ وكان حياة العصر وهداته من أنصار العدالة والمساواة قد ضجوا وحق لهم أن يضجوا للوحشية النازية ومازالوا حتى هذه الساعة يتسابقون إلى العمل على مواساة اليهود فيما نكبوا به وهو واجب يشكرون على أدائه ، ولكن انظر إليهم وقد دارت الدوائر نفسها على عرب فلسطين وعلى أيدي من ؟ على أيدي من ذاقوا مثل هذا العذاب ، فماذا صنع حياة العدالة والحرية والحق فى عصرنا ؟ صموا آذانهم واغمضوا أعينهم واكتفوا بعبارات مكسوة بميوعة الدبلوماسية التى تتكلم ولا

تقول شيئا فهذا هو تعريف الدبلوماسية الماهر كما يقال - ومثل هذا الكيل بكيلين ومعالجة الأمور الخطيرة بوجهين هو من ملامح عصرنا ومع ذلك فهذا هو العصر الذى أنصف الملايين بعد عصور من الظلم والاهمال ، ففيه قامت حركات اجتماعية اصلاحية على صورة فريدة فى التاريخ كله ، إذ هى حركات تجاوزت الحواجز الإقليمية والقومية ليجتمع بها الشبيه بشبيهه فى رابطة متآزرة يشد بعضها أزر بعض فى المطالبة بحقوقهم الضائع : فالعامل مع العامل مهما تباعدت بينهما المسافات واختلفت الأوطان ، والمرأة مع المرأة والأديب مع الأديب ، والرياضى مع الرياضى ، وهكذا وبهذا التضامن المهنى والحرفى عبر الحدود أمكن للأبصار أن ترى وللآذان أن تسمع حتى كسبت كل جماعة بعض حقوقها المشروعة ، فالعمال فى شتى أرجاء العالم قد انتقلوا من دائرة الحال إلى دائرة الممكن ، أعنى أنه بعد أن كان الرأى على امتداد التاريخ هو ألا يكون للعامل نصيب فى الحكم والإدارة أصبح ذلك ممكنا ومشروعا بل أصبح واجبا مفروضا فى كثير من الأحيان والمرأة أضافت إلى حقوقها فى البيت والأسرة حقوقا لم يكن معترفا بها ، من حيث هى مواطنة تشارك بما تستطيع قدراتها ومواهبها أن تشارك به فى شئون بلادها بجميع ميادينها ، وهكذا قل فى سائر الجماعات التى يرتبط أفرادها بما هو مشترك بينهم من مهنة أو عقيدة على أن هنالك جماعتين لم تكونا موضع عناية فى الضمير الجماعى العام ، مع حقهما الصارخ فى تلك العناية إلا أنهما لم تكونا تنطقان لاستحالة النطق على إحداهما ولعجز فى الصحة عند الثانية ،

فأما الأولى فهي « الأطفال » أينما كانوا وأما الثانية فهي « الشيوخ »
فلكل من الجماعتين ضرورة ملحة في رعاية القادرين لكنها ضرورة لم
يكن يلتفت إليها أحد بالقدر الكافي على الصعيد الرسمي وكان الفضل
لعصرنا هذا أن جذب الانتباه إلى الجماعتين حتى أصبحنا اليوم موضع
أرق في الضمائر .

وكذلك كان لعصرنا هذا فضل « التعاون » بين الشعوب على نحو
لم تعرفه الإنسانية من قبل وذلك في أمور الثقافات المتنوعة في
الشعوب المختلفة كيف تضمن كل ثقافة منها أن تنمو على أسسها
الخاصة مع إمكان تفاعلها مع سائر الثقافات وهذه مهمة يضطلع بها
في عصرنا مؤسسة اليونسكو التي هي جناح من أجنحة الأمم المتحدة
وهناك أجنحة أخرى لكل منها شأن تختص برعايته على مدار العالم
بغير تفرقة بين شعوبه فكل الدول تساهم بنصيب في التمويل على أن
يكون الاتفاق مرهونا بالحاجة إليه في أى موضع نشأت تلك
الحاجة ، ومن هذا القبيل منظمة الصحة ومنظمة الزراعة ومنظمة
العمل وهكذا .

لكن روح الإخاء التي أنشأت في عصرنا هذا التعاون بين مختلف
الشعوب والاعتراف بحقوق الإنسان اعترافا أزاح نير العبودية والتبعية
والخضوع فتحررت « الألوان » البشرية بعد أن كانت السيادة للون
واحد هو اللون الأبيض ولذلك كتبت له السيادة في الحكم ولثقافته
السيادة على سائر الثقافات ، أقول : إن هذه الروح من الإخاء
والحرية مع كل ما أثمرته في عصرنا من طيب الثمرات ، لم تمنع أن

يكن وراءها روح مضادة ربما كانت أشد وأفعل أثرا وهي روح العصبية العرقية والثقافية ، وتظهر للناس في صورة التكتلات السياسية التي يتحصن بها كل فريق ضد غيره ، وفي هذا المناخ المشحون بالحدز والتأهب اشتدت الحاجة إلى ترسيخ « الانتماء » ليكون كل فرد على وعى بمن هو أحق بمساندته في الشدائد . وأنه لمن عجب أن تكون هذه هي صورة العالم العصري وظروفه ، كل يبحث عن مأمته ليلوذ به إذا وقعت واقعة ، والأمة العربية التي حباها الله بكل ما تحتاج إليه أمة من عوامل الوحدة مازالت تتلفت حولها تتساءل إلى أى قطب ينتمى أبناؤها وكأنما التاريخ لا يصرخ بأن هذا الوطن الممتد من الخليج العربي إلى المحيط الاطلسي يرتبط بثقافة واحدة في العقيدة والفن والأدب والتقاليد برغم التفاوت بين أجزائه في البعد التاريخي ، فقد يضرب جزء منه في عمق التاريخ حتى يبلغ مطالع الضوء عند بزوغ فجره وقد تنفاوت سائر الأجزاء بعد ذلك حادثة على صفحات التاريخ لكن الشجرة الثقافية واحدة وطرحها ذو مذاق متشابه متقارب .

هذا هو عصرنا بما له من حسنات وفاعلية وما عليه من سيئات ، لم يكتب على بابهِ « للغرب فقط » حتى يظن الآخرون أن الدار ليست دارهم بل هي دار للجميع وعلى جميعنا تقع تبعاتها .

العربي بين حاضره وماضيه

١

تجىء الأيام وتمضى ، أعواما بعد أعوام ، فيتغير من الإنسان ما يتغير ، فلا الملامح هي الملامح ، ولا القوة هي القوة ، ولا الطموح هو الطموح ، ولا العاطفة المشبوبة والانفعال المشتعل ، هما العاطفة المشبوبة والانفعال المشتعل ، ولم تعد الحواس تفعل اليوم فعلها كما كانت بالأمس : فالعين لا تبصر كما كانت تبصر ، والأذن لا تسمع كما كانت تسمع ، بل واللسان لا يتذوق الطعم كما كان يتذوق .. إلا أن شيئا ما - برغم ذلك التغير كله - يبقى ليظل به فلان هو نفسه فلان الذى عرفه الناس ، ولقد وقعت اليوم على شاهد جديد يؤيد هذه الحقيقة ، وكان شاهدا من نوع جديد غير مألوف .

كان ذلك حين هممت بالكتابة عن العربي بين حاضره وماضيه ، فكدت لى الذاكرة فجأة بشبح من أصدائها الخافتة الباهتة ، إذ وسوست لى بشيء كتبته سنة ١٩٥٠ أو ما يقرب جدا منها ، عن « نشر القديم » فألحت على الرغبة فى أن أبحث عن ذلك المقال القديم الذى كتب منذ أربعين عاما (نحن الآن سنة ١٩٨٨) ، لأرى ما فيه ، سواء أكان ذا صلة بما أعددت فى رأسى من أفكار لأتناول فى ضوءها حديثى

هذا عن حاضر العربي وماضيه ، ووجدت ضالتي بين مجموعة من أخوات لها ، كنت جمعتها معا في كتاب جعلت عنوانه « الكوميديا الأرضية » وقرأت المقال القديم فإذا بالشعور الغريب يغمرني فيصور لي نفسي في أوائل أربعينياتها ، وكأنما شغلت عما كنت بصدد البحث عنه . لأنصرف إلى شيء آخر ، هو المقارنة بين الرجل الواحد في لحظتين من عمره ، تباعدتا بما يقرب من نصف القرن ، كيف كان يكتب حينئذ عن « التراث » ونشره وكيف يكتب عن الموضوع نفسه اليوم ؟ وأمكنت النظر ما أمعته لعل أقع على مواضع الشبه بين الحالتين ومواضع الاختلاف ، فكان أول ما لحظته هو أن كل ما قد حدث للرجل من تغيير ، برغم هذه المدة الطويلة هو أن فترت قوته مع الشيخوخة وخفتت نبرته وبردت حرارته ، فما كان رجل الأربعين يجرؤ على قوله بلا حذر ولا حيلة ، هو هو نفسه الذي يريد رجل الثمانين أن يقوله ، ولكنه تعلم كيف يضبط عبارته ويقيدها ، حتى لا تندفع في تعميمات لاحق لها في إطلاقها ، فقد يكون الشيء المعين الذي هو موضوع الحديث « أبيض » اللون ، لكن « الأبيض » ليس على درجة واحدة من البياض دائما وأظنني قد ذكرت للقارئ في مناسبة سابقة ، تلك اللوحة الفنية التي رأيتها في متحف للفن الحديث ، وهي لفنان له قيمته الكبرى في عالم الفن الحديث ، ولم يكن في اللوحة شيء قط إلا مربعات من اللون الأبيض ، مع درجات مختلفة حتى ليرى الراى عشرات من أطياف اللون ، لكل طيف منها ما يميزه عن سائر الأطياف ومع ذلك فجميعها « أبيض » ، وهكذا يكون الفرق بين كاتب

الأربعين وكاتب الثمانين فالفكرة قد تكون واحدة في الحالتين ، إلا أن رجل الأربعين كان يطلقها بلا قيد ، وأما رجل الثمانين فقد تعلم مع طول الخبرة كيف يحدد المطلق ليبرز أوجه التباين بين جوانبه . وبعد أن أشبعت رغبتي في رؤية نفسى كيف كانت ، بدأت مع « سلفى » مناقشة صامته فيما أورده في مقاله الغاضب نعم فلقد خيل إلى أنه كتب ما كتبه في اختلاجه الغضب مما كان ينشر عندئذ من كتب التراث ويشير إليها دون أن يسميها ، إلا أن الذى هاله في المقام الأول هو كثرتها كثرة أفقدتنا التوازن في البنيان الثقافى أو هكذا ظن رجل الأربعين ، فهمست لنفسى قائلاً : إننى لا أعلم الآن - وقد مرت أربعون عاماً أو ما يزيد عليها ، منذ كتبت مقالة « نشر القديم » ولم أعد أذكر ماذا كانت تلك الكتب القديمة التى أثارت فى نفسى يومئذ ما أثارت لكن الذى اذكره جيداً هو أنى كنت قد عدت منذ قريب من إقامة بالخارج لم تقصر ولم تطل ، لكنها كانت إقامة شهدت من قلاقل الحرب العالمية الثانية ما شاهدت ، وحسبنا أن كان ختامها قبلتين ذريتين تسقطها أمريكا على اليابان ، إحداهما على مدينة هيروشيما والأخرى على مدينة ناجازاكي وبذلك الضربة القاضية وضعت تلك الحرب الضروس أوزارها - كما يقولون - وماذا يجدى أمام مئات الألوف من البشر يفتك بهم فتكا فى أقل من لمح البصر ، ماذا يجدى أن نقرأ للمقاتل الطيار الذى ألقى بالجحيم من عليائه على الأرض وأهلها ، أنه بكى بدمع سخين لما رأى عمود الدخان يصعد فيملاً جو السماء ، نعم عاد صاحبنا إلى وطنه ليجد حواراً بين « علمائنا فى

الصحف يختلفون فيما بينهم أهو الأصح في اللغة أن نقول عنها « قبله أم أن نقول قبله » ؟ فلما دار بصره فيما حوله من كتب تدور بها عجلات المطابع عندئذ التي كثرتها الغالبة نشرنا للقديم فكتب ما كتب .

قرأت ما كتبه رجل الأربعين فتساءلت : ترى كم بقي عندك من سلفك هذا ما يجعلكما إنسانا واحدا وكم تغير بينكما بفعل الزمن وما يحمله للأحياء من خبرة تتحدد وتزداد يوما بعد يوم ؟ هاهنا رأيت أن أجرى حوارا هادئا بين الرجلين : ابن اللثامين وسلفه ابن الأربعين ، ليتبين من الحوار كم بقي برغم الزمن وكم تغير .

- رجل اللثامين : قرأت مقالك عن « نشر القديم » فوجدتني راضيا عنك حيناً ، متشككا حيناً ، مخالفا حيناً ، وأول ما وقفت عنده هو قولك : « .. إن كثيرا جدا مما نقوم على نشره هذه الأيام من كتب العرب الأقدمين ، لاتساوى قيمته قيمة الورق الذي طبع عليه وليت الأمر في ضرره يقف عند حد انعدام قيمته بل إنه ليعيد لنا جوا فكريا ، قد يضطرنا اضطرابا إلى تنفس هوائه حتى تمتلئ به رثاتنا وصدورنا فنكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان القهقري ، ولست أدري بأى حلق أصبح حتى تسمع الصبيحة ، فأقول : إننا يا قوم في واد والدنيا الجديدة في واد آخر » .. وملاحظاتي على قولك هذا تدور حول كلمات وردت فيها ، أجريتها على قلمك بغير حساب ، وكانت تتطلب ما يحددها ، فبأى مقياس ترن « قيمة » الكتاب المنشور عن القدماء ؟ لو كانت كل « قيمة » الكتاب عندك هي ما فيه من معلومات تنفع قارئها في صنع الأشياء ، كأن يعرف منها كيف يزرع الأرض وكيف ينجر

الخشب أو يصهر الحديد ، فقد بعدت عن الصواب لأن ذلك كله - على ضرورته - إنما هو جانب من النفع ، لكن هنالك جانباً آخر يراد له أن يشيع وهو العمل على تشكيل « الرؤية » العامة التي ينظر بها الإنسان إلى العالم وما فيه وما يؤدي إليه ، وهاهنا تختلف الشعوب ونحن وإن كنا نتشابه مع غيرنا في الوسائل التي يجب أن نتوسلها في زراعة الأرض وفي تجارة الخشب وفي صهر الحديد إلا أننا نعود فتمتيز برؤية خاصة إلى الحياة الدنيا ، أو هكذا ينبغي أن نكون وتلك الرؤية « العربية » المنشودة وسائلها كثيرة منها أن نضع أنفسنا - عامدين - أنا بعد أن مع أسلافنا في مناخ واحد ، لننظر معا بعين واحدة ولنسمع معا بأذن واحدة ولتنبض قلوبنا معا بدقة واحدة ، ومن هذه المشاركة ينشأ الألف بيننا وبينهم ، لكننا بعد ذلك أحرار ، نستقل بذواتنا في مواجهة دنيانا ، وليس في ذلك تناقض كما قد يبدو فأنت قد تلاعب طفلك فتمقمص معه روح طفولته لتتوثق الصلة الروحية بينك وبينه ولا بد لك بعد تلك اللحظة الوجدانية أن تعود إلى حقيقتك رجلاً ناضجاً يواجه الحياة بما تقتضيه ، فلو أنك قد استحضرت هذا الفارق حين كتبت لتقول عن كثير من القديم الذي ننشره لاتساوى قيمته الورق الذي طبع عليه ، ثم وجدت أن ذلك الغث الذي يشغلنا أحياناً ، لا هو مما ينفع في الجانب العملي من الحياة ، ولا هو مما يربط النفوس ليتألف حاضر وماض ، لاقتربت من الصواب ، فلعلنا متفقان على أن « قيمة » الكتاب القديم لاتنحصر في النفع العملي المباشر وحده بل لابد أن يضاف نفع آخر ، هو القدرة على احداث الأثر النفسى المطلوب فها

يتصل بين سلف وخلف لتواصل الحلقات في وجدان الأمة الواحدة .
تلك - إذن - نقطة أولى فيما لحظته من عبارتك التي أسلفتها ،
أضيف إليها نقطة ثانية وأكتفى وهى عن الصيحة التي أردت أن تصبح
بها ، لتقول للقوم : أننا يا قوم فى واد والدنيا الجديدة فى واد آخر ،
وإنى لأصبح معك الصيحة نفسها ، بعد أن نتفق على أن الدنيا
الجديدة هذه أسقطت فيها قبلتان ذريتان على هيروشيا وناجازاكي ،
فنحن وإن كنا نود لأنفسنا أن نشارك دنيانا فى علومها الجديدة - ذرية
وغير ذرية - إلا أننا نود كذلك لو أعطينا دنيانا شيئاً مما عندنا ، والذي
عندنا هو عقيدة فى « التوحيد » لو سرت بكل قوتها فى قلوب البشر ،
لنتج عنها بالضرورة توحيد للإنسان المعاصر ، يشفيه من التمزق النفسى
الذى جعله يرتفع بالعلم إلى ذروة ويهوى فى الوقت نفسه إلى هاوية
تعمى بصيرته حتى ليقذف بلدانا بأسرها بقنابله التى صنعها بعلمه ، إن
علوم دنيانا الجديدة قد وضعت ثمارها فى أيد مجنونة عابثة ، فمن ذا
يستطيع أن يرد إلى المجنون رشاده وإلى العاثر حكته ليعتدل الميزان ؟
- رجل الأربعين : قد تكون على كثير من الصواب فيما ذكرته من
ضرورة النظر إلى الحقائق من مختلف جوانبها ، حتى لا يضيع منها جانب
لحساب جانب آخر ، على أنى لم أرفض الكتاب القديم على إطلاقه
فقد ألحقت بعبارتى المذكورة عبارة أقرر فيها : « إن إخراج واستنفاد
الورق والخبر فيه إذا قام إلى جانبه ألف كتاب ، مما ينقل إلينا ثمار المدنية
الحاضرة والفكر المعاصر لما كان هناك موضع للشكوى .. »

- رجل الثمانين : نعم قرأت لك ذلك ، فأعجبني أن تطالب بنسبة

صحيحة في عناصر الغذاء الثقافى الذى تقدمه ، ولكنى عجبت للنسبة الحسائية التى ذكرتها وهى أن يكون مع كل كتاب تنشره عن القدماء ، ألف كتاب ننقل بها فكر الحضارة القائمة ، إن الأمر يا أخى ليس مرهونا بعدد ما ننشره من هذا ومن ذاك ، بل هو مرهون بما « يوحى » إلى القارئ بانطباع يساعده على نسج الشخصية العربية الجديدة التى نريد لها أن تنتشر ، وجوهرها أن يكون العربى عربيا قادرا على مواجهة عصره وتحدياته ، فإن جاء هذا الايمان من قديم أو جاء من حديث فرحبا به فى الحالتين ، أما الذى نرفضه - قدما كان أو حديثا - فهو أن يحيى الكتاب عاملا على الهدم وليس عاملا على البناء .

- رجل الأربعين : عفوا سيدى فأخشى أن يفهم الناس من قولك هذا ، أنه إذا عبأ المواطن العربى نفسه من مصادر القدماء وحدهم فى ذلك ما يكفى إذا كانت المادة المحصلة عاملة كلها على بناء الشخصية العربية الجديدة ، وإننا لنرى فيمن حولنا - بالفعل - ألوبا ، لا بل عشرات الألوف وربما مئاتها ممن ملأوا حواصلهم من الزاد الموروث ، ثم عاشوا فى غيبة تامة عما يعج به عصرهم من أفكار وفنون ومشكلات ، فلك عزلة قاتلة ، أدت بنا إلى كوارث متلاحقة نكرثنا لأنها تقتحم علينا حياتنا من حيث لا ندرى ومن أين لنا الدراية إذا أغلقنا دون العالم أبوابنا واسمح لى ياسيدى أن أقرأ لك فقرة أوردتها فى مقالتي التى ذكرتها فقد قلت ما يأتى :

« إن كل أنواع العزلة شر على الحياة إذا أرادت أن تكون حياة خصبة مليئة إلا إذا كانت عزلة مؤقتة فيها استعداد لما بعدها وشر أنواع

العزلة جميعا هي العزلة الفكرية عن سائر العالم ، فليس الفكر طاحونة تدور في الهواء ولا تطحن شيئا إنما الفكر يدور في بحوث علمية حول موضوع من الطبيعة أو الكيمياء أو عن نبات وحيوان ونفس واجتماع واقتصاد وتجارة وزراعة وصناعة ، وعن حرب وسياسة ونظم في الحكم وفي التربية والتعليم وغير ذلك ، وفي كل هذه الأمور يكتب المؤلفون من علماء الغرب عشرات الكتب تلو عشرات بل مئات وألوف تلو مئات وألوفها ، فهل نترك هذه الأكداس الفكرية كلها لتنطوى على أنفسنا في جب مظلم ؟.. إلخ .

رجل الثمانين : إذا عدلت من عبارة « جب مظلم » ما يجعلها تشير إلى غرفة غنية بما فيها ، لولا أن نوافذها مغلقة وجدتنى على استعداد بأن أوقع معك على صدق ما ذهبت إليه ..

هكذا مضى الرجلان : رجل الثمانين ورجل الأربعين ، في حوار حول ما كتبه ابن الأربعين عن نشر التراث القديم ، لكنه حوار جرى هينا لينا هادئا ، لما كان بين الرجلين من صلة القرى ، فلم يكن أكبرهما يتجاهل أن رفيقه هو أخوه الأصغر ، كلا ، ولا كان أصغرهما يستهين بأن محاوره قد أضاف إلى علمه وخبرته حصيلة جمعها خلال أربعين سنة تفصل بينهما ، بل إن رجل الثمانين حين قرأ ما كان قد كتبه ابن الأربعين ، أحس كأنه يرى شبابه في مرآة فتذكر كم توهجت فيه حرارة الشباب طموحا وقدرة وجرأة ووضوح هدف ، لكن ذلك كله لم يعد يشفع له عند أخيه الأكبر تسرعا في الحكم وبصفة خاصة حين يقيم ذلك الحكم على تشبيهات أخاذة بجمال فكرتها وصياغتها معا لكنها

عند منطلق العقل موضع شك في صوابها ، ومن ذلك تشبيهان أجراهما الكاتب الأصغر فيما كتبه عن « نشر القديم » وحقا لقد أجراهما بدقة في التصوير وبقلم يعرف كيف يصوغ العبارة وبني عليها أحكامها ، فهل أصابت الأحكام ؟ فقد زعم في التشبيه الأول إن الكتاب القديم هو عندنا - نحن المحدثين - أقرب إلى تحفة نعتى بها ونرعاها ، منه إلى كتاب نبحت في صفحاته عما ينفع حياتنا الحاضرة ويثرها ، ثم راح يبنى على هذا التصوير ما يبينه فيقول ما معناه إن النسبة بينه - أى الكتاب القديم - وبين المؤلفات التى تحمل علما جديدا ومشاعر جديدة ، يجب أن تتوازى مع النسبة بين متحف الآثار - أو متاحفها مهما بلغ عددها - وبين سائر المباني التى يسكنها الناس ، ويتاجرون فيها أو يعلمون فيها أبناءهم ، إن هذه الأخيرة إنما أقيمت ليعيش فيها الناس ، وأما المتحف فيزار للفرجة أو للعبرة ، ومادام الأمر كذلك بين قديم وجديد وجب أن تكون هذه هى نفسها النسبة التى نراعيها فيما نحجيه من تراث السلف وبالقيااس إلى ما ننقله عن المحدثين أو ما نؤلفه تأليفا جديدا .

وأما التشبيه الثانى فقد أقامه بين موقفنا العاطف إزاء كتاب قديم ننشره بين موقف عاطف يوازيه ، حين يقع أحدنا فى خزان كتبه وأوراقه ، على كراسه قديمة كان يكتب فيها موضوعات الإنشاء وهو صغير أنه لا يمزق الكراسه ولا يلقى بها فى سلة المهملات ، بل يتسم لها ابتسامة اشفاق ويمسح عنها الغبار ويتخير لها مكانا ملائما فى خزائنه ، فهل أصاب كاتب الأربعين فى التشبيهين من حيث صلاحتهما لاستخراج الأحكام على حركة أحيائنا لتراثنا العربى ؟ إن أصحاب

الفكر المنهجي يعلمون أن اللجوء إلى التشبيه منزلق خطير للوقوع في الخطأ إذ يندر جداً أن يكون التطابق كاملاً بين المشبه والمشبّه به ومن ثمّ يحىء خطأ النتائج التي نستدلها ، ولذلك تراهم يحذرون الباحثين من إقامة التفكير العلمى على تشبيهات .

وعلى ذلك فانظر إلى التشبيه الأول عند صاحبنا رجل الأربعين حين جعل الكتاب القديم ننشره لنحى جانباً من تراث السلف ، هو أشبه بالتحفة نحون عليها ونرعاها منه إلى الكتاب ندرسه ونستفع بما فيه ، فهل يصدق هذا القول على كتب تحتوى على شىء من علوم اللغة العربية ؟ هل يصدق على فقه الفقهاء الكبار ؟ هل يصدق على كتب التاريخ وكتب الرحلات ؟ ثم هل يصدق على ديوان الشعر العربى ؟ هل يصدق على كتب المتصوفة الكبار ، التي عبروا فيها عن حالاتهم الروحية والنفسية فى مجاهداتهم الصوفية ؟ هل يصدق على النثر الفنى الغنى عند أدباء النثر ؟ هل يصدق على بعض الجوانب العلمية الخالصة فى هذه الظاهرة الطبيعية أو تلك ؟.. إذن فليس كل ما نحىه من تراث السلف هو أقرب إلى آثار المتاحف كما زعم ، وشىء كهذا يقال عن التشبيه بكراسة الإنشاء فى سنوات الدراسة الأولى ، يعثر عليها صاحبها إبان رجولته أو شيخوخته ، فليست كتب اللغة التي خلفها الخليل وسيبويه من قبيل الكراسات القديمة نحون عليها كما يحنون والد على صغاره ، وليس شعر أبى العلاء المعرى ، أو من شئت من فحول الشعر العربى من قبيل الكراسات القديمة ، لا ولا فقه مالك والشافعى وابن حنبل وأبى حنيفة شبيها بالكراسة القديمة ، وهكذا قل فى ذخائر

الماضى ، التى كتبت لتبقى موضوعا ومنها .

إنه شىء من الجمال الأدبى فى صياغة تشبيهه فاسد ، أدى بصاحبه إلى خطأ فى حكمه على قضية كبرى فى حياتنا الثقافية وأن الروابط الوثيقة والحميمة التى تربط كاتب هذه السطور وهو فى ثمانينياته ، بذلك الكاتب الأربعينى لتجعله على يقين من صدق النوايا عند سلفه الأصغر ، لكن حسن النوايا لا يحول الخطأ صوابا ، وسر الوقوع فى مثل هذا الخطأ عند صاحبنا وأمثاله - وهم كثيرون - هو الحكم على قضية كبرى ، كقضية التراث العربى وحياته ، وكأنهم يحكمون على سطر واحد من صفحة واحدة فى كتاب واحد ، وربما كانت وسيلتنا إلى النجاة من الوقوع فى مثل هذا الخطأ هى أن ننظر إلى المجموعة الكبرى من زاوية مفرداتها وعندئذ لا يكون سؤالنا بالنسبة إلى ماضينا العربى هو ، هل نحى ذلك الماضى أو نتركه فى مخابته ؟ بل ننصرف بسؤالنا نحو المجموعة كتابا كتابا ، ومن ثم فلا يترك الحكم لفرد واحد معين مهما بلغت درايته فن المغالطات العجيبة أن يسود فينا ظن أن للتراث العربى علماءه الخاصين والمختصين ، برغم تنوع مواده تنوعا يتناسب مع عدة قرون نشأ خلالها ذلك الجسم الهائل الذى نسميه بكلمة واحدة هى كلمة « تراث » كما يتناسب كذلك مع عشرات الألوف من رجال العلم والأدب الذين انتجوه ومع هذه الكثرة الهائلة على امتداد ذلك الزمن الطويل يصور لنا الوهم أن فلانا أو علانا من الناس عالم ، بالتراث وله كلمته المسموعة فم ينشر منه ومالا ينشر ، مع أن البدهاة تقضى بأن يترك الراى لأصحاب العلم فى كل ميدان على أن يضاف إلى ذلك

وجوب الأولوية لما عساه أن يكون أقرب من سواء في قوة الإيحاء بالنهوض .

إن ضخامة سؤال يطرحه إنسان على نفسه بحثا له عن جواب غالبا ماتخذ من قدرة ذلك الإنسان على الإجابة عن سؤاله ، وربما سهل أمامه الصعب لو أنه سلط فكره على عنصر فردى واحد من عناصر المسألة المعروضة فبدل أن يسأل العربى نفسه قائلا : على أى نحو أجعل الصلة بين حاضر حياتى وماضى الأمة العربية يستطيع أن ينصرف بسؤاله بادئ ذى بدء إلى حاضره هو وكيف يرتبط بماضيه هو في حدود حياته الفردية ، وعندئذ قد تلمع أمامه حقيقة كبرى استنادا إلى حقيقة فردية صغرى ، ولقد قدمت لنا المصادفة البحتة في غضون حديثنا هذا أن رجع كاتب هذه السطور وهو في ثمانينيات عمره إلى شىء كتبه وهو في أوائل الأربعينيات في موضوع العلاقة الثقافية بين حاضر العربى وماضيه ، ولم يكن هذا الكاتب يتذكر مما كتبه في لحظة ماضيه شيئا اللهم إلا أنه كان قد كتب ذات يوم بعيد مقالة عن نشر التراث ، ودفعه التطلع إلى البحث عن تلك المقالة في مظانها ، حتى وجدها وقرأها فاستحسن فيها ما استحسن ، واستقبح ما استقبح مما دعاه إلى وقفة قصيرة يناقش فيها نفسه أين الصواب فيما وقع في الماضى وأين الخطأ ولماذا أخطأ حين أخطأ ؟، إذن فقد كانت استعادة لحظة فكرية ماضية من مجرى حياته الفردية مناسبة أثارت حوارا داخليا ، ربما أفاد منه هو في توضيح رؤيته بل ربما صادفت كلمات حواره هذا قارئاً يتابعه بفكرة قبولاً أو تعديلاً أو رفضاً فيعمل كل ذلك عنده على توضيح

رؤيته كذلك ، فإذا لو وسعنا رقعة هذا المثل الصغير الفردى الواحد ،
لنتقل بعقولنا إلى أفق أوسع ، بأن نجعل الأمة العربية تحاور ماضيها ؟ ،
فكيف يتم لها ذلك إلا - أولاً - بأن يجد القارئ العربي مسألة تقع في
دائرة اهتمامه وقد تعرض للرأى فيها كاتب من أبناء الماضى و - ثانياً -
بالأ يحيط القارئ العربي الجديد زميله الماضى بهالة التقديس ، ومن ثم
ينفتح أمامه مجال الحوار الحريين عربى وعربى باعد بينهما الزمن ، لكن
بقيت بينهما مسألة مشتركة مما يمس عصبا حيا من الحياة العربية أو الحياة
الإنسانية على إطلاقها .

وانظر إلى أمثلة حية في نفر من أعلام الفكر العربى الحديث ، تجد
هؤلاء الأعلام قد استمدوا عظمتهم من مثل هذا اللقاء بين عربى جديد
وعربى قديم في موضوع مشترك ، فكان ماكان من اتفاق في الرأى أو
اختلاف فكم كنا لنفقد من موهبة طه حسين إذا لم يكن قد التقى
بالشعراء العرب الأقدمين كما التقى ؟ وكم كنا لنفقد من قدرة مصطفى
عبد الرازق إذا لم يكن قد أدار فكره في فلسفة الفلاسفة وفقه الفقهاء
من العرب الأقدمين ؟ وكم كنا لنفقد من عباس العقاد إذا لم يكن قد
عاش مع البطولات العربية في ابطالها كما عاش وكم كنا لنفقد من
مصطفى صادق الرافعى إذا لم يكن قد اتجه بقلبه وب عقله نحو السلف ؟ ،
وكم كنا لنفقد في عالم الشعر إذا لم يتمثل أحمد شوقى نماذج الفحول
من الشعراء العرب ؟ وكم كنا لنفقد من أدب توفيق الحكيم إذا لم تكن
عيناه قد التقطتا أهل الكهف وشهر زاد والسلطان الحائر وغيرها من
التراث العربى ؟ وهكذا تستطيع أن تراجع أعلام حياتنا الثقافية واحدا

واحدا لتجد الكثرة الغالبة منهم قد انقذت لهم شرارة الموهبة عندما
مست مواهبهم كنوز الأقدمين ، وهكذا يكون العربي الموهوب بين
حاضره وماضيه ..

الإحياء فى كل معنى من معانيه لابد أن يتضمن بث الحياة فيما لم
يعد حيا ، وبث الحياة فى كل معنى من معانيه لا يتحقق إلا إذا سرى فى
كائن حى ، فعناصر التربة الكامنة فى الأرض تمتصها جذور الشجرة
فتحيها حين تمتصها وتجعلها قابلة لأن تسرى فى كيان الشجرة فتغذى
بغذائها وتنمو بناتها وتثمر بأثمارها وهكذا أيضا يكون إحياء الماضى
بإحياء مآثوراته ، فافرض - مثلا - أن شاعرا عربيا قديما ترك ديوانا من
شعره لكن ذلك الديوان مرت عليه أصابع الإهمال لتغرقه فى هاوية
النسيان ، ثم يحدث أن يقبض الله منا باحثا أدبيا محبا للشعر ، فيهم
بإحيائه فإذا عساه صانع به ؟ أيكفى أن يحققه وأن ينشره على ورق
أبيض ، فإذا بالديوان بعد بعثه قد ركن على رفوف المكتبات ؟ إنه لو
كان ذلك هو مصيره الجديد فالذى أصابه لا يختلف كثيرا عما كان مصابا
به قبل بعثه ، اللهم إلا أن نكون قد بدلناه كفنا جديدا بكفن أبلاه
الزمن والإهمال ، ثم هل يكفى أن تضاف إلى نشره خطوة فيقرأه قارئ
أو قل فيحفظه حافظ عن ظهر قلب ، دون أن تعمل تلك القراءة وهذا
الحفظ على أن يهتز بالشعر وجدان قارئه وحافظه ، أنه لو كان ذلك هو
كل ما حدث فلا يكون قد حدث للديوان القديم المنشور سوى أن نزل
من رفه ليمشى بين الناس على رجله ، أنه بكل ذلك لم تعد إليه حياة ،
وإنما يبعث الديوان حيا إذا ما تمثله قرائه تمثلا توحدت به قلوبهم مع

قلب الشاعر ، فأحسوا ما أحسه الشاعر ورأوا ما رآه وسمعوا ما سمعه ، ولو للحظات خاطفة ، ففي تلك اللحظات تتوحد هوية العربي الجديد مع هوية الشاعر القديم ثم تمضي اللحظات لكنها تترك وراءها أثرا عند قراء الديوان قد يكون خافيا خافتا أول الأمر لكنه بعد أن يضاف إليه على امتداد الأيام أثر وأثر وثالث ورابع تكون خيوط الانتماء العربي قد نسجت في النفوس نسجا قويا وكأنما السلف والخلف قد اجتمعوا معا على صعيد واحد .

إننا لا نطالب العربي الجديد الذى يتلقى نتاج سلفه أن يأخذ شىء من خشوع أو خضوع ، يكون من شأنه أن يصغر أمام سلفه ، لا ، بل الأرجح أن يجد الخلف فى أعمال سلفه قصورا إذا قيس بما قد تراكم للخلف من خبرة السنين ، بل الذى نريده هو أن يتلقى العربي الجديد أعمال سلفه بالحب والنقد معا ، لينشأ فى نفسه ما يشبه الحوار وبمثل هذا الحوار الحى قد تنفدح شرارة الإيحاء الذى يتلوه ابداع ، فيكون فى هذه الحالة ابداعا يحمل فى شرايينه دم الماضى ، فيتلاحم ماضى بحاضر فى نفس واحدة .

إنه ليخيل لهذا الكاتب ، أن خطأ ما يقع لنا عندما نتحدث عن احياء الماضى فى قلوبنا باحياء كنوزه ، وربما كان موضع ذلك الخطأ هو أننا لا نحسن تصور العلاقة بين طرفى الموقف ، ففي الموقف طرفان : الموروث عن الماضى من جهة ، والإنسان الجديد الذى نريد له أن ينعم وأن يتنفع بهذا الموروث ، والخطأ الذى أشرت إليه هو أننا ننظر إلى الأمر وكأنه أمر تكليف فهناك واجب قومى يفرض نفسه علينا وهنالك

مواطنون محدثون لابد لهم من الاضطلاع بهذا الواجب ، فكأننا بهذه النظرة نعطي الأولوية للماضى وموروثه ، لتقع التبعية على العصر الحاضر وأبنائه ، والأقرب إلى الصواب هو أن نعكس الترتيب في أذهاننا بحيث نبدأ من حياة العربى الجديد وكيف نعلو بها لننتهى إلى أن احياء شىء من فكر السابقين ومن شعورهم قد يكون إحدى الوسائل الفعالة فى ذلك التسامى الذى أردناه ، إذا نحن عرفنا كيف نحياه فى النفوس ، فالغاية المنشودة هى العربى الجديد والرقى بحياته مادة وروحاً ، ومن الوسائل المحققة لتلك الغاية أن يكون على صلة حية بماضيه من أية زاوية اختارها لنفسه فالماضى وما تركه لنا واسع سعة المحيطات بعد أن نتصور تلك المحيطات وقد انقلب أجاجها عذبا وليس المطلوب من كل فرد عربى على حده أن يشرب المحيط بل إنه ليكفيها أن تصل إلى كل مواطن شربة ماء يستسيغها فترويه .

٢

لا استطيع أن احصر لك الصفات الأساسية التى ذكرها رجال الفكر على اختلاف عصورهم وشعوبهم ، كل من وجهة نظره ، ليميزوا بها الإنسان من سائر خلق الله ، وربما كان أكثر تلك الصفات شيوعا ، صفة « العقل » ، على تفاوت شديد بعد ذلك فى فهم الناس لكلمة « العقل » هذه ، وإن يكن معناها المقصود محددا قاطع التحديد ، عند أول من أبرز هذه الصفة مميزا للإنسان ، وأعنى أرسطو فيلسوف

اليونان ، وذلك حين جعل تعريفه للإنسان أنه « الحيوان الناطق »
قاصدا « بالنطق » هنا قدرة الإنسان على التفكير العقلي الذى يعرف
كيف يستدل النتائج من مقدماتها استدلالا صحيحا ، لكن تاريخ
الفكر قد شهد رجالا آخرين بتعريفات أخرى لما يميز الإنسان ، فرة
هى « الإرادة » ، ومرة هى « الشعور » ، والشعور الدينى بصفة
خاصة .

والراجع عند هذا الكاتب ، هو أنها صفات تصدق كلها على
الإنسان مجتمعة ، ويمكن بعد ذلك ترتيبها ترتيبا يبين أيها أسبق من
أيها ؟ ومهما يكن الأمر فى ذلك ، فإن صفة من تلك الصفات المميزة
للإنسان ، تلفت نظرى من ناحيتين : الأولى أنها نادرا ماتذكر ، الثانية
أنها تلزم للعربى فى عصره هذا ، لأنها قد تنبه إلى ما هو غافل عنه ،
برغم ضرورته وحيويته ، وأعنى بتلك الصفة ما قد عبر عنه الشاعر
الانجليزى الرومانسى من شعراء الكوكبة العظيمة التى ظهرت فى مرحلة
مبكرة من القرن الماضى ، وهو الشاعر « شلى » فى قوله عن الإنسان أنه
هو ذلك الذى ينظر قبل وبعد ، قاصدا بذلك أنه هو الذى يتميز
بذاكرة تحفظ له الماضى وتعيده أينا استدعى وكيفما ، ثم يتميز كذلك
برؤية المستقبل المرجو قبل وقوعه ، نعم أنه يمكن القول عن سائر
الكائنات الحية ، من نبات ومن حيوان ، أن فى طبائعها ما يفعل فعل
الذاكرة ، وما يؤدى شيئا يشبه استباق المستقبل قبل وقوعه ، وإلا
فكيف نضع البذرة المعينة من نبات معين ، فإذا هى تعيد تاريخ ذلك
النبات مرحلة مرحلة ! وكيف يحدث لهذا النبات نفسه أن تجيء مراحل

نموه على النحو الذى يؤدى إلى الثمرة ذاتها التى أخرجها أسلافه !
ومانقوله فى هذا عن النبات ، نقول أكثر منه على الحيوان ، لكن
الإنسان - مع ذلك - يظل له موقف خاص يميزه فى استدعاء الماضى
واستشراف المستقبل ، وهو أنه يدبر لنفسه ماذا يريد استدعاءه من
ماضيه وماذا لا يريد فى اللحظة المعينة ، كما يدبر لنفسه كذلك كيف
يريد لصورة مستقبلة أن يكون ، فإذا كانت بذرة القمح لا تستطيع إلا
أن تخرج نباتها كما كان أخرجه أسلافها ، والثور مع البقرة لا يمكن إلا
أن يجيء النسل ثورا أو بقرة على غرار ما قد حدث فى نوعها فى أجياله
السابقة ، فإن الإنسان وحده هو الذى يتحكم فيما يستدعيه من
محزونات الماضى ، ليستثمره فى حاضره على أية صورة شاء ، كما
يتحكم فى تصور المستقبل الذى يريده ويسعى إلى تحقيقه .

لكن النظر إلى ماهو « قبل » وماهو « بعد » ، - أخذا بالصياغة
التي صاغها الشاعر « شلى » - إنما هما الطرفان اللذان تتوسطها لحظة
« الحاضر » ، وسؤالنا المطروح هو عن موقف العربى اليوم بين حاضره
وماضيه ، ولم نذكر « المستقبل » فى سؤالنا ذكرنا صريحا ، لأن تصوره
إنما يتولد بالضرورة بناء على الطريقة التى يجمع بها الإنسان ماضيه
وحاضره ، وإنى لأخشى أن تقع هذه التقسيمات فى نفس القارئ موقع
التهاويم المجردة التى لاصلة بينها وبين حياته الفعلية كما يحياها ، مع أنه لو
نظر إلى نفسه من باطن ، وجدها تحمل له فى وقت واحد ماضيه
وحاضره وما يرجوه فى مستقبله ، إلا أن التفاوت بين الأفراد فى درجات
وعيمهم بالأبعاد الثلاثة ، هو تفاوت شديد ، بمقدار ما يختلفون فيه من

درجات وعيهم ، وعلمهم ، وخبرتهم ، ودقة إحساسهم بما حولهم ، إنك أنت بمفردك ، وأنا بمفردى ، وهو بمفرده ، وهى بمفردها ، وكل إنسان على وجه الأرض بمفرده ، يحمل فى أصلابه وأعصابه ، هذا الذى نطلق عليه اسم « الماضى » مع الذى نطلق عليه اسم « الحاضر » مع تصور مانتوقع حدوثه غدا أو بعد غد ، مما خططنا لحدوثه ، فتجىء الأحداث مواتية فيتحقق ، أو لاتجىء فلا يتحقق كما تصورناه وبعبارة أخرى ربما كانت أوضح وأقرب إلى الأفهام ، أقول إننا حين نتحدث عن « حاضر » العربى وعن « ماضيه » فإنما ينصب حديثنا على حالات « داخل » الإنسان ، وليس على أشياء خارجه ، وإذا كنا نستهدف أن نغير من وقفة العربى اليوم إزاء حاضره وماضيه ، فإن الذى نريد أن نغيره فى حقيقة الأمر ، هو تصورات اجتمعت له فى جوفه عن ماضيه وعن حاضره معا .

إننى فى هذا الموضع من سياق الحديث ، حريص كل الحرص على أن يتأكد للقارئ فى وضوح ناصع ، بأن حديثنا هذا عن ماضينا وحاضرنا ، إنما ينصب انصبابا مباشرا على حياته الواقعية التى يحياها كل لحظة ، وليس هو نسجا من خيال قد لا يكون ذا صلة وثيقة بلحمه ودمه ، ولذلك ادعوه إلى تضيق دائرة الحديث بحيث نحصرها فى ثلاثة أيام فقط من حياتك ، هى يومك الذى أنت فيه ، وأمسك ، وغدك ، وبعد ذلك نسأل : أين تلتقى هذه الأبعاد الثلاثة ؟.. هل تراها مجتمعة معا على قارعة الطريق ، أو فى غرفة من غرف منزلك ؟ لا .. بل إنها لاتوجد ولا تلتقى إلا فى رأسك أنت ، فما حدث بالأمس

عما تعرفه موجود في ذاكرتك الآن أى أنه بالنسبة إليك لم يعد ماضيا ، بل هو حاضر مع الحاضر ، وكذلك قل عن غدك ، إنه لم يولد بعد ، لكن توقع ماقد يحدث فيه ، مرسوم في خواطرك الآن ، أى أنه حاضر مع حاضرك ، وأما يومك هذا الذى يتوسط بين أمسك وغدك ، فإذا استثنينا منه اللحظة العابرة التى أنت فيها ، ترى ماتراه وتسمع ماتسمعه ، وتعالى ماتعانيه ، وجدنا أن بقية لحظاته إما مضت مع الماضى المحفوظ في ذاكرتك ، وإما هو جزء يضاف إلى مستقبل لم يولد بعد ، وحضوره هو حضور في ذهنك أنت ، تتوقع به ماسوف يحدث ، سواء تحقق توقعك أم لم يتحقق ، ومعنى ذلك كله أنك تحمل معك ماضيك ومستقبلك في كل لحظة حاضرة ، فإذا أردنا لأى شيء من هذه الأقسام أن يتغير فلن يكون التغير إلا في شخصك أنت وما انطوى عليه .

وأزيد الأمر وضوحا وتوضيحا ، فأقول ليس « الماضى » شيئا قائما فيما هو قائم حولنا ، وإلا لما كان « ماضيا » ، فكل ما هو قائم ، تقع عليه العين ، وتسمعه الأذن ، وتمسه الأيدي ، هو « حاضر » حتى ولو كان الذى صنعه قد مضى وترك وراءه ماصنع ، الهرم الأكبر شيء حاضر كأى شيء آخر ذى وجود حقيقى في عالم الأشياء ، والذى مضى هو خوفه والذين أقاموا له الهرم ، وديوان المتنبي شيء حاضر بين أيدينا لكل من أراد أن يسمع شعره ، والذى مضى هو شخص المتنبي ، فإذا سئلنا : أين هو « ماضينا » الذى يراد لنا أن نسج خيوطه في ثوب « حاضرنَا » ؟ أجبنا بأن ماضينا بهذا المعنى الحى ، هو ما « نعلمه »

عنه ، أى أنه موجود منسوج فى حياتنا بالمقدار نفسه الذى هو « حاضر » به فى رءوسنا وفى وعينا وفى سلوكنا ، كثيرا بكثير وقليلًا بقليل ، فإذا كنت - مثلا - لاتعرف معرفة المتذوق الواعى ، إلا بيتا واحدا من ماضى الشعر العربى ، كان « الماضى » العربى فيما يختص بالشعر ، هو عندك بيت واحد ، حتى ولو كان فى بيتك خزائن تحتوى على ألف ديوان مما ورثناه فى مجال الشعر ، لقد كتب الفقهاء الأقدمون ما كتبوه فى فقه العقيدة وفى فقه الشريعة ، فإذا لم تكن قد « عرفت » شيئا منه ، كان ماضينا فى هذا الميدان بالنسبة إليك صفرا ، وكأنه لم يكن لنا ماض فىه ، حتى ولو قيل إن دار الكتب فيها كل ما خلف لنا الفقهاء محققا ومطبوعا على أجود ورق ، وفى صورة هى أجمل ماتستطيعه المطابع ، وهكذا لا يكون لماضى الإنسان وجود حتى مؤثر ، إلا إذا كان محصلا فى أذهاننا على نحو يتيح له أن يكون جزءا لا يتجزأ من حياتنا الواعية ، ولا فرق فى هذا بين أن نتحدث عن فرد واحد من الناس وما قد دس فى وعيه - الظاهر منه والباطن - من خبرات ومؤثرات ، وبين أن نتحدث عن الأمة بأسرها ، فماضيها الحى المؤثر إنما هو على وجه التحديد ، ما قد وجد طريقه إلى أذهانهم وإلى قلوبهم ثم ظهر فى تشكيل سلوكهم وفى تعيين أهدافهم وفى طرائق تقويمهم للأشياء والمواقف قبولا ورفضاً .

وهنا نلقت الأنظار إلى فكرة ربما كان الشاعر « ت . س . اليوت » (صاحب قصيدة « الأرض اليباب » التى وفاها نقادنا عرضا وتحليلا) أقول إنها فكرة ربما كان « اليوت » أكثر القادرين شرحا لها ، وأعنى بها

أن ثقافة الأمة المعنية في حقبة معينة ، هي حاصل جمع ماقد وعته
الرءوس من مواطنيها ، فالفرد الواحد من أبنائها ، مهما اتسعت دائرة
علمه ، فهو لايعلم إلا جزءا يسيرا مما نسميه بوجه عام وشامل « ثقافة
الأمة » الذى هو فرد من أفرادها ، وهذه الفكرة مفيدة في سياق حديثنا
هذا ، فنحن نتحدث الآن عن « ماضى » الأمة أين نراه ؟! ونجيب بأنه
هو ماقد وجد سبيله من الموروث عن أسلافنا إلى تيار الحياة الجارية ، فهو
كامن في خواطرهم ، مثير لمشاعرهم ، متمثل في مسالكهم ، وأن ذلك
كله لايتحقق لكل فرد على حدة ، بل يكون حسابه بالنظر إلى مجموع
الأفراد .

فكم - ياترى - نجد من الماضى ما هو قائم في حياة الناس ، فكرا
ووجدانا وسلوكا ؟ ثم لايكفيننا أن نجيب عن هذا السؤال وهو قائم
برأسه مبتور الصلة بأطراف أخرى لها معظم الخطر في حياتنا ، إذ قد
يكون ما هو محصل من ذلك في الأذهان والوجدان والسلوك ، أضخم
مما نريد ، فهو إذا تضخم فرما تحول إلى قيد يعرقل سيرنا مع مستلزمات
الحياة الحاضرة ، وكذلك قد يكون أقل مما نريد ، لأنه إذا كان
كذلك ، جاءت الشخصية العربية شاحبة مما يؤدي إلى سرعة ذوبانها في
مياه الغرباء ، ومع ذلك فليست المسألة في هذا مسألة « كم » فقط ،
ضخما وجدناه أم ضيلا ، إذا لابد من النظر إلى جانب ذلك ، بل ربما
قبل ذلك ، إلى نوع الحصيلة التى اخترناها لتكون هي ماضينا المبعوث
فيها ، وذلك لأننا قد نسيء الاختيار - وكثيرا جدا مانفعل - فنبت
عوامل الضعف والشلل ، من حيث أردنا القوة وانطلاقة الحياة .

وأنى لأذكر فى هذا الصدد شيئاً من ذكريات عام واحد من حياتى ، وهو العام الذى كنت فيه تلميذاً فى السنة الثالثة الابتدائية ، كما أذكر مدرساً واحداً ممن تولوا تعليمنا عامئذ ، هو مدرس اللغة العربية ، كان شيخاً قوى التأثير ، يبعث على الرهبة التى تجنح بنا نحو رعدة الخوف ، أكثر مما يبعث على الحب وطمأنينة النفس ، لكنه كان كذلك جاداً طموحاً ، ولعله أراد أن يرتفع كل طفل منا حتى يبلغ مستواه ويصبح صورة منه ، ومن ذلك أنه لم يكن يكتفى بمادة النحو الموجودة فى الكتاب ، بل طالبنا بأن نرسم بالمسطرة خطوطاً فى هوامش الكتاب ، تميل بزاوية معينة ، لتكون شبيهة بالهوامش التى نراها فى الكتب القديمة ، وذلك استعداداً منا لنكتب فى تلك الهوامش ما يمليه علينا من إضافات تضاف إلى ما هو مذكور فى الكتاب المقرر ، ومازلت أذكر شيئاً مما أملاه علينا وحفظناه حفظاً أصم وأعمى ، إذ كان منه تعليق على أداة الشرط « إذا » وهو أنها « ظرف لما يستقبل من الزمان ، خافض لشرطه ، منصوب بجوابه » - وكم تساءلت بينى وبين نفسى كلما وردت إلى ذهنى تلك العبارة : ماذا تفيد ؟ لاسياً والمتلقى طفل فى الحادية عشرة من عمره ؟ ولكم أردت ، حتى وأنا فى هذه السن التى تقدمت ، أن أفهم لماذا قال عن أداة الشرط ، التى هى كلمة « إذا » أنها خافضة لشرطها ، ومنصوبة هى بجوابها ؟ .. وخيل إلىّ حيناً أننى قد فهمت ، فنحن إذا قلنا - مثلاً - « إذا حل الربيع تفتحت الأزهار » كان ذلك مساوياً لقولنا : « عند حلول الربيع تفتتح الأزهار » ، ومن هذه الجملة يظهر لنا أن الشرط فى الجملة الشرطية

التي ضربناها مثلا ، قد تحول إلى أن يكون « مضافا إليه » إذ يقول « عند حلول ... » ويكون بالتالى فى حالة خفض أو كسر ، وأما جواب الجملة الشرطية فهو عبارة : « تفتحت الأزهار » فيجعل كلمة « عند » التى هى ظرف زمان ، مفتوحة أو منصوبة ، كما تقول مثلا ؟ « قرأت الصحف صباح اليوم » فتكون كلمة « صباح » منصوبة ... هكذا خيل إلى أنى أفهمت نفسى كيف ولماذا قالت قاعدة النحو لتلميذ الحادية عشر ، أن كلمة « إذا » هى « ظرف لما يستقبل من الزمان ، خافض لشرطه ، منصوب بجوابه » ، ومع ذلك فافرض أنى قد استطعت الفهم الصحيح ، وأنا فى مثل سنى وخبرتى باللغة ، فهل كان يستطيعه طفل ؟.. ثم أفرض أن الطفل قد استطاعه ، فأين وجه المنفعة ؟.. وأنى لأدعو القارئ إلى استعادة ما أسلفناه وهو أن العرى إذا يحيا حياته ، حاملا فى رأسه هذا الذى قيل له عن كلمة « إذا » وماتوديه ، فإنما هو يحيا حاملا معه نطفة من « الماضى » لكنها نطفة عسيرة الهضم ، قد تصيب المعدة بالأذى ، وأما اليقين عنها فهو أنها لن تنفع حاملها غذاء يقتات منه ليكون عربيا موصول الهوية بماضيه ، فإذا تصورنا أن مئات الألوف ممن يعدون بين حملة العلم فى بلادنا ، يحبون وهم يحملون فى ربوعهم أطنانا من أمثال هذه « المعرفة » التى إن صلحت فى الأركان الأكاديمية المعزولة عن الهواء الطلق ، فهى لاتصلح لحياتنا الناهضة وسيلة حفز ، ودفع ، وتحريك .

ثم شاء القدر لذلك الشيخ الجاذ الطموح ، أن يكون هو نفسه المدرس الذى جعل من محفوظاتنا الأدبية خطبة الحجاج فى أهل

العراق : « أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ، إذا وضعت العمامة تعرفوني ... إلخ » وهي خطبة مليئة بالتوعد والتهديد ، مما يكره كل إنسان حرأن يكون هو أساس التعامل بين حاكم ومحكوم ، فكيف يمكن لمثل هذه التفتة الأخرى من « ماضينا » إذا ما ثبتت في نفوس الصغار الناشئين ، ألا تنتهى بحافظها وحاملها إلى أن يقابل استبداد المستبد بشعور بليد لا يتحرك ولا يثور ، اللهم إلا إذا أدركته رحمة الله ، فوجهته نحو أن يعصى « ماضيه » ولا ينصاع إليه ، كلما صادف منه أمثال هذه الصور رغم روعتها في موازين الصياغة الأدبية .

لكن شيخنا الجليل لم يكن قد اقتصر على أمثال تلك الحالات المستمدة من « الماضى بل تركنا والوعاء ملئ بعوامل القوة ، وأنى لأزعم بأن أقوى ما يستمدّه العربى المعاصر من مطالعة الموروث عن أسلافنا ، كل فى ميدان تخصصه واهتمامه ، هو روح الجدية ، والوقار ، والضمير الحى .. اقرأ ما شئت من نصوص التراث ، وفى أى ميدان تختاره ، تجدك أمام إنسان يجد ولا يهزل ، يسمو بقارئه إلى قته ولا يهبط من قته إلى السفوح ليرضى عنه قراؤه ، وأنى لأشهد الله أن ما قد بثه فينا ذلك الشيخ فى دروسه ، وفى شخصيته ، لم يذهب عنا قبل أن يترك فينا أثرا من الشعور بالجد ، والوقار ، وبقطة الضمير ، انعكست كلها من روح « الماضى » الذى كان الشيخ همزة الوصل بيننا وبينه .

اللغة هى الوسيلة الأولى لربط الصلة بين إنسان وإنسان آخر ، يعاصره ، أو يسبقه فى الزمن أو يلحق به ، فإذا كنا نريد للعربى اليوم

أن يكون موصول الوجدان بالعربي الذي مضى ، فإن أهم ما يحقق تلك الصلة هو اللغة المشتركة بينهما ، على أن يكون واضحاً لنا بأن تلك المشاركة لا تنفى أن تتغير أساليب التعبير بين كاتب وكاتب في العصر الواحد ، ودع عنك أن تباعد بينهما مئات السنين أو ألوفا ، لكن اختلاف الأساليب في اللغة الواحدة ، ينحى وراءه أسساً ثابتة هي التي تضمن اللغة المعينة استمرارها ، أو قل إنها هي « روح » اللغة كما يقولون ، وبوحي من هذه الروح يستطيع الذوق الفطري السليم - فضلاً عن النقد العلمي الاحترافي - أن يفرق في مختلف الأساليب بين قوى وضعيف ، فوجدانية الروح مع تنوع الأساليب تنوعاً لا يتناهى عند حد معلوم ، هو سر عجيب من أسرار « اللغة » أيا كان نوعها ، فالأصل واحد ، وأما « الإبداعية » اللغوية (كما يسميها « تشومسكي » الذي هو في الطليعة بين فلاسفة اللغة في عصرنا) فلا نهاية لتنوعها : فلايكاد الطفل ذو العامين يلتقط شيئاً من روح اللغة في قومه ، حتى تراه قد بدأ يمارس تلك القدرة على الإبداع اللغوي وهو لا يدري ، إذ تراه وقد استطاع أن يضع المعنى الواحد في تشكيلات لغوية لم تكن هي التي سمعها ممن حوله ، إنها تشكيلات من عنده هو ، خرط صياغتها على مخرطته الخاصة ، حتى ليحدث في حالات كثيرة أن تجيء صياغته بعيدة عن المؤلف ، ولكنها مؤدية للمعنى ، فيضحك السامعون للتركيبة اللغوية الغريبة ، التي جاء بها الطفل ، ومن أين جاء بها ؟ إن ذلك سر الإبداع في أبسط صوره وفي أعلاها .

وهذه الحاسة اللغوية وإن تكن مشتقة من فطرة الإنسان ، إلا

أنها - شأنها شأن ماهو فطرى فى معظم الأحيان - قابلة للتهديب والإرهاق بالتدريب الدراسى ، ومثل هذه الحاسة المرهفة التى تميز الصواب من الخطأ ، كما تميز الأجمل من الأقبح ، تكاد تنحصر فى أبناء اللغة ، دون من يتعلمونها من أبناء اللغات الأخرى ، واذكر أنى فى مناسبة سابقة قد رويت رواية سمعتها من المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، وهى أنه بعد أن أهذى كتابه « فجر الإسلام » إلى أحد المستشرقين الكبار ، جاءه خطاب شكر ختمه صاحبه بقوله : « نفعنا الله بخزارة علمكم » ، فالحزارة عند المستشرق الكبير هى ماينجر ، وأما ملابساتها الأخرى التى يحسها ابن اللغة فهى شىء آخر .

ومثل هذه الحاسة اللغوية هى ماكننا نتوقع من مدرس اللغة العربية أن يبثها ، ويربها ، وينميتها ، ولو قد فعل لما رأينا هذه الكثرة الكاثرة من الكتاب بل ومن الشعراء فى هذا الجيل ، تكتب على نحو ماتكتب ، وتنظم على نحو ماتنظم ، وبعض العلة يرتد إلى جماعة ممن وضعوا أنفسهم مواضع الأساطين فى اللغة ، وإذا سألت عما يفعلونه ، وجدت مايفعلونه أقرب الأشياء شها بالحفريات الأثرية ، لاتفرق بين كسرة من الحزف ، وعملة من الذهب ، فكلتاهما أثر نفيس ، يستحق على التساوى أن يعنى به حفظا فى الحزائن ، ولا عجب أن تجد هؤلاء الأساطين إذا ما أمسكوا الأقلام ليكتبوا ، جرت بهم الأقلام إلى عى ، وغث ، وهزال .

ولن يتحقق لنا أمل فى صلة وجدانية بيننا وبين ماضينا العربى ، إلا إذا تغيرت وجهة النظر إلى طبيعة اللغة ، لنبثها فى نفوس أبنائنا وبناتنا ،

بحيث يقرأون ما يقرأونه ، أو يكتبون ما يكتبونه . والشعور يملؤهم بأنهم
إزاء خلجات حية كأنها خيوط من عصب ينتفض تحت سن القلم ،
وعندئذ نقرأ مانقرؤه مما كتبه السلف (كل فيما يثير اهتمامه) فلا يكون
الذى بين أيدينا ورق بارد فى كتاب ، بل يتمثل لنا إنسانا يتحدث إلينا
بما يتحدث ، لا لكى نقول له : نعم ، صدقنا ، بل لنحاوره فيما
يعرضه علينا ، فيعود هو إلى الحياة عن طريق حوارنا معه ، وتزداد نحن
حياة على حياة ، عندما تضاف خبرة الماضى إلى خبرة الحاضر فى خط
واحد موصول الطرفين ، ولم يكن هذا هو الذى بثه فىنا مدرس اللغة
العربية وهو يعلمنا أصول الجملة الشرطية ، ولا كان هو الذى بثه فىنا
وهو يطالبنا بحفظ خطبة الحجاج ، كلا ، ولا هو الذى يبثه القائمون
على اللغة العربية فيمن يتلقاها دراسة أو قراءة .

ذلك - إذن - هو شىء عن « الماضى » وأين يقع منا ونقع منه ،
أنها جملة نطالب بربط أواصرها بين حاضرنأ وماضينا ، لا لكى نستشير
السلف كيف نزرع القطن وقصب السكر ، وكيف ننشئ مصانع
الحديد والصلب ومولدات الكهرباء ، ولا لكى نستشير كيف نقيم
نظم الحكم النيابى ونظم التعليم الذى تتسلسل حلقاته من روضة
الأطفال إلى الدراسات العليا بالجامعات ، بل نطالب بربط حاضرنأ
بماضينا لنستلهم ماعسانا نصون به مقومات الروح العربية فى كبرياتها
وفى حفظها للتوازن بين مايزول ويفنى ، ومايخلد ويبقى ، وأنه لميزان لو
أحسن العربى إقامته كما أحسن السلف فى فترات عزتهم ، لعرفوا ماذا
يضحى به من أجل ماذا ؟ أننا نطالع القدماء لا لكى نكون عيالا

عليهم ، هم يأمرّون ونحن نأتمرّ ، كلا ، فهم رجال ونحن رجال ، لكننا نطالعهم لنشعر بطمأنينة من يعتصم بالحبل حتى لا تنقلعه الريح أو يتقلعه الطوفان ، فالذى نطالعه حين نطالع القدماء ، إنما هو ما أبقي عليه الدهر لجودته ، بعد أن نفخ في الهواء كثيرا جدا من الغث كأنه هباء من الهباء ، وإذا ما طالعت لأحد الأسلاف الذين خلدهم التاريخ ، شعرت بصفاته إنسانا عملاقا ارتفع كما ارتفع لقدرات فيه ، دقة علم ، ونفاذ بصيرة ، وقوة عزيمة ، وفضيلة اخلاق .. تحس بهذا كله ، وتنطبع به ، فيسرى في شرايينك من دمائه ما يسرى ، وحسبك منه أن تشعر بعزة قومية ، لكونك خلفا لهذا السلف ، كان الانجليز أيام امتلاكهم للهند ، يقولون : إن نسب شيكسبير إلى أمتنا أعظم من تملكنا لامبراطورية الهند ، وحين قالوا ذلك عن شاعرهم العظيم ، فهم لم يقصدوا بقولهم ذاك ، أن شيكسبير سيعلمهم بمسرحياته وبشعره ، كيف تغوص الغواصة إلى أعماق المحيط ، وكيف تطير الطائرة إلى قلب السماء . وكيف تجرى على الأرض سيارة وقطار ، بل كان المقصود - بالاضافة إلى النشوة الفنية - الشعور بالعزة القومية ، وهكذا نحن حيال ماضينا وعمالقته ، أو هكذا ينبغي أن نكون .

لكن انظر في غير تعصب وبلا حكم مسبق تضمّره في نفسك قبل أن تنظر لترى ، انظر إلى ما يقع في حياتنا من حيث العلاقة بين العربى ورجوعه إلى ما خلفه السلف من فكر وأدب وما شئت من ثمرات القلم واللسان ! وسوف تعلم كم يقرأ القارئ كتابا من الماضى ، بحثا عن حلول يفيض بها مشكلات يومه ، على ظن بأن حاكم الأمس لا بد أن

يكون أعدل من حاكم اليوم ، وفقه الأمس لابد أن يكون أفقه من فقيه اليوم ، وتاجر الأمس لابد أن يكون أكثر أمانة ونزاهة من تاجر اليوم ، وامرأة الأمس لابد أن تكون أعف من امرأة اليوم وهكذا ، نعم هكذا نفتتح دفاتر الماضي بحثاً عن حلول لمشكلاتنا على غرار ما حلت به مشكلات الأوائل ، ومن هذا الأساس المغلوط ، يتحتم أن تكثُر في حياتنا الحاضرة أغلاط ننحرف بها عن سواء السبيل ..

٣

مازلت أذكرها لحظة من لحظات الانفعال ، التي كثيراً ما أخذت بزمامي ، فتراجع العقل ، وتقدم الوجدان ليمسك باللباس ، فهي لحظة عشتها في حيرة مع نفسي ، وكان ذلك في آخر عام من أعوام الأربعينات ، حين قرأت - لأول مرة - تفرقة بين شمال العالم وجنوبه : فللشمال قوة العلم ، وقوة الحرب ، وقوة المال ، بل وقوة الفن والأدب ، وللجنوب ضعف الجهل ، وضعف الهزيمة ، وضعف الفقر ، بل وضعف طراً عليه في عالم الابداع ، ولم أكد أفرغ من قراءة ما كنت أقرؤه ، حتى تملكنتني الحالة الانفعالية التي أشرت إليها ، سبحانهك اللهم ربى خلقتنا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، فهل كانت مشيتك - يا رباه - أن ينكب الشرق ، إن كانت القسمة بين شرق وغرب ، وأن ينكب الجنوب ، إن كانت القسمة بين شمال وجنوب ، وأن تتراكم النكبتان على من كان « شرقاً جنوباً » معاً ؟ !! وأن تجتمع

النعمتان عند من كتب له أن يكون «غربًا شمالاً»؟؟!!.

نعم ، مازلت أذكرها ، تلك اللحظة المنكودة ، فلقد كنت قبلها
أحترق غضبًا كلما وجدتنا ننساق إنسياقًا أعمى وراء من قسم الناس إلى
شرق وغرب ، ليضع الهزال في الشرق والعافية في الغرب ، ففضلاً
عن أن هذه القسمة لا تستقيم مع الواقع الجغرافى ، فإننا لو سلمنا
بتلك القسمة في الثقافات الكبرى التى شهدتها التاريخ ، بحيث رأينا
التباين الحاد بين شرق فى فارس والهند ، تميز برؤية صوفية ملغزة
غامضة ، وبين غرب فى اليونان القديمة ، تميز برؤية عقلية تضع
المقدمات محاولة أن تستدل منها النتائج فى وضوح علمى لا يلفه
الضباب ، أقول إننا إذا سلمنا بهذه التفرقة الثقافية بين شرق وغرب ،
بقيت لنا الرقعة التى تتوسط الطرفين والتى هى الوطن العربى بمعناه
الثقافى ، ففى تلك الرقعة نشأت ثقافة ثالثة ، ونمت وازدهرت
وانتجت حضارات ، ولم تكن فى رؤيتها العامة شرقية خالصة ، ولا
كانت غربية خالصة ، بل أفرزت طبيعتها كياناً ثالثاً تلاقت فيه عقلية
الغرب مع صوفية الشرق فى وحدة عضوية لا ينفرد فيها أى من
عنصرها بوجود مستقل ، فإذا كان لهذا المزيج قدرته على الإبداع
الحضارى كما شهد بذلك واقع التاريخ ، فى الحضارة المصرية
القديمة ، وفى الحضارة الإسلامية العربية بعد ذلك ، فلماذا نتنكر
لأنفسنا ونتجاهل حقيقتنا وطبيعتنا ؟.

أقول إنى كنت قبل أن وقعت لأول مرة على قسمة جديدة للأمم
بين شمال قوى وجنوب ضعيف ، على كثير من قلق نفسى وعقلى معاً ،

أحاول أن أقيم الدليل على أن لنا ثقافة تجمع بين الحسينين ، فلما صادفتني القسمة الجديدة في تلك اللحظة المنكودة ، أخذ مني الغيظ ما أخذ ، هامساً لنفسى : ألم تكن تكفيننا قسمة واحدة تحاول أن تضعنا في كفة المغبون ، حتى نجيشنا هذه القسمة الثانية لتزيد الطين بلة كما يقولون ؟ لكن المواجهة الانفعالية لا تنفع أحداً ولا تشفع لأحد ، فأيا ما كان الأمر ، فنحن في عصرنا هذا أمام حقيقة واقعة ، وهى أن هنالك قارتين في عصرنا هذا ، وهما أوروبا وأمريكا الشمالية ، تجتمع فيهما «الغرب الشمال » وهما القارتان اللتان اجتمعت لهما ضروب القوة التى ذكرناها : فى العلم ، والحرب ، والمال ، كما أن هنالك ثلاث قارات ، هى آسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا الجنوبية ، تنقصها قوة «الغرب الشمال» ، ومنها يتكون - بصفة عامة - «العالم الثالث» ، وإذا نحننا جانباً أمريكا الجنوبية ، لخروجها عن النطاق الذى يهمنى فى هذا الحديث ، كما نحننا استراليا كذلك للسبب نفسه ، بقيت لنا الكتلة الأفروآسيوية ، وهى الكتلة التى يقع فيها الوطن العربى الكبير ، مشرقه فى آسيا ، ومغربيه فى أفريقيا ، وعلينا أن نطرح على أنفسنا السؤال الآتى لنبحث له عن جواب ، فى صدق ونزاهة وشجاعة ، وهو : ما الذى تميز به «الغرب الشمال » المتمثل فى أوروبا وأمريكا الشمالية ، ومتى تميز ؟ وكيف تميز ؟ وما الذى نكب «الشرق الجنوب » المتمثل فى آسيا وإفريقيا ، ومتى حلت به نكبته ؟ وكيف ؟؟.

وربما انفتح أمامنا الطريق إلى الإجابة الصحيحة .. إذا أضفنا حقيقة برزت خلال هذا القرن لتوهى أن الشعوب الصغرى قد أخذت

شيئاً فشيئاً تشق طريقها إلى القوة التي ميزت « الغرب الشمال » بقدر ما أخذت تتخلص من الصفات التي أضعفت سائر الشعوب الأفريقية الآسيوية ، فبدأت اليابان وحدها أولاً ، ثم تبعتها أقطار أخرى من بلدان اللون الأصفر . وهنا قد يساعدنا على الجواب الصحيح عن سؤالنا ، أن نسأل سؤالاً فرعياً ، عما فعلته اليابان - مثلاً - لتخرج من زمرة « الشرق الجنوب » ثقافة وحضارة ؟ .

وتيسيراً على أنفسنا في عملية المقارنة وصولاً بها إلى الإجابة المنشودة ، فلنحصر النظر في الأمة العربية من جهة ، وفي « الغرب الشمال » الذي هو أوروبا وأمريكا الشمالية - من جهة أخرى - قد كانت للأمة العربية ريادة حضارية مدى تسعة قرون « من أول ق ٧ إلى أواخر ق ١٥ بالتاريخ الميلادي » ثم غابت عنها ريادتها ، وكانت أوروبا بلا ريادة إبان تلك القرون التسعة نفسها ، ثم استحدثتها خلال القرون الخمسة الأخيرة ، انفردت بها في أربعة منها ، وشاركتها أمريكا الشمالية في الخامس . مشاركة احتلت فيها مكان الصدارة ، فسؤالنا - إذن - يتحول ليصبح : ما الذي كان في أيدينا ثم ضاع ؟ وما الذي كان ضائعاً بالنسبة إلى « الغرب الشمال » ثم تحقّق وحضر ؟ .. ترى هل تبلغ شيئاً من الحق إذا قلنا إنها القدرة القتالية ، كانت لنا إبان القرون التسعة التي أشرنا إليها ، ولم يكن لهم نظيرها ، فهم وإن وقفوا إلى نصر في الحروب الصليبية ، فقد كان نصراً مؤقتاً وانتهى بهم الأمر إلى هزيمة . وأما بعد تلك القرون التسعة ، فقد انتقلت إليهم القدرة القتالية ولم يعد لنا منها شيء على أن نلاحظ هنا جانباً ستكون له في إجابتنا عن

السؤال المطروح أهمية كبرى ، وهو أن القدرة القتالية حين كانت لنا ، كان سندها هو «الدين» ، وأما وهى لهم فإن سندها هو «العلم» فقد قاتلناهم وكانوا هم المعتدين فى الحروب الصليبية - دفاعًا عن الدين بالإضافة إلى أرض الوطن ، وأما هم إذ يقاتلوننا فى مرحلة ريادتهم ، فهم يقاتلون بحثًا عن أرض يملكونها ، وشعوب يحكمونها ، ومواد خام يغتصبونها لصناعتهم بعد أن وقعت لهم ما يطلقون عليه «الثورة الصناعية» .

وإننا لنقول الحقيقة نفسها بعبارة مختلفة ، إذا وضعنا طرفى المقارنة فى صورة أخرى ، قائلين إنه بينما كانت أوروبا عند خروجها من عصورها الوسطى ، لتدخل عصرها الحديث الذى هو عصر قوتها ، قد جعلت ينبوعها الذى تستلهمه روح نهضتها ، أسلافهم اليونان والرومان ، إما بطريق الاتصال المباشر بتراثهم ، وإما عن طريق العرب ، ومن ثم فقد عرفت طريقها إلى الرؤية العقلية العلمية وهى الرؤية التى بنيت عليها حضارة الغرب الحديثة كلها ، أقول إنه بينما كانت تلك هى مصادر إلهامها ، فقد كانت الأمة العربية إبان ريادتها خلال القرون التسعة التى أشرنا إليها ، تستلهم الدين ، أى إنها كانت تستلهم وحيًا إلهيًا أوحى به إلى نبي رسول .

ونضع أمامنا هذه الصورة بجوانبها المختلفة ، لننتقل بها إلى حاضر الأمة العربية ، فنسأل عن هذا الحاضر نفسه ماذا نعى به فى حديثنا هذا ؟ وهنا يأتينا الجواب على درجة عالية من الوضوح فحاضر الأمة العربية ، من الزاوية التى تهمنى فى هذا الحديث ، هو أنه موقف قوامه

طرفان : فهناك حضارة ركيزتها الأساسية هي علم طبيعي بمعنى جديد ، وهنا ركيزة أساسية ، هي دين وتاريخ ، كانت قد قامت عليها حضارة فترت قوتها ، ولكن بقيت ركيزتها وستبقى ، فكيف يكون سبيلنا إلى مستقبل قوى مزدهر؟.. أنه لبيدو للوهلة الأولى «وربما للوهلة الثانية كذلك» أنه لا سبيل إلا إذا عرفنا كيف ننقل حضارة القوة المستندة إلى علم ، فنقيمها على أرضنا فوق ركيزتنا نحن ، بما تنطوي عليه من دين وتاريخ ، ترى هل هو مطلب ممكن التحقيق ؟ وكيف يتحقق ؟.

ولست أريد لنفسي ، كلا ولا أريد للقارئ أن يمر على هذه الكلمات مرأً سريعاً ، لأننا لو فعلنا ، أفلتت بنا المشكلة التي نحن الآن بصدد طرحها ، وشرحها ، وحلها ، مع أنها مشكلة توشك أن تكون أخطر ما صادف الأمة العربية منذ أسدل ستار على مسرح ابداعها في آواخر القرن الخامس عشر ، فماذا نعني بقولنا : هل يمكن للعقل العربي أن يقيم العلم الطبيعي الجديد على قوائم من دينه وتاريخه ؟ وهو سؤال إذا وفقنا إلى جوابه ، استطعنا اقتحام العقبة التي حالت ، ومازالت تحول دون دخول العربي عصره الذي يعيش فيه توقيتاً ، ولا يعيش فيه بانياً ، حتى لقد قنع بأن يأخذ من ثمرات عصره ما يتصدق به عليه سادة العصر ، وأصبح بهذا الوضع تابعاً ، ولا يحو عنه التبعية أن يهتف لنفسه بالحرية !! ونعود فنسأل : ماذا نعني بإقامة العلم الطبيعي الجديد «الذي هو سمة العصور الأولى» على ركيزة الدين والتاريخ ؟ ولكي نجيب شارحين في حدود علمنا القليل ، نقول : إن

موضع الجدة فى العلم الطبيعى الجديد ، هو «الأجهزة التى هى وسيلة البحث العلمى على نطاق واسع ، ثم هى فى الوقت نفسه نتيجة يتتبعها البحث العلمى فى صورته الجديدة ، فالوسائل البحثية أجهزة ، والنواتج أجهزة ، وتلك هى التقنية «التكنولوجيا» بمعناها المنهجى الصحيح ، وهو المعنى الذى لم يكن هناك سواء عندما أطلق هذا المصطلح لأول مرة فى آواخر القرن الماضى ، ثم شاع للكلمة معنى آخر ، بحيث أصبح يطلق على الأجهزة المنتجة وحدها ، وكان الأولى ، إذا أردنا الاختصار على أحد الطرفين ، أن نطلق الكلمة على أجهزة البحث العلمى ، من مقاييس ، ومناظير وغيرها مما تمتلئ به معامل البحوث العلمية ، وكان الأصح بدل أن نقول العبارة الشائعة «العلم بالتكنولوجيا» فعلاقة العلم الطبيعى بمعناه الجديد ، علاقته بأجهزة البحث هى من الشدة بحيث إذا سئلنا : ماذا نعنى «بالتقدم» فى العلم ؟ كان الجواب هو أننا نعنى التقدم فى دقة الأجهزة المستخدمة فى البحث ، والعكس صحيح أيضاً ، أى إننا إذا سئلنا : ماذا نعنى بالتقدم فى أجهزة البحث ؟ كان الجواب هو أننا نعنى التقدم العلمى ، ولم يكن قط لهذه العلاقة المتبادلة بين البحث العلمى وأجهزته وجود فى ماضى البشرية بأسره ، وكل ما عرفه رجال العلم الطبيعى قبل القرن الماضى من أجهزة وسائل غاية فى القلة وفى البساطة فى آن واحد ، وكان مؤدى هذا التقدم الهائل والسريع فى أجهزة البحث العلمى ، هو أن استطاع الإنسان المعاصر أن يعلم عن الكون علماً لم يكن يمرؤ فـيا مضى أن يحلم به ، وأضرب مثلين اثنين وأكثى ، أولها هو أن لدى

الإنسان الآن منظاراً فلكياً يستطيع به أن يتلقى الضوء من مصادر تبعد عن الأرض - كما قرأت أخيراً - عشرين ألف مليون سنة ضوئية ، وأذكر القارئ بأن الضوء سرعته في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر ، فكم يكون في ساعة ؟ وكم يكون في يوم ؟ وكم يكون في سنة ؟ ثم كم يكون في عشرين ألف مليون سنة ؟.. فهذا جهاز يمد أفاق علمنا بالكون إلى هذا المدى ، والمثل الثاني هو تلك الأجهزة التي يطلقون عليها اسم «الإنسان الآلى» فيتخيل السامع أنها أجهزة تشبه الإنسان في شكله الجسدى ، فيكون لها أذرع وأرجل وجذع ورأس ، وحقيقتها أنها أجهزة تؤدي ما يؤديه الإنسان في عملياته الإدراكية ، وقد يأخذ الجهاز منها صورة الصندوق ، فلإنسان - مثلاً - قدرة على الإدراك البصرى ، ولاحظ أن ذلك شيء أكثر من مجرد انطباع صورة شيء خارجى على حاسة البصر ، فهذه العملية كانت تقوم بها آلة التصوير «الكاميرا» أما «الإدراك» فهو أن تترجم الصورة المتلقاة من الخارج إلى «معرفة» بما يترتب على تلك الصورة من ردود الفعل إلخ .. إلخ ..

ذلك هو العلم الطبيعى الجديد ، في دقة أجهزته ، وفي أبعاد نتائجه ، ولعله من الواضح أنه يقتضى دقة بالغة أقصى مداها في «تحليل» الظاهرة المادية التى توضع موضع البحث ، مما حدا ببعض رجال الفكر فى الغرب أن يطلقوا على هذا القرن العشرين اسم «عصر التحليل» وهى صفة تصدق على عصرنا كل الصدق ، وقد انعكس صداها على ظواهر الحياة الإنسانية ذاتها ، إنعكاساً ظهر أثره واضحاً

فى العلوم الإنسانية كلها : علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد وغيرها ، وحسبك أن ترى إلى أى حد تلجأ هذه العلوم الآن إلى صياغة قوانينها فى صورة رياضية ، وإذا قلنا رياضية فقد قلنا آخر درجة من درجات التحليل العقلى ، ولا شك فى أن كل قارئ يعرف شيئاً قل أو كثر ، عن مدى ما وصل إليه علماء الطبيعة من تحليل المادة إلى ذرات ، والذرة إلى كهارب بعضها سالب ، وبعضها موجب ، وبعضها محايد ، وها هو ذا ضرب جديد يظهر بين مكونات الذرة ، كشف عنه ثلاثة علماء ، واستحقوا من أجله جائزة نوبل لعلوم الفيزياء لعام ١٩٨٨ ، وهو ضرب بلغ من الصغر ومن الخفاء حداً جعل مكشفيه يسمونه « الشبح » إذ رأوه أدخل فى باب الأشباح منه فى عالم الأجساد ، فانظر كم من دقة التحليل يتطلبها العلم الطيعى اليوم ليلغ أصغر الوحدات التى فيها نسجت الظواهر المختلفة فى نسيج واحد متصل ، هو هذا الكون العظيم ، وكلما بلغ العلماء بتحليلهم ما ظنوا أنه آخر المطاف ، وجدوا ما هو أصغر ، وأما عن القوة الجبارة التى حبست فى تلك الكهارب اللامتناهية الصغر ، فحدث ولن تجد لحديثك خاتمة يقف عندها .

وما علاقة هذا كله بسؤالنا الذى طرحناه أخيراً ، وهو : هل يمكن للعربى أن يشارك فى هذا الجهاد العلمى ، شريطة ألا يتنافر مع جذور فى حياته ولا تكتمل له تلك الحياة إلا بها ، ألا وهى دينه وتاريخه ؟ وقد يتعجب القارئ من سؤالى هذا ، قائلاً لنفسه : وما الذى يمنع الجمع بين الجانبين فى شخص واحد ؟ على أن هذا المتعجب

يرجح له أن يكون على تصور للمشاركة العلمية المطلوبة هو التصور السائد فينا جميعاً ، أى أن تكون تلك المشاركة مقصورة على دراسة ما قد أنتجه آخرون وكان الله يحب المحسنين ، أما أن يتصور بأن المشاركة المطلوبة مختلفة كل الاختلاف عن حفظ ما بين يديه ، إذ تعنى - أولاً - أن نحيا حياة اجتماعية من شأنها أن تفرز لنا وجوب البحث العلمى الذى نواجه به تلك المشكلات ، و - ثانياً - أن تنشأ فى جوف تلك الحياة العلمية ، اهتمامات على مستوى أعلى يرتبط بها رجال الاختصاص العلمى بمن يقابلهم فى أنحاء العالم المتقدم ، ليكون لنا نصيبنا المعقول فى بحث أمهات المسائل العلمية التى تستهدف سد الثغرات الموجودة والمتعلقة بأسئلة كبرى لم تجد أجوبتها بعد ، و - ثالثاً - أن يكون منا من يبادر الدنيا بلفتة علمية جديدة فى أى ميدان من ميادين الطبيعة ، فهذا كله لا يطوف للدارس العربى ببال ، إلا إذا حفزته موهبته المحبطة فى وطنه ، إلى هجرة تضعه فى مكان يقدره ويشجعه ويفسح له مجال المشاركة العلمية بهذا المعنى الكبير .

إنه لا عجب فى أن يكون الوطن العربى قد انفتحت أبوابه على الغرب منذ ما يقرب من قرنين كاملين ، ومع ذلك فهو يعد بمنزلة من رفض ، ويرفض تقبل هذه الحضارة العلمية ، اللهم إلا مستهلكاً لثمارها ، ودارساً فى معاهده وجامعاته دراسة التلاميذ ، فيحصلون ما بين أيديهم ، وعلى أساسه يكون منهم المهنيون والمحترفون فى ميادين الحياة العملية ، حتى إذا ما واجهتهم تلك الحياة بمفاجآت لم تكن

مذكورة في المادة العلمية المدروسة ، استدعينا لمعالجتها خبراء من خارج بلادنا !.

فإلى المتعجب الذي يسأل قائلاً : وما هو وجه الصعوبة في أن ندرس علوم العصر لنضيفها إلى دين عندنا وتاريخ لنا ؟ نقول : إن الصعوبة قد نشأت من الطريقة التي ربينا عليها ، وتعلمنا في جوها ، وهي طريقة من شأنها ألا يؤخذ الدين وأن يفهم التاريخ على نحو يظهرهما وكأنهما يتنافران مع العلم الطبيعي الجديد ونتأجه ، ومن هنا نرى دارس العلم عندنا - ودع عنك أفراد الجمهور العام - يتناول ذلك العلم على حذر ، خشية أن يكون الأخذ به أخذاً كاملاً ، يصدر عن قلبه حباً وإقبالاً ، صدوره عن عقله دراسة وفهماً ، قد يتنافى مع الإيمان الديني أو مع أى شعور مما توارثناه عن ماضينا جيلاً بعد جيل ، إذ قد يتنافى - مثلاً - مع خوارق الأولياء ، أو مع الاعتقاد في عجز الإنسان وقصوره بالقياس إلى علم الله وقدرته سبحانه وتعالى .

فما الذى ألقى في روع العربي الجديد هذا الفزع كله من العلم الطبيعي في صورته الحديثة ؟ ولكى تدرك إلى أى حد قد بلغ منه الحذر الفازع تجاه هذا العلم ، قارن بين موقف العربي في هذا الصدد ، وموقف الشعوب الصفراء ، كاليابان ، والصين ، وكوريا ، وتايوان ، لترى الفرق البعيد بينهما في الجرأة على تشرب الروح العلمية الجديدة في عالم الصناعة ، حتى لترى إنتاجها الصناعى يقتحم على بلاد الغرب أبوابها لينافسها في عقر ديارها ، مع أننا وشعوب البلاد الصفراء نلتقى إلى حد ما في أن لكل منا تقاليده التى انحدرت إليه عبر

تاريخه الطويل ، ويرفض أن يلقى بها في البحر ليستقبل الغرب الحديث بكل كيانه إنني إذ أتأمل موقف العربي من علم عصره ، وهو موقف حذر رافض بوجه عام ، ولا نجدعنا أن تمتلئ أرضنا وسماؤنا بشمرات ذلك العلم ، وأن تتجاوب القاعات في جامعاتنا بأصداء المقررات العلمية والمعامل وغيرها ، لأن ذلك كله - كما ذكرت فيما أسلفته - إنما هو قطف لتاج غيرنا ، نأخذه ونحفظه ونستخدمه ، وحتى إذا صنعنا شيئاً مثله ، جاءت صناعتنا في أغلب الحالات نسخة منقولة عن أصل أنتجه غيرنا ، أقول إنني إذ أتأمل هذا الموقف الرافض لحضارة العصر متمثلة في روحه العلمية ، أجدني متجهماً بفكرى في اتجاهين : في اتجاه منهما أحاول مقارنة هذا الرفض بما كان للعربي من ريادة علمية خلال مايقرب من تسعة قرون ، فأسأل لماذا ؟ ثم أحاول الجواب : وفي الاتجاه الثاني أحاول أن أتلمس في روح العلم الجديد معالم قد تبدو وكأنها تناقض روح الدين وروح الحياة كما مارسناها عبر عصور التاريخ .

فأما في الاتجاه الأول - الذى أقارن فيه بين موقف العربي من علم اليوم وموقفه من علم الأمس - فما أسرع ما تأتيك المقارنة بما تريد ، فعلم الأمس منذ بدا عند الإنسان نظر علمى حتى نهضت أوروبا في القرن السادس عشر ، كان في أغلب حالاته يدور حول استخراج صيغة من رموز ، باستدلالها من صيغة أخرى من رموز ، ولقد تعمدت هنا استخدام كلمة «رموز» لتشمل فيما تشمله ، قسمين هامين هما : «اللغة» وتراكيبها و«الرياضة» وما فيها من أعداد أو حروف ..

فكان مدار الفكر العلمى فى معظمه ، إما علومًا لغوية وفقهية وتحليلات شارحة لما قد سبق السلف إلى قوله ، وإما علومًا رياضية خالصة كالحساب والجبر والهندسة ، وإما علومًا أخرى تبنى على الرياضة كالفلك ، وفى جميع هذه الحالات لم يكن النظر العلمى ينصب على ظاهرة طبيعية انصبابًا مباشرًا ليستخرج قوانينها ، بل كان ينصب - كما قلت - على أقوال ، أو مركبات رياضية « ومنهج الاستنباط فى كلتا الحالتين واحد فى أساسه » ومن هنا وجبت الحيلة حين نذكر « علم » القدماء ، لنقارنه بعلم المحدثين ، فالفرق بعيد بين المعنيين برغم أن كلمة « علم » مشتركة فى الحالتين ، فعلم السالفين توليد كلام من كلام ، أو رموز من رموز ، وأما العلم الطبيعى عند المحدثين فموضوعه الطبيعة ذاتها ، يتناولها تحليلًا ليصل إلى أبسط وحداتها التى هى بمنزلة الخامة الأولية التى هى قوام الكائنات ، واستخلاص القوانين التى على نسقها تجرى الظواهر الطبيعية كما تجرى ، وفى هذا الميدان برع العرب الأقدمون براعة تفوقوا بها على معاصريهم فى الغرب مع ملاحظة أن القرون التسعة التى جعلناها فترة الإبداع العربى كانت هى نفسها عصور أوروبا الوسطى التى كثيرًا ما توصف بأنها « العصور المظلمة » وتبدل الموقف حين نهضت أوروبا فى القرن الخامس عشر إذ وجهت نظرها العلمى إلى الطبيعة ، بعد أن كان ذلك النظر موجهًا إلى صحف خلفها السابقون ، وفى تغيير الاتجاه من الصحف وكلماتها إلى الطبيعة وظواهرها وكائناتها ، اقتضى الأمر منهجًا جديدًا غير منهج التوليد الذى كان مستخدمًا فى استخراج كلام من كلام ، أو رموز من

رموز ، وعندئذ وقف العرب حيث كانوا فيينا زواج الغرب فى حياه العلميه فجمع فيها قديماً مقروء إلى جديد مرئى ومسموع مضى العربى فى طريقه يستأنف قديمه فى جديده على أننا لا نريد للقارئ أن يتجاهل جانباً فى مرحله الإبداع العربى ، كان فيه النشاط العلمى منصباً على «موضوع خارجى» وليس على صيغ كلاميه ليستولدها صيغاً كلاميه أخرى تنتج منها .

فإذا أقبل العربى المعاصر على حياة علميه ، حاملاً معه نظرة القدماء إلى العلم ماده ومنهجاً ، وجد الهوة عميقة بينه وبين ما يتطلبه العلم التقنى «التكنولوجى» المعاصر بأجهزته التى يتوسل بها فى عملية البحث العلمى ، ثم بأجهزته وآلاته التى هى بدورها ثمرات صناعيه ينتجها ذلك العلم ، ومن هذه المسافة البعیده بينه وبين عصره فى الرؤية العلميه ، يشعر بالغربة التى تؤدى به إلى النفور الرافض أو إلى القبول الحذر الخائف .

وأما الاتجاه الثانى الذى أجدنى متجهاً إليه كلما تأملت موقف العربى فى حاضره من علوم عصره فهو اتجاه اتساءل فيه : ترى هل يكون ذلك الشعور بالغربة الذى يتتاب العربى المعاصر ، ناشئاً كذلك من فجوة أخرى تفصل ماضيه عن حاضره وهى فجوة أعنى بها الفرق البعيد بين ما ينتج للعلماء من تحليل الماده الكونية إلى ذرات ، والذرات إلى كهارب ، والكهارب إلى صنوف منها مختلفة أظنها أربعة فى عددها .. فمثل هذا التحليل الجديد لماده الكون قد أوحى بعدة أفكار ، منها : أن الفاصل بين ما هو «مادى» وما هو «لا مادى»

أوشك أن يزول فها هي ذى قطعة الخشب أو الحديد ، قد رددناها
آخر الأمر إلى «طاقة» كهربية ، ثم يضاف إلى ذلك ما هو أدهى إلى
العجب ، وهو أن تلك الكهارب التى تتألف منها الذرة لا تنقاد فى
نشاطها إلى قوانين حاسمة محكمة ، بل هى تنشط فى كثير من «الحرية»
فلا يتمكن العلم من التنبؤ فى لحظة معينة ، كيف تنشط فى اللحظة
التالية ، فإذا أراد العلم إزاء ذلك أن يستخرج للذرة وكهاربها
قوانينها ، لجأ إلى منهج إحصائى لاحتامية فى نتائجها ، وفوق هذا
وذاك ، قد يتفرع عن الموقف العلمى الراهن ، نتيجة نراها بالفعل عند
نفر من مفكرى هذا العصر وفلاسفته ، وهى أن الكون «تعدى»
يتعذر على الباحث فيه أن يجد «الواحدية» التى تجعله كونه واحداً
موحداً فيما يشبه الكيان العضوى الفرد ، خصوصاً إذا تذكرنا أن
«الكون» كما يراه علم اليوم ، «يمتد» فى كل اتجاه كأنه كتلة غازية
تنتشر وتزداد اتساعاً ثم تظل تنتشر وتتسع أفاقها ، وإذا كان ذلك
كذلك ، فالكون فى مجموعه اليوم لم يكن على صورته وحجمه هذا
بالأمس ، لا ، ولن يكون غداً ، ولنا - وبالطبع - أن نضيف نتائج
فرعية كثيرة أخرى مما انتهى إليه علم هذا العصر ، كالمهندسة الوراثية
التي تزداد قوة كل يوم ، ومن شأنها أن يزداد الإنسان قدرة على التغيير
والتبديل فى طبائع الكائنات الحية ، بما فيها الإنسان نفسه ، وهذا مثل
واحد من أمثلة كثيرة .

وحىال هذه الممارسات العلمية العصرية بكل ما ذكرناه وما لم
نذكره من نتائج ، أرانى مسائلاً نفسى ، كلما تأملت الوقفة الراضية

التي يصطنعها العربي، الجديد ، قائلاً : أ تكون علة موقفه هذا تلك
الهوة السحيقة بين رؤية هذا العصر ، وبين ماضيه الذي أورثه رؤية
أخرى ؟ قد يكون ذلك ، وبهذا - إذا صح - يصبح الرفض العربي
للوقة العلمية ذات الطراز الذي يميز عصرنا ، مؤسساً - في أعماقه -
على عاملين : أولهما هو أن العربي قد وقف بابداعه الفكرى عند مرحلة
التوليد الذي يستنبط رموزاً من رموز ، والرموز قد تكون مفردات اللغة
ومركباتها ، وقد تكون رياضية ، ولم يدخل مع الغرب مرحلته العلمية
الحديثة التي تتجه نحو الكون وكائناته وظواهره ، بالإضافة إلى الاتجاه
الأقدم نحو الكتب الموروثة عن السلف ، والنسج على منوالها ، وأما
العامل الثانى فهو ما قد تطور إليه العلم الحديث نفسه إلى مرحلة تقنية
تقوم على أجهزة وتنتج أجهزة ، مما أدى إلى مزيد ومزيد ثم مزيد من
تحليلات للكون وكائناته ، فى دقة أوصلت الإنسان إلى علم أوسع
وأعمق لطبيعة الكون ومادته ، فازداد بعلمه هذا قدرة لم يكن
يتصورها بشر من قبل ، كما أوصلته - بناء على المعرفة الجديدة - إلى
أفكار واعتقادات تصطدم - فى ظاهرها على الأقل - مع وجهة النظر
فى الموروث العربى .

ولسنا نريد تبسيط الأمور المعقدة ، لكننا مع ذلك إذا ما قلبنا
النظر فى العاملين المذكورين اللذين رأيناها - على سبيل الظن - علة
أحجامنا عن الأخذ بجوهر العصر لنشارك فيه مشاركة سيد مع سيد ،
وجدنا الخروج من المأزق الحضارى فى حدود المستطاع ، دون أن يلجأ
إلى اعتساف فى تصورنا لحقيقة الأمر الواقع ، فأما عن العامل الأول ،

الذى يتلخص فى أن العربى يسير بفكره على منهج التوليد الاستنباط وحده كما كانت الحال مع السلف «بصفة عامة» وبرغم أنه يحصل علوم العصر بمنهجها الجديدة . إلا أنه يحصر تلك المناهج الجديدة فى مجالها الأكاديمى أو المهنى وحده ، ولا يجاوز بها تلك الحدود ليجعلها عمادًا من عمد منظوره الفكرى بصفة عامة ، فالتغلب على هذا القصور مرهون بضرب جديد من التعليم فى مدارسنا وجامعاتنا ننقل به إلى الدارس مادة علمية ومنهجها ، بحيث يتشرب مع العلم طريقته ، فحتى لو أنسته شواغل الحياة العملية بعد ذلك ، مادة الموضوع العلمى الذى درسه ، بقى له منهج النظر ، يستخدمه فى شتى مجالات الحياة التى تتطلب فكرًا منهجيًا يتلاءم مع جو العصر .

وأما عن العامل الثانى ، وهو أخطر شأنًا ، وأعنى به تلك الفجوة بين ما قد انتهى إليه العلم الجديد من تحليل للمادة ، ومن قدرة للإنسان على التغيير والتبديل فى الكائنات الحية ، ومن رؤية عامة ترى الكون مقطوع الأوصال متعدد الأجزاء ، مما قد ينبى عنه التوحد ، الفجوة بين هذا كله ، وبين ما يظن العربى أنه رؤية عربية أصيلة ، ترى فى الكون واحدية ، وثباتًا ودوامًا ، وتنكر على الإنسان حقه فى العبث بالكائنات كما خلقها خالقها فذلك كله يمكن إمعان النظر فيه ، فزراه غير ما ظنه العربى حين قارن بين حاضر الدنيا وماضيه ، فلو أن علماءنا القدماء المبدعين الذين - بحكم اهتمامات عصرهم - صبوا قدراتهم البحثية على موضوعات أخرى غير الطبيعة وظواهرها ، كاللغة ، والفقه ، وتحقيق الحديث ، وغيرها ، أقول لو أن هؤلاء العلماء

القدامى المبدعين قد عاشوا فى عصرنا هذا ، باهتمامات العصر المتجهة نحو مزيد من العلم بالكون وكائناته ، لكان الأرجح أن نراهم فى الطليعة مع غيرهم ، كشفاً لطبائع الأشياء وصوغاً لقوانينها ، وتحليلاً للمادة إلى الذرة بمفهومها الجديد وما دون الذرة ، وهو تجرؤ للمادة فى معامل العلم ، لا يودى إلى تمزق فى الكون يبعده عن واحدته ، فليس فى الدين أمريقيد الإنسان فى تدبره لخلق الله عز من خالق . إنها طريقة التربية ، وطريقة التعليم ، وطريقة الإعلام فى الوطن العربى .. لو استنارت فأنارت ، لأضحى العربى الجديد عربياً حقاً وجديلاً حقاً وفى شخصه يتواصل حاضره وماضيه ..

جُـسُور عَـبَرناها

كنا فى حديث ماضى نصور القلقلة الهائلة التى تجتازها المرحلة التاريخية التى يجتازها العالم كله اليوم ، وذلك لأن هذا العالم كان قد استقرت بحياته أوضاع حضارية وثقافية معينة ، حتى بلغ استقراره حد التجمد والجمود إبان القرن الماضى (التاسع عشر) فى أوروبا بصفة خاصة ، لأن أمريكا لم تكن بعد قد دخلت مع أوروبا على مسرح الأحداث العالمية ، بل كانت طوال الجزء الأكبر من القرن الماضى ، مازالت تأخذ أفكارها من أوروبا ، قبل أن تقف على قدميها مستقلة بفكرها الجديد ، الذى لاءمت بينه وبين حياتها العملية والعلمية الجديدة ، وأما سائر أجزاء الدنيا القديمة - فى آسيا وأفريقيا - فكانت إما غير مسموع بها ، وإما ألحقت بتوابع للدول الأوروبية ، فإذا نحن قلنا إن صور الحياة فى أوروبا كانت قد بلغت من الثبات على قواعد معينة محددة حد التجمد والجمود ، فكأننا قد انصرفنا بالحكم نفسه إلى معظم أقطار العالم ، وأحسب أننا لم ننس بعد ما كان قد شاع عن التقاليد كيف أطبقت بقبضتها القوية على تفصيلات الحياة العملية فى إنجلترا إبان ما يطلق عليه اسم «العصر الفكتورى» «نسبة إلى الملكة

فكتوريا» حتى لقد كانت كل حركة تتحرك بها ذراع أو قدم في موقف اجتماعي معين «منضبطة بقوالب تفرضها» التقاليد ، ولما كان مما يستعصى على حيوية الحياة الإنسانية أن تنخرط في قوالب من جديد على هذا النحو الذي فرضته التقاليد فقد شاع النفاق الاجتماعي في ذلك العصر نفسه فيظهر الإنسان سلوكاً منضبطاً في صورته الخارجية ويطن في الخفاء سلوكاً آخر يحياه خلف الستائر .

لكن القرن الماضي نفسه ، الذي عاش أبنائه حياة متجمدة الصور ، هو نفسه القرن الذي أفرزت فيه العبقريات أفكاراً ، جديدة في كل ميدان ، كان من شأنها أن تحدث انقلاباً جذرياً في معايير الحياة الإنسانية وأشكالها ، إلا أنه لم يكن من حظ القرن الماضي ، الذي أفرزت فيه تلك الأفكار الضخمة أن يشهد تحولها من نظر إلى تطبيق ، وأقل ما يقال في تفسير ذلك هو أنها سنة الحياة كما قد شهدتها التاريخ الفكري ، فالفكرة المعينة تولد في زمن لكنها تستغرق فترة تطول حيناً وتقصر حيناً ، قبل أن تتقطر قطرة قطرة من ذروتها العليا لتصل إلى سفوح الجباهير ، في حياتهم العملية ، وإذا كانت الفكرة الانقلابية العظيمة تمس سياسة الحكم ، كان الأغلب ألا تتحول إلى تطبيق إلا بعد حروب وثورات تنشب في سبيل تحقيقها ، وذلك هو ما حدث فعلاً في بعض ما ترتب على الأفكار المحورية التي ولدت في القرن الماضي ، وعلى رأسها جميعاً فكرة نقلت محور الرؤية إلى الكون في مجموعة ، وإلى كل كائن على حده في ذلك الكون ، فبعد أن كان المحور هو أن ينظر إلى الكون وكائناته نظرة سكونية ، أي أن الشيء

المعين هو بطبيعته الأولية ساكن إلى أن يحركه عامل خارجي يأتيه من خارج كيانه ، لأنه هو بذاته قاصر عن أن يحرك نفسه بنفسه .

وذلك هو مبدأ القصور الذاتي الذي أقام عليه « نيوتن » بناءه النظرى للكون وأصبح هو إطار الفكر الأوروبي - والعالمي - خلال الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر أقول إنه بعد أن كان محور الرؤية العامة في العلم وفي الثقافة سكونيًا على الوجه الذي شرحناه ، جاءت الفكرة الدينامية الجديدة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، على يدى هيغل أولاً ، من حيث أساسها الفلسفى ، ثم على أيدي من اتجهوا إلى فكرة « التطور » في صورها المختلفة بعد ذلك وليس يدرى هذا الكاتب على نحو يطمئن إليه ، إذا كانت الحركة الرومانسية الواسعة في الأدب الأوروبي في الثلث الأول من القرن الماضى ، والتي كانت بدورها صدى مباشرًا للثورة الفرنسية التي لم يكن قد مضى على شوبها أكثر من ربع قرن ، أقول إن هذا الكاتب لا يعرف على دقة يطمئن إليها ، إذا كانت تلك الحركة الرومانسية في الأدب ، نتاجاً في دنيا الأدب يضاف إلى هيغل في دنيا الفلسفة في ولادة الفكرة الدينامية الجديدة التي كان لها صداها في أفكار القرن الماضى :

ماركس في نهج المادية الجدلية عند تفسير التاريخ ، و « دارون » في نظريته البيولوجية عن أصل الأنواع وطريقة تطورها ، وإن يكن « دارون » أقرب إلى فكرة القصور الذاتي في تفسيره ، إذ هو يجعل لعوامل البيئة الطبيعية كل الأثر في انتخاب ما يبق من الأنواع الأصلى للبقاء وفناء الأنواع التي لا تتكيف لبيئتها ، ثم « فرويد » في نظريته

الجديدة لحقيقة الإنسان ودوافعه ، بل نضيف إلى هؤلاء «العلماء» فلاسفة «الإرادة» «شوبنهاور» وإرادة الحياة «ونيتشه» وظهور الإنسان الأعلى ، وكل هذه الأسماء ظهرت متقاربة كالكوكبة الواحدة فيما حول منتصف القرن الماضي إلى أن جاء في آواخر القرن «اينشتين» كالمنارة تشق بصوتها سبيل العلم الجديد فيما بعد ، أى في هذا القرن العشرين الذى نحيا اليوم فى نصفه الثانى ، أفكار نظرية كبرى ولدت فى القرن الماضى كما رأيت سارت جنباً إلى جنب مع تجمد التقاليد فى الحياة العملية بما فى ذلك الحياة السياسية التى شهدت حركة استعمارية واسعة النطاق ، مدت شباكها لتلف شعوباً كثيرة فى أفريقيا وآسيا وكانت مصر ومعظم بلدان ما قد أصبح يسمى بالشرق الأوسط ، بين الأقطار التى شملتها مصائد المستعمرين ، فاحتاج الأمر إلى حربين عالميتين وإلى ثورات قومية لتحطم القوالب الحديدية التى انصبت فيها الحياة العملية بما فيها الجانب السياسى ، بحيث تتاح الفرصة لولادة عالم جديد تتطابق فيه جدة الحياة العملية والسياسية مع الأفكار النظرية الجديدة ، التى كان القرن التاسع عشر قد تمخض عنها ، والتى بقيت فى أصياغاتها النظرية تنتظر هذا القرن العشرين ليتحول بها إلى تطبيق يجريها فى مسالك الحياة حياة .

وقد أسلفنا فى حديثنا السابق بعض الأمثلة لما تغيرت به حياة الناس عقب الحرب العالمية الثانية ، وحسبنا الآن مثل واحد نعيد ذكره لتناوله بتفصيل يكشف أماننا جوانب حيوية فى موقف الأمة العربية اليوم بين الثقافتين : ثقافتها الموروثة ، وثقافة الغرب ، وهذا المثل

الواحد الذى نعيد الحديث فيه هو ما قد يسمى أحياناً بثورة الألوان بمعنى أنه بعد أن كانت «الثقافة» تقاس إرتفاعاً وانخفاضاً بثقافة «الرجل الأبيض» أى أنها كانت تقاس بثقافة أوروبا حتى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، إلى ما بعد منتصف القرن الماضى بقليل كانت تخضع لهذا المقياس نفسه ، إلى أن أطلق «أمرسن» صيحته المشهورة فى أواسط القرن ، بضرورة أن تستقل الولايات الأمريكية بثقافة تميزها ، وأما شعوبنا نحن فى أفريقيا وآسيا فقد كان عليها أن تنتظر حربين عالميتين وعدة ثورات وطنية وإقليمية قبل أن يطلق سراحها الثقافى ، فتحيا ثقافتها الخاصة بها ، دون أن يعيرها أحد ببعدها عن ثقافة الغرب ، فأريناها بعد الحرب العالمية الثانية وقد أخذت تستقل سياسياً من ربة مستعمرها شعباً بعد شعب قد أخذت كذلك تحي أصول ثقافتها الخاصة .

وكانت الأمة العربية بين هؤلاء ، بل قد سبقت هؤلاء جميعاً فى صحتها الثقافية التى كانت قد بدأتها فى أواخر الثلث الأول من القرن الماضى ، متأثرة فى ذلك بمواجهة مباشرة كانت قد واجهت بها الغرب فى حملة نابليون على مصر ، وتولد لها من تلك المواجهة فرعان من التوجه الثقافى يتفق كلاهما على ضرورة إحياء التراث الثقافى ليكون لها شرياناً حيوياً ، يتصل به حاضر بماض ، ثم اختلف الفرعان بعد هذه النقطة الاحيائية المتفق عليها ، فأحدهما يضيف إلى إحياء الموروث نقولاً من ثقافة الغرب وعلومه وأما الثانى فيضيف إلى إحياء الموروث إحياء آخر للموروث .

ودارت مع الأمة العربية عجالات الزمن بأحداؤها بعد تلك
المواجهة الأولى مع الغرب فشملتها موجة الاستعمار الأوروبي التي أشرنا
إليها ، البريطاني منها والفرنسي بصفة خاصة ، فانطوت تحت هذه
الموجة مع سائر ما انطوى ورفع معيار الثقافة الواحدة التي هي ثقافة
المستعمر بريطانيا هنا وفرنسيا هناك ، مع أصوات خافتة تأتي منادية
بالمضى في إحياء موروثنا ، لكنها لم تكن هي الصوت الأعلى ، إلا أنها
مع ذلك ذات أثر في التوجيه ، فرأينا أعلام حياتنا الثقافية في النصف
الأول من هذا القرن ، يمزحون في وقفهم بين موروث وغربي ، أو بين
غربي وموروث ، على اختلاف بينهم في درجة ما يأخذ هذا أو ذاك ،
من موروث ومن مصدر غربي شاعت له الصدفة أن يكون على صلة
به ، فبعض يغترف من معين فرنسي ، وبعض آخر لجأ إلى مصدر
إنجليزي ، حتى لتمييز أعلام حياتنا الثقافية إبان تلك الفترة - إذا قيس
إليهم المثقفون في الفترة الراهنة - بتمكنهم من الثقافتين معاً ، فكلهم
تقريباً على علم واسع بالموروث ، وكلهم تقريباً كذلك على معرفة
بتيارات الفكر الأوروبي والأدب الأوروبي ، معرفة قد تشتد مع فريق
وتضعف مع فريق .. وعلى هذه الصورة في حياتنا الثقافية انفتح الستار
بعد ختام الحرب العالمية الثانية وبدأت الشعوب المحكومة بالأجنبي تظفر
باستقلالها ، ونجحت ثورة الألوان في أن تتعدد المعايير الثقافية ليكون
لكل ثقافة إقليمية معيارها وذلك بعد أن كان اللواء المرفوع ، هو
واحدة المعيار الثقافي واحدة تجعل الثقافة الأوروبية وحدها مثلاً أعلى
تقاس عليه سائر الدرجات ولم يكدر يرفع الستار عن عالم ما بعد الحرب

العالمية الثانية حتى حدث لنا حدثان : أولها هو أن زرعت إسرائيل في أرضنا زرعاً قوياً مقتدرًا ، ولست أعنى فقط بهذا الزرع إن كان وراءها تلك الدولة القوية من دول الغرب ، أو هذه الدولة ، بل أعنى ما هو أهم من ذلك وأبعد أثرًا وهو أن إسرائيل هي ، هي نفسها الغرب مختصرًا ومكثفًا لأنه وإن يكن ما يقرب من نصف شعبها عربيًا في نشأته إلا أن النصف الثاني الوافد من أوروبا وأمريكا هو إسرائيل بمعناها الذى نواجهه ، أما الحدث الثانى ، الذى ربما كان نتيجة مباشرة للوجود الإسرائيلى الطارئ فهو ثورة مصر فى يوليو سنة ١٩٥٢ ، وهى ثورة استهدفت عدالة اجتماعية فى المقام الأول لأنه إذا كانت الثورة السابقة عليها ، وأعنى ثورة ١٩١٩ قد نجحت نجاحًا جزئيًا ، فإن ذلك النجاح الجزئى نفسه قد انحصر فى الجانب السياسى بصفة أساسية بمعنى أن تستقل مصر. وأن تحكمها حكومة يختارها الشعب عن طريق نوابه ، وأما الجانب الاجتماعى من حياتنا فلم يكن هدفًا مباشرًا فبقى جمهور الناس كما كان فى حقوقه ، فالعامل هو ، هو العامل الذى يتحكم فيه صاحب العمل ، وكان أمرًا طبعيا إذا ما اتجهت الثورة الجديدة نحو عدالة اجتماعية أن تسارع إلى إشباع حاجات الجمهور العريض التى لم تكن موضع عناية كافية قبل ذلك ولقد أسلفنا لك فى حديثنا السابق عما يترتب على ذلك الاشباع من مشكلة يصعب حلها ، وهى نفسها المشكلة - عندنا وعند سوانا - التى صيغت من أجلها عبارة « المعادلة الصعبة » التى ألاحظ أن استعمالها قد اتسع على السنة المتكلمين حتى لتراهم يشيرون بها إلى مواقف تفقدها معناها ، فهى

تعنى في مجال الجماهير المحرومة وإشباع حاجاتها التي حرمت من التمتع بها أمدا طويلا ، أن يتفق على ضرورات الحياة لجمهور عامة الناس ما يمكنهم من دخل اقتصادى معقول ومن تعليم إلى آخر درجاته ، ومن علاج طبي بالجنان ، ومن مساكن تبنى من أجلهم ، ومن مواد غذائية بأسعار تدعمها للدولة ، إلى آخر تلك الضرورات ، وهنا تنشأ المشكلة التي تصوغ نفسها في معادلة يصعب حلها ، لأن أحد شطريها هو تلك المبالغ الضخمة التي تستنفدها تلك الضرورات والتي تفوق الدخل القومى بمقدار كبير ، وأما الشطر الثانى فهو كفاية السلع المتبعة لاشباع تلك الضرورات ، مضافاً إليها فائض لا بد منه ليستعان به على تنمية الإنتاج ليتكافأ مع سكان يزداد عددهم بمتوالية هندسية ، والسؤال الصعب هو : كيف تتعادل العدالة الاجتماعية المشار إليها في الشطر الأول من المعادلة ، مع كمية الإنتاج المطلوبة في الشطر الثانى ؟ .

والذى يهمنا من هذا الموقف في سياق حديثنا هذا ، هو إن مالت ثورة ١٩٥٢ نحو العناية بثقافة الجماهير ، ميلاً اضطرها إلى التهاون في ثقافة الصفوة من أصحاب المواهب (وهم أيضاً أفراد من الشعب) ، فكانت النتيجة الحتمية لهذا ، هو أن انحدر الخط البياني بدرجة ملحوظة ، في نوع المتعلم الذى تخرجه معاهدنا وجامعاتنا ، وفي نوع مبدع الثقافة من الموهوبين ، وفي نوع المتلقى العام لشتى صنوف المؤثرات فإذا كان أعلام الحركة الثقافية في الجيل الماضى قد عرف معظمهم بتمكنه من موروثنا الثقافى وبقدركبير من ثقافة الغرب ، بحيث لو كانت بهؤلاء الأعلام ومن يأتى بعدهم على شاكلتهم قد

امتدت الفترة الزمنية مع قيام ذلك النموذج ذى الجناحين ، لكن لنا أمل كبير فى ابداع ثقافى وحضارى يولد من ذينك الجناحين يمكننا من المشاركة الفعالة فى موكب العصر .

لكن سرعان ما ملأ الساحة جيل جديد فقد القدرة اللغوية بشعبيتها العربية والأجنبية (بصفة عامة) فلا هو يستطيع قراءة الأصول العربية فى عيونها ولا هو يستطيع أن يكون على صلة بما تنتجه ثقافة الغرب ، فحتى عملية الترجمة فقدت كثيراً من فاعليتها إذ من أين لنا مترجمون يتقنون اللغة المنقول عنها واللغة المنقول إليها فى وقت واحد ، وقد قررنا أن المالكين لزمام لغة واحدة أقلية قليلة ، فتتج عن هذا الموقف نتيجته الحتمية فأصحاب المواهب طبعاً موجودون لكن الموهبة وحدها قدرة تحتاج إلى ما يعينها على الفعل فإذا لم تكن هذه المعينات بين أيدي الموهوبين لم يكن أمام الموهوب منهم إلا أن يصب موهبته على ما يملكه ، فإذا كان الذى يملكه من اللغة - مثلاً - هى العامية التى يتبادل بها الحديث مع مواطنيه ، وكان موهوباً فى الشعر أو قص الرواية كتب شعره أو روايته بالعامية الصريحة آنأ وبلغه منضبطة افتراضاً ولكنها فى واقعها ركيكة ضعيفة مغلوطة آنأ آخر ، وأما فى غير مجال الأدب والفن من مجالات العلم والفكر فهناك نرى الغالبية العظمى وهى لا تكاد تجد مجالاً لمواهب الموهوبين منها ، فقد حفظوا جميعاً ما حفظوه فى معاهدهم وجامعاتهم ، وهم فى كثير من الحالات قادرون على تطبيقه فى مجالاتهم المهنية والحرفية فأما إذا جد فى الحياة جديد أسقط فى أيديهم ، واستضافوا «الخبراء الأجانب» .

ضع هذه الصورة جنباً إلى جنب مع أول الحداثين الكبيرين اللذين
ظهرا عقب الحرب العالمية الثانية وهو أن زرعت إسرائيل في أرضنا
وإسرائيل كما أشرنا ليست فقط مدعومة بقوى الغرب ، بل هي الغرب
ذاته في خلاصة مكثفة تفهم أبعاد الأزمة الحقيقية التي تواجه الأمة
العربية ، فقد نستطيع أن نخلل هذه المواجهة إلى عناصر مختلفة كمنّت
فيها ، إلا أن عنصراً من هذه العناصر يجب إبرازه في سياق حديثنا هذا
لنرى حقيقة الموقف في وضوح ، وهو أن المواجهة بين الأمة العربية
وإسرائيل هي مواجهة بين ثقافتين نستطيع على سبيل التجريد والتبسيط
أن نقول إنها الثقافة العربية الخالصة من جهة ؛ وثقافة الغرب المعاصر
من جهة أخرى ، الأولى تكاد تخلو خلواً تاماً من العلم الطبيعي وما قد
ترتب في مرحلته الأخيرة من صناعة تقنية في طرازها الجديد والثانية
تكاد تجعل ذلك العلم الطبيعي وما يترتب عليه مدارها ، وفي هذا
القول تجريد وتبسيط كما ذكرنا لنرى حقيقة الموقف رؤية أيسر
وأوضح ، وإلا فكل من الثقافتين قد أضافت إلى جوهرها إضافات
أدخلتها في تسيجها لتكتسب منها مزيداً من قوة الدفع والحركة فالجانب
الإسرائيلي قد أضاف إلى علمية العصر وتقنياته ، أسطورة رأوا فيها ما
يحفز اليهود في أنحاء العالم إلى التجمع حول هدف موحد ، وأما الجانب
العربي فقد لجأ إلى «التاريخ» ليستشهد به ، وكان منطق العقل يقتضى
أن يكون التاريخ أقوى سنداً لصاحبه من «الأسطورة» لصاحبها وذلك
فضلاً عن الجسور الكثيرة التي عبرتها الأمة العربية لتأخذ نصيبها من
روح العصر متمثلة في علومه وتقنياته ، لولا أنه قد فاتها في ذلك العبور

عامل جوهرى أحدث لها نتائج أضعفتها إذا ما قيس الأمر بمقاييس القوة فى هذا العصر ، وسنرجئ ذكر الجانب الذى أفلت منا إلى نهاية الحديث لنبين - أولاً - كم كانت جسور الصلة بين الأمة العربية وعصرها .

فن ناحية الاتصال الفكرى بالغرب الحديث ، أقامت الأمة العربية جسرين لم ينقطع العبور عليهما بينها وبين فكر الغرب منذ الثلث الأول للقرن الماضى وإلى يومنا هذا ، أحدهما النقل عن طريق الترجمة أو العرض والتلخيص ، والآخر هو الصلة المباشرة بين عرب يعبرون إلى بلاد الغرب للدراسة أو للتجارة أو للسياسة أو غير ذلك من أهداف وغربيين يعبرون من الغرب إلينا لتلك الأسباب المختلفة ، ومن اللقاء الحى يحدث التفاعل بين الثقافتين أخذًا وعطاء ، ولك أن تراجع ألمع الأسماء التى سطعت فى سماء الفكر العربى لترى كم منها قد استمد النور من هذا اللقاء الفكرى ، وليس بالضرورة أن يكون النور صادرًا عن أخذ أفكار الفريق الآخر كما هى ، بل قد يصدر النور من النقد والمعارضة ، فالناقد لا ينقد والمعارض لا يعارض إلا شيئًا قرأه أو قرأ عنه فعرفه ، لقد سادت الفكر الأوروبى فى أوائل النصف الثانى من القرن الماضى موجة مادية لا ترى فى العالم إلا كونًا من مادة تظهر ظواهرها وتتفاعل عناصرها ، وحتى «العقل» نفسه فى الإنسان حاولوا رده إلى تفاعلات عضوية فى الجهاز العصبى ، وكانت تلك الموجة المادية التى لم يطل أمدها هى التى أطلق عليها الأفغانى اسم «الدهرية» ورد عليها بكتابه المعروف «الرد على الدهريين» وكذلك كانت للشيخ

محمد عبده ردود ومعارضات لما ينشر في الغرب عن الإسلام ، مثل «الرد على هانوتو» ولولا علم بما نشر هناك لما كان نقد هنا ، والتلقى الناقد هو كالأخذ المقبول من حيث انقذاح الشرارة التي يتوهج بها النور .

وإذا انتقلنا بأبصارنا من عالم «الفكر» في عمومه إلى دنيا «العلم» والتعلم لم تستطع تلك الأبصار أن تخطئ نقل «العلوم» إلى العربية على صور مختلفة فإما هي ترجمة لكتب علمية بذاتها ، وإما - وهذا هو الأكثر شيوعاً والأهم تأثيراً - دارسون يدرسون العلوم الحديثة على اختلافها ، ثم يعرضون مادتهم العلمية عرضاً نستبين به مضموناتها ، وفي إيجاز هذه العملية بوجهيها حدث أن اختيرت مقابلات عربية للمصطلح العلمي في شتى ميادينها وما لم يوجد له مقابل عربي نحت له صورة عربية وقد لا يتنبه القارئ إلى أن علوماً بأسرها في مجال العلوم الإنسانية أو الاجتماعية كعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد قد أنشئت لها صورة حديثة ، وأصبح لكل منها لغته العلمية الخاصة ، مما جعل هذه المواد تكتسى ثوباً عربياً جديداً ، وحتى علوم كالتاريخ والجغرافيا ، والقانون ، مما كانت له في موروثنا العلمي أصول قديمة ، قد صيغت في عصرنا الحديث صياغة عربية جديدة جعل لها أسلوبها العلمي الخاص الذي يختلف عما عهدناه في الموروث .

ولما كانت لعصرنا هذا وجوه جديدة للفكر الفلسفي والفكر السياسي ، بحكم تميزه بأحداث وتيارات خاصة به ، لم يكن لنا بد من نقل ذلك الفكر إلى اللغة العربية على نطاق واسع ، حتى لنجد

المثقف العادى يستخدم أفكارًا ومذاهب مما يقع فى هذا المجال وكأنها نبات طبيعى نبت فى أرضه ، وأما إذا انتقلنا إلى وسائل الحياة العملية من آلات وأجهزة ، مما اخترعه الغرب بعلمه الجديد فاشتريناه وأدخلناه فى صميم حياتنا بحيث يستحيل عليك أن تجد فردًا واحدًا منا ، أينما كان وفى أية درجة من الحضارة العصرية هو إلا وتراه قد شارك الحياة العصرية فى ناحية من نواحيها ، فهو يسافر بالطائرة أو السيارة أو القطار ، وهو يسمع المذياع ويشاهد التلفاز وهو يحارب بالدبابة والصاروخ وهو يستضى بمصابيح الكهرباء ، إلى آخر هذه التفصيلات التى ليس لها آخر .

فنحن قد عبرنا الجسور إلى عصرنا ولا يبنى ذلك أن نكون قد عبرناه على درجات متفاوتة تفاوتًا بعيدًا ، يكاد يقسمنا عدة شعوب فى كل شعب واحد ، فى القمة ترى شريحة من أبناء الأمة العربية تحيا عصرها متمثلًا فى أفكاره وعلومه وتقنياته وكأنهم من أبناء الغرب ذاته الذى صنع تلك العناصر صنعًا ، وفى الدرجة السفلى تجد شريحة عريضة من أبناء الأمة العربية لم تنفذ إلى أفكار العصر وعلومه وتقنياته إلا بما ليس يرتفع عن درجة الصفر إلا قليلًا ، وبين الأعلى والأسفل تدريجات ودرجات .

تلك وأمثالها جسور عبرناها إلى حياة العصر والمشاركة فيها ، وليس من دقة الصواب أن ننكر على أمتنا ذلك العبور ، لكن السؤال الذى نريد له أن يؤخذ مأخذ الجد ، هو هذا : أكان هذا العبور منا إلى حياة عصرنا فى أوجه كثيرة مما يمس فى وجداننا وترا ؟ أم كنا نعبر تلك

الجلسور فى شىء من الرفض الذى يجرع به المضطر مرالدواء ؟ ونضع
السؤال نفسه فى صورة أخرى فنقول : إذا فرضنا أن قام فى أمتنا
العربية صوتان : صوت منها يدعو إلى الإقبال بقلوبنا وعقولنا معاً على
ثقافة العصر وحياته مشاركين فيها إلى آخر نقطة لا تتعارض فيها مع
مقومات الشخصية العربية الأساسية بينما يدعو الصوت الآخر إلى النفور
من العصر وأبالسته ؟.

وإنه لا ضير علينا من استخدام نتائجهم التى وصلوا إليها استخداماً
حذراً لا يدجننا وإياهم فى زمرة واحدة فمع أى الصوتين يكون الزحام ؟
إنه بلا جدال يكون مع الصوت الثانى .

والحكم الذى يترتب على ذلك هو أن الأمة العربية فى مواجهتها
لخضارة الغرب الحديث وثقافته إذا هى قنعت بالأخذ الذى لا تصاحبه
مشاركة فى إضافة جديدة وإبداع جديد ، فلا يحق لها أن تطمع فى
نصر تظفر به أمام عدوها فعبور الجسور إلى العصر الجديد لا يوزن بأكثر
من ميزان خفيف ، إذا هو اقتصر على أن يكون عبوراً بالأقدام حين
تكون الرءوس ملتفتة إلى وراء .

من مواطن الضعف

١

عرضنا في حديثنا السابق صورة للمواجهة بين الثقافتين ، كيف تكون وماذا يترتب عليها من نتائج ، وذلك إذا افترضنا جدلاً أن الثقافة العربية تقوم وحدها خالصة بأصولها الموروثة ، دون أن تتسلل إليها عناصر من ثقافة هذا العصر . وإن ثقافة الغرب تقوم - افتراضاً كذلك - خالصة بأصولها التي استحدثها هذا العصر ، دون أن يخالطها شيء من موروثة الماضي ، نعم إنه موقف افتراضى ، لأنه لا الثقافة العربية بقيت على نقائها ، ولا ثقافة الغرب جديدة بكل أجزائها ، فالأولى عبرت جسوراً كثيرة لتأخذ عن الغرب علومه وتقنياته وكثيراً من أفكاره الجديدة ونظمه الجديدة ، ولا الثانية خلت من عناصر كثيرة استبقتها في وعائها من موروثةا وموروث التاريخ الإنسانى كله ، اضافتها إلى الحياة العصرية الجديدة التي طابعها البارز «علم» طبيعى جاء على صورة جديدة لم يألفها تاريخ العلم من قبل ، ولا أقصر هذا القول على الماضي البعيد وحده ، بل أعنى كذلك القرون الثلاثة الأولى من التاريخ الحديث ، وعمر التاريخ الحديث لا يزيد على أربعة قرون ، فترة جرت في رؤيتها العلمية على أساس الرؤية التي أقامها « نيوتن » على أساس اليقين

الرياضى القاطع فى قوانين الطبيعة ، ونموذج ذلك قانون الجاذبية الذى صاغه هو فى دالته الرياضية المعروفة ، التى تقول إن قوة الجاذبية بين جسمين تتناسب طردياً مع كتلتيهما وعكساً مع مربع المسافة بينهما ، وجدير بالذكر هنا إنه على الرغم من المسافة الزمنية بين «نيوتن» فى مجاله العلمى و«عما نوئيل كانط» فى مجاله الفلسفى (توفى نيوتن ١٧٢٧ وولد كانط ١٧٢٤) إذ ولد الفيلسوف قبل وفاة العالم بثلاثة أعوام ، فإن فلسفة كانط هى التى جاءت لتساند علم نيوتن ، فكلاهما يقيم قوانين العلم على «يقين» أولهما يصوغ قوانينه العلمية والثانى يحلل حركة العقل البشرى بما فطر عليه من مبادئ ومقولات ليبين كيف أعد هذا العقل لإدراك اليقين العملى .

أقول إن علم عصرنا فى القرن العشرين قد جاء على صورة جديدة بالنسبة إلى ما عهده العلم نفسه فى ماضيه القريب فضلاً عن ماضيه البعيد ، لأنه وجد فى حيوية المادة (إذا جاز لى هذا القول) ما يستعصى على اليقين الرياضى ، فحقائق الرياضة تصور «ثباتاً» لا يتغير مع تغير المكان والزمان . أما وقد تبين أن «المادة» تتغير مع تغير الزمان والمكان إذن فلم يعد فى وسع العلم وهو يستخرج قوانين الظواهر الطبيعية إلا أن يلجأ إلى أساس إحصائى فتقام قوانينه على «احتمال» بعد أن كانت منذ عهد قريب تقام على يقين .

وهكذا ترى أنه لا الثقافة العربية الراهنة هى «عربية» خالصة ولا ثقافة الغرب الجديدة كلها «جديدة» جدة علمها فى صورته الحاضرة إذ تحالطها رواسب من ماضيها وذلك فى الجوانب الإنسانية من حياة

الإنسان كاللغة والعقيدة وجزء كبير من النظم الاجتماعية ومن معايير التعامل الصحيح بين إنسان وإنسان ، لكننا حين أردنا أن نضع موضع الاختلاف بين الثقافتين ، افترضنا جدلاً نوعاً من مواجهة تنشأ بين وقفه تأخذ برؤية تقام على حصيلة تتجمع عند المثقف من موروثه ، ووقفه أخرى تقام على علم الغرب في صورته الجديدة ، فوجدنا أنه لا مناص من هزيمة الأولى وانتصار الثانية لأن هذه الثانية تبصر صاحبها بحقائق الواقع كما يقع ، وتزوده بضروب من القوة الجبارة التي يستطيع بها أن يغير هذا الواقع نفسه ليصوره صورة أخرى ، فإذا كان واقع البصر عند الإنسان لا يجاوز بعداً معيناً ، جاء العلم فزوده بأجهزة تضاعف تلك المسافة ملايين المرات ، وإذا كانت قدرة السمع البشرى لا تجاوز مسافة مقدارها كذا . فقد جاء العلم الجديد ليزودها بأجهزة تضاعف تلك القدرة ملايين الأضعاف وهكذا ، وقارن هذه القدرة على إدراك الواقع وتغييره بحالة أخرى نفترض أن ثقافة المثقف فيها محصلة من صور ورقية لفظية ، صورت واقعاً آخر غير الذي نحياه وليس فيها ما يزيد البصر بصراً ولا السمع سمعاً .. وحتى لو أُرهِف البصيرة فإنما يرهفها لإدراك حقائق من النوع نفسه الذي قدمته تلك الصور الورقية اللفظية التي يقدمها الموروث إلى من يريد أن يكتفى به غذاء ثقافياً .

والآن فلننظر من قرب إلى تفصيلات حياتنا الثقافية بالمعنى الذي تشتمل فيه تلك الحياة على العلم والأدب والفن والقيم العامة التي يستمدّها المثقف من هذا كله مضافاً إليه نبع العقيدة الدينية وشريعته . ليستلهمها جميعاً وجهة سيره . ولقد أضفنا « العلم » هنا وكان يمكن حذفه

من مقومات الثقافة لأنه نوع قائم بذاته يتميز بالعمومية التي لا تفرق بين وطن ووطن ، ولا بين دين ودين ، أى إنه يختلف عن «الخصوصية» التي تعرف بها الثقافة حين يكون لكل شعب ثقافته الخاصة به . لكننا رأينا أن نتجاوز عن هذه التفرقة ، نتحدث عن كيان العربى عقلاً وقلباً معاً ، وكذلك فى تحديدنا للحياة الثقافية العربية التي نعتزم تحليلها والتحدث عنها . لم نغفل عن ذلك المعنى الواسع الذى ينظر إلى «الثقافة» على أنها طريقة العيش عند مجموعة معينة من الناس وبكل جوانبها من مأكّل وملبس ومسكن ، وعلاقات يتعامل بها الفرد مع سائر الأفراد ، فذلك المعنى الواسع للثقافة هو وصف الحقيقة اجتماعية كائنة لا فرق بين أن تصفها أو أن تصف المجموعة الشمسية - مثلاً - أو خلية النحل ، فهو عمل أدخل فى باب الوصف «العلمى» لظاهرة معينة ، أما المعنى الأضيق للثقافة والذى يقصر المجال على الجانب التقويمى فى صورته المختلفة ، سواء أ جاءت عن طريق الابداع الفنى والأدبى ، أم جاءت عن طريق الفكر النظرى علماً كان أم فلسفة وحكمة ، أم مسائل عقديّة ينظر إليها من وجهات نظر مختلفة ، أقول إن التحدث عن «الثقافة» بهذا المعنى المحدد الخاص ، يحمل فى ثناياه ، الأمل فى أن نغير من حياتنا ما نجده معوقاً لسيرنا الحضارى ، والفرق بين الحالتين هو كالفرق بين تصوير الواقع من جهة . وتصوير ما يجب أن يكون عليه هذا الواقع من جهة ثانية ، أو هو كمن يحدد أوقات نهاره وليله بمعالم فلكية كشروق الشمس وغروبها وظهور النجم الفلانى وغيبابه ، مقارناً بمن يحدد أوقاته بآلة قياس الزمن ، فى الحالة الأولى لا حيلة للإنسان إلا أن ينصاع للحقائق

الفلكية وأما في الحالة الثانية فهو إذا أخذته الريبة في قدرة آلة الزمن التي يحملها معاً ، ذهب بها إلى مصلح « الساعات » ليراجع سلامة تلك الآلة في أدائها لوظيفتها ، وهكذا نريد أن نفعل الآن بحياة العربى الثقافية اليوم ، فنحن على شك في سلامتها وقدرتها على تحقيق أهدافنا وسنعرضها على من يحاول فك أجزاءها ليعاود النظر إليها جزءاً جزءاً ليقوم ما هو فاسد منها ، وهى عملية - كما نرى - أعقد وأوسع من أن يؤتمن عليها عقل بشرى واحد إلا أن مجال القول فيها مفتوح لكل مجتهد .

وأول ما يطرحه هذا الكاتب على سبيل الفرض ، ليفتح لنفسه طريق السير على أساسه . هو أن يحمل الحياة الثقافية بالمعنى الذى حددناه ، إنما هو «أداة» عيش ، وهو كآلة أداة أخرى إذا لم تؤد ما كان يراد لها أن تؤديه وجب إصلاحها أو تغييرها بأداة أصلح منها ، وحتى « الثوابت » من العناصر الثقافية التى تدوم أكثر مما تدوم المتغيرات من تلك العناصر عصباً بعد عصر ، وأعنى « الثوابت » التى منها تتألف « الهوية » الوطنية أو القومية أقول إنه حتى تلك « الثوابت » من عناصر الحياة الثقافية لشعب معين ، لا ينبغى أن يكون لها من القداسة ما يمنعنا عن تعديلها إذا وجد أنها قد فقدت شيئاً من قدرتها على أن تهيب لصاحبها فرصة الحفاظ على حياته قوية مزدهرة .

ومن هذا التصور لوظيفة الحياة الثقافية نسأل سؤالين يتلاحقان واحداً في ذيل الآخر . وهما : أولاً : أترانا فى يومنا هذا بالنسبة إلى شعوب وأمم أخرى نسير فى المقدمة الرائدة ، أم نسير فى المؤخرة التابعة ؟ وثانياً : إذا كنا فى مؤخرة الموكب نسير على طريق دقته أمامنا طليعة

رائدة ، فإذا عسى أن نصنع في أنفسنا لتتقدم ؟ .
ولنبداً بالسؤال الأول ، فمن حق المجادل أن يبدأ جداله من الصفر ،
قائلاً : ماذا تعني « بالتقدم » و « التخلف » في هذا السياق ؟ إنك
لا تحكم على رجل رأيته سائرًا في الطريق بأنه تقدم أو تأخر ، إلا إذا
عرفت هدفه الذي يسعى إليه ، وحتى إذا رأيته مبطنًا الخطى ، فرما
كان ذلك هو ما أرادته لنفسه ليتيح لنفسه فرصة التأمل فيما حوله ، أو
فرصة التنزه المسترخي ، إن الهدف الذي تلهث وراءه حضارة هذا
العصر ، وهو الحصول على أكبر قدر ممكن من « العلم » بظواهر الطبيعة
وأكبر قدر ممكن من « المتعة » ومن « المال » ومن « القوة الحربية » وأكبر
قدر ممكن من « السرعة » وهكذا ، قد لا يكون أساسًا هو الهدف الذي
يسعى إليه العربي فهو - مثلاً - يستغنى عن الحياة الدنيا بالحياة
الأخرى ، ويكفيك هذا الفرق لتعلم أن ما يلهث وراءه ابن هذا
العصر ، يدير إليه العربي ظهره ليستهدف غاية أخرى ، فكيف - إذن -
تتحكم على هذا أو ذاك بتقدم أو تخلف إلا إذا استوثقت قبل ذلك من
مشاركتهما معًا في وجهة السير وفي الغاية المراد تحقيقها ؟ .

سؤال كانت تكون له قوته لو أنه سلم من تناقض داخلي فيه يهدمه من
أساسه هدمًا ، لأن صاحب السؤال المذكور إنما يكون على حق في
سؤاله ، إذا هو بالفعل يسير في حياته على طريق لا حاجة فيه إلى شيء
من أدوات الآخرين الذين يزعم لهم أنهم يسلكون طريقًا آخر غير
طريقه . ويستهدفون غاية أخرى غير غايته . وهو زعم يكذبه الواقع ،
إن صاحب سؤال كهذا هو في حقيقة أمره كمن يسافر من القاهرة

— مثلاً — فيركب طائرة ذاهبة إلى لندن ، ومعه مسافر آخر من أبناء الذين صنعوا الطائرة فلا حق له إذن في أن يدعى بأنه مختلف مع هذا المسافر الآخر ، طريقاً وهدفاً ، لأنه معه في الطريق وفي الهدف ، وكل الفرق بينهما هو أن المسافر الآخر كان هو الذي صنع الطائرة بعلمه الجديد وبتقنياته الجديدة ، في حين أنه هو — وأعني المسافر العربي — قد استأجر مقعده من الطائرة بماله ، إن هذا المثل الواحد البسيط يصور معظم جوانب حياتنا الواقعية ، فنحن لا نبتكر شيئاً ذا بال من وسائل الحياة القائمة ولكننا في الوقت نفسه لا غناء لنا عنها إذا حاربنا عدواً اشترينا أدوات الحرب من صانعيها هناك ، وإذا مرض منا مريض واستشفى عند طبيب أو جراح ، جاء طب الطبيب علاجاً ودواء وجاءت جراحة الجراح أجهزة ومنهجاً ، مما كان أولئك الآخرون قد علموه وابتكروه وصنعوه .

وإذا أقننا لأبنائنا معاهد وجامعات ، لم يكن لنا بد من شراء المعامل والمراجع وغيرها من أولئك الآخرين الذين كتب لهم في هذا العصر أن يكونوا صانعيه ، وإذا أردنا أن نسرى عن أنفسنا في ساعات الفراغ كانت وسائلنا إلى ذلك من مذياع وتلفاز وغيرها من ابتكار أولئك الآخرين ومن صناعتهم ولا ينبغي هذا أن يتعلم عربي كيف يحاكي شيئاً مما أنتجه أولئك الآخرون .. فيحتذيه في صناعة شيء على غواره ، إذن فطريقنا في الحياة الدنيا طريق واحد ، وكل الفرق بيننا وبينهم هو أنهم هم الذين يرسمون الطريق ويهيئون له الوسائل فنسلك نحن مسلكنا على طريق ممهد ، بوسائل قد أعدها أصحابها ومبتكروها وعرضوها للبيع

فاشترينا وإذا كانت تلك هي حقيقة أمرنا وأمرهم ، لم يعد لنا خيار في المعيار الذى نعيش به التقدم والتخلف .

وهنا يحىء السؤال الثانى وهو : ماذا ترانا صانعين بأنفسنا إزاء هذا التخلف عسى أن نتقدم ، كما يوجب علينا تاريخنا أن نفعل ، فنحن بناء حضارات وثقافات ولم يحدث لنا قط أن تخلفنا عن مواقع الريادة ، إلا فى هذا العصر وحضارته ، فقد كنا عبر تاريخنا إذا ما نصب العين الحضارى الأصيل وجاءتنا من خارج حدودنا صورة حضارية جديدة لم نلبث طويلاً حتى نتشرها بشخصيتنا المستقلة وسرعان ما نتفوق فيها تفوقاً يضعنا فى مكان الريادة فيها ، إلا هذه المرة وهذه المرة كانت الحضارة الوافدة مرتكزة على دعائم من العلوم الطبيعية فى المقام الأول ، فللمرة الأولى فى التاريخ الحضارى كله تكون ركيزة البناء الحضارى هي العلم الطبيعى ، فحتى العلوم الرياضية كانت قد وجدت مكانها فى الحضارات السابقة وأما العلم الطبيعى الذى يستخرج من ظواهر الكون قوانينها فهو هذه المرة ولأول مرة يكون هو القابض على الزمام وذلك لا ينفى أن يكون فى عصر ما من التاريخ قد ظهر أرشميدس وفى عصر آخر قد ظهر جابر بن حيان أو ابن الهيثم ، فنحن لا نقول عن صفة معينة أنها طابع عصر معين ، إلا إذا كانت لها السيادة على ذلك العصر ، أما أن تظهر فلتأت من أفراد هنا وهناك فذلك لا يضمن على عصر معين طابعه المميز لأنك قد تقع على عصفور شارد فى فصل الشتاء فلا يبرلك القول بأن برد الشتاء يتميز بزقزقة العصافير ، فتلك صفة تميز الربيع والربيع لا يصنعه عصفور واحد .

ونعيد ما أسلفناه قائلين : إذا نحن اعترفنا بتخلفنا في موكب العصر ، فما هو سبيلنا إلى التقدم ؟ والجواب موجزاً هو أن تغير بعض أوتار القيثارة ليتغير النغم ، والقيثارة وأوتارها هنا ترمز إلى حياتنا الثقافية وأقسامها ، وهى أقسام سنخصص لها فى سلسلة هذه الأحاديث نصيباً وافياً لنبين معالمها وخصائصها ، ونكتفى فى هذا الحديث بجانب « العلم » - والعلم الطبيعى بصفة خاصة - لأنه ربما كان أخطر موضع من مواضع الخطر التى انتهت بنا إلى ما نحن فيه ، لماذا ؟ لأن التقصير فيه هو فى صميمه تقصير فى منهج التفكير الذى يميز هذا العصر مما عداه ، فقد لا يكون بنا قصور فى العلم الطبيعى الجديد من حيث دراسته فى معاهدنا وجامعاتنا . لكننا إذ نقوم بهذه الدراسة ، فإنما ندرس النتائج العلمية التى كشف عنها أولئك الآخرون ، ندرسها ولكننا لأمر ما لا نتشرب المنهج العلمى الذى أدى بأصحابه إلى كشف ما كشفوه من نتائج . فليس هو من قبيل الاستثناءات الشاذة أن نجد من علمائنا الذين نالوا أرفع الدرجات العلمية فى فيزياء أو كيمياء أو غيرهما من علوم العصر من يجيد عرض العلم ، بل والبحث المبتكر فيه حتى إذا ما عاد إلى حياته العادية اللاعلمية من تفكير فى مشكلاتنا الاجتماعية أو السياسية أو ما يجرى مجراها وجدت أمامك إنساناً آخر ، بينه وبين الرؤية العلمية الصحيحة ، ما بين عامة الناس وتلك الرؤية ، ويكون معنى ذلك أن منهج النظر العلمى مقتصر عنده على أدائه المهنى ولم يتسع معه ليصبح عادة ملازمة له حينما كان ، وبالطبع نحن لا نريد بهذا أن نطالب الرجل بأن يمشى فى مسالك حياته وعلى كتفيه أنابيب المعامل ومخابيرها ، بل كل ما نعنيه هو أن يكون

أساسه الأول في تحليل الظواهر الاجتماعية وما يشاكلها قائماً على الرباط السببي الصحيح كما هي الحال في المجال العلمي المتخصص ، فبعد الظاهرة المعنية إلى سببها الصحيح ، وإذا هو لم يفعل وجارى العامة في الروابط اللاعلمية التي يصلون بها الأشياء بعضها ببعض وقع مع العامة في حياة الخرافة لأن الفارق الأساسي بين الرؤية العلمية ورؤية التخريف هو في إدراك الرابطة السببية الصحيحة في الحالة الأولى ، وعدم إدراكها ، بل عدم البحث عنها في الحالة الثانية .

هذا عن العلم الخالص وروح منهجه ، ننتقل منه إلى عالم « الفكر » بصفة عامة ، فهناك فرق بين النتائج العلمية في ميادينها و « الأفكار » ونضرب لك أمثلة ، توضح ما نريده ، إننا إذا تحدثنا عن طريقة الحكم كيف تكون ؟ أيكون الرأى السياسى فيها هو ماتختره أغلبية الأصوات في مجموعة الأفراد التى ينام بها اتخاذ الرأى ، أم يكون الرأى السياسى إلى شخص واحد هو الحاكم ، وحتى لو كان من حقه أن يستشير آخرين ، فالقرار آخر الأمر هو قراره ؟ مثل هذا التساؤل هو من قبيل اختيار « فكرة » دون فكرة أخرى ، وليست المسألة في ذلك من قبيل ما يعرض له « العلم » بمنهاجه العلمى ، وسأرجئ استخراج الفارق الجوهرى بين ما هو « فكرة » وما هو « نتيجة علمية » حتى أسوق لك عدة أمثلة موضحة : وهذا مثل آخر مما أسوقه ، هل نترك التجارة بين بلدان العالم حرة ، فيستورد من يستورد ، ويصدر من يصدر ، دون أن ن تدخل في الطريق جمارك البلاد استيراداً وتصديراً ؟ أو أن الخير في أن تقام حواجز جمركية تفرض الضريبة على السلطة الواردة إذا كان فيها ما ينافس مثلتها من

الإنتاج القومي ؟ الأمر هنا مداره «فكرة» وليس مداره علمه وقوانينه ،
وأسوق مثلاً ثالثاً : ماذا يكون موقفنا من مجانية التعليم ؟ أنعمم المجانية
تعميمًا لا تحده حدود ؟ أم نقصره على مرحلة معينة ، أو على درجة
معينة من درجات القدرة عند الدارسين ؟ الجواب هنا قائم على «فكرة»
وليس هو من قبيل القانون العلمي ، ونسوق مثلاً رابعاً : ترى هل هو
أفضل لنا أن ينشئ الفنان فنه والأديب أدبه ، وهو على وعى بمشكلات
المجتمع بحيث يحىء الناتج الفنى أو الأدبى وفى ثناياه ما يعين المجتمع على
اجتياز مشكلاته ، أو أن الأفضل هو أن يبدع الفنان أو الأديب ما
يبدعه ، غير ملتزم إلا شيئاً واحداً ، وهو أن يحىء الناتج المبدع عالمًا
تسرح فيه نفس المتلقى فترتفع وتسمو بما قد أدركته واستشعرته خلال
سرحها ، حتى إذا ما عاد ذلك المتلقى إلى دنياء الواقعية ، كان إنسانًا
أرهف حسًا مما كان ؟ أو بعبارة أخرى تلوكها الألسن . أياكون الفن
والأدب للفن ذاته والأدب ذاته ، أم يكونان لتعليم أبناء المجتمع كيف
يسلكون ؟ مرة أخرى نقول إن الأمر فى هذا مرهون «بفكرة» وليس
مرهونًا بقانون علمى ونسوق مثلاً خامسًا وأخيرًا ، وهو عن المقارنة بين
مجتمع دولى موحد ، ومجتمعات وطنية أو قومية فرادى ، أيهما تكون له
الأولوية فى ترتيب الأهداف ؟ لقد أقام أبناء هذا العصر هيئة الأمم
المتحدة رغبة منهم فى أن يحىء ذلك تمهيداً لهدف بعيد هو أن يتحد العالم
برغم تعدد شعوبه حتى لا يتعرض الإنسان لويلات الحروب مرة
أخرى ، فلما أن ذهب وفود الشعوب المختلفة إلى مقر الهيئة فى اجتماعاتها
ذهب وفى حقائبها نعرات وطنية ، فكأنما أرادت خصومة قبل أن تريد

ونأما ، والسؤال هو : أنخطئ أم يصيب من يعلى التزعة الدولية على التزعة الوطنية ، أو العكس ؟ فهذا أيضا سؤال يحىء الجواب فيه مؤسسا على « فكرة » وليس مؤسسا على قانون علمى .

فما هو الفرق الأساسى بين ما هو « أفكار » وما هو نتائج « علمية » ؟ الفرق هو أنه بينما يجوز الاختلاف بين الناس على الأفكار التى يريدون حولها حياتهم العملية ، فلا يجوز ذلك الاختلاف بينهم على ما هو « علم » إننا نقبل أن يقول لنا قائل : رأى فى السياسة متفق مع أن يكون لفئة العمال نصف المقاعد النيابية ، وأن يقول لنا آخر خلاف ذلك ، إذ يقول : إن رأى هو أن ترفع هذه الفتوية من مجال الانتخاب فكلا هذين الرجلين يقيم رأيه على « فكرة » فى ديمقراطية الحكم كيف تكون ، لكننا لا نقبل قول قائل : رأى هو أن الماء يغلى فى درجة حرارة مقدارها كذا أو أن رأى هو أن حاصل الجمع لثلاثة وأربعة ليس سبعة : فها هنا لا يوكل الأمر إلى أراء لأنه أساسا لا يندرج فى مجال « الأفكار » .

الفكرة من الأفكار الأساسية فى حياة المجتمع هى بمثابة خطة معينة يسلك على هديها الناس إذا هم اعتنقوها جزءا من دستور حياتهم ، ومع ذلك فالفكرة دائما تتخذ لنفسها صورة مجردة غاية التجريد ، ومن هنا تحدث اختلافات شديدة فى طريقة تطبيقها عند معتنقيها فقد تؤمن جماعتان بضرورة « الديمقراطية » فى حياتهما السياسية ومع ذلك تراهما عند التطبيق قد اتجها فى فهم الديمقراطية طريقتين مختلفتين وذلك لأن طبيعة « الأفكار » تسمح بذلك الاختلاف لأن

الفكرة - كما ذكرت - هي بمثابة مخطط يبنى عليه ، والمخطط ذو بساطة تكتفى بالأوليات الأساسية ثم تترك تنوعات التفصيلات مفتوحة لاختيار من يتولى التطبيق .

وعلى ضوء هذا الذى قدمناه نتناول حياتنا «الفكرية» فنقول عنها أول ما نقول : إنها أضعف الجوانب جميعاً ، فقل ما شئت عن جانب «العلم» من حياتنا أو جانب «الفن» أو جانب «الأدب» فأنت واجد فى كل فرع من هذه الفروع ما يستحق الذكر ، أما الجانب «الفكرى» فهو من الفقر بحيث إذا أردت أن تتعقب ما يصح تسميته «بالفكر» العربى «فى عصرنا هذا فربما عدت من رحلتك خالى الوفاض أو عدت بذلك الوفاض وليس به إلا قليل يسهل عليك أن نحملة دون أن يكون فى إهمالك له خيانة .

فى رحلتك التى تتعقب فيها «الفكر العربى» فى يومنا هذا سيصادفك - بالطبع - كثيرون ممن شغلوا أنفسهم بعرض أفكار للسابقين صادفتهم فى دراستهم أو فى مطالعاتهم الحرة ، وسيصادفك - بالطبع - كثيرون آخرون ممن شغلوا أنفسهم بأفكار قالها أصحابها فى هذا البلد أو ذاك من بلاد الغرب ، وفى كلتا الحالتين فليس بين يديك إلا تعليق على فكرة سلفية أو تعليق على فكرة غريبة ، ولا ضير على أى من الرجلين ، فمن ذا يلوم رجلاً استراحت نفسه للجاحظ - مثلاً - فعاش معه حياته ؟ ومن ذا يلوم رجلاً آخر استطاب العيش مع أولدس هكسلى فى عصرنا ؟ كلا ، لا لوم على أحد فى اختيار من يصحبه ويصاحبه فى عالم الفكر لكن

ليس لأى من الرجلين حق فى أن يدعى بأنه كاتب عربى يعيش حياة عصره ، لأن مثل هذا الكاتب لابد له من المشاركة بما يكتبه فى رسم خريطة حياتنا الثقافية فمن ذا الذى يساعدنا على أن ترتسم أمام بصائرنا غاية يحسن بنا أن نتغياها ، وأن يعمل فى الوقت نفسه على أن تتراءى لنا رؤية محددة ننظر خلالها إلى الطريق الأقوم ؟ أقول : من ذا يصنع لنا هذا إلا كاتب عربى فى وسعه أن يصوغ أفكاراً يراها وأن ينسج تلك الأفكار فيما يجعلها أجزاء ممكنة لحياة موحدة مرغوب فيها ؟ إنه إذا وجد فينا من يترك هذا الأثر عند جمهور القراء ، كان هو الكاتب العربى والمفكر العربى ، وعندئذ إذا أراد غرباء أن يرونا فى صورة فكرية ، قرأوا لذلك الكاتب ، لكن قارن هذا بكاتب آخر بذل جهده فى دراسة الجاحظ - مثلاً - وقدم إلينا صورة لما وجدته عند ذلك العملاق القديم ؟ فهو بالطبع مشكور على ما يقدمه ، لأنه سيساعد المواطن العربى على معاشته لسلف عظيم ، فيتكون له ذلك الرباط الوجدانى الذى يؤكد وجوده العربى لكنه مع ذلك الفضل لا يربط ذلك المواطن العربى نفسه بما يغمسه فى هموم عصره .

لقد حدث لى أكثر من مرة ، أن لجأت إلى هيئات علمية خارج الوطن العربى ، لأختار لها نماذج تمثل «الفكر العربى» اليوم وفى كل مرة كنت أبذل جهدى مخلصاً لأقع على ما يعلو بنا فى أعين الغرباء ، لأن النماذج المطلوبة كانت تطلب - عادة - لترجم وتقدم إلى الطلاب فى أقسام الدراسات العربية من جامعاتهم ، فكنت أشعر كل

مرة بإحباط لأننى لم أكن لأجد ما أتمنى وجوده فى إنتاجنا «الفكرى» ولو كان المطلوب نماذج من «أدب عربى» فى يومنا ، لما وجدت عسراً فى أن أجد ما يرضى ضميرى ، فالفكر العربى من حياتنا الثقافية الراهنة هو أضعف مواطن الضعف من تلك الحياة ، وأسوأ ما يصادفه المتعقب للنتائج «الفكرى» فى الوطن العربى اليوم هو أن يرى هزلاً يطاول بهزله شَمّ الجبال واهماً بأنه قد جاوز ذراها .. الحياة الثقافية قوامها يتضمن علماً ، وأدباً وفناً وفلسفة ومجموعة من الأفكار التى تحمل فى جوفها ضوابط هادية لما هو أمثل ومعظم هذه الأفكار الأساسية مستمد من الدين ، وقد بينا كيف جعلناها أضعف الجوانب فى بنياننا الثقافى ، وسنزيد الأمر إيضاحاً فى حديثنا الآتى بإذن الله .

٢

عرضنا فى حديثنا الماضى صورة نبين بها للقارئ أن جانب «الفكر» من حياتنا الثقافية قد يكون أضعف مواضع الضعف منها ، وأوضحنا له ما نعنيه «بالفكر» بالمقارنة مع «العلم» من جهة ، و «الأدب» من جهة أخرى ، ولا تستقيم لأمة حياتها الثقافية إلا إذا توازن فيها النظر العلمى فيما يراد استخراج قوانينه من الظواهر ، وفيما يضادف الناس من مشكلات تتطلب حلولاً مؤسسة على تلك القوانين العلمية ، وإلى جانب البحث العلمى يقوم إبداع فى «الأدب» ، يراد به آخر الأمر أن

تصب الأضواء على حقيقة الحياة التي يحياها الناس بالفعل ، فلئن كان العلم باحثًا عن الأحكام العامة بالنسبة إلى ما يراد العلم به ، مسقطًا من حسابه التفصيلات الجزئية الفردية التي قد تحدث أو لا تحدث ، فإن «الأدب» يسير في الاتجاه المضاد هو أن يصور تلك التفصيلات الجزئية الفردية الدالة على حقيقة الإنسان وما يكابده أو ما ينعم به ، مسقطًا من حسابه التعميمات المجردة التي تشبه القوانين العلمية في شمولها ، وبعبارة أخرى ، بينما البحث العلمي من شأنه أن ينظر إلى الإنسان (إذا كان الإنسان هو موضوع الباحث العلمي) من حيث هو ظاهرة تشاهد وتحلل لتخلص إلى قوانينها العامة ، كأن يشاهد عالم النفس ردود فعل الأفراد في مواقف مختلفة ، فيستدل القواعد العامة لكل موقف مما ينطبق على جميع الناس ، وكأن يشاهد عالم الاجتماع كيف يحاول الأفراد أن يمتاز بعضهم مع بعض تمايزًا يجعل منهم أعلى وأسفل ، فيستخرج الأحكام العامة التي ينخرط الأفراد تحت مقولاتها حين يقسمون أنفسهم طبقات ، وكأن يتعقب عالم الاقتصاد حركة الأسواق وإنتاج السلع وتوزيعها ، فيستنتج القوانين العلمية الكامنة وراءها ، أقول : إنه بينما البحث العلمي من شأنه أن يرقب ما هو فردى جزئى خاص ، ليستخرج منه ما هو شامل وعام ، فإن طبيعة «الأدب» هي أن يقف عند الفرد الواحد ، في تفاعله مع سائر الأفراد ، أو في تفاعله مع الأشياء ليلتقط من ذلك التفاعل لحظات كاشفة عن شخصية الفرد المعين ودوافعها ومسالكها وأهدافها ، فإذا وجدنا في علوم النفس والاجتماع قواعد عامة تحكم علاقة الوالد بولده ، والغنى بالفقير ،

فإننا واجدون في الأدب - شعراً ورواية ومسرحاً - حياة تفصيلية تجمع والداً معيناً بولده ، أو غنياً يتعامل مع فقير ، فنرى التفاعل بينهما مجسداً في موقف أو عدة مواقف . إن الشاعر إذا ما بث حزنه في قصيدة ، فهو لا يكتب خصائص عامة مجردة تبين الظواهر الدالة على حالة الحزن في كل إنسان وأى إنسان ، بل يقدم وصفاً لحزنه هو ، في لحظة معينة ، ويجعل وصفه في صور ترسم معالمها في ذهن القارئ حتى لكانه يرى شيئاً مجسماً بعينه ، وليس هو أمام كلمات منطوقة يسمعها بأذنيه .

وحين تستقيم الحياة الثقافية في أمة معينة ، إبان فترة زمنية معينة ، نجد فيها العالم والأديب جنباً إلى جنب ، كلاهما ينظر إلى ما حوله مما يحياه هو مع سائر الناس ، كأن تكون هناك حالة نصر على الأعداء في ساحة القتال أو هزيمة ، وكأن تكون هناك أزمات سكان وإسكان ، وكأن يكون هناك إنصراف من الشباب عن شبابهم ، دعاهم إلى الانحراف بهذا الشباب عن مستقبلهم ليغوصوا في سمادير الأوهام ، وهكذا وهكذا ، وعندئذ يكون من طبائع الأمور أن يتجه صاحب المنهج العلمى نحو الظاهرة التى تشغله وتشغل مواطنيه معه ، فيحللها ويردها إلى أسبابها بطريقة موضوعية لا يشوبها الهوى ، وأن يتجه صاحب الموهبة الأدبية فيرسم بأدبه صوراً للحقيقة البشرية ظاهرها وباطنها في مواقف بينها خياله لتتوازى مع الواقع فتوضحه .

وبين العلم الذى يعمم الحكم ، والأدب الذى يخصص التصوير ، هناك عالم وسط ، هو عالم ما يسمونه «بالفكر» يضطلع به

«المفكر» الذى إذا اتسع أفقه وارتفعت درجة تجريده أدخلناه فى دنيا الفلسفة ليكون مع أسرة الفلاسفة عملاقاً أو قزماً ، لكنه يسير على دربهم ، فكل «فكرة» فى هذا العالم الذى يتوسط بين تعميم العلم وتخصيص الأدب ، تحمل طى معانيها «قيمة» من القيم التى لا بد منها فى حياة الناس لتكون معياراً يقاس به الطيب والخبيث ، كما تحمل طى معانيها كذلك «غاية» مما يتحتم على الناس أن يضعوه نصب أعينهم فى خضم الحياة ليتجهوا نحو الوصول إليها أو الاقتراب منها ما استطاعوا .

خذ - مثلاً - فكرة «الحرية» ، وتأملها تجدها موحية لك بميزان تزن به سلوك مواطنيك قبولاً ورفضاً ، فكلما رأيت نمطاً سلوكياً من أحد ، ينحى به لغير الله سبحانه وتعالى ، إبتغاء مصلحة ، أدركت لنفسك أولاً ، وقد تجعل الآخرين يدركون معك ثانياً ، أن مثل هذا النمط السلوكى الدليل فى غير موضعه ، يفقد الإنسان حريته ، ويضع صاحبه موضع العبد من سيده ، فهذه - إذن - «قيمة» أوحى إليك بها فكرة «الحرية» إذا أحسنت فهمها ، وأعنى بكلمة «قيمة» معياراً تقاس به صلاحية السلوك واستقامته ، ثم توحى إليك فكرة «الحرية» كذلك «بالغاية» التى توجب على الإنسان أن يتجه نحوها بسلسلة المواقف التى يقفها إبان حياته إزاء الأحداث ، وهكذا قل فى سائر ما نطلق عليه اسم «أفكار» .

ولماذا تجيء الأفكار فى موضع وسط بين «علم» فى ناحية و«أدب» فى ناحية أخرى ؟ الجواب هو أنها وإن تكن فى ذاتها لا هى من العلم الخالص ولا هى من الأدب الخالص ، إلا أنها شرط ضرورى فى

تكوين العالم والأديب معاً ، فإذا كانت الفكرة المعينة هي فكرة «الحرية» مثلاً ، قلنا إن شرط العالم أن يكون حراً في بحثه العلمي حتى لا يصرفه أى ضاغط خارجي على تزوير الحقيقة العلمية ، وكذلك شرط الأديب أن يستلهم الحقيقة الإنسانية وحدها ، التي يريد أن يحسمها في إبداعه الأدبي أيًا كانت صورته ، فلا ينحرف عن تلك الحقيقة بأى عامل يغريه ، حتى ولو بدا ذلك العامل وكأنه جدير بالاستماع إليه وإيثاره عما عداه ، كأن تغلب الروح الوطنية – مثلاً – على روائى فيصور شخصياته تصويراً هو أقرب إلى الدعاية السياسية يوم الانتخابات العامة .

والذى نزعمه عن حياة الثقافة العربية في عصرها القائم ، هو أن دنيا الفكر منها هي أضعف جوانبها ، فيضعف بالتالى إدراكنا للمعايير التي يقاس بها الصواب والخطأ ، كما يضعف إدراكنا لل غاية الموحدة التي من شأنها – إذا وضحت – أن تكون كالمناارة للسفن ، تستهدفها لترسم طريقها مهما كانت الجهة التي هي آتية منها ، فإذا رأيتنا اليوم على تناقض حاد في رؤانا وكأننا عدة شعوب في شعب واحد ، فسر ذلك أساساً هو أن «الأفكار» الموجهة مبهمه غامضة ، تتفق على «اسم» الفكرة ، ثم تتفرق في تحديد معناها فرقاً شتى ، ومما يزيد ضعفنا الفكرى ضعفاً ، أمران ، هما : أولاً : أن «الأفكار» من شأنها أن تنمو مضموناتا مع خبرة السنين ، فقد تكون «الحرية» أو «المساواة» معروفة للناس منذ القدم ، لكن معانيها تتسع مع الزمن وتفرز ، ولكي تبين ذلك يكفيك أن تراجع فكرة «الحرية» في حياتنا العربية ، ماذا

كانت حدودها في أوائل القرن الماضي ، وما حدودها اليوم ؟ وسوف تجدها قد تنوعت جوانبها من ناحية ، وقد عمقت أهدافها في كل جانب على حدة من ناحية أخرى ، فرمما بدأت بمعنى التفرقة بين « الحر » و « العبد » ثم أخذت لها فروعاً أخرى : حرية في الحياة السياسية تجعل السلطة للشعب ، وحرية في الحياة الاقتصادية ترفع عن العامل تسلط صاحب العمل ، وحرية في الفن والأدب ، تجعل الفنان والأديب لا يلتزمان إلا بما يتطلبه منها التسامى فيما يبدعانه ، وهكذا ، ولهذا النمو الذي تنمو به « الفكرة » المعينة مع الزمن لنماء الخبرة عند الإنسان ، كان من الضروري لمن أراد أن يتأمل فكرة أن يقرأ عنها ما قد وصل إليه فيها أعلام الفكر حينئذ كانوا ، فإذا كانت قراءتنا محدودة كانت حصيلة معرفتنا بفكرة معينة محدودة كذلك ، فلا تتسع إلا لما يستطيع الواحد منا إدراكه بنفسه اجتهداً .

ذلك - إذن - هو أحد الأمرين اللذين أدبا إلى ضعف حياتنا الفكرية ، وأما الثاني ، فهو أن مجال الحياة الفكرية تعوزه الضوابط الواضحة لما هو صواب منها وما هو خطأ ، فإذا كان « الصدق » في الأدب يمكن قياسه بدقة الموازنة بين ما أبدعه الخيال من جهة ، وما هو واقع في حياة الإنسان من جهة أخرى ثم إذا كان « الصدق » في دنيا « العلم » واضح الميار كذلك ، فإذا كان المجال مجال علوم رياضية ، كان صدق الحقيقة الرياضية المعينة مرهوناً بصحة استدلالها من سوابقها ، وإذا كان المجال مجال العلوم الطبيعية ، كان الصدق مرهوناً بانطباق النتيجة العلمية على واقع الأشياء التي تقع في مجالها ، وهكذا

ترى معايير الأدب ، ومعايير العلم ، واضحة أمام الناقد ، وأما في عالم « الأفكار » فليس الأمر بهذا الوضوح كله ، بل قد تجد أن مجال « الأفكار » لا موضع فيه لمعايير الصواب والخطأ ، بل يستند قبول الإنسان لفكرة أو رفضها ، على أساس آخر ، هو مقدار ما ينتج عنها من طمأنينة النفس أو قلقها ، وذلك لأننا لم نستمد أفكارنا المحورية الأساسية من « واقع » الأشياء ، فليست الفكرة شيئاً من الأشياء ، وإنما تستمد الأفكار أساساً من فطرة الإنسان ذاتها ، فإذا كنا نطالب لأنفسنا بالحرية ، ثم يمزيد من الحرية ، إلى غير نهاية معلومة ، فذلك لأننا نريد أن نعيش على الفطرة التي ولدنا بها ، وجاءت الحياة الاجتماعية فقيدتها ، ومن هنا ترانا ونحن نسعى إلى الحفاظ على الحرية التي فطرنا عليها ، نحاول في الوقت نفسه أن نبحث عن أقل درجة ممكنة لندخل المجتمع بقيوده ، لكي نتمتع بأكبر قدر ممكن من الحرية ، التي هي الأساس الفطري ، وهكذا تأمل أية فكرة شئت ، باحثاً عن معنى « الصديق » فيها ماذا يكون ، فأخالك منتبهاً آخر الأمر إلى النتيجة التي أسلفتها لك ، وهي أن الحق أو الباطل ليس هو مدار القبول أو الرفض لفكرة ما ، بل المدار هو الملاءمة مع سائر ظروف الحياة أو عدم الملاءمة ، مما ترضى عنه النفوس أو تسخط ، ولهذا قد تجد فكرة مأمقولة في شعب ما مرفوضة في شعب آخر ، وحتى إذا كان هنالك اتفاق على « اسمها » فالاختلاف يحمى بعدئذ في فهم المراد بهذا الاسم في كل من الشعبين أو الجماعتين من الناس . إن فكرة الأخذ بالتأثر ، مثلاً ، يراها فريق من الشعب المصري أساساً للعدل ولا أساس سواه ، في حين يراها فريق آخر من الشعب ذاته

مرفوضة ، ليرتك أمر العدل إلى ساحات القضاء ، ومهما يكن من أمر في هذا الصدد ، فأقل ما يقال هنا هو إنه إذا اختلف رجلان حول « فكرة » ما ، فلن يكون هنالك الفاصل الواضح الذي يفصل بين خطأ وصواب ، ومن هنا كان سبيل النجاة من فوضى تضارب المعاني للفكرة الواحدة في الشعب الواحد ، مرهوناً - أولاً - بأن يكون الناس على وعى بما تتضمنه الفكرة المعينة من عناصر المعنى ، و - ثانياً - أن يكون الناس على قدرة تمكنهم من تصور المستقبل كيف تجيء صورته إذا ما فهمت فكرة ما - كالحرية والعدل مثلاً - على هذا الوجه أو ذاك ، ولما كانت كثرة المثقفين في أمتنا - ودع عنك من قل حظهم من الثقافة - لا هم يمهلون إزاء أية فكرة مما يعينهم أمرها ، حتى يتبينوا عناصر معناها ، ولا هم يصبرون حتى يتعقبوا جوانب المعنى المختلفة إلى ما تنصير عليه حياة الناس في المستقبل ، لو أخذنا بهذا المعنى أو ذاك ، أقول إنه لما كانت الكثرة الغالبة منا لا تتمهل ولا تنصير حتى تحكم التصور قبل أن تتسرع بالقبول أو الرفض ، أصبحت حياتنا الفكرية كالسفينة فقدت ربابها ، ففقدت وسيلة بلوغها مرفأ الأمان .

حياتنا الفكرية هي أضعف جزء في البنيان الثقافي الذي نحيا في غرفه وأبائه ، لكن الوهن إذا كانت « الفكرة » موطنه ، نحتم أن تسرى العلة في سائر الأجزاء ، لماذا ؟ لأننا وإن كان لابد لنا من تقسيم الحياة أقساماً تتوزع على الأفراد ليتخصص كل فرد فيما يلائمه ، إلا أن مثل هذا التقسيم لا يعنى أن الحياة الفعلية كما يمارسها الأحياء ، مقسمة على هذا النحو بل هي كيان موحد ، على غرار ما نرى في الكيان

العضوى للكائن الحى ، فهناك - مثلاً - في الفرد الإنسانى دماغ ، وقلب ، ورتتان ، ومعدة ، وأطراف إلخ . كلها متشابك متأزر في حياة واحدة ، ومع ذلك فهناك من الأجزاء ما يؤثر في جميع الأجزاء الأخرى لو أصابه مرض ، أكثر مما يؤثر جزء آخر ، فإصابة المخ تشل بقية الأعضاء ، وضعف القلب هو ضعف في وظائف أعضاء أخرى ، في حين أن بتر ذراع أو ساق ، قد لا يؤثر في المخ أو في القلب ، وعلى هذا النحو يمكن أن يقال في حياة «الفكر» عند شعب معين ، بالنسبة إلى حياة سائر الجوانب الثقافية عند ذلك الشعب ، لأن «الفكرة» المعينة من الأفكار ، هي في حقيقتها خريطة عقلية يسلك الإنسان على هداها ، وذلك بالإضافة إلى احتوائها دائماً على «قيمة» معينة ، أى على معيار محدد يقاس به الصواب والخطأ في ذلك السلوك ، ثم عن احتوائها كذلك على «الغاية» التي من أجلها يسلك السالك في حياته العملية ، ولو أن دورة الحياة الثقافية اكتملت حلقاتها لفرد من الأفراد ، أو لشعب في مجموعه ، لا اكتملت حلقات ثلاث معاً في سلسلة واحدة ، فأولاً : هناك «الفكرة» وهي نفسها التي يشار إليها في المجال الدينى بلفظ «الكلمة» كلمة الله سبحانه - «فالكلمة» بهذا المعنى هي بدء الخلق ، وتأتى الحلقة الثانية وهي أن تتجسد «الفكرة» المعينة في فرد يؤمن بها ، إذ لو تركت الفكرة مسطورة أو منطوقة في ألقاظ دالة عليها ، دون أن يتمثلها إنسان ما ، ل بقيت جزءاً من عالم الضوء (وهي مسطورة) أو من عالم الصوت (وهي منطوقة) وكان يمكن للإنسان الذى يلقفها ويحملها ويؤمن

بقوتها ، أن يقف عند هذا الحد ، فيظل الطريق ناقصًا ، وإنما يكتمل الطريق بتلك الفكرة ، إذا أصر حاملها على أن ينشرها في الناس لتكون أساسًا من الأسس التي تبنى عليها مناسط الحياة العملية ، وبهذه الخطوة الأخيرة تتغير بالفكرة صورة الحياة ، ويحضرنا في هذه المناسبة ما قاله أحد الصوفية تعليقًا على عروج محمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء ، وعودته بعد ذلك إلى حيث كان قبل المعراج ، وكان تعليق ذلك الصوفي هو قوله ما معناه : لو إني كنت الذي صعد إلى السماء ، لما رضيت بالعودة إلى حيث كنت من الأرض ، ففي هذا التعليق من ذلك الصوفي بيان للفرق بين حالتين في حياة الناس الفكرية : إحداهما أن تكتمل المسيرة في ثلاث حلقاتها ، وهي «الفكرة» وتجسدها في فرد يؤمن بها ، ثم إصرار ذلك الفرد على نشرها في الناس حتى تسود حياتهم فتتغير بها صورة تلك الحياة ، وأما الحالة الثانية فهي مسيرة منقوصة ، تتألف من فكرة ، ثم من فرد يتقبلها ويلم بها ، ويقف عند هذا الحد لا يتقدم خطوة ، فتموت الفكرة بموته . وعلى ضوء هذا البيان لدور الفكرة في طريق الإصلاح والتغيير ، ترى خطورة أن يحتضن الناس أفكارًا يكتشفها غموض ، أو أفكارًا لو انتقلت إلى دنيا السلوك ، كان مؤداها أن تعود بالناس إلى الوراء ، أو أفكارًا سلمت من هذا كله لكنها حبست في صدور حاملها ، لا ينشرونها فلا يغيرون بها شيئًا مما ينبغي له أن يتغير لتصلح الحياة ، ففي جميع هذه الحالات ندرك خطورة ألا تؤدي «الأفكار» دورها ، ونحن إذ نقول إن أضعف جانب في بنيان حياتنا الثقافية إنما هو الجانب

الفكرى ، قد قصدنا هذه الحالات جميعاً ، فأفكار غمضت في أذهان حاملها غموضاً يفضل عند السلوك العملى ولا يهدى ، وأفكار أخرى إذا هى وجدت طريقها إلى عالم التطبيق والعمل ، جذبت حاملها إلى نمط من الحياة يهوى به إلى مهاوى الهزيمة والضعف والفقر أمام أعدائه ، وأفكار قد تصح في ذاتها ، لكنها تبقى حبيسة الصدور عند أصحابها ، فقيم العجب إذا رأينا الأعوام تدور علينا ، فلا يتغير في موقفنا الابداعى الايجابى شىء كثير ، حتى لو تغيرت من حياتنا الظاهرية صور كثيرة محاكاة للآخرين .

ومن أوجه الضعف في حياتنا الفكرية ، ما قد أصيبت به من تفكك انفرطت به وحدة الأمة شعبياً ، ووحدة الشعب أفراداً ، ولو شاء لنا الحق سبحانه وتعالى وحدة قوية فعالة منتجة ذات رجحان بين أمم الأرض إذا ما أقيمت الموازين ، لقيض للأمة العربية من رجال « الفكر » من يضىء بأفكاره طريق الحياة الجديدة ، فسارت الأمة على هداه ، وليس المهم هنا هو من أين جاءت الفكرة العظيمة إلى صاحبها : أهى انبثقت من صميم فطرته ، أم هى جاءت وحيا من الماضى ، أم وحياً مما طالعه من حياة أمم أخرى تعاصره ، إن الذين يهيمهم رد الأفكار القوية الهادية إلى مصادرها هم المؤرخون ، أما من يريد للأفكار العظيمة أن تتحول منارات لهداية السالكين ، فيهمم الضوء قبل أى شىء آخر ، لينفسح الأمل في حركة تتقدم بها نحو الأقوى والأعلم والأغنى والأفضل ، لكننا قلما نقع في تاريخنا الفكرى الحديث على رائد فكرى واحد كانت له القوة الجاذبة التى تتجمع

الأمة العربية تحت لوائها ، ومن هنا تفرقت بنا السبل مع مجموعة من
 أواسط الرواد ، إذ احتشد وراء كل رائد من هؤلاء الأواسط في
 قدراتهم اتباع ، فكان أن رأينا جماعات تنادى بالعودة إلى الذي سلف
 لتعصم به من عالم متغير ، وجماعات أخرى ذهبت كل منها مذهبا ،
 نقلا عن مذاهب أقوام أخرى ، قد تصلح لنا وقد لا تصلح ،
 وجماعات ثالثة تركت نفسها للريح تتجه بها إلى حيث شاءت الريح .
 ولو أن حياتنا الفكرية وجدت فكرة كبرى يحملها من آمن بها من
 المعالقة ذوى العزيمة الماضية لقامت تلك الفكرة في ضمائر عامة الناس
 أملا مكتوما ، وفي ضمائر المبدعين على اختلاف ميادين الإبداع
 مصباحا هاديا يشير إلى الوجهة العامة التي يجب أن يتجه فيها إبداعهم
 من أدب وفن وفكر ، بما ترسله تلك التنايع من إشعاعات تنعكس في
 جوانب الحياة العملية ، من سياسة ، وتعليم ، واقتصاد ، وإصلاح
 اجتماعي وغير ذلك ، على أننا وإن كننا قد حرمتنا مثل تلك الوجهات
 القوية التي لا يستطيعها إلا المعالقة ، فلم نحرم من فريق من النابهين
 الذين تضمنت أعمالهم الثقافية إشارات تشير إلى الاتجاه الصحيح الذي
 ينبغي لنا أن نسير فيه ، وهو اتجاه يشبه شبيها قريبا ذلك الاتجاه الذي
 اتجهت فيه الحركة الثقافية عند أسلافنا عندما بلغوا ذروتهم في القرن
 الرابع الهجري وامتداده في القرن الخامس (العاشر الميلادي وامتداده
 في الحادي عشر) مع فرق اقتضاه اختلاف العصرين ، فقد يما كان
 الاتجاه ينحو بالمبدعين نحو أن يستخرجوا صيغا جديدة تجمع بين الروح
 العربية الإسلامية الأصيلة من ناحية ، وما قد جاءوا به من ثقافات

أخرى ، وبصفة خاصة ما قد جاءوا به من تراث اليونان القديمة فلسفة وعلمًا ، وما قد جاءوا به من التراث الفارسي ومن الهند تصوفًا ، ومن مصر فلسفة صوفية بقيت من مدرسة الإسكندرية في عصرها الزاهر ، واختصارًا فقد كان اتجاه أسلافنا بحثًا عن وقفة تضيف إلى دينهم فلسفة ، لا بالمعنى الذى يجاور بين هذين الجانبين فى عقل المثقف وقلبه ، بل بالمعنى الذى يقرأ فيه أحد الجانبين بلغة الآخر ، ومثل هذا الاتجاه هو نفسه الذى نستطيع استخلاصه مما فعله النابهون من أعلامنا المحدثين ، لولا أن الجانبين اللذين أرادوا أن يمدلوهما معًا فى جديلة واحدة ، كانا هما الدين من ناحية والعلم العصرى من جهة ثانية ، كما ترى - مثلاً - عند الشيخ محمد عبده وهو يعرض الإسلام على نحويين به أن ليس فى العلم ما يتعارض مع شىء فى العقيدة الإسلامية ، وكانت هذه الرؤية هى الغالبة - بصفة عامة - على أعلام نهضتنا الثقافية منذ الطهطاوى وحتى يومنا هذا ، لكن لأن هؤلاء الأعلام أنفسهم لم يبلغ أحد منهم من شموخ القامة ما يستهوى الآخرين لأن يتبعوه ، رأينا معارضات تتفرق بالناس اتجاهًا ومذهبًا ، ومن ثم فقدنا التوحد الثقافى ، واعتركنا بعضًا مع بعض تحت أسماء مختلفة ، فأنّا جعلناها تقديمية ورجعية ، وأنّا جعلناها يمينًا ويسارًا ، وأنّا ثالثًا جعلناها سلفية ومستقبلية ، وهكذا .

ولم تكن تلك الانقسامات لتقف عند حدود الصفوة من المثقفين ، وإلا لفقدت كثيرًا من قيمتها العملية ، بل الذى نراه هو أن كتلة الشعب فى مجموعها ، قد وقفت - من غير اختيار واع - مع أى

فريق يقف مناهضاً لتحديث الفكر ، سواء أطلق عليه من معارضيه اسم «الرجعية» أو «السلفية» أو «اليمين» فكانت خلاصة الموقف دائماً هي أن موجات من التغير الفكرى قد يهتر بها سطح المحيط مع حركات الرياح ، وأما أغوار المحيط على عمقها واتساعها ، فقد ظلت ثابتة أو كالثابتة ، تساند جمود الفكر على صورته السلفية ، أيّاً كان الاسم الذى يطلق على الناطقين دفاعاً عن ذلك الجمود ، وأما الدعوة إلى تحديث الفكر تحديثاً يضع فى الأدمغة أفكاراً تلائم ظروف العصر مكان أفكار ذهب زمانها ، فكانت دائماً تقتصر على قلة يكتب بعضها ليقرأ لهم بعضها الآخر ، وكأنهم جماعة تنتسب إلى ناد يجمعهم وراء أسوار تحجبهم عن كتلة الجمهور ، ولهذا الظاهرة أثرها القوى فى سيرتنا الثقافية ، لأنها أوقفتنا أمام متناقضات تثير الحيرة ، فإذا أنت زعمت للناس أننا على وجه الجملة لا نتغير من الناحية الثقافية ، أجابك معترض يشير إلى جماعة من أفراد تجمعت فى عواصمنا الكبرى ممن ارتفعوا بأنفسهم إلى رؤية ثقافية متطورة جديدة ، وإذا أنت زعمت للناس أننا نجير ، فينا من الأعلام فى مجال الثقافة ما يقربنا من أى بلد متقدم ، أجابك معترض يشير إلى كتلة الجمهور العريض بزعامة من يتزعمهم من القارئ الكاتبين ، ويزيد الأمر فى ظاهره تعقيداً على تعقيد ، إن كتلة الجمهور على جمودها الثقافى ، لم تتردد فى أن تملأ القرى والكفور بأحدث الأجهزة العصرية منذ أول لحظة وجدت فى أيديها المال الذى تنفقه على تلك الأجهزة ، فإذا زعمت للناس بأننا فى جمود فكرى يميل بنا نحو التحجر إزاء عالم متغير متطور ، أجابك

المعترض إجابة لا يقتصر فيها على ذكر الصفوة المثقفة في المدن ، بل يضيف إلى ذلك شاهداً آخر ، هو ما تطور به الريفي حين زود داره بأجهزة حديثة .

لكن هذه الظواهر المتناقضة كلها إن هي إلا زبد يذهب جفاء ، وأما ما يبقى أمام الرأى بعد ذلك في تركيبنا الثقافي فهو محيط واسع عميق من جمهور لم تتغير رؤيته ، ولهذا الجمهور الثابت على رؤيته القديمة مرشدون ناطقون كاتبون ، وأما البقية الضئيلة عدداً ، الضعيفة أثراً ، فهم أولئك الذين ساروا بأنفسهم على نهج ما سار به السلف في عصر الازدهار الثقافي الذي أشرنا إليه ، وهو النهج الذي يجمع إلى العقيدة الدينية رؤية ثقافية لا تتعارض معها ، بل تندمج في إطارها اندماجاً ، ولقد كانت «الفلسفة» اليونانية هي العنصر الأساسي المضاف قديماً ، وهو ينبغي اليوم أن يكون علوم العصر ، فإذا كان ابن رشد قد جعل عنواناً لأحد مؤلفاته مشيراً إلى الاتصال بين «الحكمة» (أى الفلسفة و «الشرعة» وجب أن يكون العنوان الذي يهديننا اليوم ، هو الاتصال بين «العلم الحديث» و«الشرعة» .

ومع ذلك فإن تلك القلة الضئيلة عدداً ، الضعيفة أثراً ، هي وحدها موضع الأمل في أن يبدل العربي برؤية خسر بها حاضره ، أو كاد ، رؤية ثقافية أخرى ، تصون جوهر ماضيه وتفتح له آفاق الحياة القوية في مستقبل جديد .

مَأْزِقَ حَرَج

من المشكلات الفكرية ما قد يعرض لك عبورا في لحظة من لحظات الحياة الجارية وكأنها جاءت مصادفة لتختفي مع ظروف حدوثها ، ولكنك تراها وقد تشبثت برأسك لا تريد أن تتزاح عنه إلا أن تجد لها حلا فتستريح ، ولو أنها مشكلة هامة لا تضرب بجذورها في حياتنا إلى الصميم ، لأمكن تجاهلها برغم حضورها ، أما أن ننظر إليها فتجدها مما يقع في بنائنا الثقافي عند حجر الأساس ، فها هنا يزداد أمرها تعقيدا فلا هي تتزاح من تلقاء نفسها نسيا مع ما ينساه الإنسان من همومه مع مر الزمن ، ولا أنت من جانبك تريد لها أن تتزاح قبل أن تحل عقدها .

ومن أمثلة هذه المشكلات المحيرة ، مشكلة كنا طرحناها عرضا - أو قل إنها طرحت نفسها في مجرى الحديث - وكنا ثلاثة : صديقين وأنا (والصديقان الآن في رحاب الله) وسوف أعرضها على القارئ ، لنحاول معا أن نجد منها مخرجا ، وإن كنت على شك في أن يشارك قارئ اليوم في أمثال هذه القضايا الفكرية ، التي ربما ظن أنها قضية لا تمس حياتنا العملية في كثير أو قليل ، وتأخذ الدهشة للهولة

الأولى ، حين أزعج له أنها تسرى في تلك الحياة العملية سريان الدماء في أوعيتها من الكائن الحي فلقد كان موضوع الحديث بيننا - أعني الصديقين وهذا الكاتب - هو البحث عن أعمق أساس يمكن أن نرد إليه اختلاف النظرة الأخلاقية بين العربي من جهة ، وشعوب الغرب بصفة عامة من جهة أخرى ، نعم إننا نحن وهم على حد سواء ندين بديانات هي نفسها الديانات هنا وهناك (وذلك على الأعم الأغلب) مما كان يمكن أن يؤدي إلى رؤية أخلاقية واحدة أو متقاربة ، وأنس الفضائل والرذائل متشابهة في البشرية بأسرها ، إذن فما الذي أحدث الاختلاف الظاهر بين الرويتين في آخر المطاف ؟ أم أن الاختلاف يا ترى - ظاهرة سطحية - حتى إذا ما حفرنا التربة تحت الشجرتين ، وجدناهما فرعين من أصل واحد ؟

ذلك هو السؤال كما طرحناه على أنفسنا ذات يوم من أواخر سنوات الخمسينيات ، فبعد أن تجبطنا في السير بأفكارنا ، هنا مرة وهناك مرة ، اقترح أحدها ، وكان دائما سريع الالتفات بفكره نحو « اللغة » ليجد فيها ما يفيض معظم المشكلات الفكرية ، اقترح أن ننظر إلى مفردات لغوية نراها أساسية بالنسبة إلى الوقفة الأخلاقية لنقارن مفرداتنا العربية بما يقابلها من مفرداتهم ، لعلنا نقع على قبس يهدي ، ثم أشار صاحبنا إلى كلمة « المثال » (أو « المثل الأعلى ») في اللغة العربية ، وما يقابلها في الإنجليزية والفرنسية معا ، وقد يكون كذلك في لغات أوروبية أخرى ، لأن ذلك المقابل يرتد إلى أصل يوناني قديم ، وأعني بذلك المقابل كلمة « ايديال » ، مما نسميه بالعربية « مثالا أعلى » (أو

« مثالا ») يسمونه هناك « ايدىال » ، وما ان تقدم صاحبنا بهذا الاقتراح ، حتى فتح الله علينا بشيء كثير مما نبحث عنه ، فانظر - أولا - إلى الكلمة العربية « مثال » التى على اساسها نصف الشخص الأكمل ، أو السلوك الأكمل ، بأنه « مثالى » تجدها شديدة الصلة بالكلمة الدالة على الفرد العادى الذى لم يبلغ - بالضرورة - درجة الكمال فى المجال الذى يكون هو موضوع الحديث ، وأعنى بها كلمة « مثل » ، فليس بين « المثل » الواحد من الأمثلة الكثيرة فى نوع ما ، وبين « المثال » إلا حرف واحد ، هو حرف الألف فى كلمة مثال ، لكن ذلك الحرف الواحد قد ميز « الأعلى » من كل مادونه من « أمثلة » ، فإذا قلنا عن طالب معين من طلاب الجامعة ، إنه هو « مثال » الطالب الجامعى ، كان معنى ذلك أنه قد بلغ أكمل درجات التفاوت ، بالنسبة إلى جميع « الأمثلة » التى تقع عليها فى مجموعة الطلاب ، لكن كلمة « مثال » وإن تكن قد رفعت صاحبها إلى أكمل الدرجات فيما يتفاوت فيه طلبة الجامعة ، فهى فى الوقت نفسه لا تجعل من ذلك الطالب المثالى مخلوقا آخر يتمى إلى غير اسرة البشر ، أى أن من هو « أكمل » ومن هم دون ذلك مرتبة ، يتدرجون جميعا فى جماعة إنسانية واحدة ، يتفاوت أفرادها فى الدرجة ، دون أن يختلفوا فى النوع الإنسانى الذى يتتمون إليه ، وقل هذا نفسه أينما ميزت شيئا دون سائر الأمثلة من اقرانه ، كأن تميز معزوفة موسيقية بدرجة الكمال التى بلغت ولم يبلغها سواها ، أو أن تميز جوادا دون سائر الجياد ، أو كتابا فى موضوع معين دون سائر الكتب فى ذلك

الموضوع ، وهكذا ، وما معنى ذلك ؟ معناه أن نظرة العربى - استدلالا من لغته - حين يفاضل فى مجال الأخلاق ، أو فى أى مجال آخر ، فهو إنما يفاضل بين كائنات من كائنات العالم الواقعى الفعلية ، فاضلا ومفضولا على حد سواء ، فجميعهم على درجة ما من النقص وكل ما هنالك من فرق بين فاضل ومفضول ، هو أن درجة النقص فى أولهما أقل من درجة النقص فى الثانى ، ولعل مرد هذه النظرة العربية ، هو أن يحتفظ بالكمال المطلق لله وحده سبحانه وتعالى .

ونترك هذه النظرية العربية مؤقتا ، لنتجه بأنظارنا إلى نظرة أهل الغرب ، مأخوذة من لغتهم ، فقد اسلفنا بأن الكلمة المقابلة « للمثال » عندنا ، هى كلمة « ايدىال » عندهم ، وهى كلمة مشتقة اشتقاقا مباشرا من « ايدىال » ومعناها « فكرة » ، وأين تكون الأفكار ؟ إنها لا تكون على الأرض كسائر الأجساد والأجسام ، بل هى كائنات « عقلية » لا يحدها ما يحدها الأشياء المادية من حدود المكان وحدود الزمان ، والفكرة العقلية عن أى شىء مهما يكن موضوعه ، هى دائما أقرب جدا إلى الفكرة الرياضية ، ومعلوم أن الفكرة الرياضية لا تشير إلى مادة الأشياء بل تشير إلى ما بين الأشياء من « علاقات » ، فإذا قلت مثلا « خمسة » فأنت لا تشير بهذه الصورة الرياضية إلى مجموعة بذاتها من مجموعات الأشياء ، وإنما تقدم بها « صورة » عددية تصلح لكل مجموعة من الأشياء توازيها فى « العلاقات » التى تصور هيكليها البنائى ، وقد تكون مجموعة الأشياء خمس برتقالات ، أو خمسة كتب ، أو خمسة رجال أو ماشئت ، فكل المجموعات الخمسية

متشابهة في صورة علاقاتها الداخلية بين أفرادها ، أى أنها متشابهة كلها في « الصورة » برغم اختلاف مجموعات الأشياء المختلفة في مادة مضموناتها .

ومعذرة لهذا الاسهاب في شرح الفكرة الرياضية لكنها ضرورة تحتملها الرغبة في أن نفهم الهيكل الذى تبنى عليه كل فكرة أيًا ما كان مجالها ، إذ هى دائماً صورة مجردة ، قوامها « علاقات » اطراف بعضها ببعض ، ولا بد لى هنا أن اتبه القارئ بالآى يخلط بين الفكرة عندما تكون مجردة ، كفكرة « بيت » - مثلاً - دون أن تشير بها إلى بيت واحد معين ، وبين أن تستعيد بالذاكرة صورة بيتك الخاص ، أو بيت بذاته أيًا كان فليست أمثال هذه الصورة الذهنية التى تتذكرها مما وقع لنا فى حياتنا الفعلية ، هو ما نقصد إليه هنا ، وإنما قصدنا إلى الأفكار ، التى تشير كل فكرة منها إلى نوع بأسره من الكائنات .

وعلى ضوء من هذا الشرح نعود إلى أهل الغرب حين يجعلون المثل الأعلى « فكرة » مجردة ، ولا يجعلونه فرداً معيناً من مجموعة الأفراد ، كما هى الحال بالنسبة إلى ما تعنيه كلمة « مثال » « أو » مثل أعلى » فى اللغة العربية ، إننا حين نقول عن طالب معين إنه « مثال » الطالب ، فنحن - كما أسلفنا - نقارن كائناً مجسداً بسائر افراد نوعه أو جنسه ، وأما أهل الغرب حين يقولون عن طالب معين إنه « ايدىال » فهم - استدلالاً من الأساس اللغوى للمعنى - يقارنونه بالفكرة العقلية المجردة لما يصف الكمال فى الطالب ، والفكرة العقلية المجردة - كما قلنا - هى اشبه شىء بالمدرجات الرياضية ، أو قل إنها

تمثل « التعريف » النظرى الذى يحدد به الأركان الجوهرية للشئ الذى اردنا تعريفه .

ولكن ما أهمية هذه التفرقة بين قوم يجعلون « المثل الأعلى » فى مجال معين ، فردا من الأفراد يتميز بالدرجة فى سلم التفاوت ، وبين قوم آخرين يجعلونه فكرة عقلية مجردة ، يقاس إليها الأفراد بعدا وقربا؟ وجوابنا هو أن الفرق آخر الأمر كبير ، حين يصبح الموقف علاقات اجتماعية بين الناس وهم يتفاعلون بعضهم مع بعض ، فى الحالة الأولى ، التى يكون « المثل الأعلى » فيها واقعا ماديا ، لا يتهم أحد بشطط أو إسراف أو عنت ، إذا طالب كل الناس فردا فردا أن يحبوا حياتهم على صورة مثلى ، لأن ما قد تحقق فى فرد واحد منهم ، لا يصبح مستحيلا عليه أن يتحقق فى سائر الأفراد ، وهذا المطلوب هو بالفعل مدار الحكم الخلقى على الناس من وجهة النظر العربية ، لكن حقيقة الإنسان اضعف من أن تمكن جميع افراد المجتمع من أن يبلغوا ذروة استطاع بلوغها فرد واحد متميز ومن هنا ينشأ للمواطن العربى فى حياته العملية ، ذلك المأزق الحرج الذى أشرنا إليه فى عنوان هذا الحديث ، لأنه سيجد نفسه دائما أمام احتمالين : فاما هو قادر على تجسيد الذروة الخلقية فى سلوكه ، كما استطاع بلوغها مواطن مثالى معين ، واما يجد طبيعته اضعف من أن تسعفه فى ذلك المسعى ، وهنا يغلب عليه التستر على ضعفه ذاك ، حتى لا يكون موضع ازدراء من مواطنيه ، فيلجأ إلى ازدواجية مأمونة العواقب فى حياة دنياه ، وذلك بمعنى أن يتظاهر أمام الناس بما هو افضل ، مما

لا يقع تحت المؤاخذه الخلقية ، ويرجى اشباع جوانب ضعفه إلى حين يحتذى وراء الجدران فلا تقع عليه الأبصار ، وفي مثل هذه الظروف التي تهيب الفرصة لانتشار الأزواجية الخلقية ، يكون من المرجح أن يسود الناس عدم التسامح مع من لا يبرع في ممارسة تلك الأزواجية على نحو محكم ، بحيث يجعل نفسه على مرأى من الناس ومسمع ، وقتما ينهزم أمام نوازهه ، فيبدو للناس على غير صورة الكمال الخلقى المنشود .

وأما في الحالة الثانية ، التي هي حالة أهل الغرب حين يقيسون سلوك الناس إلى « فكرة » عقلية تصور ما ينبغي أن يكون عليه الأمر ، من الناحية النظرية ، فالمفهوم ضمنا في هذه الحالة ، أن النزول بتلك الصورة العقلية المجردة إلى الأرض لتتجسد فعلا في مسالك الأفراد ، هو أمر محال على البشر ، ومع ذلك فهو أمر مرغوب فيه أن تقام أمام الناس صورة مثلى لما ينبغي أن يكون ، ليحاول الإنسان ما استطاع أن يقترب من الهدف ، وبقدر اقترابه يكون مقدار فضيلته ، وهو موقف تنتج عنه نتيجتان اجتماعيتان : الأولى هي أن نسبية الحكم الخلقى أكثر حفزا للأفراد على محاولة الصعود نحو الأكمّل ، دون أن يصيبه احباط عند الفشل ، والثانية هي أن أفراد المجتمع يصبحون أكثر تسامحا بعضهم مع بعض في الأحكام الخلقية ، لأن الأمر عندهم ليس هو إما الصواب كل الصواب وإما الخطأ ، بل هو إن فعلا معينا أصوب من فعل آخر ، وإن خطأ معينا أوغل في الخطيئة من خطأ آخر .

وخلاصة الفرق بيننا وبين أهل الغرب - فيما يبدو لنا - من حيث الرؤية الأخلاقية ، هو أنه برغم اتفاقنا على إقامة تصور لمجموعة منسقة موحدة للقيم العليا المطلقة ، أى التى تصل فيها كل قيمة من تلك القيم إلى مالا نهاية له من الكمال ، فصدق مطلق ، وإرادة مطلقة ، ورحمة مطلقة ، وقدرة مطلقة ، وعلم مطلق إلخ ، كلها يجتمع معا فى صورة موحدة ، لتصبح أماننا غاية الغايات ، فنسعى إلى الارتفاع إليها بما نفكر وما نريد وما نسلك ، دون أن نطمع فى بلوغها ، وإلا طمعنا فى أن نبليغ مرتبة إلهية ، وسبحانه الله الذى لا إله إلا هو ، أقول إننا فى نظرتنا العربية ، وأهل الغرب فى نظرتهم ، على اتفاق فى الإيمان بوجود تلك القيم فى لانهايتها ، لكن أبناء الثقافة الغربية يققون عند هذا الحد ، ويجعلون تلك الصورة العليا غاية يقاس إليها الفعل الإنسانى اقترابا منها أو ابتعادا عنها فتكون الحالة الأولى توجهها نحو الفضيلة يحدد بها الإنسان نحو الرذيلة وقد أسلفنا لك الثانية مجافاة للفضيلة يهبط بها الإنسان نحو الرذيلة وقد أسلفنا لك القول بأن مثل هذا الموقف من شأنه أن يؤدى إلى شىء من المرونة فى الأحكام الخلقية على الناس ، لأن قياس عمل محدد معين إلى فكرة مجردة مطلقة لا يبين لنا الحدود واضحة وحاسمة وفاصلة .

ولا كذلك نظرة العربى ، لأنه يضيف إلى إيمانه بتلك الصورة اللانهاية المطلقة ، صورة مما يمكن أن يحياه الإنسان فى حياته العملية ، فتكون هى المعيار الذى يحاسب الفرد على أساسه فيما يفعل أو ما يمتنع عن فعله ، ومن شاء أن يعرف - بالنسبة إلى المسلم - كيف

يكون للإنسان في كل مواقف الحياة العملية «نموذج» يجب أن يسلك على غرارهِ ، فليقرأ كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي ، إذن فهذه المجموعة الكبرى من نماذج السلوك الصحيح هي التي تقام معيارا للحكم على الأفعال أهي مقبولة أم مرفوضة مردولة ، ولا أظن أن تحليلنا لحياة أهل الغرب يمكن أن يؤدي بنا إلى نماذج حاسمة الحدود تفرض على الفرد من الناس ليحتذيها في سلوكه وإلا حكم عليه بالفساد والضلال ، ولسنا هنا في مقام التقويم والمفاضلة ، لنقول أي الرؤيتين في عالم الأخلاق أصوب من الأخرى ، بل نحاول مجرد الوصف الموضوعي لما هنالك مما تختلف به نظرة هنا عن نظرة هناك .

ولو أن أمثال تلك «النماذج» السلوكية الحادة في معالمها وفواصلها قد نزل بها الوحي الديني بكل هذا التحديد الجازم ، أو ورد عنها حديث شريف ، لوجب حقا أن تكون ملزمة ، أما إذا وجد بينها ما ليس ملزما للفرد المؤمن ، كان من حقنا أن نسأل عن جدواها إذا كانت مجدية ، أو عن ضررها أن كانت ضارة ، ووجوه الضرر واضحة ، وأهمها حرمان الفرد الإنساني من حرية صياغته لسلوكه ، كي يكون بحق مسئولاً أمام الله يوم الحساب ، إذ لا فضل لإنسان يسلك على نموذج أقيم له ، حتى لو كان السلوك بمقتضاه سلوكاً فاضلاً ، فالفضل الأول هنا لمن أقام النموذج وأوصى بالتحرك على منواله .

وليست هذه الحرية الضائعة هي كل ما يؤخذ على تقييد الحياة

الفردية بتأذج موضوعة لم يرد في أصول العقيدة ما يوجبها فقد تضيف إلى الحرية المفقودة وما تؤدي إليه من تحطيم للشخصية ، إن تلك النماذج الموضوعة لا تلبث أن تتجمد وتتحجر في صور يتناقلها جيل عن جيل ، فتصبح معوقات للتغيير إذا ما استحدثت ظروف معاشية تقتضى ذلك التغيير ، فضلا عما يمكن أن يحدث - بل وقد حدث بالفعل في حياتنا وحياة غيرنا - أن تصبح تلك النماذج الموضوعة مقررات دراسية لبعض الدارسين ، فتكتسى عندئذ بغلالة « العلم » فتنال توقيرا ليس من حقها أن تناله ، فنحن نعلم كم تضعف الحاسة النقدية عند الكثرة الغالبة من الناس ، بل ومن الدارسين أنفسهم ، حتى ليكنفى أن ترد جملة معينة في كتاب يدرسه الدارسون في معاهد العلم ، ليلقى في روع المتلقى أن الذى بين يديه « علم » لاشبهة فيه ، وتغيب التفرقة بين ما هو علم صحيح ، وبين ما هو تاريخ يروى لنا أقوالا وردت في كتاب أخرجه ذات يوم مجتهد له علينا فضل اجتهاده ، دون أن يكون علينا وجوب الحكم بصوابه .

وهنا أريد الوقوف ، مع القارئ لحظة يسيرة ، أذكره فيها بالخطوات التى خطونهاها فيما قدمناه ، حتى لا تفلت منه معالم الطريق ، فقد كان السؤال الذى طرحناه باحثين له عن جواب ، هو عن أسس الاختلاف الذى نشعر بوجوده بين وجهة النظر العربية من جهة ، ووجهة النظر فى ثقافة الغرب من جهة أخرى ، وذلك فى مجال « الأخلاق » ، فأين تكمن مواضع ذلك الاختلاف ؟ وذكرنا للقارئ أن إحدا - نحن الأصدقاء الثلاثة الذين أداروا فيما بينهم هذا

السؤال - أقول إن احدها - وقد عرف بسرعة الرجوع إلى « اللغة » للاهتمام بمعاني مفرداتها في الموضوع الذى يحدث له أن يكون مجالا للبحث ، وكثيرا جدا ما وجد أن تعقب تلك المفردات اللغوية إلى جذور معانيها يكشف عما يمكن أن يفسر المشكلة المطروحة ، فاقترح على زميله أن ينصب التحليل والمقارنة على ما يطلق عليه العربى اسم « المثال » (بمعنى المثل الأعلى) فى مقابل ما يطلق عليه ريبب ثقافة الغرب اسم « ايدىال » ، فمجرد المقارنة بين أصول هاتين الكلمتين سيلقى من الضوء ما يهدى ، « فالمثال » عند العربى يشير إلى شىء واقعى يتصف بدرجة من الكمال أعلى مما نجده فى الأمثلة الفردية التى تقع مع ذلك المثال فى نوع واحد ، والمادة اللغوية فى « مثل » وكل ما يشتق منها ، تشير إلى ما هو مجسد من الأشياء التى تقع بالفعل فى دنيا الأحداث ، وأما كلمة « ايدىال » فأخوذة من أصل معناه « فكرة » ، إذن فبينما يجعل العربى مرجعه فى الحكم الخلقى على « نموذج » من نماذج الواقع الفعلى ، يجعل ابن الغرب مرجعه فكرة مجردة قوامها جملة مبادئ نظرية ، واستدللنا من هذا الفارق بينهما فى مرجع الحكم ، أن العربى أكثر تقيدا من زميله ، على ألا ننسى أن العربى كزميله يؤمن بالصورة العقلية المؤلفة من مبادئ الكمال المطلق ، لكنه يضيف إليها تلك النماذج من صور الحياة البشرية كما تقع ، وأبدينا للقارئ ما نشعر به إزاء تلك النماذج الموضوعية ، إذا لم تكن ملزمة بحكم ورودها فى أصول العقيدة الدينية أى عندما تكون صياغة بشرية ، فعندئذ رأينا أنها قد تضيف قيودا على حرية الفرد فى صياغة سلوكه بنفسه

ليكون مسئولاً ، وأنها قد يتقادم عليها العهد فتكتسب في نفوس الناس قوة ملزمة دون أن يكون ذلك من حقها .

ثم نمضى - بعد هذه المراجعة - فستأنف السير في حديثنا ، فنقول : إن المخاطر التي تنجم للعربي في حياته ، عما قد تقرر له بأنه « مثل عليا » دون أن يكون لتلك المثل العليا حق الإلزام ، لكونها كانت في أصل نشأتها من صنع أفراد من رجال الفكر يتعرضون للخطأ كما يتعرضون للصواب ، إنما هي مخاطر بعيدة الأثر ، حتى لقد انتهى بنا إلى شلل في جرأة التفكير وخفة الحركة ، فيمضى موكب الحضارة قدما ونحن وقوف مسمرة أقدامنا إلى الأرض ، مغولة عقولنا إلى « مثل عليا » لا هي « مثل » ولا هي « عليا » .

إلا أنه لمازق حرج محير مريبك خطيرة ، ذلك الذى ينشأ الفقى العربى فى حباته ، فلا يدرى كيف يجد سبيله من تلك الحباتل ليخرج إلى ما قد خلق ليمرح فيه ، من أرض فسيحة تحت قدميه ، وسما مفتوحة فوق رأسه ، ويقولنا « الفقى العربى » نشير إلى أبناء هذا الوطن الصحراوى الفسيح ، الممتد من الخليج إلى المحيط ، عبر عصور التاريخ ومنذ فجر التاريخ ، ولقد اختار التاريخ أرض مصر ليطلع فيها بفجره ، وكان ذلك الفجر مقرونا فى حياة الإنسانية بفجر آخر هو « فجر الضمير » ولا عجب أن جعل عالم المصرىات الفذ ، والمؤرخ العظيم « بريستد » عبارة « فجر الضمير » عنوانا على كتاب له فى تاريخ البدايات الأولى للتاريخ المصرى ، وما يصدق على المصرى هنا ، يصدق كذلك على سائر أجزاء الوطن العربى بعد ذلك ، وأعنى

ما قد أراده رب العالمين لابن هذا الاقليم المبارك ، من أن يكون أول بشر يضع محكمته الأخلاقية في قلبه ، فأينما كان وحيثما سار ، كان ميزان الحكم الخلقى منصوبا بين جوانحه يميز به الخير من الشر ، والهدى من الضلال ، وأنه لضمير جعل مبدؤه في السلوك أن يتفاعل الفرد مع سائر الأفراد على نحو يتجاوز بالبصر حدود هذه الحياة الدنيا ، أملا في أن يحىء ذلك السلوك مرضيا لمالك يوم الدين إذا قامت الساعة وجاء الحساب ، إن « الفقى العربى » قد أريد له - إذا ما ترك على سجية اقليمه أرضا منبسطة إلى أفاق بعد أفاق - وسمااء طلقة حتى آخر أجواز الفضاء ، أقول : إن ذلك الفقى العربى لو ترك لسجيته وسجية وطنه ، لما عرف في حياته العملية إلا ضابطا واحدا ، هو ما انضبط به بوحي من رب العالمين ، وإنك لتسمع الفلاح المصرى والعامل المصرى ، وهما فى أبسط صورة لهما يرددان عبارة « إني أعامل ربى » كلما جرى بينه وبين مواطن تعامل فى بيع أو شراء أو صناعة أو كيفما كان .

لكن هذه الصورة الفطرية البسيطة لم تترك على بساطة فطرتها ، بل اضيفت إليها القيود قيذا فوق قيد : فهنالكَ حاكم وحكومة ظهرا فى الساحة يتطلبان من الشعوب سيادة لهما على الناس ، قبل أن يتعهدا لتلك الشعوب بنجدهما فى أمانة وشرف ، إذن فقد بات حتما على المواطن البسيط كلما أراد أن يميز خطأ الفعل من صوابه ، أن يحسب حساب الحاكم والحكومة ، إلى جانب ميزان الضمير ، ولم يكن ذلك هو القيد الوحيد الذى غلت به الأرجل والأذرع كما غل

اللسان ، بل فرض على الفرد قيد آخر لعله ابشع واقسى ، وهو «الرأى العام» الذى ترسبت فى خلايا جسمه الكبير ، وعلى مدى الأعوام والقرون - رواسب مما بث فى تلك الخلايا من مزاعم عن الحق والباطل . والصحيح والفساد ، حتى أصبح لذلك «الرأى العام» فى كل شعب على حدة ، وفى مجموع الأمة ، مزاج خاص فيما يغضبه وما يرضيه ، والويل لمن أقام ميزان ضميره ليكون فيصلا بين ما يقبل وما يرفض ، من فكر أو اعتقاد أو سلوك ، دون أن يبدأ باحكام الرأى العام فى كفة الميزان التى يراد لها الرجحان .

لم يعد الأمر - إذن - فى حياتنا العملية . مرهونا بضمير حر يوجه صاحبه نحو ما يقال أو ما يعمل ، إرضاء لرب العالمين خلال إرضاء ذلك الضمير ، بل هنالك حاكم وحكومة ، وهنالك رأى عام ضاغط . فضلا عما هنالك فى طبيعة الإنسان الحيوانية من غرائز ، وانفعالات وعواطف ، ورغبات وشهوات ، كلها يلح على حاملها يريد إشباعا وإرضاء ، فهاذا تتوقع من الإنسان ، الذى اهتم نفسه فجورها كما اهتم تقواها ، إزاء الصراع العنيف الذى لا بد له أن يستمر فى جوفه بين تلك العوامل الكثيرة المتعارضة ، ماذا تتوقع منه إلا أن ينجو من الناس فرد بقوته وصلابته ، وأن يسقط حوله تسعة وتسعون فردا خارت فيهم القوة ولانت الصلابة ؟ وكيف يحىء ذلك السقوط ؟ إنه قلما يحىء فى شجاعة الصراحة والعلاية وأما الأغلب الأعم فهو أن يحىء فى جبن الخائف المستتر بضعفه وراء الجدران ، فإذا كان له رأى يخالف ما يريده الحاكم والحكومة ، وما ينصره

الرأى العام ، قاله لخصائمه همسا خلف أبواب مغلقة ، وإذا كانت به رغبة تدفعه إليها غريزة أو عاطفة ، سافر ليشبعها خارج الحدود ، أو بحث عن حجب يتخفى فى ظلماتها ، والويل ، لمن لا يتقن هذه اللعبة الاجتماعية ويحيدها .

ولو اقتصرت تلك اللعبة الاجتماعية على حياة الناس الخاصة ، لكان خطيها . ولكنها تتعدى هذا المجال الخاص إلى المجال الثقافى العام فإذا كنت كاتباً ، وجب أن تكتب مما فى ذات نفسك شيئاً وتخفى شيئاً ، وإذا ترجمت لحياة بطل من أبطالنا ، وجب أن تصوره ملكاً من الملائكة المطهرين لا يعرف الضعف أو الخطأ إليه سبيلاً ، فكل ما فيه قوة على قوة . وصواب فوق صواب ، بل إنك إذا ترجمت لحياة نفسك ، أبى عليك الرأى العام إلا أن تعلن الحسنات وتخفى السيئات ، حتى لو كانت لك الشجاعة النادرة التى تميل بك نحو تقديم صورتك على حقيقتها قوة وضعفاً .

فى مثل هذا المأزق ينشأ الفتى العربى ، فلا يجد أمامه خياراً - فى علاقاته مع الآخرين - إلا أن يفرض فيهم السوء إلى أن يثبت له عكس ذلك ، فلا يأتمن أحد منا أحداً ، ولا يصدق أحد منا أحداً ، إلا بعد خبرة يطمئن بها على نفسه ، فنكثر فينا الضمانات ، وتتعقد العلاقات ، وتزداد الخصومات ، مع أننا إذا ما تركنا على سجايانا الفطرية ، لبدأنا بالحب قبل الكراهية ، وبالأمن قبل الخوف ، وبالتعاون قبل التنافر ، لكننا اضفنا إلى النقاء غباراً ، وإلى الصفاء عكراً ، فوقعنا حياتنا فى مأزق حرج مخيف .

إِرَادَات مُبَعَثَرَة

لم يكن هذا الكاتب فى حياته العلمية والثقافية ميسراً كل اليسر ، كلا ، ولا كانت تلك الحياة عسيرة كل العسر ؛ أما يسرها فقد جاءه من إرادته ، وأما عسرها فمن إرادات الآخرين ؟ فلقد استهدف منذ شبابه الباكر حياة « المعرفة » يحصلها علوماً فى معاهد التعليم ، ويجمعها فكراً وأدباً وفناً من مطالعات حرة لعمالة الفكر والأدب والفن ، عرباً كانوا معاصرين أو أقدماء ، أم كانوا من أبناء الغرب ، قديمه وحديثه على السواء ، وكان مصدره فى هذا القسم الثانى هو المكتبة الإنجليزية يأخذ منها ما هو إنجليزى أصيل ، وما هو إنجليزى بالترجمة ؟ وساعده فى ذلك دراسته لهذه اللغة على نطاق واسع نسبياً منذ أولى درجات السلم التعليمى ، وذلك - إذن - هو مصدر اليسر فى سيرته العقبات الثقافية ، وأما مصدر العسر فأمره عجب من عجب ، إذ كان لهذا الكاتب فى كل خطوة على طريق الحياة من يلقى عليه حجراً من حجارة الاستعلاء ، أو الازدراء ، أو الصمت القاتل ، وكان هذا الصمت أهون الشر ، نعم ، لقد أنعم الله على هذا الكاتب بنعمتين لا تقدران بأموال قارون : أولاهما ثبات على الهدف كائنه ما كانت العقبات

والعثرات ، وأما الثانية فهي درجة من الاكتفاء بذاته وبما بين يديه ، فسواء أجاه من الآخرين تصفيق الإعجاب ، أم جاءه صغير السخرية ، لأنه في كلتا الحالتين ماض في طريقه نحو غايته ، شاكرًا للمعجبين ، وعاذرًا للساخرين ، وسواء عنده كذلك أكان الراتب النقدي عشرة أم كان عشرة آلاف ، لأنه في كلتا الحالتين يكفيه الأقل ويحمد الله على نعمته إذا قسم له ، ما هو أكثر .

جاءه شاب من طلابه له بعض الموهبة في دنيا القلم ، وأخذ يشكو من إهمال الكبار في هذا الجيل للشباب ، فسمعت في صدى شيئًا يضحك وشيئًا يبكي ، وكان الذى أثار ضحكات الضاحك منهما ، ما ظنه من حسن النوايا في أبناء الجيل الماضى ، لأنه إذا كان هذا الكاتب في شبابه مقياسًا للذى كان بين صغار وكبار ، لكان هذا الشاب الشاكي على ضلال ليس بعده ضلال ، إذ كان « الصغير » منا يتلقى لكلمات الهوان تلطمه بالشمال وباليمين ، فإذا هو تصدى لها بمثلها قضى عليه بالموت الذى لا قيامة بعده في دنيا القلم ، وإذا هو أغضى صعبت عليه نفسه ؛ ولم يكن أمام هذا الكاتب في شبابه إلا الطريق الثالث بين الطرفين ، وهو الاعتصام بجدران بيته ، يقرأ ما يقرؤه هناك ، ويكتب ما يكتبه هناك ، بحيث لا يكون بينه وبين الناس إلا المطبعة ، تأخذ منه وتعطيهم ، ولقد امتد به طريق الاعتزال - ما أمكنه - منذ ذلك الحين وحتى هذه الساعة التى يكتب فيها ، وكما تكاثر حوله لوم اللائمين ، خرج من محرابه فإذا هو ملاق من الحجارة ما يذكره بشقاء الماضى ، فيعود إلى مخبئه .

ذلك هو ما أضحك الضاحك في صدرى عندما استمعت إلى شكوى الطالب الموهوب والذي هو على عتبة الدخول إلى دنيا القلم ، وأما الذى أبكى الباكي فهو هذه المأساة التى خيمت على حياتنا العلمية والثقافية لبضع عشرات من السنين ، ومازالت نخيم ، وهى أنه كلما صممت إرادة مرید منا على خدمة « المعرفة » مما هو جوهرى فى حركات « التنوير » تصدت لإرادته إرادات من هذا وذاك - لتحطيم إرادته . فكما ظهر عامل يعمل على خدمة العلم والثقافة ، ظهر له ألف عامل يعملون على كسر قلمه وإخفات صوته ، وإذ لم تخدعنى الذاكرة . فأظن أن الدكتور طه حسين قال فى مثل هذا الموقف المخزن هذه الجملة أو ما يقرب منها : « هنالك قوم لا يعملون ويؤذيهم أن يعمل العاملون » .

لقد أوشك هذا القلم أن يجر صاحبه إلى حكايات وحكايات عن مواقف عاناها شاباً ومازال يعانها شيخاً على عتبة الرحيل ، وكلها مواقف يستحدثها من لا يعملون ويؤذيهم أن يعمل العاملون ، لكن هذا الكاتب لن ينساق مع غواية قلمه ، لينصرف إلى ما هو أهم وأنفع ، وعند هذه النقطة طافت بخياله صورة رجل غريب نزل إلينا من كوكب المريخ ، لا يدري من أمور حياتنا شيئاً ، لكنه ذكى نافذ البصيرة ، وأخذ يراقب الناس فى مناشطهم كل يوم ، وإذا به يخرج آخر الأمر بحكم عما رآه ، وهو : ليس الذى ينقص هؤلاء الناس هو الإرادة ، فكثيرون منهم يحملون إرادات ماضية العزيمة ، لكن الذى ينقصهم هو أن تتجه تلك الإرادات نحو غاية موحدة ، فيكمل بعضها

بعضاً في بلوغها ، فإست أرى في حياتهم إلا إرادات ينصب بعضها
 على بعض تخطيطاً وتهشيماً ، فانتجت لهم المعركة موتاً أكثر مما أنتجت
 حياة ، فهمست لنفسي عندما رأيت هذه الصورة في خاطري ،
 وسمعت حكم الزائر المرنخي ، قائلاً : إنه إذا صدق هذا الحكم ،
 كان الذى ينقصنا حقاً هو «العقل» الذى يلجم الإرادة لتسديد خطاها
 - من جهة - ثم يعمل على تحقيق ما إرادته - من جهة أخرى .
 وماذا يكون الإنسان إذا لم يكن جوهره مركباً قوامه عقل
 وإرادة ، يخل العقل أو تضعف الإرادة ، فيذهب الإنسان ، وأنه لما
 يستوقف النظر عند هذا الكاتب ، أن من عنى بالبحث عما يميز
 «الإنسان» دون سائر الكائنات ، من كبار المفكرين ، كادوا يدورون
 حول أحد المحورين : فإما هو «العقل» عند فريق منهم ، وإما هو
 «الإرادة» عند فريق آخر : على أن القائلين «بالعقل» لا ينفون
 الإرادة ، بل يجعلونها في مرتبة التابع ، فالعقل يدرك أين يكون
 الصواب ، وعلى الإرادة التنفيذ ؛ والعكس صحيح كذلك ، أى أن
 القائلين «بالإرادة» لا ينكرون على العقل وجوده ، بل يجعلون له مرتبة
 التابع ، فالإرادة تريد ما تريده أولاً وعلى العقل أن يبحث لها عن
 وسائل الوصول إلى تحقيق ما قد إرادته ، وجدير بالذكر هنا أن هنالك
 إلى جانب هذين الفريقين فريقاً يقول بأولوية «الوجدان» ، لكن
 الأصح هو أن يدرج هذا الفريق الثالث ليكون فرعاً من فروع القائلين
 «بالإرادة» ، إذ لا فرق يذكر بين أن تقول : «إني أريد كذا» وأن

تقول عن الشيء الذى تريده : إني أحب كذا - أو أرغب فى كذا ،
أو أميل إلى كذا .

لكن ما يمكن اعتباره مذهباً ثالثاً حقاً ، هو ما نستطيع رؤيته فى
موقف الفكر الإسلامى فى ذلك ، إذ يبدو لهذا الكاتب أنه فكر يجعل
من العقل والإرادة صفتين متآزرتين فى مركب واحد ، بحيث إذا
سئلنا : ما جوهر الإنسان ، أجبتنا : هو إرادة عاقلة ، أو هو عقل
مريد ؛ فإذا لم أكن على صواب فى هذا القصور عن روح الفكر
الإسلامى ، كان الرأى الأرجح عندئذ ، من وجهة النظر
الإسلامى ، هو أولوية الإرادة على العقل ، فالإرادة بمثابة من يأمر
بإيجاد ما ليس له وجود راهن ومهمة العقل هى أن يلتمس السبل التى
تحقق لها ما أرادت .

وسواء أكانت هاتان الوظيفتان فى تكوين الإنسان - وهما أن يريد
وأن يعقل ما يريده - أقول إنه سواء أكانتا متعاقبتين فى الأداء ، أم
كانتا مدججتين معاً فى كل أداء ، فهما بغير شك فى صميم الصميم من
جوهر الإنسان وحقيقته ، وبهما يمكن أن يقاس الفرد - أو مجموعة
الأفراد التى تكون شعباً - فى مقدار نصيبه من إنسانية الإنسان ؛ وكان
يمكن أن نضيف إليهما خاصة الإيمان الدينى ، لكن هذا الإيمان
متضمن فيما نسميه «بالإرادة» إذا أخذنا المصطلح بمعناه الواسع ،
ويجب أن نفهمه بهذا المعنى ، إذ هو فى هذه الحالة يشمل الحالة
الوجدانية التى يكون الإيمان الدينى فرعاً منها ، ولا يكتفى أن تستقل
إحدى هاتين الوظيفتين دون الأخرى ، لأن الفكرة العقلية فى تجريد

الرياضى ، التى لا تعرف طريقها إلى فعل إرادى يخرجها من حالة التصور إلى حالة الوجود ، هى بمثابة المبصر الكسيع ، يرى الطريق ولكنه لا يقوى على السير فيه ليحقق غايته ؛ ومجرد «الإرادة» - من ناحية ثانية - التى تستطيع الفعل لكنها لا تدرى كيف تفعله ، هى بمثابة جسد قوى العضلات ، ولكنه أعمى ، إنه عندئذ يكون - كما يقول المثل - كالثور فى مستودع الخبز ، يدوس بحوافره على نفائس الخبز الثمين ، وكأنه يدوس على حجارة ؛ صاحب الأفكار المجردة التى لا تحمل فى طيها طريقة تنفيذها هو كحامل المصابيح الوهاجة وهو مكفوف البصر فى بيداء ، فيضيع ضوء المصابيح هباء لا يهدى أحداً إلى سبيل ، ومثله فى الضياع سائر فى تيه الفلاة والليل معتم ، فلا يدرى فى أى اتجاه يسير ؛ فى الحالة الأولى نرى عقلاً لا تسعفه إرادة ، وفى الحالة الثانية نجد إرادة لا يهديها عقل .

ومن هذا الشرح التمهيدى ننتقل مع القارئ إلى دنيا الثقافة والمثقفين فى العالم العربى منذ صحوته الأولى فى القرن الماضى حتى اليوم ، حاملين معنا مقياسنا الإنسانى الذى أسلفناه ، فقد ذكرنا أن الإنسان إنسان بقدر ما تحيا فيه وظيفتا «العقل» و «الإرادة» معاً ، متابعيتين فى الأداء أو مدججتين ؛ وإننا لنسأل أنفسنا جادين - ونحن فى انتقالنا من التمهيد إلى التطبيق - ماذا عساه أن يحققه لنا من يزعم لنفسه ، أو من نزعم له ، أنه من المنتجين المبدعين فى البنيان الثقافى الذى نعيش فيه حياتنا على مختلف وجوهها ؟ نعم ، إننا لنسأل أنفسنا جادين ، حتى لا تبهز أبصارنا ، أسماء لمعت فى سماءنا ، ورسخت فى

عقولنا وقلوبنا ، دون أن نقف وقفة جادة لا هازلة ولا هي بلهاء ،
لنسأل أنفسنا : بأى مقياس يجب أن تقاس عظمة العظماء فى هذا
المجال ؟ إننا نريد حقاً أن نفخر ونفاخر بهم جميعاً ، لكننا فى الوقت
نفسه نريد لهذا الفخر أو المفاخرة أن يقام على وعى ناضج بحقائق
الأمر ، لاسيما ونحن فى عصر كثرت فيه الأدوات الآلية الجبارة ، التى
أصبحت تصنع العظماء فى مختلف الميادين بصياحها وجذبها للأنظار ،
حتى ولو كان صنعائها هؤلاء أقزاماً فى ميزان الحق والعدل ، كما فى
مستطاع تلك الأجهزة الجبارة فى يومنا هذا أن تطمس العظماء بالحق
والعدل ، وذلك بأن تسدل دونهم أستار الصمت ، فلا تجعل لهم
سبيلاً إلى شاشاتها وأضوائها وألوانها وأصواتها ، ومن أجل هذه
الكوابيس الالكترونية فى عصرنا ، التى أصبحت تحجب العظمة فى
قزم ، وتميت العظمة فى عملاق ، نحن فى حاجة إلى أن نتقل إلى
عالمنا الثقافى الحقيقى ، لنحكم وفى أيدينا الميزان .

على أن هذا الكاتب يود بادئ ذى بدء ، أن يضع بين يدى
القارئ انطباعه العام عن الخطوط الأولية التى تقام عليها النهضة العربية
الحديثة من ناحيتها الثقافية ، فلو أن الأمور قد سارت بنا سيرها
الطبيعى الذى ألفناه فى تسلسل المراحل التاريخية ، لرأينا مرحلة ينتج
فيها أصحاب الفكر والأديب والفن أفكارهم وتصوراتهم عن الإنسان
وحياته ، ما هو واقع منها وما كان ينبغى له أن يقع ؛ ويتلقى جمهور
الثقافة على تفاوت درجاته تلك الأفكار والتصورات ، ويتشربونها
قطرة قطرة ، حتى لنراها على مر الزمن قد تقطرت نزولاً من الذروة إلى

الجمهور العريض ، ويساعدها على هذا الانتشار حركات النقد الفكرى والأدبى والفنى ؛ فهذا النقد من شأنه أن يلقى الضوء على ذلك الناتج الثقافى الذى أنتجه المبدعون فى مختلف الميادين ، فيعين ذلك على فهم الرسالة الثقافية المبثوثة فيه ، حتى إذا ما تحول عند عامة الناس إلى وعى بالأهداف الجديدة ، نشأت لديهم «إرادة» التغيير ؛ وها هنا تنتقل الريادة إلى قادة السياسة وأحزابها ؛ فكل يتفق على الأهداف ، لكنهم قد يختلفون فى الوسائل المحققة لها ؛ وهكذا تمضى عقود السنين بعد ذلك ، إلى أن تتغير ظروف الحياة مرة أخرى ، وتصبح الأهداف التى تحققت كلها أو بعضها ، غير كافية للتجاوب مع الظروف الجديدة التى طرأت على مسرح التاريخ ، فيفكر المفكرون فكراً جديداً ، والفنانون أدباً وفناً يتناسب مع المرحلة الجديدة ، وتدور الدورة مرة أخرى ويدع الأدباء على أن مبدعى الثقافة الجديدة فكراً وأدباً وفناً ، على اختلاف ميادينهم التى يبدعون فيها ، واختلاف وسائلهم ووسائلهم ، فهذا وسيطه أنغام ، وذلك وسيطه كلمات ، وثالث وسيطه خطوط وألوان إذا ما وجدوا الناقد القادر ، وجدناهم يتحدثون فى دعوة واحدة ، هى التى تصبح أمام الجيل الناشئ هدفاً جديداً لحياة جديدة ؛ وذلك معناه - إذا تحقق لشعب معين أو أمة معينة - أن يجتمع ذلك الشعب أو هذه الأمة على «إرادة» واحدة ، هى التى يقال عنها عندئذ أنها إرادة الشعب أو إرادة الأمة ، التى يتولاها رجال السياسة موضوعاً لهم ، يتفقون على تفصيلاته أو يختلفون شيئاً وأحزاباً ؛ ولولا توحد الأهداف فى المرحلة المعينة من مراحل

الزمن ، وما يتبع ذلك التوحد من اجتماع على «إرادة» واحدة ، قد نشذ عنها قلة من الأفراد ، إلا أنها تسود الكثرة الغالبة ، أقول إنه لولا هذا المحور المذهبي والارادى ، لما نشأت للتاريخ «عصوره» ، إذ ماذا يعنى «العصر» التاريخى المعين ، إلا أن تكون أكثرية الناس الغالبة قد «تجانست» على نحو ما ، فأصبح تجانسها هذا دليلاً على تميز عصرهم بمناشط وأهداف ، لم تكن هى المناشط والأهداف التى سادت ما سبقها ولن تكون هى السائدة فيما سوف يأتى لاحقاً لها . والانطباع العام عند هذا الكاتب عن تاريخنا الثقافى الحديث هو

أن صناع الثقافة العربية ، فكراً وأدباً ، وفناً ، لم يتحدثوا إلا لحظات قليلة ، على محور موحد يستقطب مبدعاتهم ، كل فى ميدانه ، وكل بوسيطه ووسائله ، فلزم عن ذلك لزوماً منطقياً وواقعياً فى آن واحد ، إن القطرات الثقافية التى تسلت إلى جمهورنا العريض ، لم تكن شاملة ومتجانسة ، بل تلقى كل جانب من جوانبه شيئاً غير الذى تلقاه الجانب الآخر ، وماذا تظنه ناتجاً ينتج . بحكم هذه المقدمات ، إلا أن يتشرب الجمهور وجهات للنظر متضاربة ، وأن يتولد عن ذلك عدة «إرادات» متقاطعة متنافرة ، وذلك ما قد شهدت به مواقف حياتنا الفعلية كما نحياها ، اللهم إلا لحظات - كما أسلفت - تستقطب الإرادة الشعبية كلها عند محور واحد ، وتلك اللحظات هى لحظات الثورات ، وهى فى مصر ثلاث : ثورة ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، وهى ثورات يكمل بعضها بعضاً : الأولى ثورة عراقى التى أرادت لمصر أن تكون للمصريين ، والثانية ثورة

سعد زغلول التي أرادت للمحتل البريطانى أن يرحل ليظفر المصرى بحقه السياسى ، والثالثة ثورة الضباط الأحرار ، بزعامة عبد الناصر ، التي أرادت للمصرى أن تمتد حقوقه بأن تجاوز حدود الحقوق السياسية لتشمل حقوقاً اجتماعية كثيرة حرمت منها الكثرة الغالبة من أبناء الشعب ، وكانت لهذه الثورات اشعاعاتها التي تأثرت بها الأمة العربية فى جميع أقطارها .

وواضح أن اللحظة الثورية محال أن تنفجر من فراغ فكرى ، بل لابد لها من مخاض فكرى يسبقها بارهاصات ، حتى إذا ما انتشرت موجاته فى دوائر تتسع مع الأيام لتشمل آخر جمهور الشعب ، انقلحت شرارة الثورة مؤيدة بشعبها ، إذن - تكون - تلك اللحظة مزيجاً من فكرة وإرادة تطبيقها ، ولتذكر ما أسلفناه من أن الفكرة النظرية وحدها بغير إرادة تجربها مجرى التاريخ فى أحداث الحياة العملية ، إنما هى فكرة كسيحة أعوزتها الأعضاء التي تحركها ، والإرادة التي لا تسير فى فعلها مستنيرة بفكرة وراءها ومعها ، هى إرادة عمياء قد تهدم بفعلها ولا تبنى ، ومن ذا الذى يعد الفكرة النظرية وينضجها انتظاراً لأصحاب الإرادة يتناولونها بالتنفيذ ؟ إنهم هم مبدعو الثقافة وصناعها ، فكراً وأدباً وفناً ؛ شريطة أن يكون هذا النشاط العقلى والفنى منظوفاً كله على هدف وطنى واحد .

فإذا راجعنا لحظاتنا الثورية التي اجتمعت عندها إرادة الشعب وجدناها ، لا تلبث على هذا التوحد إلا قليلاً ، ثم يدب الخلاف ، وإذا بالإرادة الواحدة قد تشققت إرادات ، وإذا بالفكرة الواحدة قد

تقسمت وجهات مختلفة للنظر عند تفسيرها ؛ كانت فكرة « الحرية السياسية » وراء الثورة سنة ١٩١٩ ، وكانت فكرة « الحرية الاجتماعية » وراء الثورة سنة ١٩٥٢ ، ولم تكن « فكرة » الحرية لتقوم وحدها بتحقيق هدفها إلا إذا تحولت وأصبحت « إرادة الحرية » وهكذا كان في كل من الثورتين ، لكننا لم نلبث أن رأينا صوراً مختلفة لتفسير « الحرية » وتطبيقها ، وكان السجن ، والقتل ، والتعذيب ، ومصادرة الأموال ، وغير ذلك مما يجرى مجراه ، بين صور الفعل الإرادى الذى فرض فيه أنه يخرج فكرة الحرية من مجالها النظرى عند مبدعى الثقافة إلى مجال - يصنع التاريخ بافعاله وأحداثه ؛ وليس لهذه المفارقة من تعليل يفسرها ، سوى أن الإرادة الواحدة الموحدة بين أفراد الشعب جميعاً ، قد تكسرت إرادات متنازعة مبعثرة ، قد لا يكون وراء كل إرادة منها إلا فرد واحد برؤية شخصية جر وراءه أتباعاً يبتغون المنافع .

وما يقال عن الشعب الواحد ، من حيث تفكك الإرادة الواحدة المنصبة على تنفيذ فكرة واحدة مأخوذة بمعنى واحد ، لتصبح إرادات كثيرة متعارضة متقاطعة ، تحتفظ كلها من الفكرة الواحدة باسمها ، ثم تسمى بهذا الاسم ماشاءت لها أهواؤها ؛ أقول إن ما يصدق على الشعب الواحد في هذا الصدد يحدث شبيهه في الوطن العربى الكبير ، فجماعات المبدعين للثقافة ، فكراً وأدباً وفناً ، متجاوبون بعضهم مع بعض على طول الوطن العربى وعرضه ، فللناخ الثقافى بينهم متجانس ، لا فرق بين مشرق عربى ومغرب عربى ، لكن أصحاب

«الإرادة» إذ تناولوا الأدوات الفكرية ، والوجدانية نقلاً عن مبدعيها وصناعها ، ربما اجتمعوا جميعاً على رؤية واحدة لحظة أو لحظات ، لكنهم ما لبثوا أن شققوا الإرادة الواحدة إرادات تتعارض ، كل منها يفسر الأهداف العربية التي صاغها المثقفون فيما أبدعوه ، كيفما تشاء وسهوى ، مع احتفاظها «بالأسماء» وكأنها لم تغير من الحقائق الموضوعية شيئاً مادامت لم تغير من أسمائها ، فمن ذا الذي لا يرفع لواء «الحرية» و«الديمقراطية» و«الإيمان» و«العلم» إلخ ؟ أما كيف تفهم هذه الأسماء وماذا ينطوي عليه كل اسم منها ، فلا وزن له ولا خطر .

ولعل القارئ قد لاحظ أن الكاتب أشار إلى مبدعى الثقافة في أقطار الوطن العربي بقوله إنهم «يتجاوبون» بعضهم مع بعض ، ولم يقل إنهم «متحدون» ، وذلك لأن حياتنا الثقافية ، على أيدي من يضيغونها ويصنعونها ، متفرقة بين وجهات نظر كثيرة ، فلا يجمعها هدف واحد ولا وسيلة واحدة ، وربما كان هذا التجزؤ في حياتنا الثقافية ، هو الذى مهد السبيل أمام أصحاب الإرادة التنفيذية أن يتفرقوا بدورهم أهدافاً ووسائل ، وكل منهم يزعم لنفسه الحق كله والصواب كله وليت من تناولوا منا تيارات الراى بالتعليق والنقد ، أو بالتأييد والرفض ، قد اتفقوا فيما بينهم على تلك التيارات ما هى ؟ ولو اتفقوا عند هذه المرحلة الأولى - على الأقل - لأمكن لأضواء التحليل والنقد والشرح لتلك التيارات ، أن تنصب كلها فى اتجاه واحد ، فيسهل على المتتبع من جمهور القراء أو المستمعين أو المشاهدين أن يؤيدوا وأن يرفضوا عن فهم وبصيرة .

لكننا نختلف حتى عند هذه الخطوة الأولى : فمن هم حملة المشاعل الذين يقدمون الضوء لأصحاب الإرادة كي يسيروا على مداها ؟ في رأى هذا الكاتب - وهو رأى عرضه في مناسبات كثيرة - إن حملة المشاعل هؤلاء ثلاث فئات متناقضة في أهدافها ، وأساس التقسيم هنا هو موقف كل منها من ثقافة الغرب قديمه وحديثه ومعاصره ؛ فهناك فئة «وهي أكثر الفئات الثلاث عدداً» ترفض من حيث المبدأ أن تبني ثقافتها - وبالتالي أهدافها - على شيء منسوب للغرب لأن التراث العربى الإسلامى عند تلك الفئة فيه ما يكفى لإقامة الحياة العملية وتقويمها ، أيّاً ما كانت تلك الحياة زماناً ومكاناً ، وفئة ثانية مضادة «وهي أقل الفئات الثلاث عدداً» تريد الالتحام مع الغرب في ثقافته التحاماً تاماً ، حتى لكأننا جزء منه أو هو جزء منا ، وواضح أن هذه قليلة الأثر ، في توجيهنا ، لأن خطأها أوضح من أن يكون موضعاً لجدل ؛ وإن هذا الكاتب ليأسف على فترة لم تكن قصيرة من حياته الواعية ، قضاهها نصيراً لتلك الفئة ، على ظن خاطئ منه بأن ما نجح في الغرب كل هذا النجاح الذى أضفى عليه ما أضفى من قوة وعلم وثراء ، ينجح معنا إذا نحن اصطنعناه ؟ لكنه خطأ في الرأى قد شاء الله لهذا الكاتب أن يراه فيهدى ، وأما الفئة الثالثة ، فقوامها أولئك الذين يرون الهداية في صيغة ثقافية جديدة تقام لنا ، لتكون هي «الثقافة العربية» ثوابتها هي ثوابت «العروبة» من ناحية مقوماتها التى خلعت على العربى هويته ، ومتغيراتها هي ماتغيرت به حضارة عصرنا عن حضارات سلفت .

لكن البلبلة الفكرية مكتوبة علينا ، على أيدي القادرين وغير القادرين ، إذ هنالك منا من يشيعون في الناس تقسيمات أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فلا هي قائمة على منطق التقسيم الذي يشترط فيه وحدانية الأساس الذي أقيمت عليه القسمة حتى لا تتداخل الأقسام فتغمض الأفكار ، ولا هي قائمة على فهم صحيح للمضمون الثقافي الذي يريدون تقسيمه وتصنيفه ؛ فأى عجب أن نرى الفكرة العربية قد تشعبت إلى حد الغموض مع حسن النية ربما ، وأن الإرادة العربية قد تهشمت إرادات مبعثرة بين أفراد ، تهشماً كان سوء النية - على أرجح الظن - مجدولاً فيه مع حسنها ، فاختلط في حياتنا حابل بنابل إلى أن يشاء رب العالمين لنا الهدى .

من إشعاعات التوحيد

١

أمة التوحيد لم تعرف في فترات طويلة من تاريخها كيف توحد كثرة شعوبها في هدف بعيد واحد ؛ بل إن الوطن العربي من تلك الأمة لم يعرف سبيله إلى مثل هذا الالتقاء في ظل لواء واحد من هدف بعيد والعجب هنا يكون أعجب لأنه وطن تولفه لغة واحدة ، ومن شأن اللغة الواحدة - حين تكون هي اللغة الأم - أن يتقارب أصحابها فكراً ووجداناً ، ثم يزداد عجبنا عجباً ، إذا علمنا أن الوطن العربي في هذه المرحلة الراهنة من تاريخه متألف فعلاً في فكره ووجدانه ، فصاحب الفكرة منا قد ينشر في بلده المعين وإذا بمواطنيه على امتداد الوطن العربي الكبير يتجاوبون غير عابئين بما قد أقيم من حواجز بين اقليم وإقليم والشاعر منا يحيد الإبداع في مشرق فتتردد الأصدا في مشرق ومغرب على السواء أو هو يحيد الإبداع في مغرب فتتردد أصداؤه في مغرب ومشرق معاً ، والموسيقار يعزف ، والمغنى يصدح بالغناء ، فتصبح هذه الألحان والأنغام موضع الإعجاب عند العربي أينما كان موقعه وهكذا قل في كل مبدعات الفكر والفن والأدب ، تتج هنا أو هناك من أطراف الوطن العربي الكبير فلا تلبث أن تكون ملكاً لأبناء الأمة

العربية كلها ؛ وليس لذلك من معنى إلا أن يكون معناه هو أن ثمة وحدة عربية وثيقة العرى في جانب واسع من الحياة الثقافية ومع ذلك فلا يسع الراى من بعيد أو من قريب سوى أن يرى بين أجزاء الوطن العربى ، بل وبين أجزاء الإقليم الواحد من أقاليمه الفرقة والخصومة والتنازع مما قد يصل بالناس هنا أو هناك حد القتال الحربى فى أعنف صوره وأقساها ؛ فمن أين جاء الخلاف والفكر بيننا موحد وهو فى مستوياته العليا ؟ من أين جاء الخلاف ووجداننا يلتقى ويتآخى فى رحاب الأدب والفن ؟ إنه ليسهل هنا على مجيب أن يجيب بقوله : إنها « السياسة » وحدها التى فرقت وأشعلت لهيب النار ؛ لكن هذا الجواب السهل لا يقنعنا ولا يصرفنا عن معاودة السؤال عن علة الخلاف من أين جاءت . وكل ما فى الأمر هو أن نعيد سؤالنا بذاته عن تلك « السياسة » فنقول من أين جاءها الخلاف بهذه الحدة كلها ، وبهذا العمق كله ، حتى لقد استطاعت أن تشعل بين الأخوة والأشقاء نيران الحروب ؟ وأيا ما كان الجواب فنحن على حق حين نقول إن الوطن العربى من أمة التوحيد ، لم يعرف كيف يوحد كثرة شعوبه فى هدف واحد قريب أو بعيد .

إننا لا نريد بهذا أن نتجاهل ما لا بد من حدوثه بحكم طبائع الأشياء ذاتها ، وابحث ما شئت فى أى موجود فى هذا الكون الفسيح ، كبر ذلك الموجود أو صغر تجده يجمع فى كيانه الموحد أجزاء يختلف بعضها عن بعض فى طبيعتها وفى وظيفتها وانظر إلى الذرة التى هى نهاية المطاف فى تحليل العلم لمادة الكون تجدها مؤلفة (بمعنى

التجمع والتآلف معاً) من جزيئات متباينة فمنها كهرب موجب ومنها كهرب سالب ، ومنها كهرب محايد ومنها ما تبيينوا فعله ولم يتبينوا طبيعته ، لكن هذا التباين لا يمنع أن تكون الذرة الواحدة كائناً موحدًا ثم انتقل من الطبيعة إلى الإنسان لا من حيث هو جزء من الكون فيصدق عليه ، ما يصدق على سائر الكائنات ، بل انظر إليه من حيث هو مبدع لفكر وأدب وفن على نحو لا يشاركه فيه كائن آخر تجد في كل أثر من آثار إبداعه ، شرطاً أساسياً هو أن يجيء الأثر مؤلفاً من «كثرة» شريطة أن تنخرط تلك الكثرة في «وحدة» تؤلف بينها لتجعل منها كياناً واحداً فالمعادلة الرياضية تحتوى على عدة رموز مختلفة لكنها اتسقت جميعاً في جسم رياضي واحد ، والنظرية أو القانون من نظريات العلوم الطبيعية وقوانينها هي كذلك محتوية على عدة مفردات مختلفة لكنها كذلك متسقة في جسم نظري واحد ثم هي لا تكتفي بهذا الاتساق بين مفرداتها بل تجاوزه لتحقيق اتساقاً آخر أوسع مجالاً ، وهو الاتساق بين الجانب النظري من ناحية وتطبيقه على وقائع الدنيا من جانب آخر فعندئذ تصبح كل واقعة ممثلة لحدث مادي وما قد بث فيه من قانون فالتفاحة التي رآها نيوتن وهي تسقط من فرعها إلى الأرض هي تفاحة من جهة وهي من جهة أخرى مجسدة في سقوطها لقانون نظري هو قانون الجاذبية ، هذا في مجال «الفكر» الإنساني فإذا تحول بنظرك إلى ما يبدعه من أدب وفن رأيت مبدأ تآلف الكثرة في وحدة تضمها محققاً على نحو أروع فقصيدة الشعر ليست كومة من مفردات اللغة بل هي نسق ينسق تلك المفردات على صورة فريدة ، يتلقاها

المتلقى كما يتلقى حقائق الحياة في شتى صورها بمعنى أنه يرى بين يديه كثرة من أجزاء قد توحدت كلها في كيان موحد يستند كل جزء فيه إلى سائر الأجزاء أو هكذا ينبغي للأمر أن يكون .

فلسنا نريد - إذن - أن نتجاهل وجوب أن تتكاثر الأجزاء في كل جانب من جوانب الحياة في الوطن العربي ، لكننا كنا نتوقع لتلك الأجزاء أن تتألف في وحدات متسقة فالفرد الواحد إنما هو مع فرديته تلك سيرة تاريخية اشتملت على أحداث تعاقبت له في حياته في كثرة لا تقع تحت حصر والشعب العربي الواحد مؤلف من ملايين الأفراد يتفاعلون بعضهم مع بعض في شتى صور الحياة في تباين شديد بين مختلف المواقف ، وهكذا الحال في تفاعل الشعوب العربية بعضها مع بعض لكن هذا الخضم الهائل من مفردات الأشخاص والأحداث لا يمنعها من أن تتوحد في حياة عربية متصلة الأجزاء وأن الأجزاء في هذه الحالة ليتحقق لها النسق الذي يوحدتها لو توحدت بحق الغاية التي يتغياها الأفراد كل في مجاله فمن وحدة الغاية يتوحد المناخ الفكري العام وعندئذ تختلف الاهتمامات الفردية ما أريد لها أن تختلف وتكثر الأنماط ماشاء أصحابها أن تكثر لكنها جميعاً تقع من الحياة العربية الموحدة موقع الوحدات المختلفة في بناء فني واحد .

كل هذا قد شهدته التاريخ في حياة الأمم في الفترات التي استهدفت فيها الأمة المعينة بكل أفرادها هدفاً واحداً ، فأحاط بها مناخ فكري واحد سواء أكان هذا المناخ مما تنفق معه أم لم يكن فالعصور الوسطى في أوروبا والقرون الثلاثة التي امتدت عندنا نحن بين السادس عشر

والتاسع عشر استهدفت أهدافاً نرفضها نحن اليوم ؛ وأما أوروبا أبان
 عصر العقل في القرن السابع عشر ، وفي عصر التنوير في القرن الثامن
 عشر وكذلك أهداف الفكر العربي في القرن العاشر الميلادي بصفة
 خاصة فقد وحدتها كلها أهداف نرضاها ونتمناها ؛ على أن الذي
 يشغلنا في هذا السياق من الحديث هو أن نبين في وضوح متى وكيف
 يتوحد الاتجاه الثقافي لجماعة من الناس في مرحلة معينة من تاريخها ؛
 وإذا كان مثل هذا التوحد ممكناً بالنسبة إلى أي شعب من الشعوب بل
 هو أمر قد وقع بالفعل كما أشرنا فأجدر به أن يتحقق لأمة ركن الأساس
 في دينها هو «التوحيد» فالله عز وجل هو في عقيدتها واحد لا شريك
 له ، وهو أحد صمد ؛ وذلك واضح في أول ركن من أركان الإسلام
 الذي هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً نبيه ورسوله ؛ ولا يعقل
 أن يكون المقصود بشهادة المسلم على وحدانية الله هو أن تقتصر على
 شفاه تنطق بأحرف وكلمات بل لا بد للمعنى الذي تحمله الألفاظ أن
 يفهم ويهضم حتى يتمكن منه العقل ويرسخ في القلب كأنه يساير
 نبضاته ولسنا هنا نكتب ما لا نعينه كما يكتب تلاميذنا «الإنشاء» إذ
 يرصونها كلمات موجهة إلى أذن القارئ ، وليس على هذا القارئ بعد
 سماعه أن يبحث عن معنى لما يقرؤه كلا بل إننا نقول ما نقوله لعنينا
 وانظر في حياتك أنت أيها القارئ لترى الفرق واضحاً بين حالتين :
 حالة أولى تجد فيها نفسك وقد آمنت بفكرة فلم يعد في وسعك إلا أن
 تسلك على مقتضاها كأن تكون والدًا يؤمن بأن واجب الوالد نحو ولده
 هو أن يرعاه ما وسعته الرعاية فيرى نفسه مدفوعاً بدفعة تلقائية نحو أن

يسلك بما تقتضيه فكرته التى آمن بها ، وأما الحالة الثانية فهى تلك التى نراها اليوم واسعة الانتشار فى حياتنا وأعنى أن يتظاهر الإنسان أمام الناس لفكرة هو لا يؤمن بها حقاً ولكنه يعلم أنها تعجب الناس ، فإذا ما خلا لنفسه فى حياته العملية ، نهج فى سلوكه نهجاً آخر ، كأن يرفع أمام الناس لواء « الاشتراكية » فى وقت يعلم أن ذلك ما يرضى جمهور الناس ، حتى إذا ما انفض السامر يبحث لنفسه عن كل السبل التى يكسب بها المال والعقار والذهب وكل ذى قيمة يرفع بها رأسه ، وأقصد رأسه هو ورأسماله معاً ؛ لماذا ؟ لأنه لم يكن يؤمن حقاً بما ادعاه .

ولاشك فى أن إيمان المؤمن بوحداية الله سبحانه وتعالى هو من أنماط الحالة الأولى ؛ فالمؤمن ينطق بالشهادة ويعنيها ولكنه كثيراً ما يقف - برغم إيمانه - عند حدود النطق باللفظ دون أن يعنى العناية الكافية بتدبر مضمونه ولو تدبره ملياً لسرى فى كيانه سريان شعور الوالد بوجوب رعايته لولده فعمل على أن يتوحد هو بدوره ما مكنته طبيعة البشر أن يتوحد ؛ وذلك لأن فى طبيعة البشر مكونات كثيرة متعارضة وهكذا أراد له خالقه أن يكون لأن فى ذلك ما يختبر إرادته ومدى تطلعه إلى التسامى بنفسه نحو ما يرضى الله جل وعلا ؟ فقد ألهمت النفس البشرية أسباب فجورها كما ألهمت فى الوقت نفسه أسباب تقواها ، وقد خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم ولكنه كذلك وضع فيه ما يمكن أن يرتد به أسفل سافلين ، ولو سار الإنسان بنفسه فى طريق التهذيب الصحيح لعرف كيف ينسق كل مكوناته تلك تنسيقاً يوحدتها تحت هدف واحد فتصبح له مصدر قوة ورفعة شأن ؛ فليس بين

مكونات الإنسان جانب خلق عبثاً ، ويمكن تلخيص تلك المكونات تحت ثلاثة رؤوس : فهناك الجوانب التي أريد بها أن تصون الحياة ذاتها وأن تبقى عليها كدوافع الغذاء ودوافع النسل ؛ ومنها مجموعة ثانية هي في وظيفتها أشبه بقوة الكهرباء في إدارة العجلات وأغنى بها مجموعة الانفعالات وما يبنى عليها من عواطف فالانفعالات كالخوف والغضب والعواطف كالحب والكراهية ، ثم هنالك مجموعة ثالثة هي وسائل الإدراك التي زود بها الإنسان ليعلم بها ما يحيط به من موجودات ليتصرف فيها على نحو ينفعه ويضمن له حسن البقاء تلك في اختصار هي مكونات الإنسان ومقوماته ، وهي بطبيعتها متنافرة إلا إذا دربت على تناسق فيما بينها ، فدوافع الطعام والجنس قد تذهب بصاحبها إلى حدود يعرف عنها العقل أنها حدود الهلاك ؛ وانفعال الخوف أو الغضب وعاطفة الحب أو الكراهية قد تطغى إلى حد يشل قدرات الإنسان لكنها جميعاً مكونات مطلوبة وقد أخطأ كثيرون في عهود من التاريخ فظنوا أن هناك من تلك العناصر ما يجب على الإنسان أن يقتلعه من كيانه اقتلاعاً فيزهده في هذا ويرتفع عن ذاك لكن الوقفة الإنسانية الأصح هي أن تستغل فطرة الإنسان بكل عناصرها بحيث نبحث لها عن النقطة التي يبلغ التناسق عندها حده الأعلى وتلك هي النقطة التي « يتوجد » عندها الإنسان كياناً كل ما فيه يعمل على قوة البناء ، فلا تترك العناصر المختلفة ليفتك بعضها ببعض وكلنا يعلم كيف يمكن للحياة الإنسانية أن يتشقق بنائها لما يدب بين جذرائها من صراع .

ولعل القارئ قد عرف كثيراً عن طائفة من أوجه القصور في عصرنا هذا مما أحدث في النفس عند الفرد العادى تمزقاً وأساساً وحَقْلاً وتمرداً وغنفاً وفساد طوية وضمير وكلها علل نتجت عن عدم التوازن بين مكونات الإنسان حتى طغى بعضها على بعض ففسد الجميع ، فهناك حياة صناعية ازدحمت فيها الآلات وما تقتضيه من المشتغل بها من دقة شديدة ويقظة لا تسهو ؛ دون أن يدبر لذلك العامل الساهر عليها ما يشبع جوانبه الأخرى بنسبة يتعادل بها الميزان وهناك الرغبة في القوة والثروة والتملك إلى حد الجشع مما قد يتيح النجاح لواحد والفشل لكثيرين يصبح واجبهم هو خدمة ذلك الواحد الناجح ليزداد نجاحاً فتتراكم الملايين في جيب وتخلو من الملايم ألوف الجيوب وهكذا وهكذا مما يعرف كل منا شيئاً منه فتنتج العزق وخيبة الرجاء ولو عنيت التربية بأن ينشأ الفرد - كل فرد - على «وحدة» تتناغم فيها عناصر فطرته لبرئ عصرنا مما يشوبه لينعم الناس جميعاً بحسنات عصرهم . والمؤمن بعقيدة التوحيد هو أقرب الناس إلى أن يتوحد شخصه ليتسق فعله مع عقيدته ؛ وما أكثر ما أشارت آيات الكتاب الكريم إلى وجوب الصلة بين إيمان المؤمن وعمله الصالح ليتوافق فيه باطن الإيمان مع ظاهر العمل فإذا كان محور ذلك الإيمان هو التوحيد وجب أن يظهر انعكاس ذلك المحور التوحيدي في شخص المؤمن وهو يعمل ، وبهذا يحىء كل فعل وكأنه تعبير عن المصالحة بين عناصر الفطرة البشرية التى كان يمكن لها أن تتنافر وتتصارع لو أنها تركت مطلقة لا يضبطها قيد ولا ينظمها مبدأ وقانون وانظر ملياً فيما تتضمنه «الشهادة» التى هى أول

أركان الإسلام فهي تتضمن أربع زوايا : فهناك شاهد يشهد وهناك مشهود أمامه بتلك الشهادة وهناك مشهود له ثم هناك الصفة التي يشهد على وجودها وتأمل هذه الجوانب الأربعة جانباً بعد جانب تجدها جميعاً مؤدية بقائلها ومعلنها إلى نتيجة محتومة شريطة أن يكون قد نطق بالشهادة عن وعي كامل بما قد انطوت عليه فهو - أولاً - يستخدم في كلمة « أشهد » ضمير المتكلم المفرد أى أنه يلتزم ما يشهد به التزاماً هو مسئول عنه ، من حيث هو فرد قائم بذاته حتى لو أنكره سائر أفراد البشر جميعاً فركن الأساس في بنية المسلم أن يكون على وعي بفرديته الفريدة المسئولة أمام خالقه عز وجل ، ومثل هذه الوقفة لا تكتمل لها مقوماتها إلا إذا كان ذلك الفرد الفريد غير منقسم على نفسه ؛ على أن معنى الشهادة يتضمن فيما يتضمنه أن هنالك من أراد الشاهد أن يعلن شهادته أمامه وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أحد طرفين أو إليهما معاً أولهما اعتراف بوجود أفراد المجتمع الآخرين وهو المجتمع الذى يسمى إليه الشاهد ، وثانيهما وجود « ضمير » كامن في فطرته والشاهد يتعهد أمام ضميره بالألا يتمرد على أوامره ونواهيه ؛ وأمام ذلك الضمير قد التزم الشاهد بما التزم ولماذا التزم ؟ إنه التزم بالإيمان بوحداية الله سبحانه وتعالى فهل أراد بذلك الإيمان ألا يجاوز اللفظ تنطق به شفتاه ؟ لو كان ذلك كذلك لتساوى مع البغاء الذى يسمعه فيحاكى لفظه المنطوق ؛ كلا ، بل لابد لجوهر المعنى أن يسرى في كيانه فيتشكل ذلك الكيان - فيما يشعر وفيما يسلك - بحالة التوحد التى شهد بها الله تعالى لكنه بشر ، إذا هو أراد لنفسه اقتراباً من الكمال المنشود ففيه من جوانب النقص ما

يوقفه عما قد أراد عند حد محدود وهكذا ترى أن من آمن بالتوحيد فإنما آمن بعقيدة تميل به نحو أن تتوحد ذاته بقدر ما يستطيعه بشر لنفسه برغم ما قد أقيمت عليه فطرة البشر من عناصر قابلة بطبعها لأن ينازع بعضها بعضا .

وما يصدق في هذا الصدد على الفرد الواحد وهو في فردانيته يمتد مداه ليصدق على المجتمع الذى يكون ذلك الفرد عضواً فيه وذلك إذا جاء جميع الأفراد على الصورة التربوية نفسها وعندئذ تنضم شخصيات موحدة متكاملة بعضها إلى بعض فينتج عن اجتماعها أمة موزونة النعم مبرأة من النشاز ، وأقوى ما يساعد الأمة الواحدة على إيجاد هذه الوحدة المتسقة المتناغمة بين أبنائها على اختلاف أعمالهم واهتماماتهم ومعارفهم هو أن يكون لها هدف بعيد واحد تتجه نحوه ولقد أوضح هذا الكاتب لقارئة في مناسبة أخرى كيف يمكن لميادين العلم المختلفة أن تتشابه في هدفها برغم اختلافها فيما تؤديه ، فيادين الحياة الثقافية عند أمة معينة وفي فترة معينة من تاريخها قد تنحو كلها نحو محور واحد تدور كلها حوله وهناك في تاريخ الناس عصور توحدت فيها ثقافتها بحيث رأيت الموسيقى والشعر وسائر ألوان الأدب والفن التشكيلي كالصوير والنحت والفن التعبيري في المسرح وما يشبهه من سينما وغيرها والعمارة والنشاط العلمى وغيرها من نظم التعليم والسياسة ونظم الحكم كل هذه الفروع يحللها المحللون فيجدونها جميعاً تنطوى على فكرة أساسية واحدة كالحرية أو التعقل أو العاطفة الوطنية وغير ذلك ، وهاهنا يبين النقاد القادرون على دقة التحليل كيف تقول الموسيقى ماتقوله

العمارة أو التصوير أو الشعر فلو أن أمة التوحيد قد رسخت فيها هذه العقيدة حتى بلغت منها سويداء القلب ونخاع العظام لرأيت كل أوجه نشاطها دون أن تدري قد نطقت بلغة واحدة واستهدفت هدفاً واحداً فتوحدت على النحو الذي أسلفناه وشرحناه .

ولا يقف أمر التوحد في حياة الناس عند حد الأفراد تتوحد شخصياتهم . وعند الحد الأوسع منه ، الذي هو أن تتوحد الأمة التي تضم هؤلاء الأفراد بل إن ذلك الميل نفسه لينعكس كذلك في ضروب النشاط التي ينشط بها الناس في مختلف ميادينهم ، وبهمنا منها هنا مجال البحث العلمي فنحن نعيش اليوم في عصر بلغ فيه التخصص العلمي حداً بعيداً حتى لقد اضطر العلماء المتخصصون أن يقسموا العلم الواحد إلى عدة فروع وأن يفتتوا كل فرع منها إلى فروع ثانوية ومن هنا أصبح العالم المتخصص الواحد إذ هو يعمل في مجاله الخاص يكاد لا يدري شيئاً مما شط به زملاؤه في سائر فروع علمه ؛ وفي هذه الدقة ضمان لدقة النتائج العلمية لكن فيها كذلك تمزيقاً للعلم الواحد حتى يفقد هويته أو يكاد ولم يكن علماء الماضي يتعرضون لهذا التمزق لأن كل عالم منهم يتناول موضوع علمه من الألف إلى الياء ، فيكون باحثاً في «الكيمياء» وفي «النبات» وهكذا فيلزم عن ذلك بقاء الموضوع الواحد موحداً إلا أن هذا نفسه يقتضي أن يقف العلم عند أعماق قرية الغور من حقيقة موضوعهم .

والعلم لا يقتصر على موضوع واحد - بل يقسم نفسه موضوعات موضوعات ، بحسب ما يتصوره رجال العلم عن ميادين البحث

الممكنة أن حولهم كوناً متنوع الظواهر فسيح الأبعاد وهم يريدون البحث عن القوانين التي تنتظم بها كل ظاهرة على حدة ؛ فيقسمون تلك الظواهر فيما بينهم أقساماً كبرى ثم يتناول العلماء داخل كل قسم كبير موضوعهم بالتقسيم فيما بينهم وهكذا ولكي أضع بين يدي القارئ صورة تقريبية لعملية التقسيم هذه كيف انتهى بها الطريق إلى مجموعة محددة المعالم من علوم مختلفة أقول إنهم بادئ ذي بدء قد فرقوا بين علوم «صورية» وعلوم أخرى مادية الموضوعات فأما العلوم الصورية فهي مجالان يتصلان يصعب إيجاد الفاصل الحاسم بينهما وهما «علم المنطق» و«علوم الرياضة» وهما قسمان «صوريان» بمعنى أنها يبحثان في «علاقات» دون أن يعلم شيئاً عن «الأشياء» التي ترتبط بتلك العلاقات في دنيا الواقع الفعلي ففي علم المنطق نقول - مثلاً - إنه إذا كانت (أ) هي (ب) وكانت (ب) هي (ج) إذن تكون (أ) هي (ج) دون أن يسأل عالم المنطق نفسه ما هي الأشياء المعنية التي ترمز إليها بهذه الرموز وذلك لأن «الصورة» المذكورة تصدق على جميع الحالات بغير استثناء وفي الرياضة نقول : إنه إذا كانت $5 = 3 + 2$ وكانت $5 = 4 + 1$ إذن تكون $3 + 2 = 4 + 1$ ، فهذان علمان صوريان يكونان أسرة من العلوم متميزة مما عداها تأتي بعدها أسرة أخرى من نوع آخر هي أسرة العلوم التي يختص كل منها بظاهرة معينة من ظواهر الطبيعة لاستخراج قوانينها فعدة فروع منها تكون علم الطبيعة وعدة فروع أخرى تكون علم الكيمياء وعدة فروع ثلاثة تكون علوم الحياة من نبات وحيوان وعدة فروع أربعة تكون العلوم الإنسانية .

إذن فنحن إذ ننظر إلى دنيا العلم ، فإنما نواجه كثرة كثيرة من أقسام متباينة ، فمن جهة نجد كل علم واحد على حدة ينقسم فروعاً وفروعاً للفروع ، ومن جهة ثانية نجد ميادين العلوم الكبرى متعددة ومختلفة وهاهنا قد ترى من رجال العلم أنفسهم من لا يقلقه هذا «التعدد» ويأخذه على أنه لازمة ضرورية من لوازم العلم ، لكنك قد تجد كذلك من رجال العلم من لا تطمئن نفسه لهذا التجزؤ الذي إن صلح للفكر العلمى فهو لا يصلح للوحدة العقلية عند الإنسان ومن ثم ينهض نفر من هؤلاء ليجعلوا همهم البحث فى تلك الأقسام الكثيرة وفروعها الأكثر عما يوحدھا ولا تطمئن لهم نفس إلا إذا وقعوا على المبدأ الواحد الذى عنده تلتقى جميع تلك الأقسام والفروع وهؤلاء العلماء الباحثون عن موضع التوحد بين ميادين البحث العلمى وهم الذين يطلق عليهم اسم «فلاسفة العلم» مع ملاحظة أن فيلسوف العلم فى معظم الحالات هو نفسه الذى كان عالماً متخصصاً فى أحد الأقسام أو فى فرع واحد من فروع أحد الأقسام وكل ما تميز به هو أنه قد أقلقته الكثرة فيما يعتقد أنه كون واحد موحد .

ومرة أخرى نقول إن من كانت عقيدته الدينية هى «التوحيد» وجد فى نفسه دافعاً أقوى مما يجد سواه من زملائه العلماء نحو أن يبحث دائماً عن الوحدة التى تؤلف بين الكثرة أياً كان الموضوع فيبحث عن محور الوحدةانية فى الشخصية الإنسانية برغم اختلاف الجوانب الكثيرة فى حياة الفرد الواحد واختلاف العلوم الباحثة فى تلك الجوانب وكذلك يبحث عن محور الوحدةانية فى الكون مجتمعاً كله فى وجود واحد .

وفي مثل هذا النظر تتحقق «أسلمة» العلوم بمعناها الصحيح كما نراه ؛ فليست «إسلامية» العلم المعين أو العلوم مجتمعة أن نبحت لكل علم معين كالطب أو غيره عن مصادر في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية الشريفة بل إن إسلامية العلم هي في البحث عما يوحد قوانينه ومبادئه في أصل واحد ثم أن نبحت في مختلف العلوم عن مبدأ واحد يوحدها فإذا كشفنا عنه ولن يكشف عنه إلا رجال العلم الذين ألما بقوانين العلم الواحد أو مجموعة العلوم إلماماً يبين لهم موضع التجمع في أصل واحد أقول إننا إذا انكشف لنا موضع التوحد أو قل مواضع التوحد التي نتدرج بها من الفرد الواحد أولاً ثم العلم الواحد إلى أن ننتهي إلى توحد مجموعات العلوم في أساس واحد جاءت عقيدتنا في التوحيد عميقة وقوية وناصعة .

لكن أمة التوحيد لم تعرف كيف توحد نفسها ، فلا الفرد الواحد من أفرادها يستطيع أن يصل باطنه بظاهره حفاظاً على وحدة شخصيته ولا الشعب الواحد من شعوبها قادر على أن يجمع أبنائه تحت لواء واحد بالمعنى الصحيح الصادق لهذه الكلمات ولا الأمة في مجموعها قد ضمت شعوبها تحت جناحيها كما تجمع الأم أبنائها ، ولعل سرّاً من أسرار هذا التنافر المتعدد الدرجات هو إننا طالبنا أنفسنا بتحقيق المثل العليا في حياتنا العملية واستحال علينا ذلك كما لا بد له أن يستحيل لضعف فطرى في قدرات الإنسان فقسم كل منا نفسه قسمين : يواجه الناس بقسم منهما فيسمعهم من اللفظ الأمثل ما يشتهون حتى إذا ما توارى وراء الجدران استجاب لجوانب ضعفه آسفاً أو غير آسف ففقدنا

بهذه الازدواجية شجاعة الصدق كما فقدنا الأمل في أن نحقق
للشخصية العربية وحدتها وكيانها لأن أول الطريق إلى بلوغ الهدف هو
إدراك الحق وإعلانه فيعلم السائر في أى متجه يسير.

٢

لا تقنط - يا ولدى - من رحمة الله ، فإذا رأيتنا نتخبط بين
الصواب والخطأ ، فذلك هو الإنسان ، لا يكون أبداً على صواب
كل الصواب ، كلا ، ولا يكون أبداً على خطأ كل الخطأ ، وحسبنا
من نعمة الله علينا في هذا السبيل ، أن من التزم منا النهج الصحيح ،
رجح عنده الصواب على الخطأ كلما امتدت به الأيام ، ومن هنا
جاءت حكمة الشيوخ ، فخبرة الإنسان بحقائق العالم يصحح بعضها
بعضاً على مر الزمن ، لكن لتلك الحكمة عند الشيخ ثمنها الباهظ ،
لأنها تجيء إليه مقرونة بالضعف فلا يقوى على خفة الحركة ، وعندئذ
يصبح وكأنه معرفة شلاء ، وأما الشباب فإن يكن كثير الخطأ قليل
الصواب ، فهو بصوابه المحدود قادر على الحركة الساعية إلى العمل
والتنفيذ ، يصيب مرة ويخطئ مرتين ، فينجز بقدر ما أصاب ،
وقديماً قال شاعر: «أواه لو عرف الشباب ، وآه لو قدر المشيب»
نعم ، فالشباب يقدر ولكن تنقصه المعرفة ، والشيخ يعرف ولكن
تنقصه المقدرة ، فما حيلتنا فيما أراد لنا الله ؟ إنه لا حيلة لنا في ذلك إلا
أن نتعاون شيخوخة وشباب ، وهكذا تسير الحياة دائماً في خط

صاعد ، ولعل شيئاً من هذا المعنى هو الذى يمكن فى عقائد الإنسان الأول ، حين كانت عقيدته هى أن الكون نور وظلمة يتصارعان ، لكن النصر آخر الأمر للنور ، أو أن الكون خير وشر يتنافسان ، لكن الخير هو الغالب فى آخر المطاف .

لا يا ولدى ، لا تقنط من رحمة الله إذا رأيتنا نتخبط بين الخطأ والصواب ، وسأقص عليك لمحات من خبرتى فى هذا الصدد عبر السنين ، مكثفياً فى ذلك بنوع واحد من مزالق الإنسان نحو الخطأ إلا إذا تولاه الله برحمته ، وأعنى ذلك النوع من الخطأ الذى يميل بالإنسان إذا ما عرف حقيقة جزئية من حقائق الوجود ، وقف عندها ، محدوداً بحدودها ، على ظن منه أنها هى الحق كل الحق ، دون أن يسعفه التوفيق فيمد بصره ليجاوز حدودها ، ولو فعل برأى تلك الحقيقة الجزئية إنما هى جزء من كيان أكبر منها ، يشتمل عليها وعلى أخوات لها كثيرات وعندئذ - يا للعجب - تزداد حقيقته الجزئية الأولى سطوعاً ونصوعاً ، إنها تزداد حقاً على حق ، ولا ينقص نصيبها القديم من الحق شيئاً ، وهكذا ، فكلما اتسع الأفق فى معرفتنا بالكائنات ، ازدادت معرفتنا عمقاً ، نتيجة لرؤيتنا للجزء الواحد وهو فى جسمه الكبير .

تتغير نظرة القروى إلى قريته إذا عرف أين موقعها من إقليمها ، وأين موقع الاقليم من رقعة الوطن ، وأين تقع رقعة الوطن من كوكب الأرض ، ومع هذا التدرج فى اتساع الأفق تزداد معرفته بقريته دقة ، وتتغير معرفة طبيب «القلب» كلما عرف الروابط التى تربط القلب بغيره

من أعضاء الجسم كالرئتين والكبد وغيرهما ، وانظر كم تغير من علوم الإنسان ، بعد أن تغيرت فكرته عن كوكب الأرض ، فبعد أن كان على ظن بأن كوكبه الأرضى ثابت فى مكانه ، لا يتحرك ولا يدور ، وأن سائر أجرام السماء هى التى تدور حول الأرض ، كأن الأرض هى المحور المركزى ، وبقية العالم لواجق واتباع ، عرف الإنسان أن الأرض كوكب كغيره من كواكب المجموعة الشمسية ، يدور حول نفسه ويدور فى الوقت نفسه حول الشمس ، وبالدورة الأولى يحدث الليل والنهار ، وبالدورة الثانية تتتابع الفصول الأربعة ، وكل هذه الفروق بين النظرتين ، نتجت من وضع الجزء فى موضعه من الكل الذى يحتويه ، وقارن بين من يتعامل مع الناس بمعرفة محدودة عن «العدد» إذ هو لا يعرف عنه إلا بضعة أعداد قد لا تتعدى المائة أو المئات ، دون أن يكون له تصور شامل لتسلسل الأعداد كيف يبدأ من الصفر فصاعداً إلى غير نهاية ، أقول : قارن مثل هذا الرجل بمن اتسعت معرفته الرياضية بالعدد وغيره مما ينتج عنه ، ولقد سقت هذا المثل إذ تذكرت قصة وردت عن أعرابى قديم ، يحكى عنه أنه اشترى من سوق السلع المستعملة كيساً كبيراً مما تعبأ فيه الغلال أو ما يشبهها ، وبعد أن مضى فى سبيله ، تذكر بائع الكيس أن به حلياً من الذهب والأحجار الكريمة ، فلحق بالأعرابى ورجاه أن يبيع له ما قد اشترى ، وعرف الأعرابى بالكثرة النفيس الذى احتواه الكيس ، فقال : إني أبيعهُ بألف دينار ، وتمت الصفقة ، فعجب من الأعرابى رفيق له كان يصاحبه على الطريق ، وسأله دهشاً ، كيف تطلب ألف دينار فى مثل

هذا الكثر النفيس ؟ فأجابه الأعرابي : أهناك في العدد ما هو أكثر من ألف ؟ والله لو علمت ذلك لطلبت أكثر ، وهذا مثل آخر لمن يتقيد علمه في حدود ضيقة . لأنه لم يستطع أن يضع الجزء في سياقه الواسع الذي يحتويه ، والأمثلة على ذلك لا تنتهي .

على أن ذلك المترلق الفكري الذي يؤدي بالإنسان إلى خطأ ، لا يقتصر على الريني المحدود بمحدود قريته ، أو البدوي المحدود بمحدود خبرته ، بل قد يتعدى هؤلاء ليشمل من ظفروا من العلم بنصيب ارتفع بهم درجات ، لكن التعصب أو ما لست أدري كيف اسميه ، يعمى أبصارهم ، حتى ليقفوا عند «الجزء» الذي يتعصبون له ، بحيث يرون فيه الحقيقة المطلقة كلها ، وما أكثر ما وقع كاتب هذه السطور في مثل هذا الخطأ الفكري العجيب ، والمثل الذي أنخيره لأسوقه إلى القارئ في صدد ما نحن فيه ، هو الموقف الفلسفي الذي اتخذته لنفسه «برتراند رسل» الذي هو بغير نزاع في ذروة الفكر الفلسفي المعاصر ، وهي ذروة لا يشاركه فيها إلا أنداد قلائل ، فعصرنا عصر «علم» في المقام الأول ، وبرتراند رسل في طليعة من يفلسون ذلك الجانب «العلمي» من جوانب عصرنا ، ولكي أشرك القارئ معي في الرؤية ، لا بد لي من تمهيد موجز وشارح ، فقد عرف تاريخ الفلسفة من قبل ضربين من النظر إلى الكون من حيث «وحدته» أو «تعددته» ، فهناك من رأوا توحداً للكون برغم كثرة ظواهره ، بمعنى أن جميع الظواهر يمكن ردها إلى «خامة» واحدة (إذا جاز هذا التعبير) لولا أن هؤلاء ينقسمون بين أنفسهم طائفتين : إحداهما تجعل «الخامة» المشتركة «روحاً» أو

ما يندرج في سمائها ، وأما الطائفة الأخرى فتجعلها «مادة» أو ما يندرج في طبيعتها ، ويترتب على هذا الانقسام في النظر ، أن نجد الطائفة الأولى تفهم جميع ظواهر الكون فهماً يردّها إلى أصل روحاني ، كما نجد الطائفة الأخرى تردّها إلى طبيعة مادية ، ولعل أهم ما يهيم الكثرة الغالبة من الناس في هذا الصدد هو «الإنسان» وكيف نفهمه ؟ فالطائفة الأولى ترد كل تصرفات الإنسان وجميع حالاته الداخلية إلى جانب «الروح» منه ، وأما الطائفة الثانية فلا ترى في الإنسان إلا «ظاهرة» طبيعية مادية ، لا تختلف عن سائر الظواهر إلا في درجة التركيب ، وهي درجة انتهت به إلى ما هو فيه من «وعى» و «عقل» وما إلى ذلك ، إذن فهاتان شعبتان من أصحاب النظرة الموحدة لظواهر الكون يردّها إلى أصل واحد ، والشعبتان - كما ترى - يتفقان في وحدانية «الأصل» لكنها يختلفان في طبيعته ، وإلى جانب هذا الرأي الموحد للكون ، كان هنالك دائماً فريق يرى أنه يتعذر عليهم تصور جانبي «الروح» من جهة و «المادة» من جهة ثانية ، وقد تلاقيا معاً آخر الأمر في «أصل» واحد ، فلا الروح في رأيهم يمكن أن تكون مادة ، ولا المادة يمكن أن تكون روحاً ، ولذلك اختاروا لأنفسهم موقفاً «ثنائياً» يجعل كلا من الجانبين أصلاً قائماً بذاته ، وتحت هذين المذهبين : مذهب التجانس في الكون برغم كثرته البادية في اختلاف ظواهره ، ومذهب عدم التجانس الذي يقسم المضمون الكوني قسمين متضادين ، هما الروح والمادة .

وعلى هذه الصورة جاء برتراند رسل في عصرنا هذا ، وجاءت معه

حركة النظر التحليلي الذي بلغ دقة رياضية لم يعرفها الإنسان من قبل ، وهنا وجد الرجل بين يديه «أصولاً» لا هي ترد إلى «واحد» ولا هي مما يكتفى بأصلين اثنين ، بل هي تنوع متعدد الأصول ، وحتى عندما أخذ هذا التعدد يضيق معه على مر الأعوام ، حتى انتهى آخر الأمر إلى رد الكون كله إلى «أحداث» تتجمع هنا وتفرق هناك ، وما يسميه هنا بالأحداث هو ما يقع على حواس الإنسان من لمعات الضوء ، ونبرات الصوت ، ولمسات الجلد وهكذا ، وهي فكرة تبلورت عنده «ومعه آخرون قليلون» انعكاساً للطبيعة النووية في العلم المعاصر ، أقول إن برتراند رسل ، حتى حين انتهى آخر الأمر إلى ما يشبه الأصل الواحد للكون ، وهو «الأحداث» بالمعنى الذي يفهم به هذه الكلمة ، فواضح أن وحدانية الأصل هنا تتجزأ في أنواع مختلفة ، لم يتردد في أن يذهب إلى «تعددية» الكون ، فلا هو واحد في خامته الأولية ، ولا هو اثنان ، بل هو «كثير» .

وأكتفى بهذا التمهيد الشارح برغم قصوره ، لأقول إن كاتب هذه السطور يذكر جيداً ذلك العهد من أعوام حياته ، الذي أحس فيه بالحيرة الفكرية التي جاهد ما استطاع ليجد لها مخرجاً يحلها ، وربما لم يجد برتراند رسل بين عقائده الأولية ما يبعث فيه القلق ، وأما هذا الكاتب فعقيدته الدينية «توحيد» الخالق سبحانه وتعالى ، على أنه - أعني هذا الكاتب - يتعذر عليه أن يتصور إيماناً بالتوحيد الإلهي ، لا ينتهي بالمؤمن إلى رؤية توحد له الكون ، وتوحد له كيانه البشري ، وتوحد له كثيراً جداً مما قد تراه العين متكثراً ، ولهذا فهو يحس قلقاً

شديدًا إذا قيل له أن الكون طبيعته الأساسية كثرة يستحيل رد بعضها إلى بعض ، ومن ثم لم يكف عن البحث ، لعله يهتدى إلى تصور يزيل عنه الحيرة .

وإذا غضضنا أبصارنا عن برتراند وفلسفته التي وصفها هو نفسه بأنها «تعددية» وقلنا لأنفسنا هذا فيلسوف إنجليزي وما يراه ، فمالنا نحن به وبما يراه أو لا يراه ، كان علينا أن نتذكر أن العلم الطبيعي في حد ذاته ، من حيث هو «علم» لم يفلسفه لنا أحد ، وجدنا أن الموقف التعددي لا يزال قائمًا أمامنا وكأنه يتحدى ، وذلك لأن ذلك «العلم» بشتى فروعه ، لا يكون شيئًا إذا لم يكن عمليات تحليلية إلى آخر المدى ، فما يظهر لنا أنه موحد يحىء العلم فيحلله إلى عناصره ، فلا «الماء» يظل ماء ، ولا «الهواء» هواء ، ولا «الشجرة» شجرة ولا «العصفور» عصفورًا ، لأن كل هذه الكائنات مركبات من عناصر أولية ، إذا تجمعت وتفاعلت نشأ الماء والهواء والشجرة والعصفور ، وأما العناصر الأولية ذاتها فتبقى عناصر تستعصى على التحليل ، إذن فهناك عدة أوليات هي التي ينسج منها ما ينسج من أوليات ، فما الذى يوحد لنا تلك العناصر في جذر أساسي واحد ، يشعب فينا فطرة «التوحيد» ؟.

نعم «فطرة» التوحيد ، نحن إذ نقول إن الإسلام دين «الفطرة» نعى بين ما نعنيه الاعتقاد بوحدانية الله عز وجل ، وهو اعتقاد نزلت به الرسالة وحيا ، ولكنه صادف فطرة تؤمن به فور الدعوة إليه ، وهنا قد يقال : إن «التوحيد» هنا توحيد للخالق جل وعلا ، فمالك تخلط

الأمور وتنقل التوحيد إلى مقومات الكون ومكوناته ليصبح أمام العقل
 كونهً موحدًا متناغمًا متكاملًا؟ والجواب هو أن الفطرة الإنسانية التي
 آمنت بالله واحد على سبيل الإيمان الديني ، هي نفسها الفطرة التي تميل
 نحو أن يلتزم الكون كله في وحده واحدة برغم كثرة عناصره وظواهره .
 ويبدو أن إدراك الإنسان الفطري للكائنات من حوله ، بل
 وإدراكه لذاته حين يتأملها من باطن ، يرى كل شيء أول ما يراه ،
 على أنه موحد ، حتى ليطلق عليه اسمًا واحدًا ليميزه ، فيرى الشجرة
 ويقول «شجرة» على أنها كائن واحد ، فإذا ما نما إدراكه في مرحلة
 أخرى من مراحل عمره ، حفزه دافع آخر من دوافعه الفطرية إلى أن
 يتناول بالتحليل ذلك الذي كان قد اعتبره كائنًا واحدًا ، وههنا تكون
 مرحلة «العلم» بالأشياء وحقائقها ، فيتعقب الشجرة التي كان قد
 رآها ، تحليلًا لعناصرها ، وطريقة نموها وأثمارها ، وهكذا ، وذلك
 هو ما يضطلع به علم النبات ، حتى إذا ما أشبع في نفسه حاجتها إلى
 المعرفة ، عاد سيرته الأولى ، وجعل الشجرة في إدراكه وفي تعامله مع
 الناس ، شجرة موحدة كما كانت أول مرة ، ولك بعد ذلك أن تنظر
 إلى أمثلة توضح لك هذه الخطوات : إدراك للكل في جملته أولاً ،
 تحليله إلى مكوناته الجزئية ثانيًا ، العودة إلى إدراكه موحدًا ثالثًا ،
 لكن هذه الخطوة الثالثة ، وإن تكن قد أعادتنا إلى حيث كنا في
 الخطوة الأولى ، إلا أنها في حقيقة أمرها تختلف عنها بما قد أضافته من
 علم تفصيلي بالشيء ، بعد أن كنا نسميه ، وتعامل معه وبه ونحن على
 جهل بحقيقته .

خذ مثلاً موقف الإنسان من اللغة التى يبدأ فى تعلمها منذ طفولته
الباكرة ، فهو يبدأ بمرحلة يتكلم فيها ويسمع من يكلمه ، فينطق بكتل
صوتية ينطقها ، وكتل صوتية يسمعها ، دون أن يعلم أى شىء عن
« المفردات » التى تجمعت وتكتلت فى كيان صوتى واحد ، ثم نجىء
مرحلة التعلم ، وهاهنا تفك له الكتلة الصوتية ، فإذا هى ألفاظ
مستقلة كل لفظة منها عما عداها ، وإذا باللفظة الواحدة تجمع من
حروف ، وهنا نقول عنه بلغتنا الدارجة أنه « فك الخط » وواضح أن
معرفته بالمكونات التفصيلية فى مرحلة التعلم والعلم ، لا تمحو منه
إدراكه للكل الصوتى الذى يكونه ليتكلم ، والذى يسمعه حين يكلمه
من يكلمه .

وإذا كان ذلك كذلك ، إذن فقد انفتح أمامنا الباب الذى يخرجنا
من الحيرة التى أحسست بها حيال الموقف الفلسفى التعددى عند برتراند
رسل ، بل ونحس بها جميعاً إذا ما تأملنا العلم الطبيعى فى تعدديه التى
يؤدى إليها تحليل الأشياء إلى عناصرها ، مادامت للإنسان فطرته التى
تنحوبه نحو أن يجد فى الكثرة رباطاً يوحداه ، والباب الذى انفتح
فزالت الحيرة ، هو أن العملية التحليلية للكائنات ، إنما هى مرحلة
وسطى على الطريق ، فأول الطريق رؤية موحدة ، وآخر الطريق رؤية
موحدة ، وبينهما مرحلة ألقت لنا الأضواء على المحتوى مفصلاً ، وبهذه
الأضواء نكون قد انتقلنا فى علاقاتنا بالكائنات إلى علم بها بعد جهل .
نقرأ القصيدة من الشعر ، فتحس النشوة الفنية دون أن تسأل أول
الأمر من أين جاءت ؟ وتعود إلى القصيدة ، معتمداً على نفسك إن

كنت قادراً أو مستعيناً بتاقد قادر ، فيحلل لك القصيدة حتى يردك إلى تفصيلات مكوناتها ، فتعلم مصدر النشوة الفنية التي أحسستها ، وربما عدت بعد هذا العلم لتقرأها في جملتها كما فعلت أول مرة ، لكنك هذه المرة تلتقي بالكيان الموحد وأنت عليم بسر فحواه ، ويصادفك بين الناس إنسان ، فتحس منذ اللقاء الأول أن المودة بينكما سوف تمتد وتقوى لما لمستته فيه من خصال تقرب نفسك من نفسه ، ثم تأخذ مع الأيام في معرفة شخصه مفصلاً في مواقف وحالات وردود أفعال ، فتعلم عنه ما لم تكن تعلمه عند اللقاء الأول ، مما أحدث بينكما ذلك الود السريع ، وهكذا الأمثلة تجيئك متتاليات ، إذا أردتها ، لتزداد يقيناً بأسلوب الفطرة في إيمانها الصادق البريء أولاً ، فرغبتها - ثانياً - في تحليل وتبيين سر ما انطوى ، لتعود إلى موضوع إيمانها عن علم يهدي ويهتدى .

كانت القرون الوسطى في أوروبا ، عندما بدأت سحبها تتقشع شيئاً فشيئاً عن تبشير فجر جديد ، قد شهدت بين ما شهدته من تلك الطلائع ، رجلاً يطلق في الناس صيحة لم يألّفوها ، قائلاً : إنه لا بد من تبديل المرحلتين اللتين يسير عليهما المؤمنون ، فبعد أن كانوا يؤمنون أولاً بما قد آمنوا به ، ثم يعلمون ثانياً حقائق ذلك الإيمان ، يجب - في رأيه - أن تكون الخطوة الأولى للعلم بالحقائق ، حتى إذا ما تبينها الناس آمنوا بها ، وفي صورة مختصرة ، بدل أن يكون ترتيب الخطوتين هو اننى أؤمن أولاً ثم أعلم ثانياً ، يجب أن يكون : اننى أعلم أولاً ثم أؤمن بما علمته ثانياً ، وكان صاحب هذه الصيحة هو « ابلار »

وغدت صيحته مدعاة إلى انقلاب ، هو الانقلاب الذى يطلق عليه اسم النهضة ، أو البعث ، وقرأ كاتب هذه السطور عن ذلك الموقف الثقافى قراءة دارس ، ولبت دهرًا يناصر «إبلار» فى دعوته ، إذ كيف نترك الناس ليؤمنوا بما ليس يعلمون ؟ ولكنه - أعنى هذا الكاتب - تساءل فى لحظة متأمل : أصحيح ما دعا إليه «إبلار» وما امتلأت به صفحات التاريخ الفكرى من شروح تؤيده وتناصره ؟ وإذا كان صحيحًا فعلى أى وجه يتحقق ؟ أنقول للطفل وهو يشير إلى شجرة باسمها ، كلا يا بنى لا تقل عنها إنها شجرة حتى تكبر وتعلم عن جقائقها ما عساك تعلمه ؟ أنقول لقارئ قصيدة الشعر معجبًا بما قرأ : كلا يا أخانا أرجئ إعجابك هذا حتى تجد الناقد الذى يبصرك بتفصيلاتها ، فتعلم عنها ما تعلمه ، ثم يكون لك بعد ذلك حق فى قبولها ؟ أنقول لمن يحب : أمسك يا صاحبنا عن حبك حتى تلم بتفصيلات الحب ومن تحب ؟ وأخيرًا ، أنقول لمن آمن بوحدانية الله فور سماعه لدعوة الوحي كلاً ، لا تؤمن حتى يفرغ علماء الدين من بحوثهم الفقهية فى معنى التوحيد ؟.. الحق أن هذا الكاتب لم يعد يرى فى دعوة «إبلار» ما كان يراه لأنه لم يعد يعلم كيف يمكن - أساسًا - لمثل تلك الدعوة أن تتحقق عند التطبيق ، وانتهت به تأملاته - أعنى هذا الكاتب - إلى أن موضع الخطأ عند «إبلار» ومؤيديه ، هو أنه رآهما خطوتين : إيمانًا وعلمًا ، أو علمًا وإيمانًا ، وحقيقة الأمر هى أنها ثلاث خطوات : إيمان فعلم فإيمان مستنير بما علم .

خلاصة القول هى أننا إذا حللنا كائنًا موحد الكيان إلى عناصره

التي توحدت فيه ، نخطئ أن قلنا إن حقيقته هي تلك العناصر ولذلك فهو متعدد وليس موحدًا ، والصواب هو أن نعود إليه بعد تحليله لنراه موحدًا كما رأيناه بادئ ذي بدء على أن نستحضر في أذهاننا أن الرؤية الثانية قد أضافت علمًا إلى الرؤية الأولى ، وهذا هو بعينه ما يحدث لأي جزء حين ننسبه إلى الكل الذي يحتويه ، فإن هذه الإضافة تزيدنا علمًا بذلك الجزء ، لكن ذلك لا ينفي أن نتعامل معه جزءًا كما كان ، فالمواطن المفرد في أمته ، جزء من أمته ، ورؤيتنا له من حيث هو مفرد ينتمى إلى مجموعة معينة ، تضيف إليه بعدًا جوهريًا في شخصيته ولكنها لا تلغى فرديته التي يستقل بها كيانًا قائمًا برأسه ، إننا نرى مدينة القاهرة على خريطة مصر ، فتزداد علمًا بحقيقتها عما لو اقتصرنا على معرفتها من داخل شوارعها وميادينها ، لأن موقعها من الخريطة يبين لنا علاقاتها المكانية بسائر أجزاء الوطن المصرى ، لكن ذلك لا يفقدها شيئًا من حقيقتها مدينة مستقلة بكيانها ، كالمفرد من مفردات اللغة ، له وجوده المستقل في المعاجم ، لكننا نكاد لا نعرفه على حقيقته من حيث معناه ، إلا إذا أجريناه في سياق جملة مفيدة .

تحليل الأشياء والأفكار تحليلًا يردّها إلى مكوناتها البسيطة ، ثم إعادة تركيب تلك المكونات في آذهاننا ليعود تصورنا للشيء أو للفكرة موحدة كما كانت ، بعد أن ازددنا علمًا بها ، مسألة ليس منها بد للفكر العلمى ، ومع ذلك فقد كانت دائمًا موضع خلاف واختلاف بين فريقين من رجال الفكر ، يختلفان نطًا ومزاجًا ، فهناك فريق يرى أن تحليل الحقيقة الموحدة يبطلها ويفسدها ، كما أن هنالك فريقًا آخر

لا يرى شيئاً من ذلك ، بل إنه ليدرك ضرورة تحليل تلك الحقيقة الموحدة إلى أجزائها إذا أردنا معرفتها حق المعرفة ، دون أن يترتب على ذلك إبطال لها أو إفساد لمعناها ، من الفريق الأول المتصوفة والشعراء ومن لف لفهم ، ومن الفريق الثانى رجال العلم ، انظر إلى المتصوف وهو يجاهد فى سبيل الوصول إلى الله عز وجل تلمح فيه القلق لكونه جزءاً معزولاً عن الحقيقة الكبرى ، وكأنه لا يجد فى وجوده الفردى وجوداً كاملاً ، إذ هو فى ذلك الوجود الجزئى أشبه بورقة سقطت من فرعها ، فلم يعد لها إلا أن تذبل وتذوى وتحف لتبددها الريح ، وانظر إلى الشاعر فى رؤيته لكائنات الطبيعة ، يأخذ الفرع إذا تناول العلم كائناً منها بمبضع التشريح ، وذلك لأن المتصوف والشاعر ومن إليهما ، يحملون فى صدورهم فطرة تكره التحليل ، بل وتكره الحساب الذى يحرص على الدنانير والدراهم جمعاً وطرحاً وضرباً وقسمة وكسوراً ، بل ويكره «الدقة» بكل أنواعها ، يضيق صدرًا إذا حسبت له الزمن بالدقيقة والثانية ، ولست أملك فى هذه المناسبة إلا أن أروى نادرة وقعت لى فى خبرتى ، وهى تشرح مثل هذا المزاج فى واقعة وقعت ، فقد دعيت مع أحد الزملاء ذات يوم لنودى إذاعة مشتركة ، وكان زميلى ممن يكرهون التقيد بما يتقيد به الناس فى حساب الوقت ، ولما أراد أن يستطرد فى حديثه المذاع استطراداً يتطلب بضع ساعات ، قال له المذيع إنه مضطر أن ينحصر حديثنا كله فى ساعة واحدة طولها ستون دقيقة ، فهاج الزميل وماج ، مستنكراً أن يخضع «الفكر» لقيود الزمن !! إنه مزاج بشرى يمقت دقة العلم .

والذى نريد لهذا الحديث أن يحمله إلى قارئه ، هو أن يرى ضرورة الرؤية الموحدة لما هو واحد ، جنباً إلى جنب مع ضرورة أن نجزئ ذلك الموحد إلى عناصره لفهمه ، هما عمليتان تكمل إحداهما الأخرى فى النظرة المتكاملة : وابدأ بشخصك ثم اصعد بفكرك درجة درجة ، فأنت كما ترى نفسك فرد متفرد ، لا تشك فى ذلك حتى لو أنكرته عليك الدنيا بأسرها ، لكنك فى الوقت نفسه جزء من أسرة ، وأسرتك جزء من مجموعة الناس ، لا ينبغي لفرديتك أن تذوب فى أى من هذه الجماعات التى أنت جزء منها ، لأنك مسئول بفردك أمام الله يوم الحساب ، كلا ولا هو مستطاع لك فى الوقت نفسه أن تنعزل جزءاً مستقلاً بذاته ، وكأنه قلامة ظفر لم تعد تتغذى ولا تنمو ، ثم أنظر حولك ، فأنت وجهت البصر ، رأيت الحقيقة نفسها التى رأيتها فى شخصك : أفراداً فى جماعات ، والجماعات أجزاء من جماعات أشمل ، فافتراد الفرد فى عزلة مطلقة يقتله ، وذوبان الفرد فى غيره ذوباناً مطلقاً يفنيه ، فلا بد له من اتصال وانفصال معاً ، كالنقطة فى الخط ، والخلية فى الجسم الحى ، وكالجملة فى الصفحة ، والصفحة فى الكتاب .

ليس فيما ذكرناه شئ من فكرة «التوحيد» بمعناها الدينى ، لكنها إشعاعات من تلك الفكرة الجليلة وأينائها فى الإنسان وحياته ...

جمود الفكر ما معناه ؟

وقفت طويلاً طويلاً عند قول الله تعالى : «وعلم آدم الأسماء كلها» ، إذ قلت لنفسى : ما الذى تعلمه آدم عليه السلام حين تعلم الأسماء ؟ إن أول ما يرد على الخاطر جواباً عن هذا السؤال ، هو أنه لقن بالوحي بأن هذا الحيوان كبش ، وذلك قط . وأن هذا النبات شجرة وذلك عشب وهلم جرا ، فمن المقروض المعلوم أن الحيوان والنبات كائنات وجدت قبل أن ينزل آدم عليه السلام إلى الأرض لتبدأ بتزوله أسرة البشر ، لكن هذا المعنى المباشر «للأسماء» التى تعلمها آدم عليه السلام أضيق جدّاً مما يمكن أن يكون قد تعلمه بالفعل ، لأن كل اسم من الأسماء فى هذه الحالة لم يكن ليزيد عن كونه مشيراً إلى فرد واحد من أفراد نوعه ، فاسم «كبش» عند تعلمه لأول مرة ، يشير إلى «هذا» الكبش الذى أمام المتعلم ، واسم «شجرة» يشير إلى «هذه» الشجرة التى يراها بين يديه ؟ فماذا لو تحرك الكبش وغاب عن البصر ، وماذا لو تحرك المتعلم من مكانه فرأى شجرة غير الشجرة الأولى ، أو رأى كبشاً آخر غير الكبش الذى غاب ؟ إذن فلا بد أن تكون النقطة الأولى التى نلاحظها هنا ، هى أن «الأسماء التى تعلمها آدم عليه السلام

هى أسماء (الأنواع) ولا يقتصر الاسم منها على فرد واحد من أفراد نوعه .

لكن هذه النقطة الأولى - التى قد تبدو يسيرة هيينة عند إدراكها ، ستدخلنا فى عالم فسيح الأرجاء من الفكر وعن «الفكر» وطبيعته ، وقد يريد القارئ أن يعلم بأن شطرًا كبيرًا مما سندكره فيما يلى عن العالم الفكرى الغنى ، الذى ستكون بوابة الدخول إلى رحابه ، وهى تلك النقطة اليسيرة الهينة التى ذكرناها ، أقول إن القارئ قد يريد أن يعلم بأن شطرًا كبيرًا من هذا العالم الفسيح الذى نحن الآن بصدد الدخول فيه ، هو من نتاج هذا العصر ، ولا أظن أن شيئًا منه قد عرفه الآباء الأولون ، إلا أنه مع حداثة ظهوره يغوص بنا إلى أعماق بعيدة ، ترتب كلها على أن يكون كل اسم من الأسماء التى تعلمها أبو البشر ، دال على «نوع» بأسره وليس هو بالاسم الذى يطلق على فرد واحد معين ، كاسم «آدم» واسم «حواء» - مثلاً - لأن الاسم فى هذه الحالة الأخيرة يسمى صاحبه دون غيره من أفراد نوعه .

وقبل أن نتقل إلى تفصيلات ما نريد أن نعرضه فى هذا الحديث ، يحسن أن نضيف نقطتين إلى التمهيد الذى أسلفناه ، الأولى هى أن «الأسماء» التى علمها الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام قد تعنى (كما ذكر ابن جنى فى كتابه «الخصائص») أن الخالق جلت قدرته ، قد أمد آدم بجهاز اللغة ، وهو جهاز يتميز به دون سائر الكائنات جميعًا ، فليس المقصود - إذن - هو أن الله عز وجل قد علم آدم قائمة معينة من أسماء الأشياء ، بل المقصود هو أن جعل له بين قدراته أن ينطق

بأصوات مصوغة على نحو يمكنها من أن تكون وسيطاً رمزياً يتفاهم فيه الفرد من الناس مع غيره من الأفراد ، وذلك حينما تأخذ الأسرة «البشرية» في التكاثر ، وإننا لنرى في مثل هذا الفهم للآية الكريمة «وعلم آدم الأسماء كلها» أى أنه وهبه القدرة على إنشاء لغة للتفاهم ، فهمًا يحل لنا مشكلات كثيرة نتعرض لها إذا نحن أخذنا تعلم «الأسماء» على أنه يعنى الإيحاء إلى آدم - وبنيه من بعده - باسم معين بكل شىء معين من الأشياء التى يصادفها الإنسان فى حياته الدنيا ، فأولاً - لو كانت أسماء الأشياء وحيا من الله سبحانه وتعالى يوجه به الإنسان فى تسمية الأشياء بأسمائها (وهو ما عبر عنه القدماء بقولهم إن اللغة «توقيف») لأشكل علينا - أولاً - تعدد اللغات ، فاللغات كثيرة ، ولكل لغة منها قاموسها الخاص فيما اختارته للأشياء من أسماء ، ثم أشكل علينا - ثانياً - ما قد يستحدث فى حياة الإنسان من أشياء لم تكن قد ظهرت فى حياته من قبل ، وتحتاج إلى أن يخصص لها الإنسان أسماءها لتجرى بين الناس فى لغة التفاهم ، ولأشكل علينا - ثالثاً - أن «الأسماء» وحدها لا تكفى لايحاد لغة بين الناس ، لأن اللغة لا بد لها أن تربط الأسماء بعضها ببعض بأفعال وحروف ، وإلا لما استطاع الإنسان - بالأسماء وحدها - أن يكون «فكرة» واحدة عن أى شىء ، ينقلها إلى من يحيون معه من بنى الإنسان ، إذ الحد الأدنى لإقامة «فكرة» هو طرفان موصولان أحدهما بالآخر وصلاً يجعل منهما مركباً ذهنياً ، كأن تقول «الشمس مشرقة» أو «الشجرة بلا ثمر» أو أى جملة شئت تركيبها لتنقل بها «فكرة» إلى من تحدّثه .

تلك - إذن - إحدى النقطتين اللتين أردنا إضافتهما إلى التمهيد ، قبل البدء في تفصيل ما أردنا عرضه ، وأما النقطة الثانية فهي أن تعلم آدم عليه السلام للأسماء كلها وحيا من الخالق عز وجل ، فضلاً عن أنه قد يشير إلى استعداد الفطرى لتعلم «اللغة» ، وهو استعداد يتفرد به دون سائر الخلق أجمعين ، فهو كذلك قد يشير إلى ماهو أوسع نطاقاً من اللغة ، وأعني استعداد الإنسان الفطرى لاستخدام «الرمز» - لغة وغير لغة بمعنى أن تصطلح مجموعة من الناس على أى شىء يختارونه - صوتاً كان أو شيئاً مجسداً كائن ما كان ليرمزوا به إلى معنى يريدونه ؟ أو بعبارة أخرى أن يصطلح الناس على رمز معين ينوب فيما بينهم عن شىء غير موجود بين أيديهم وعلى موقع من مواقع حواسهم ، وما كلمات اللغة إلا مجموعة من رموز - منطوقة أو مكتوبة - ترسم في ذهن المتلقى تصوراً لما ليس في نطاق معرفته المباشرة بحواسه ، فهي ترسم له تصورات عما حدث في «الماضى» مع أن الماضى قد دثره الزمن ، أو تصورات عن المستقبل ، مع أن المستقبل لم يولد بعد ، أو تصورات عن البعيد الذى لا يدركه بصر ولا سمع - أو تصورات عن مواقف وأشياء متخيلة ولا وجود لها في دنيا الواقع لا ماضياً ، ولا حاضراً ولا مستقبلاً ، ولقد جاء هذا الاستعداد الفطرى عند الإنسان ، ابتداء من آدم إلى البشر ، مميزاً للإنسان ، بل لعله أهم ما تميز به الإنسان عن سائر خلق الله على الإطلاق ، لأننا إذا قلنا إنه يتميز «بالعقل» فالعقل مظهره هو أن تجرى معقولاته في عبارات واستدلالات ، تقوم كلها على رموز «رموز لغوية ورموز رياضية ..»

وإذا قلنا عن الإنسان إن أهم ما يميزه قدرته على «الخيال» فالتخيل لا يتم له وجود اجتماعي إلا بأن يرسم في كلمات ، وهكذا ، واختصاراً فإن قدرة الإنسان على استخدام «الرمز» الدال على غائب ، قد مكنته من تحطيم القيود التي يفرضها التقيد بنقطة معينة من «المكان أو بلحظة معينة من «الزمان» فإذا كان النبات والحيوان كله مرتبط في مدركاته بمكانه المحدود وبزمانه المحدود ، فالإنسان وحده هو الذى يطير بخياله فوق حواجز المكان والزمان إلى ما أراد الطيران إليه مما لم يقع عليه سمع ولا بصر ، وتلك القدرة التي أرادها الله سبحانه وتعالى بدأت برموز «الأسماء» التي تلقاها آدم عليه السلام وحيا من ربه ، أيًا كانت الطريقة التي تفهم بها معنى الآية الكريمة : «وعلم آدم الأسماء كلها» .

والآن فلنتقل بعد هذا التمهيد إلى ما نريد عرضه على القارئ ، تحليلاً لما نعنيه «بمجمود الفكر» ، وما يؤدي إلى حدوثه ، فلقد أسلفنا لك فيما ذكرناه ، أننا لو استبعدنا مؤقتاً تلك الأسماء التي يسمى كل واحد منها كائناً واحداً محدداً ، من أفراد الناس أو من مفردات الأشياء كأن نقول «حافظ إبراهيم» أو «نهر النيل» ، فبالاسم الأول نشير إلى إنسان بعينه ، وبالاسم الثاني نشير إلى نهر بعينه ، فكل مفردات اللغة بعد ذلك «التجرد» من أنحباسها في فرد معين محدد معلوم المكان والزمان ، لتصبح دالة على «تصور ذهني» نطلقه أينما وجدنا الكائن الذى تنطبق عليه تلك الصورة الذهنية ، وفي أى وقت وجدناه ، فإذا كان الاسم الذى بين أيدينا هو «خشب» لم يكن هذا الاسم في حقيقة أمره مشيراً إلى شيء مفرد موجود هنا أو هناك ، بل كان في حقيقته

تكتيفاً لجملة كاملة مضمونها مجموعة الصفات والخصائص ، التى إذا وجدناه متمثلة فى كائن بعينه مما نصادفه فى حياتنا العملية ، قلنا عن ذلك الكائن إنه «خشب» ، وقد لا يصادف أحدنا قط فى حياته شيئاً يتجمع فيه تلك الصفات والخصائص ، فعندئذ يظل التصور الذهنى فى هذه الحالة معلقاً لم يجد له فى دنيا الأشياء ما يجسد معناه ورجائى من القارئ ألا يتعجل القراءة عند هذه الفقرة التى أسلفناها ، لأن مضمون معناها ركيزة بالغة الأهمية فى إمساكنا بمحور خطير من المحاور التى تدلنا على طبيعة الإنسان المتميزة ، ولهذا أكرر القول بأن مفردات اللغة التى نظن أنها «أسماء» لأشياء ، هى فى الحقيقة صور مكثفة «لجمل» كل جملة منها مركبة من عدة أطراف ، أو قل هى تصورات ترسم فى الأذهان ، كل تصور منها فيه صورة مركبة من عناصر عدة يجتمع بعضها إلى بعض ليدل على ما عسانا واجدوه فى شىء معين ، فنعلم أن هذا الشىء تنطبق عليه تلك الصورة الذهنية ، وقد نجد أو لا نجد ذلك الشىء فى مجرى حياتنا العملية ، لكن ذلك لا ينقص شيئاً من قيام الصورة المتخيلة المعلقة فى أذهاننا .

وما معنى ذلك ، وما الذى يهمنى منه ؟ معناه إن الله سبحانه وتعالى ، حين وهب آدم عليه السلام - وهب نبيه من بعده - القدرة على استخدام «الأسماء» (أى اللغة) فى تمييزه للأشياء بعضها من بعض ، كان بذلك قد وهبه قدرة عظيمة متضمنة فى عملية التسمية هذه ، وهى القدرة على «التجريد» ، أى القدرة على مجاوزة الفرد الواحد المتعين ، بأن يستخلص من ذلك الفرد صفاته وخصائصه

الأساسية ، ليركبها معاً في صورة ذهنية متخيلة ، هي التي يحتفظ بها لتكون أدواته في تمييز الأشياء التي قد يستخدمها بعد ذلك في حياته العملية ، فالانتقال من المواقف الفرد المتعين ، إلى صورة ذهنية عن مميزاته من الخصائص والصفات ، هو انتقال من المحدود إلى اللامحدود ، لأن الأول مقيد بزمانه ومكانه ، وأما الثاني فيجاوز حدود المكان والزمان ، فهاذا لو أصّر إنسان على أن يقيد اسماً بمسماه الفرد الذي رآه أول مرة ، كأن أعلم طفلاً بأن كلمة « قلم » تطلق على هذا الشيء الذي تراه في يدي ، فعاش الطفل حياته والكلمة لاتعني إلا ذلك القلم الذي كان رآه في يد معلمه ؟ بعبارة أخرى : ماذا لو عجز ذلك الطفل عن عملية « التجريد » التي تنقل اسم « قلم » من قلم واحد مفرد معين - إلى أى قلم يصادفه بعد ذلك مجسداً للصورة الذهنية التي يحملها في رأسه ألا تراه بهذا العجز يخرج من نوع الإنسان ليندرج مع الحيوان الأعجم في طريقة إدراكه التي يظل بها حبيس لحظته من الزمان وموضعه من المكان ؟ إن الله سبحانه قد علم آدم الأسماء كلها ، فعلمه - بذلك نفسه - كيف يتجرد من قيود مكانه وزمانه ، لأنه لولا « الأسماء » لظل الكبش هو فقط الكبش الأول الذي رآه ، ولكانت الشجرة هي فقط الشجرة الأولى التي كانت في موقع بصره عندما سمع اسم « شجرة » لأول مرة .

نقلة الإدراك من انحصار « الاسم » في جزئية واحدة ، إلى امتداده عبر حواجز المكان والزمان ليسمى مسماه أينما كان وحيثما كان ، هي نقلة الإنسان من المحدود إلى اللامحدود ، من التقيد إلى التحرر ، من

انكباب الحواس على الواقع الأرضى إلى ارتفاع العقل والخيال معاً إلى آفاق بعد آفاق ، من الزوال والفناء إلى البقاء والخلود ، لماذا لأن الجزئى الواحد الذى يقع عليه البصر ، أو يتلقاه السمع ، لا يلبث أن يزول مع زوال لحظته ، أما الفكرة المجردة التى نستخلصها منه ، فهى كائن عقلى لا مكان له ولا زمان ، أنها تشبه القانون العلمى - كقانون الجاذبية مثلاً - فى قابلية العمل كلما وردت ظروف انطباقها واستخدامها ، وهذا الفرق ذاته الذى نراه بين تقييد الإنسان بالجزئى العابر ، وبين إنسان يستخلص من الجزئى «فكرته» النظرية لتبقى للإنسانية كلها ذخراً ما يبق على الأرض إنسان ، هو كذلك فرق نراه بين رجلين ، أحدهما تلقى ما خلفه لنا آباؤنا من كتب ، فحفظ مكنونها ، ووقف عند كلماتها وحروفها ، لا يريد - بل ربما لا يستطيع - أن يتخرج عنها قدر أغلّة ، فذلك هو علمه ومده ، كلما أثّرت أمامه مشكلة أفرزتها الحياة للناس ، تتحداهم لاجتيازها ، بحث صاحبنا فى محفوزه عن جملة أو فقرة تتلاءم مع طبيعة المشكلة الناشئة وراح يعيد على أسماع الناس محفوزه ، وانصرف إلى داره مستريح البال مطمئن الضمير ، مع أنه قد ترك الناس ، على حالهم ، فالمشكلة هى المشكلة كما كانت ، لم يغير منها شيئاً أن أسمعهم الحافظ جملة أو فقرة مما كان حفظه من إرث الآباء ، وأما الرجل الثانى فهو «يدرس» إرث الآباء مع ما يدرسه ، لا «ليحفظ» أسطره وكلماته وكفى ، بل ليستخلص من تلك الأسطر والكلمات صورها «المجردة» ، أى ليستخلص منها ما يشبه القوانين العلمية ، التى تصبح فى أبهى

الدارسين أدوات فكرية نظرية تطبق حيث تنطبق ، فلم يعد المعول على «مضمون» النص القديم في جزئيه ، بل يصبح المعول على الإطار النظري الذى كمن ذلك المضمون الجزئى بين ركائزه ، إن الفرق بين هذين الرجلين ، هو نفسه الفرق الذى رأيناه بين من تعلم اسم «الكبش» أو «الشجرة» ، مشيرين له إلى كبش واحد معين - أو إلى شجرة واحدة معينة ، فحبس نفسه في الجزئى الواحد الذى رآه ، برغم سرعة زوال ذلك الجزئى وفنائه ، بل إن من أعجب العجب في حياتنا الثقافية العربية الحاضرة ، أنه بات نوعاً من العجز والقصور أن يلوذ مفكر إلى الأفكار المجردة ، يستخلصها من الوقائع الجزئية العابرة ، فترى «المثقفين» منا اليوم يعيرون عليه مثل هذا التجرد - لأنهم يريدونه معهم في سجن الجزئية الواحدة ، ويغيظهم أن يحطم جدران الواقع الجزئى ليعلو ، وهو إذ يعلو ، فإنما يفعل ذلك ، ليضع نفسه في موقع يمكنه من رؤية الواقع من خارجه ، فتجىء رؤيته أدق وأوضح ممن يراه من داخله ، ولذلك تراه أقدر من سواه على معرفة مواضع الصواب ومواضع الخطأ في ذلك الواقع الجزئى المتعين المحدود .

وها هنا نضع أصابعنا على حقيقة «الجمود الفكرى» ومعناه ، فهو - أساساً - وقوف عند الواقع الجزئى ، عجزاً عن استخلاص ما يمكن استخلاصه من صور نظرية تصلح أن تنتقل للتطبيق ، على واقع جزئى آخر . اختلف مادة عن سابقة ، واتفق صورة ، وهذا الذى نقوله هو بعض ما يقصده القائلون بأن إدراكنا «لروح» النص أهم من إدراكنا «لحروفه» .

وتشاء سخرية التاريخ أن نجد سجناء النصوص فيمن يفتنون تراث آباءنا العرب الأولين ، لقد جاءوا ليكونوا على النقيض تمامًا من هؤلاء الآباء ، لأن الفكر العربي وهو في عز مجده إبان القرون الأولى من تاريخه الإسلامي ، إذا وصف على سبيل الاختصار بصفة أساسية واحدة ، من ناحية شكله المنطقي لا من ناحية مضمونه ، لقليل عنه « في رأى هذا الكاتب » إنه فكر يرتكز على الواقع الجزئى ليقفز منه إلى ما وراءه من صور مجردة ، ولا عجب أن برع العرب في علوم الرياضة ، براعة جعلتهم يبتكرون علم الجبر ، ابتكاراً بعد أن لم يكن ، ويبتكرون فكرة « الصفر » كذلك لأول مرة في تاريخ العلم ، وأما « الصفر » فسل عنه علماء الرياضة ليبينوا لك كم كان ارتفاع القفزة التى قفزتها فكرة « العدد » بفضل هذا الابتكار الرياضى العجيب ، فقد كان الناس قبله مضطرين أن يجعلوا لكل عدد فى سلسلة الأعداد رسماً خاصاً به ، وانظر كيف تتعقد رسوم الأرقام إذا جعلنا لكل عدد رسمه الخاص ، فجاء العربى وطار على جناح « التجديد » الذى تميز به فإذا به يعود إلى الناس قائلاً إنه تكفيناً الأرقام التسعة الأولى فقط ، ذا نحن استخدمنا فكرة « الصفر » ، وأما علم الجبر - وما تزال اللغات الأوروبية تحتفظ له باسمه العربى - فهو معجزة أخرى من معجزات التجريد العقلى ، ولكي أوضح لك ذلك ، أسوق لك هذا المثل البسيط : قارن بين هذه الخطوات الثلاث الآتية ، فى وصف حقيقة واحدة ، فى الخطوة الأولى يرى الرأى رجلين وثلاثة رجال ، فيقول إن مجموع القسمين هو خمسة رجال ،

وفي الخطوة الثانية يحىء علم الحساب فيقول $٢ + ٣ = ٥$ وبقوله هذا يكون قد أزاح عن نفسه قيداً يضطره إلى الاقتصار على «الرجال» لأن الصيغة الحسابية قد مكنتنا من أن يتسع مجال التطبيق ليشمل أى مجموعتين ، تكون إحداها ثنائية الأعضاء ، والأخرى ثلاثية الأعضاء ، فأياً ما كانت طبائع المفردات ، إذا ما ضممننا المجموعة الثنائية إلى المجموعة الثلاثية ، كان حاصل الجمع مجموعة خماسية من نوع المفردات التى يكون موضع النظر ، وعند هذه الصيغة الحسابية وقف التاريخ العلمى إلى أن جاء العربى بقدرته على «التجريد» فابتكر «علم الجبر» الذى به تستطيع أن تعلو درجة فى سماء التجريد على علم الحساب ، بأن تحل محل الأعداد رموزاً من أحرف الألف باء ، فتقول فى هذه الحالة التى نحن بصدددها : $س + ص = م$ ، وهنا تبلغ أقصى درجات الحرية الفكرية لأنك لم تعد مقيداً بصنف «الرجال» كصاحب المرحلة الأولى ، ولا مقيداً بصنف الأعداد كصاحب المرحلة الثانية ، بل أصبحت أمام رموز تتيح لك أن تملأ الخانات بحرية أوسع ، فحتى إذا فرضنا أن حاصل الجمع مطلوب له أن يكون «خمس» لتسهل مقارنة هذه المرحلة الجديدة بالمرحلتين السابقتين ، فنستطيع أن نتحرك فى افتراضات أكثر عدداً لأن «الخمس» يمكن تحقيقها بالحالات الآتية :

(صفر + ٥ = ٥) و (١ + ٤ = ٥) و (٢ + ٣ = ٥) و (٣ + ٢ = ٥) و (٤ + ١ = ٥) و (٥ + صفر = ٥) .

ودقق النظر فى الانتاج الفكرى عند العربى الأول ، نجد الترة إلى التجديد متمثلة فى كل ميادين الابداع ، حتى فى الأدب والفن اللذين

يتميزان « بالتفريد » فالعربي في أدبه يكتف بحبراته تكثيفاً ليضع أغزر موقف خبري في أقصر عبارة ممكنة ، ومن هنا كثرت الأقوال الحكيمة فيما كتبوه نثراً أو نظموا شعراً ، وأما صفة « التفرد » التي هي من أخص خصائص الأدب والفن ، فتتحقق عنده أولاً بطبيعة الخبرة التي يعرضها ، لأنها خبرة انتزعها من تجارب حياته ، وثانياً في طريقه سببها ، ولك أن تقارن بين أديب اليوم الذي تأثر بأدب الغرب (ولا عيب في ذلك بل هو حسنة نحسبها للأديب المعاصر) أن تقارنه بأديب الأمس ، فالشاعر اليوم يضع لنا تجربته في صورة تحفظ لها فردية صاحبها ، ولا تكاد تقع على سطر واحد في القصيدة يحمل المتلقي على « حفظه » لما فيه من « حكمة » يصح له أن يسترشد بها في حياته ، أو أديب النثر المعاصر قد تحول بقوته الابداعية إلى « الرواية » و « القصة » و « المسرحية » وكلها قائم على « شخصيات » ترسم في فدياتها وتمايزها ، وأما أديب الأمس - شاعراً وناثراً - فليس موضوعه « أفراداً » إلا في القليل النادر ، بل هو يستهدف أن يصل إلى جوهر العبقريّة في اللغة ذاتها ، وذلك من حيث الشكل ، وأما من حيث الموضوع فهدفه حكمة الحياة وقيمها ، وهو يصور هذه القيم إيجاباً بالمدح - وسلباً بالهجاء ، واختصاراً فإنه إذا كان الأديب العصري ينشد « المثل » ليعرضه على الناس ، فقد كان سلفه العربي ينشد « المثل » .

الفكرة المجردة تبقى مع الزمن وأنها مع الأيام لتنمو وتغزر تفصيلاتها ، وأما أمثلتها الجزئية المجسدة في أحداث التاريخ فتزول وتختفي ، خذ فكرة « الحرية » - مثلاً - فهي على أرض الواقع التاريخي

تمثلة في أفراد يحونها مجزأة في صور مختلفة ، فقد تتمثل في سياسى يسعى إلى حرية الإنسان في التعبير عما يراه صوابًا ، بما في ذلك حق الأغلبية في أن يكون قرارها حاسمًا كلما كانت هناك هيئة عامة تريد أن تصل إلى قرار في موضوع معروض للنظر ، فلكل عضو حق التصريح برأيه ، وإذا اختلفت الآراء كان رأى الأغلبية نافذًا ، لكن فكرة الحرية قد تتمثل أيضًا في شاعر يتمرّد على الصور التقليدية للشعر ، ويريد أنه يخط لنفسه خطأ جديدًا ، أو تتمثل فكرة الحرية في رجل من رجال الاقتصاد يريد للتجارة أن تنساب في قنواتها تصديرًا واستيرادًا دون أن تتدخل فيها الدول بقوانينها ، وهكذا تعدد « الأمثلة » الجزئية التى تقع بالفعل في حياة الناس الجارية ، لكنها إذا وقفت عند هذا المستوى الواقعى المحدود بمحدوده ، لظلت الفكرة على مضمون واحد وتعريف واحد آلاف السنين ، لكنها لحسن الحظ لاتقف عند هذا الحد بل يتناولها المفكرون على مستوى التجريد فيتصورون لها آفاقًا أوسع ، فأوسع ، فأوسع . وبهذا تنمو على مرالزمن وتزداد عمقًا ، فقد كان إنسان العصر الحجري « حرًا » بمعنى من المعانى ، وجاءت مراحل الحضارة بعد ذلك حضارة بعد حضارة ، ومع كل مرحلة - بوجه عام - يزداد الإنسان طموحًا نحو معنى جديد يضاف إلى معانيها ، ومع هذا التدرج الصاعد يبقى « اسم » الحرية كما هو مع تغير مسماه نماء واتساعًا ، وما كان ليحدث هذا ، لو حبس الإنسان نفسه منذ أول مرحلة من مراحل حياته ، في مسمى محدد بجزئيته وزمانه ومكانه ، لكنه « التجريد » بصعوده فوق الواقع العابر ،

يدرك جوهر الفكرة دون تفصيلاتها ، فيزداد قدرة على توليد المعاني من ذلك المنجم الذى لا ينفد ، وانظر على هذا الضوء ، إلى من يهز لك كتفيه ساخرًا ، إذا ما قلت له إن عصرنا قد فهم الحرية الإنسانية على صورة أوسع ، فيجيبك الساخر بأن سلفنا سبق عصرك هذا إلى الحرية ، فأنت من معارضك عندئذ أمام رجل جمد تعريف الحرية عند عصر من عصورها ، مما يوضح لك ما أردناه من تحديد لمعنى الجمود الفكرى .

وأحسب أن لو عاد آباء عرب من آبائنا ، ذوى العزيمة التى اخترقوا بها الآفاق . وسمعوا من أبنائهم ما يخونون به الأمانة العربية من حيث أرادوا تمجيدها لصلمو آذانهم فى عتاب وتأديب ، ليوقظوهم من غفوة توهموها صحوة ، فأوشك أن يفلت منهم القديم والجديد معًا .

فكر على فكر

١

لا أذكركم مرة عرضتها بين يدي القارئ ، كلا ، ولا أدرى كم بلغ ذلك الذى عرضته من مسامع القارئين . ودع عنك أن يكون قد انتقل عندهم من الآذان ليصل إلى القلوب والعقول ، فيشمر ما أردنا له أن يشمره من تغير ، ولكنى على يقين من أنى ذكرتها أكثر من مرة واحدة ، إذن فلتكن هذه هى المرة الثالثة ، فلصورة التى عرضتها أهمية فى ذاتها ، ثم هى على صلة وثيقة بما اعتزم عرضه فى هذا الحديث ، وأعنى بها صورة العلاقة بين الحياة الفعلية كما يعيشها الناس فى البيت والمسجد والشارع والمزرعة والمصنع والديوان ، وبين ما يبدعه المبدعون مما نطلق عليه اسم « الثقافة » ، يبدعونه أنغاما وألوانا وكلمات وصخورا تنحت وتقام منها العماثر ؟ ولست أظن أن ثمة ألفاظا كثيرة مما تجرى به الأقلام ، تنافس لفظة « ثقافة » فى كثرة جريانها ، ومع ذلك فلست أظن أن واحدة من تلك الألفاظ المكرورة ، تصاب بغموض معناها بمثل ماتصاّب لفظة « ثقافة » . ومن هنا كثر المتحدّثون عنها بالشفاه أو بالأقلام ، كل منهم يتحدث وكأن ما يقدمه هو اليقين الذى يقطع الشكوك ويوضح

الغموض ، إلا أنك إذا تدبرت كثيرا مما يقال عنها ، أخذك العجب ، بل وأعجب العجب ، من ذلك أنى سمعت استاذنا ضحيا بلغ من ضخامته أن أصبح ذات يوم صاحب حل وعقد في رفعة منصبه ، سمعته يحدد معنى الثقافة بأنها صور الحياة كما يحياها الناس بالفعل ، ماذا يأكلون وكيف يأكلون ؟ ماذا يلبسون ومتى يلبسونه ؟ بماذا يدينون وكيف يعبدون ؟ على أية صورة تقام الأسرة كيف يزرعون وكيف يتاجرون وماذا يصنعون ؟ وهكذا يتسع القول في « ثقافتهم » أو يضيق ، ماضاقت طرائق العيش فيهم أو اتسعت !! ولو وقف الأستاذ الضخم صاحب المنصب الرفيع عند هذا الحد من القول ، لقلنا إنه لابد يعلم بقية الصورة ولكنه يسكت عن ذكرها ، لكنه أضاف إلى قوله المذكور سخرية ساخرة ممن يظنون أن اسم « الثقافة » يسمى بين مايسميه « الفن » و « الأدب » ومايجرى مجراهما ، وهاهنا ندت منى شهقة ، ثم أسرعت فكتمت الدهشة في صدري ، إذا ماذا أقول وماذا أعيد ؟.

وكانت الصورة القلمية التي عرضتها بين يدي القارئ أكثر من مرة ، ترسم على وجه الدقة والوضوح ، العلاقة الضرورية والاحتتمية ، التي تربط جوانب الحياة العملية كما يحياها الناس بالفعل ، من جهة ، فليس الأمر في « الثقافة » ومعناها ، هو أنها إما أن تكون هي نفسها أوضاع الحياة المعاشة ، وإما أن تكون ما يقام على تلك الحياة الفعلية من مبدعات ، فحقيقة الأمر في ذلك هي أننا أمام جسم حي في ناحية ، وعدة مرايا حوله تعكس صورته ، كل مرآة منها لها

طريقتها في عرض الصورة ، ومن حق أى إنسان أن يحيا حياته العملية مكثفيا بها فيقف عند حدودها ، وعندئذ فلا « علم » لديه ولا « فكرة » ولا « فن » ولا « أدب » ، وبالتالي فهو يحيا حياته دون أن يكون على وعى بقيمتها نقصا أو كالا ، بل إن الكثرة الغالبة من جمهور شعبنا هي من هذا القبيل .

لكن هنالك أفرادا من الشعب ، قد اتاحت لهم ظروفهم الدراسية أن يقرأوا عن تلك الحياة العملية كما يحيونها ، دراسات « علمية » (تنبه - أرجوك - إلى كلمة « علمية ») تحلل تلك الحياة ، وتصنفها ، لتصف أسسها ، ونظمها ، وصفا « علميا » احصائيا دقيقا ، وعندئذ تندرج أمثال هذه الدراسة تحت مايسمونه انثروبولوجيا إذا كانت الدراسة قد انصبت - بصفة خاصة - على الحياة البدائية في الجماعات المتخلفة ، أو تندرج تحت علم الاجتماع إذا اتجهت العناية نحو حياة الإنسان في جماعة ، أيا كان مكانها وزمانها ، ويبدو أن الأستاذ الضخم الذى اشرنا إليه ، كان قد ظفر بشيء من دراسة الحياة الاجتماعية في إحدى صورتها ، فظن أن ملاحظته هو نهاية الطريق في تصوير الحياة كما هي جارية ، أو كما جرت في جماعة معينة ذات يوم .

غير أن الطريق في وصف الحياة الإنسانية لاينتهى عند محطة الوصول الذى نزل عندها صاحبنا من القطار ، إذ تبقى بقية ذات وزن وقيمة ، حرم منها صاحبنا فظنها معدومة ، ولو أن حظها قد أتاح له البقاء في القطار مدة أطول ، لشهد آفاقا تتسع أمام عينيه وعلى

مسمع من أذنيه ، وهى آفاق المبدعات الثقافية ، التى تقف من الحياة الفعلية موقف المرايا ، فإذا كان صاحبنا لم ينعم إلا بمرآة البحث العلمى ، فى علم الانثروبولوجيا ، أو فى علم الاجتماع بصفة عامة ، فليعلم أن هنالك ضروبا عديدة أخرى من تصوير تلك الحياة الاجتماعية نفسها ، ولكن بوسائل مختلفة ، تصورها الموسيقى بلغة الألحان ، ويصورها فن التصوير بلغة الخطوط والألوان ، ويصورها الشعر بلغة الكلمات ، وتصورها المسرحية والرواية بلغة الحكاية التى تعرض أفرادا يتفاعلون فى مواقف معينة تفاعلا يبرز الحقائق الخفية من طبيعة الإنسان ، وهكذا ، فإذا سئلنا بعد هذا الشرح : ماذا تعنى « الثقافة » ؟ كان جوابنا هو أنها وهى مجسدة تأتى فى صورة ما يحياه الناس بالفعل من نظم وعقائد وطرائق عيش ، أما وهى فى تصوير يعكسها ، لا كما تبدو للأعين فعلا بفعل وحرفا بحرف ، بل يعكسها فى صور يبدعها الخيال ابداعا ، لكنه ابداع يحلو حقيقة لها وجوهرها ، مما يخفى على العين المجردة عند من يحيونها ، وأن المتلقى لتلك المبدعات ليلبغ منها مداها ، إذا هو غاص فى أعماقها ليخرج الدرة الخبيثة فى تلك الأعماق ، والأغلب ألا يستطيع ذلك إلا متلق قادر على حسن الفهم لما تلقاه ، ومثل هذا المتلقى القادر ، إذا عرض على بقية الناس تعليقاته المضيئة الشارحة ، كان هو « الناقد » .

وليس « الفكر » فى متفاوت درجاته ، إلا مرآة من تلك المرايا العاكسة للحياة الجارية ، لا بمجرد وصفها وصفا دقيقا محسوبا مصنفا ، فذلك هو مهمة « العلم » الذى هو ضرب واحد من ضروب

« الفكر » ولكنه يعكس الحياة « بنقدها » ، ولقد كان « هيجل » على حق ، عندما قال عن « الفلسفة » إنها هي صورة الحياة بلغة « الأفكار المجردة » ، على أن الفكرة المجردة التي لاتشع ضوءا على وقائع الحياة كما تعاش ، إنما هي لغو لانفع فيه .

ونظرة متمهلة فاحصة للحياة الثقافية التي تنتفس أجواءها في الوطن العربي طولا وعرضا ، قينة أن تنتهى بنا إلى نتيجة مرجحة الصواب ، وهى أن مرآة « الفكر » هى اضعف المرايا الثقافية تجلية لحياتنا العملية ، مع أننا لو كنا بحاجة إلى مرآة واحدة قبل سواها ، لتهدينا إلى صورة من الحياة أقوى وأضوأ وأشد جذبا لنا من التخلف الحضارى الذى أصابنا فى هذا العصر ، بعد أن كنا بناء الحضارة وروادها فى العصور السابقة ، لكانت تلك المرآة الواحدة التى تسبق سواها هى مرآة « الفكر » ، لماذا ؟ لأن سائر المرايا الثقافية من فن وأدب مدارها آخر الأمر هو الجانب الوجدانى من الإنسان ، فإذا كان الإنسان مرتكزا على دعامتين ، هما « العقل » و « الوجدان » فإن الجانب الوجدانى فى حياتنا قد أغناه الدين بما يكفيه ليكون قوة دافعة ، وأما ركيزة « العقل » التى تتجلى أساسا فى « العلم » وفى « الفكر » فهو الذى نفتقر إليه افتقارا وصل بنا إلى حد الخطورة ، ولا نقول شيئا هنا عن « العلم » فى حياتنا الحاضرة ، لأن ما بين أيدينا منه بضاعة مستعارة ممن ابدعوها فى الغرب ، وكل فضلنا فى مجاله - وهو فضل ليس بالقليل - هو أننا قد عرفنا كيف ننقل عن سوانا ، وما الذى ننقله ، وبأى الوسائل ننشره فى معاهد التعليم ، ومادام لا

اختلاف عليه سواء أكان الدارس عربيا أو غير عربى ، فالذى فاتنا منه هو المشاركة فى ابتكاره ، وأما الوجه الثانى من « العقل » ، المتمثل فيما نسميه « فكرا » فهو متصل إلى حد ما بصورة الحياة الإقليمية ، بحيث يجوز لنا أن نفرق بين الفكر الأمريكى - مثلا - عن الفكر الروسى ، وذلك لأن العملية الفكرية كثيرا ماتنحصر فى تجريد المبدأ العام من المفردات الجزئية التى تجرى بها الحياة فى تيارها اليومى ، خذ فكرة « الجمال » مثلا ..

قد يستخلص العربى فكرة عن الجمال تختلف عما يستخلصه الفرنسى أو الهندى ، لأن المفردات التى توصف بالجمال عند كل منها ليست متطابقة ، ومثل هذا الاختلاف الإقليمى نراه فى ميادين الحياة الإنسانية بصفة عامة ، بينما الحقائق « العلمية » مأخوذة من ظواهر الطبيعة ، وحتى لو استخرجنا حقائق « علمية » عن الإنسان ، فإن ذلك يقتضى أن ننظر إلى الإنسان من حيث هو « ظاهرة » كسائر ظواهر الطبيعة ، ولا كذلك ماقد اسميناه « فكرا » ، فهو وإن يكن مستندا إلى منطق العقل ، شأنه فى ذلك شأن « العلم » ، إلا أن مفرداته الجزئية التى تنصب عليها العملية العقلية تختلف من إقليم إلى إقليم إذا اختلفت بينهما الحياة الثقافية ، خذ مجال « السياسة » - مثلا - وانظر إلى ماينشأ عنه من « فكر » سياسى نجد ذلك الفكر قد اختلف فى بلد عنه فى بلد آخر ، وإلا فلماذا حدث ذلك الاختلاف الحاد فى مجال الفكر السياسى ، بين شرق أوروبا وغربها ؟ أو بين ما يسمى بالعالم الثالث مأخوذا فى جملته وبين الغرب مأخوذا كذلك

في جملته ؟ إن الجذور الثقافية العميقة في حياة البلد المعين ، لايسهل اقتلاعها من صدور الناس ، مهما أشعت فيهم من أسماء المذاهب السياسية ، ولهذا فمحال أن يكون معنى « الحرية » أو « الديمقراطية » أو « الحياة النيابية » أو غيرها من « الأفكار » السياسية ، متطابقا في فهمه وفي تطبيقه في البلاد ذات الثقافات المختلفة ، برغم استخدامها للمصطلح السياسى نفسه ، ففي بلد « حر » ديمقراطى « نيابى » في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية ، قد تجد ضروبا من الاعتقال والحبس والتعذيب والحرمان ، لأفراد اختلفوا مع اتجاه الحاكم ، في حين أن شيئا من هذا كله لايسمع عنه في فرنسا أو في إنجلترا أو غيرها من بلاد الغرب التى توصف أيضا بالحرية والديمقراطية والحياة النيابية ، فالمصطلح السياسى واحد في الحالتين، ولكن شتان بين معنى ومعنى ، وبين تطبيق وتطبيق .

شئ كهذا هو مانعنيه بالحياة « الفكرية » ، وهى الحياة التى نقول عنها إنها أضعف الجوانب الثقافية جميعا في الوطن العربى ، فقد يكون لدينا الموسيقار الكبير ، أو الشاعر المرموق ، أو كاتب الرواية أو المسرحية ، وقد يكون لدينا الفنان التشكيلي الذى نفاخر به ، أو الفنان التعبيرى « فى عالم التمثيل » ممن يستطيع الظهور بين أقرانه فى أى بلد آخر ، لكننا يندر جدا أن نجد رجلا الفكر على درجة نهاى بها الآخرين ، ومن ثم كان سبيلنا فى هذا المجال ، هو نفسه سبيلنا فى مجال العلم ، وهو سبيل النقل والمحاكاة لما انتجه المبدعون من رجال الغرب ، مع الفارق الهام الذى أشرنا إليه بين

حالتى النقل فى مجال العلم والنقل فى مجال الفكر ، وهو أن « العلم » مشترك بين أهل الأرض جميعا لافرق بين أن يلبس ثيابا أوروبية أو آسيوية أو افريقية ، وأما الفكر بالمعنى الذى حددناه له ، فقد تختلف طبيعته من بلد إلى بلد ، لاختلاف التربة الثقافية فيها .

وهكذا ترانا فى حياتنا الفكرية كالغرباء فى بلد مجهول ، يسرون فى طرقاته ولا يدرون من أين يسرون ولا إلى أين .. وذلك لأننا استوردنا الثياب الفكرية « الجاهزة » وأردنا أن نقحمها اقحاما على اجسادنا ، فقلما نفلح وكثر مانخب ، لكن ذلك لايعنى ألا نكون على صلة دائمة ومباشرة بما تستحدثه الحضارة الجديدة وثقافتها المتولدة عنها ، من افكار جديدة ، هى فى حقيقة أمرها بمثابة برامج مكثفة للعمل بأسلوب معين ، فذلك هو المعنى الحقيقى لما نطلق عليه اسم « الفكرة » ، فالحرية فكرة ، والعدالة فكرة ، والمساواة فكرة ، والتعاون فكرة ، وتعليم المرأة فكرة ، والنظام النيابى فكرة ، وهكذا كل فكرة من هذه الأفكار ، هى اسم يلخص مجموعة كبيرة من تفصيل التطبيق والتنفيذ ، إلا أن كل فكرة منها كذلك هى من مرونة المعنى بحيث لاتزيد على كونها اطارا يحدد مجال الحديث دون أن يحدد تفصيلات معناه تحديدا يحصره فى صورة واحدة كأنها قالب من حديد ، ولعل القارئ يذكر عندما أخذنا بالاشتراكية مبدأ حياتنا السياسية والاقتصادية ، كم تعرضنا لضرورة تغيير مايفهم من هذا الاسم ، وأخذنا نوسع من نطاق القطاع العام آنا ونضيق منه أحيانا ، ثم حين استبج هذا المبدأ الاشتراكى وجوب مشاركة الجمهور العامل

مشاركة مباشرة فى دخول المجلس النيابى ، وفى المشاركة فى مجالس الإدارة أينما وجدت ، واشترطنا أن يكون للفلاحين والعمال نصف المقاعد على الأقل فى كل هيئة من تلك الهيئات النيابية والإدارية التى فى أيديها صنع القرار ، اضطررنا إلى « تعريف » الفلاح والعامل ، ثم أخذنا نغير من هذا التعريف كلما ألزمتنا الظروف بإعادة النظر فيه ، فما معنى ذلك ؟ معناه أن مفهوم « الاشتراكية » ومفهوم « النظام النيابى » وأمثالها ، وإن تكن كلها مبادئ مقبولة ، إلا أنها بحكم طبيعتها المنطقية مرنة الحدود ، تتسع وتضيق داخل الاطار الواحد ، وهكذا تكون الحال فى موقفنا من الأفكار المأخوذة ممن هم بناء العصر الجديد ، وبهذا التكيف نعاصر زماننا ونصون كياننا فى وقت واحد .

وقد كان ينبغى لرجال الفكر منا أن يكون هذا هو أهم ما يصبون عليه قدراتهم العقلية ، ولو فعلوا لكان الطريق أمامنا أكثر وضوحا ، لكنهم لم يفعلوا منه إلا أقل من القليل ، إذن فما الذى فعلوه ؟ لست أريد أن أحدد أسماء رجال بذواتهم ، ولا أن اسمى أعمالا فكرية بعينها تمت على أيديهم ، ليراجع القارئ معنى طبيعة الكثرة الغالبة مما اتبعوه ، سواء فى ذلك أبناء الجيل الماضى أو أبناء هذا الجيل ، كلا ، لا أريد ذلك حتى لا تشوب حديثى ذرة من إساءة وتجريح ، لأن الهدف الذى نعمل على تحقيقه جميعا إنما هو إعداد الوسائل الثقافية الفعالة التى من شأنها أن تحقق لأمتنا العربية بأسرها وقفة جديدة ، فيها القوة التى تصون كرامتها أمام ضمايرها أولا ، وفيها

الحرص على أن نكون جديرين بأسلافنا ثانيا ، ثم فيها مايرغم العالم على احترامنا ثالثا .

ومراجعة نزيهة لما أنتجه رجال الفكر منا « ولا ادرج الأدب والفن في معنى كلمة «فكر» في هذا السياق » تبين لنا حقيقة موضوعية لاجدال فيها ، وهى أن معظم جهدهم المبذول قد انصب ، إما على عرض لمختارات من تراثنا حيناً ، أو عرض لمختارات من إنتاج العقل الغربى قديمه وحديثه ، وقد يكون هذا العرض فى كلتا الحالتين مصحوبا بنقد وتعليق ، فن أعلام الجيل الماضى من كاد فكره كله ينحصر فى أن يعرض على الناس كيف ينبغى للحرية السياسية أن تكون ، بحيث لم يخرج فى ذلك على حدود مايقال عن الحرية السياسية فى بعض اقطار الغرب ، دون أن يتبع ذلك تحليلات دقيقة توضح مدى صلاحية المفهوم الغربى بتفصيلاته للجسم الثقافى القائم فى حياتنا ، ولايجوز لنا فى هذا الصدد أن نخلط بين نقطتين : الأولى هى تقدير الجهد الذى اطلعنا على فكرة الحرية السياسية عند من سبقونا إليها ، والثانية هى جهد آخر كان الخير فى أن يبذل ، وهو تكييف الصورة الغربية لواقعنا الثقافى من جهة ، وتكييف واقعنا الثقافى لقبول فكرة الحرية السياسية من جهة أخرى ، وقد حقق مفكروننا الشرط الأول ، ولم يحققوا الشرط الثانى ، فنتج عن ذلك أننا نفتقر حتى اليوم إلى مفهوم للحرية السياسية ، لايجرمننا من ذلك الحق الأساسى من حقوق الإنسان ، ولايكون - فى الوقت نفسه - قلقا فى مناخنا الثقافى ، وإذا نحن لم نحقق لأنفسنا هذا الوضع المطمئن ، كان كلامنا عن الحرية

السياسية في معظمه حبرا على ورق .

ومن أعلام الفكر في الجيل الماضي من جاء انتاجه « العظيم » - فليس فينا من ينكر عظمته في ذاته - منصبا في شطر منه على نقد أدبي لبعض شعراء العرب نقدا « عظيما » ، وفي شطر آخر منه منصبا على تاريخ يعرض طائفة من أئمة المسلمين وأبطالهم ، مما يقدم للقارئ غذاء تاريخيا « عظيما » ، ومن حقنا أن نسأل : أين في هذين الشطرين ما يرشد المواطن المثقف في مشكلات حياته الفكرية بمعناها الحى الذى يسير معنا في الطرقات على قدمين ، أين في هذين الشطرين ما يهدى المواطن المثقف إلى وقفة يطمئن إليها في مشكلة العلاقة بين الوالد والولد ، في عصر أصبح الولد فيه أوسع علما من الوالد ؟ أو في مشكلة العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، في عصر أصبح المحكوم فيه هو الذى يختار حاكمه ، ومن حقه أن يعزل من اختياره ، إذا لم يكن موفيا بالغرض الذى من أجله اختير ، وهى عندنا « مشكلة » نحسها أكثر جدا مما يحسها أولئك الذين عنهم أخذنا نظام الحكم الحديث ، لأن في ثقافتنا ما يوجب على « الصغير » ضروبا معينة من السلوك تجاه « الكبير » ، ولقد ادخلنا فى معنى « الكبير » أن يكون حاكما وفى معنى « الصغير » أن يكون محكوما ، فكيف نشكل وقفة الصغير من كبير اختاره ذلك الصغير ليحكم ، وأصبح عليه أن يراجع به بحكم أن ذلك حقه السياسى ، ولكن عليه فى الوقت نفسه ألا يراجع به بحكم أن ذلك من صلب تقاليدنا فى التعامل ، وعلى غرار هذين المثليين تستطيع أن تستطرد فى الأمثلة

المنزوعة من حياتنا كما هى معاشة على أرض الواقع ، لكنها تحتاج إلى إعادة نظر لا يستطيعها إلا رجل «الفكر» بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة .

وأما الجيل الراهن فرجال «الفكر» فيه ذوو قامات قصيرة وقدرات متواضعة ، يصعب على المتعقب أن يجد لمعظمهم «فكرة» واحدة يعرف بها وتعرف به ، لأنهم على الأعم الأغلب عارضو ثياب لا هم ناسجوها ، ولا هم بائعوها ، ولا هم لابسوها ، فواضح وضوح الشمس فى السماء الصافية ، أنه لارجال الفكر فى الجيل الماضى ، ولارجال الفكر فى هذا الجيل ، قد اضطلعوا بالتصدي لمشكلات حياتنا الحقيقية على المستوى النظرى (وذلك هو المستوى الذى خصص له) ، ألم نقل فيما أسلفناه أن الإبداع الفكرى هو مرآة بين مرايا الابداع الثقافى التى كان ينبغى أن نجد صورة حياتنا الفعلية منعكسة عليها ، لنراها رؤية العين ، لا من حيث هى التفصيلات الظاهرة التى نراها فى البيت والدكان والمصنع ، بل نرى التروس الخفية التى تدور فى الظلام فتحرك الناس ليحركوا مسالكهم على النحو الذى نراه فى البيت والدكان والمصنع ، ولست أظن أن مثل هذه المرآة الفكرية بين سائر المرايا الثقافية قد تمثلت بصورة قوية فى أحد من أعلام الجيلين . وما قد تعثر عليه فى هذا السبيل إما أن يكون نتفا مجزأة لاتغنى ولا تشبع ، وإما أن تكون على صورة السرد الصحفى لحياة الناس ، مع عجز عن الصعود من مستوى الواقع المجسد إلى مستوى التنظير ، فالواقع المجسد حالات متغيرة فى يومها

عن أمسها ، وأما التنظير إذا استطعناه ، فهو يضع بين أيدينا ما هو ثابت وراء ذلك المتغير ، وهذه التفرقة هي نفسها ما يبين لنا أين تكون الصلة بين رجل « الفكر » من جهة ، ومشكلات الحياة الواقعة من جهة أخرى .

فلعلك ترى معي ، بالوضوح الذي أرى به كيف أن معظم قيادتنا الفكرية في الجيلين ، قد صبوا الجزء الأكبر من طاقتهم العقلية على فكر سواهم ، إذن فنحن أمام « فكر على فكر » ولسنا أمام فكر على مشكلات حية (ومرة ثانية أكرر بأنني أخرج من مجال حديثنا مبدعى الأدب الخالص ، والفن الخالص) ولا فرق في هذا السياق بين أن يكون الفكر الذي يصب عليه مفكرنا طاقته ، فكرا مأخوذا من ماضينا ، أو أن يكون مأخوذا من حاضر الغرب أو ماضيه ، ففي كلتا الحالتين هو « فكر على فكر » ويعن لي في هذه المناسبة أن أجرى مقارنة سريعة بين مانحن فيه ، وما قد رواه التاريخ عن الفكر العربي في قرونه الأربعة الأولى بعد الإسلام ، فهناك نجد صنفين من المفكرين : صنف منها حقق النموذج الذي نتمناه ، وهو أن يصب الفكر على مشكلات حية لتنظيمها ، والصنف الآخر كان شبيها بنا اليوم ، في أن جاء جهدهم الفكري مصبوبا على فكر سواهم ، فن الصنف الأول كان علماء اللغة كالخليل وسيبويه ، وكان فقهاء الدين والمفسرون وعلماء الحديث ، وكان علماء الكلام (بحثوا في بعض المعاني التي وردت في القرآن الكريم ، بحثا فيه طابع الفكر الفلسفي) ، وكان نقاد الأدب - والشعر بصفة خاصة - فهؤلاء جميعا

قد سلطوا قدراتهم التحليلية على موضوعات من صميم الحياة العربية الإسلامية إذ ذاك ، لأن القرآن الكريم كان محور الانتباه ، وبعد أن أخذ المؤمنون مأخذ الإيمان وحده لفترة من الزمن ، أرادوا أن يتعمقوه فيها وادراكا لرسالته ، فكان أن درسوا اللغة وأبعادها من أجل ذلك ، وكان أن بذلوا الجهد في استخلاص احكامه ، وكان أن وقفوا عند معان أساسية وردت فيه ليزدادوا لها ادراكا ، وكان أن عادوا إلى الشعر الجاهلي ليأخذوا منه شواهد لغتهم وخصائصها ، فنشأت حركة قوية تناول النقد الأدبي من مختلف أطرافه ، إذن فهؤلاء جميعا قد اسقطوا فكرا على حياة عربية إسلامية ومقاوماتها ، وأما الصنف الثاني من هؤلاء السلف ، فخير من يمثله هم الفلاسفة : الكندي ، والفارابي ، وابن سينا في المشرق العربي - وابن رشد في المغرب العربي ، وهؤلاء جميعا قد صبوا « فكرا على فكر » لأن الجزء الأكبر فيما صنعوه وخلفوه ، هو عرضهم لفلسفة نقلت عن اليونان ، فارادوا دراسة محتواها ، وفهم ذلك المحتوى ، ومايتفق منه مع عقيدة المسلم وما لايتفق ، فيها بلغوا فيما عرضوه من قدرة ، فهم ممن سلطوا طاقتهم الفكرية على فكر سواهم ، ولذلك كان توجيههم لتيار الفكر العربي الإسلامي ، أقل أثرا وأقل ظهورا ممن صبوا فكرهم على مقومات حياتهم ، من فقه ودراسة للغة ، وتفسير وتحليل للنص القرآني الكريم .

وليس فينا اليوم من رجال الصنف الأول أكثر من أشباه باهتة ، وأما الكثرة الغالبة اليوم فتندرج في الصنف الثاني ، فتركنا حياتنا تتعثر

فى مشكلاتها الفكرية على غير هدى ، ومع ذلك فقد خفيت عن أعيننا هذه الصورة على حقيقتها ، فى ضجة الطبول التى تصم الآذان ، والتى ارادت لنا أن ننظر إلى عظماء أعلامنا فى عالم الفكر - وأنهم فى الحق لأعلام ، وأنهم لعظماء - ارادوا لنا أن ننظر إليهم بعين واحدة ، هى العين التى ترى الفكر مصبوا على فكر الآخرين ، فتحسبه فكرا قد اكملت قوائمه ، ولو نظرنا بالعين الثانية ، لانكشف لنا جانب النقص وربما اكملناه ، فليس مما يخدم العزة الوطنية أن نخدع أنفسنا عن الحق ، والحق هو أن معظم رجال الفكر فى القرن العشرين ، قد طاروا بنا فى سماء الحياة الثقافية بجناح واحد ، وتركوا الجناح الآخر مهبطا ...

٢

- ما الذى ينقص الأمة العربية ؟ - سألت نفسى .
- ينقصها أن تكون أمة ، وأن تكون عربية - هكذا جاءنى الجواب .

- ومتى تكون وكيف ؟
- جواب ذلك طويل ولكنه قريب المثال ، فأما عن « الأمة » متى تكون كذلك فلا يلزمنا للرد الواضح إلا أن نتلفت حولنا لتتعقب أمما كثيرة حديثة النشأة ، ولكنها على حداتها بلغت من القوة ما بلغت ، فرمما أعانتنا حداثة نشأتها على رؤية العوامل التى تسارع

بمجموعة الأفراد إلى التماسك في إطار اجتماعي واحد ، وكأن حداثة نشأتها هذه ستجعلها بمثابة مخبار معمل من مخابير العلماء ، يضعون فيه المادة المراد فحصها ، ثم يرقبونها ليروا كيف تتغير وتتطور وتكتسب خصائص جديدة بتفاعل عناصرها ، فعنصر هنا يندمج مع عنصر هناك فيتحدان وكأنهما خلقا ليكون منهما كائن عضوي واحد ، وعنصر هناك يتعارض مع عنصر هنا ، فافتت أحدهما الآخر أو يذويه ، وهكذا ننظر إلى الأمم حديثة التكوين فيسهل علينا رؤية نمائها أو فنائها ، مما قد تتعذر رؤيته في الأمم ذوات التاريخ الطويل ، التي تعاورتها فترات للصعود وفترات للهبوط على مدى آلاف السنين .

ففي القرون الثلاث الأخيرة ، نشأت وتطورت ، ونمت الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، وأستراليا ، ونيوزيلنده ، وبالرغم من أن كل واحدة منها قد بدأت طريقها من الصفر ، اللهم إلا ما حمله أفرادها في عقولهم وقلوبهم من ثقافات بلادهم الأصلية التي هاجروا منها إلى وطنهم الجديد ، وبالرغم كذلك من تعدد العناصر التي جاءت إليها من أقطار مختلفة فحملت معها - بالتالي - ثقافات مختلفة ، إلا أنها قد استطاعت في هذه الفترة القصيرة أن تصنع من أنفسها أمة متكاملة الكيان ، فإذا سألنا : وكيف استطاعت ؟ جاءنا الجواب مسرعا ، وهو أن اتجه الجهد كله نحو تجميع الأفراد في كل أمة حول ثقافة متجانسة ، ويضاف إلى هذا العنصر الجوهري ، عنصر لا بد من قيامه لتسهيل عملية التوحيد الثقافي ، وهو أن يجد الأفراد في ظروف حياتهم ما يعمل على نمائهم وازدهارهم ، فنماء

الفرد هو أقوى حافز له على الانتماء .

ولا يكفي - بالطبع - أن نشير إلى الوحدة الثقافية ، من حيث هي العامل الجوهري في تماسك الأمة على الصورة العضوية التي تجعل منها أمة بالمعنى الصحيح ، بل لابد لنا من توضيح هذا العنصر المؤثر وتحليله ، كما يحلل الكيمياء المادة إلى عناصرها الأساسية ليقول لنا - مثلاً - إن الماء بكل ما تراه فيه من اتصال قطراته بعضها مع بعض وتجانس تلك القطرات حتى لتقع عينك على كتلة الماء في البحر أو في النهر أو في كوب الماء تشرب ماءه إنك لا ترى إلا سائلاً سيالاً تتعذر التفرقة فيه بين قطرة وقطرة ومع ذلك يقول لنا الكيمياء بل إنه مؤلف من عنصرين مختلفين بنسبة معينة بينهما ، تألفاً دمجها دمجاً على نحو ماترى ، وهكذا الحال بالنسبة إلى ملايين الأفراد الذين هاجروا إلى تلك الأمم حديثة التكوين فقد انقدحت لهم في حياتهم الجديدة شرارة صهرتهم في أمة واحدة على نحو ما انقدحت شرارة الكيمياء في معمله فاندجت ذرتان من الهيدروجين مع ذرة واحدة من الأكسجين وتكونت من إنصهارهما قطرة الماء ، وأما الشرارة التي أحدثت الانصهار من مختلف الأفراد في أمة من الأمم الجديدة فقد كانت - كما أسلفنا - « الوحدة الثقافية » وما أساسها ؟ إن أساسها في تلك الأمم المستحدثة هو « القوة » يحققونها بالعلم والعمل ، ليقهروا بها الطبيعة أرضاً ، وبحراً ، وهواء في جو السماء ، وما بعد الغلاف الجوي إذا استطاعوا وواحدية الهدف تستتبع حتماً واحدة الاتجاه الذي تتجه فيه ضروب النشاط المختلفة ، ومن هنا تنشأ الوحدة

الثقافية التي أشرنا إليها ، إن « العقل » يشهد و « التاريخ » يشهد معه مدى ما تؤثر به واحدة الهدف في وحدة الأمة وسرعة نمائها وازدياد قوتها وسلطانها ، وللقوة ضروب وللسلطان دروب ، فالقوة تكون في العلم وفي الثروة وفي الحرب ، وفي استثمار البيئة استثمارا يخرج كنوزها نباتا وحيوانا ومعادن تجتمع كلها في اقتصاد قوى ، وأما دروب السلطان فقد تنوعت مع الزمن ثلاثة أنواع اختلفت باختلاف المراحل الحضارية في حياة الإنسان ، فبدأ الإنسان بأن بحث صاحب السلطة عن قوته في اخضاع بني وطنه واستعبادهم لصالح نفسه ، وبهذا كانت الحرية عندئذ لفرد واحد ، وإرادة واحدة وعلى الجميع أن ينشطوا كل في طريقه ، لكي يحققوا لذلك الفرد الواحد ما أراد وتقدم الزمن وسلك الباحث عن السلطة درباً جديداً ، فإذا كان بنو قومه قد استطاعوا أن يظفروا لأنفسهم بالحرية داخل أرضهم فلماذا لا يتجهون جميعا حاكما ومحكوما نحو أقوام أخرى خارج حدود بلادهم مازالوا يزحفون على طين الأرض ، لا يعرفون لأنفسهم قدرا ولا كرامة ، وهناك يحقق الباحثون عن قوة السلطان ما يشتهون ، فسكان الأرض المغزوة رقيقهم يفلحون لشمر الأرض للسادة الحاكمين ، ثم انتقل الزمن بيني آدم إلى مرحلة جديدة حين استعصى على أولئك الباحثين عن قوة السلطان ، أن يطيلوا بقاءهم في أرض الرقيق ، وذلك لأن رقيق الأمس قد صحووا من الغيوبة وطالبوا بالتححرر ، وأظفروا به ثم لم يعرفوا بعد التحرر كيف يصبحون « أحرارا » وذلك لأن « الحرية بمعناها الصحيح الواسع ، هي الفهم

بأسرار الطبيعة لقمهرها فتريد من قوة القاهر سلطانا على سلطان ،
وذلك هو عصرنا هذا كما تستطيع أن تراه إذا أرسلت البصر نافذا به
إلى قلبه ونواته .

فالشر في عصرنا مجموعتان : مجموعة وجهت عقولها إلى
« الطبيعة » لتعرف سر الكهرباء والمغناطيس والحادية ، ولتعرف كل
ما استطاعت معرفته عن الضوء والصوت والهواء ، وغير ذلك مما بلغ
مسامعنا وما لم يبلغ ، وأما المجموعة الثانية من البشر فقد « تحررت »
حقا ممن كانوا حتى أمس القريب غزاتها والمسكين بزمامها ، لكنهم
بعد أن أزيحت عنهم الأغلال والقيود ، وحكموا أنفسهم بأنفسهم لم
يعرفوا ماذا يفعلون ؟ ولم يجدوا أمامهم إلا أن يمدوا أيديهم إلى أولئك
الغزاة الذين أمسكوا ذات يوم يرقابهم ، يطلبون منهم فتانا من
موائدهم العلمية ليقتات عليها أبناء الذين « تحرروا » ويشترى منهم
صنائعهم التي صنعوها هناك بعلومهم ومع كل صناعة يجيء خبير
منهم إما ليقيم ، وإما ليعلم أهل البلد الذي اشترى الناتج الصناعي
كيف يدار ، فالأحرار حقا هم أصحاب العلم وما ترتب عليه ، وأما
« المتحررون » فمالوا يمدون أذرعة الحاجة والعوز ، لا حول لهم إلا
ما يصدقون به عليهم ولا قوة لهم إلا بما يتلقونه من غزاة أمس من
سلاح الحرب وآلة السلم .

فأين نجد العلة ؟ لماذا يظل أقوياء أمس هم أقوياء اليوم ،
برغم ما تحرر به ضعيف أمس ، ولم يستطع بتحرره أن يبلغ من
القوة ما أراد ؟ إن علة ذلك مطروحة أمام أبصارنا إذا أردنا رؤيتها

رأيانها ، وخلاصتها هي أن علماءهم هناك ورجال الفكر منهم يصبون الجزء الأكبر من طاقتهم العقلية على « الأشياء » فيعرفونها ، وهم بالمعرفة المكسوبة يملكون زمامها ، وأما علماؤنا ورجال الفكر منا ، فينتجهون بجهدهم نحو « أقوال » كتبها أصحابها فعلمنا هو من درس ذلك المكتوب ، ومفكرنا هو من وجه فكره نحو فكر سواه ، سواء أكان ذلك السوى من السالفين أم كان من المحدثين أو المعاصرين .

فالأمر - إذن - هو - في المقام الأول - أمر تربية وتعليم يعملان على توجيه الناشئ ، نحو « الشيء » بالإضافة إلى توجيهه نحو « الكتاب » فبالاتجاه الأول يعتاد الكشف عن المعرفة كشفا جديدا أصيلا ، وبالاتجاه الثاني يحصل على نتائج كشف عنها الآخرون ، ولعل مثل هذا القلق الثقافي الذي نحس به اليوم في أنفسنا ، حين نرانا اتباعا يرتدون ثياب الأحرار ، هو الذي أحس به في زمانه شاعر الهند العظيم « طاغور » لكنه لم يقف عند قلقه يجتر الحسرة والأسف ، بل أنشأ في بلده مدرسة على الصورة التي تخيلها وتمناها ، ومازالت تجربته تلك في « سانتفاكتين » موضع تعليق من رجال الفكر التربوي في الغرب ، فهي مدرسة بغير جدران ، إذ تقع على أرض مكشوفة تحفها غابة وتحيط بها أنواع النبات والحيوان وأقيمت في ركن منها مساكن بسيطة للدارسين ، فإذا يدرس الدارسون ؟ إنه لا « فصول » ولا « دروس » ولا أجراس تدق للحضور والانصراف ، فكل دارس له أن يختار مما حوله حجرا ، أو شجرا ، أو طيرا ، أو ما اختار من

صنوف الحيوان ، وعليه أن يقدم ماقد «كشف» عنه من حقائق حول ما اختاره ، كان طاغور مؤمنا أشد الإيمان ، بأن التعليم «فاعلية» داخلية تنشط بها طبيعة المتعلم ، وليس التعلم آذانا تصغى إلى ملقن يسمونه معلما ، وإن مثل هذه الطبيعة في الإنسان ، هي التي تشيع فيه الفرحة إذا ما صنع لنفسه شيئا بالمقارنة مع حالته إذا تلقى هذا الشيء مصنوعا جاهزا ويحكى طاغور في كتاب له (بالانجليزية) يفصل فيه القول عن خبرة حياته ، فيقول إن أحد الأثرياء في بلده عاد من رحلة له إلى أوروبا بلعبة فاخرة لولده الصغير وكانت فيما أذكر سيارة أو طائرة تسير بقوة ذاتية ، وتصادف أن خرج الطفل بلعبته للفاخرة هذه إلى الطريق العام أمام منزله فرأى على مقربة منه أطفالا شغلوا أنفسهم «بصنع» طائرة من ورق ، واقترب منهم فاغراه مايصنعون وترك لعبته الجاهزة على جانب الطريق ، ليشاركهم فيما ينشئون ، وكان لكل من الأطفال دور يؤديه ، فهذا يقص الورق ، وهذا يعد الأعواد التي يقام منها هيكل الطائرة ، وثالث يجهز الخيط الذي سيربط فيها من طرف ليمسكوا هم بالطرف الآخر عندما تعلق طائرهم في الجو . وهكذا حتى فرغ الصانعون من صنعهم ، ودفعوا بالطيارة في الهواء ، وإذا هي تعلو وتعلو ، فيمدون لها الخيط بمقدار ما تعلو ، فلا تسلك عن الفرحة الغامرة الممزوجة بالزهو بما حققوه بصنعهم ، فأين ذلك كله - عند الطفل الغني - من حالته الأولى عندما كان يلعب بما تلقاه جاهزا صنعه آخرون ؟

شيء كهذا يمكن أن يقال عن الحياة الفكرية فليست الصلاحية

مرهونة بالمصدر الذى نستمد منه الفكرة : نجعل الموروث العربى مصدرنا أم نجعل الغرب هو ذلك المصدر؟ ثم معترك حول أشباح فى الظلام ، بل تتوقف الصلاحية على مدى اتصال الفكرة المعينة بالمشكلة الحقيقية المراد حلها ، مما يحل لنا أشكالنا هو الفكر الصحيح سواء أكان مما ورثناه عن أسلافنا أم كان مستعارا من الآخرين فإذا كانت المشكلة المعروضة اقتصادية ، كأن نبحث عن الطريقة التى تؤدى بنا إلى أوفر إنتاج ممكن ، وجب أن تنصب الطاقة العقلية على جوهر مشكلتنا ذاتها ، وليس أن نفتح دفاترنا أو دفاتر الآخرين بحثا فى صفحاتها عما نتوقع منه الحل ، إن الرجوع إلى هذه الدفاتر إنما يحىء على سبيل الاستضاءة بما سبقنا الآخرون إليه ، لنجرى معه شيئا من المقارنة الضابطة الهادية لكن المعول الأساسى يكون على معطيات واقعنا نحن لا واقع سوانا فى ماضينا أو فى ماضى الغرباء وحاضرهم ، ما الذى ألزمنا - مثلا - بأن نقيّد أنفسنا بادئ ذى بدء بقسمة مجال النشاط الاقتصادى إلى عام وخاص ، ثم نظل ندور وندور حول النسبة بينهما إتساعا وضيقا كم تكون؟ وإتنا لنسأل مخلصين: أكنّا نستعرض واقع حياتنا حقا حين أعطينا كل هذا الوزن الراجح لما نسميه بالقطاع العام ، أم كنا ننقل من الدفاتر وأى دفاتر؟ لقد كانت فى هذه الحالة دفاتر الغرباء من ذوى المذاهب ، ثم ماهو إلا أن أحطنا فكرة «القطاع العام» بما يشبه القداسة حتى لا يمسها أحد بسوء : فهل حللنا أخلاقنا الاجتماعية تحليلا كافيا ، فوجدنا أننا أشد إخلاصا فى أداء واجبنا حين تكون «الدولة» هى صاحبة العمل؟ إن طريق

الفكر السديد يقتضى ألا يقام قانون ما فى جاعة معينة إلا إذا كانت ضرورة حياتها تمليه ، وحتى القوانين القضائية حين يصوغها مشرعون مختصون ، لا تستمد قوة الفعل فى ساحات المحاكم إلا إذا بنيت على ظروف اجتماعية سبقتها ، وأفرزت سبلا أمام الناس فى حياتهم الفعلية يلتمسونها لتتحل العقد التى استعصت عليهم وهنا يأتى المشرع فيتقن الصياغة لما كان الناس قد لجأوا إليه بالفعل ، فتصبح تلك الصياغة هى « القانون » الذى يقاس إليه فى المحاكم ، وهكذا يكون الحال - أو يجب أن تكون فى كل « فكر » سليم منتج ، وبعبارة أخرى ، وهى العبارة التى كررناها فيما أسلفنا نقول إن المفكر الأصل يوجه فكره نحو « الشئ » أى نحو « الموضوع » قبل أن يوجهه نحو فكر جاءه من سواه فيصبح فكرا على فكر . إن هذا الكاتب كثيرا ما تساءل بينه وبين نفسه مرة ، وبينه وبين قارئه مرة : ما الذى أبطأ النهضة العربية ، بحيث انقضى ما يقرب من قرنين كاملين منذ بدأت بوادرها ، دون أن تبلغ ما بلغته شعوب أخرى فى أقل من نصف هذه السنين ؟ وهنا قد نسمع صوتا من ذوى اللجاجة الجوفاء يصيح فى وجوهنا متحديا : ماذا تعنيه بكلمة « نهضة » هذه التى زعمت أنها بدأت منذ مائتى عام ولم تبلغ مداها ؟ أهى التحضر بحضارة الغرب ؟ إن كان هذا عندك هكذا فاذهب إلى حيث شئت ولسنا معك ، ولأصحاب هذا الصوت الصارخ نقول : فلتكن « النهضة » هى الصحوحة التى تؤدى بنا إلى « القوة » بعد ضعف أصابنا والقوة لا يفهم لها معنى إلا بالقياس إلى ما يستطيعه المنافسون فإن كنت سريع

الجرى بالنسبة إلى زيد ، ودخلت سباقا مع خالد فظفر هو بالسبق كان عليك - إذا اردت محاذاته أو التغلب عليه - أن تريد من قدرتك ، والقوة التي نبتغيها متعددة الفروع فهي في العلم ، وفي الإنتاج وفي إرهاف الذوق وفي القتال ، وفي سرعة الأداء ، وفي كل ما تراه سبيلا إلى إنسان حفزت قدراته الفطرية المكنونة إلى حدها الأقصى ، وأحسب أن هذا الفهم لمعنى « النهوض » لا يجد اعتراضا إلا عند من جرؤ فقال إنه يؤثر الجهل على العلم ، والمرض على العافية ، والقعود الكسبح على خفة الحركة .

فإذا زعمنا أن النهضة العربية قد سارت بخطوات بطيئة انتهت بها إلى موضع متخلف في مضمار الحياة العصرية ، وأردنا إقامة الدليل على صدق ما زعمناه ، فما علينا إلا أن نفصل فروع « القوة » تفصيلا يمكننا من مقارنة أنفسنا بغيرنا في كل فرع وعندئذ نرى الحق أبلج واضحا ويتخرس الصوت المحتج في جهالة ، لننصرف إلى السؤال التالى بجدية لمن أراد لأمته الرفعة والتفوق والسؤال هو : على من تقع التبعة في تغيير هذا الركود ؟ والجواب السريع هو أن التبعة واقعة على مبدعى الثقافة فنا وأدبا وفكرا ، والفكر هو الذى قصدنا إليه فى هذا الحديث دون الفن الخالص والأدب الخالص ، فلهذين حديث مختلف ، ومن هذا الجواب نخطو إلى سؤال آخر هو : وماذا يصنع « الفكر » أولا ، ثم ماذا تريد له أن يصنع ثانيا ؟

أما عن « الفكر » وطبيعته فقد أفضنا القول فى تحديد معناه ، بالقياس إلى جناحين آخرين من أجنحة « الثقافة » بمعنى من معانيها ،

فجناح منها هو الإبداع الفنى والأدبى وهو إبداع يقوم فيه الخيال بدور كبير ، ويتضح مادته من المضمون الخبرى (من « خبرة » المبدع) وهو مضمون ذاتى يختص بصاحبه ، شاركه فيه . الآخرون أم لم يشاركوه - وأما الجناح الثانى فهو جناح المعرفة العلمية التى تتعلق مضمونها بالأشياء الخارجية كما هى واقعة تراها أبصار المشاهدين على السواء ، وبين هذين الجناحين تقع مدينة « الفكر » الذى هو مجموعة معان لا هى من قبيل ما يبدعه الخيال فى الفن والأدب ولا هى من قبيل العلم الذى نهج بناءه الدقة والتعميم والتجريد ، ويبلغ فى ذلك أقصى مداه إذا استطاع أن يسوق بضاعته فى صيغ رياضية بحت ، حتى لا يكون فيها أثر لخيال المبدعين فى مجالى الفن والأدب ، أقول إن عالم « الفكر » يقع بين هذين الجناحين ، بمعانيه التى لا هى من هذا الجناح ولا من ذاك ، إلا أنها هى التى تغذى الجناحين معا بقيم تنضبط بها الخطى ؟ ومن أمثلة المعانى التى يتألف منها هذا العالم الغريب - عالم « الأفكار » - الحرية ، والتعاون ، والصدق ، والحب ، والخير ، والسعادة ، والإيمان ، وغيرها مما يجرى مجراها ، ولقد تعمدت أن أجعل « الإيمان » آخر الحلقات التى ذكرتها لأردفه بإشارة إلى « الدين » ودوره فى البناء الثقافى كله ، فمن أهم ما يؤديه أنه هو الذى يحىء للإنسان بكثير جدا من القيم التى هى فى حقيقة أمرها بمثابة الجوهر من مضمون الفكرة ، إذا استحقت أن تكون بين أفراد الأسرة ، أسرة المعانى التى تمد الجناحين الآخرين بضوابط السير ولا أقول إنها تمدها بالمضمون ذاته ، فرجال العلم - مثلا - مطالبون

بأمانة البحث ، والذي يطالبهم بصفة الأمانة هذه ، هو فكرة استمدت غذاءها من الدين ، وكذلك يقال عن رجال الفن والأدب عندما يطالبون بالصدق فيما يبدعون .

تلك - إذن - هي طبيعة « الفكر » أما ما نريد من المفكرين أن يؤديه حتى تنطلق النهضة العربية وثبا وثبا بعد ركود وقعود فهو - على سبيل الإيجاز - أن يرسموا الأهداف ليهتدى بها السائرون ، كل منهم في ميدانه ، لكن الغاية واحدة للجميع فإذا تكون تلك الغاية المنشودة ؟ هذه واحدة من مهام الفكر ورجاله ، وهي المستوى الأعلى ، وأما الثانية من تلك المهام وهي المستوى الأدنى ، فهي أن يرصدوا مشكلاتنا القائمة على أرضنا بالفعل ليعالجوها بقدراتهم العقلية ابتغاء الوصول إلى حلولها ، فالمدار هو المشكلة المعينة وحلها ، وليس المدار مذهباً نضعه في المقدمة ليكون لنا بمثابة محطة القيام للمسافر ، فالمذهب الجدير منا بالتأييد هو الذي نجده في الحلول النافعة ، وهذه الحلول تأتي بالنسبة إلى العملية الفكرية آخر الطريق وليس أوله ، وأما بالنسبة إلى من يحيا حياة العمل والتنفيذ فهي الركيزة الأولى التي يركز عليها في رسم الطريق .

المناخ الفكرى الذى ينجم على الأمة العربية اليوم ، والذي لا حيلة للناس إلا أن يتنفسوه بخيره وبشره ، إنما هو صنعة من نسجوه خيطا خيطا بما كتبوه أو أذاعوه ، وبين هؤلاء النساجين ، بل وفى طليعتهم رجال « الفكر » فحتى مبدعى الفن والأدب فينا يستقون بعض الوحي مما يتنفسونه فى جو ثقافى يحيون بين خيوطه ، فتعالوا

نتعقب معا أولئك الذين أخذوا خلال مايقرب من قرنين يصبون في مسامعنا فكرهم قطرة قطرة ، حتى إذا ماصحونا إلى حالة الوعي ، وجدنا أوعيتنا قد امتلأت بما قطروه ، وإذا بالكثرة منا قد استمدت منه الغذاء الذى لا يجدون لأنفسهم غذاء سواه ، ثم إذا بهذا الغذاء يتحول عندهم إلى ما يشبه العقيدة التى يجاهدون فى سبيل بقائها ، وإنك لتراهم يربطونها بالهوية العربية ، وبالروح الوطنية ، بل وبالعقيدة الدينية أحيانا ، حتى تكتسب حصانة تحميها من نقد النقاد أو عدوان المعتدين ، مع أنها فى أصل نشأتها ، قطرات من مداد أفرغتها أقلام الكاتبين على ورق ، أو موجات صوت أرسلها المذيعون من بوق المذياع ، نعم ، تعالوا معا نراجع معظم ما قرأناه وسمعناه ، لنرى طبيعته على حقيقتها ، وإننا لواجدوها - على أرجح الظن - فكرا يدور حول فكر سبق به غيرنا إلى عرضه وإننا لسعداء إذا وجدنا الكاتب منا قد جاء فى مرحلة أولى بعد مرحلة الفكر الأصيل ، وذلك لأننا قد نجد المفكر منا يعلق بفكره على تعليق كان هو بدوره تعليقا على تعليق .

وربما سمعنا صوتا صارخا باللحاجة - مرة أخرى - يتحدثانا قائلا : وما العيب فى قول يشرح قولاً ، وفى فكر يعلق على فكر ؟ فنجيب بقولنا : إنه لم يكن ليصينا من ذلك أذى ، بل ربما كان أمرا مطلوبيا ونافعا ، على شريط ألا يكون نشاطنا الفكرى الوحيد ، أو أن يكون نشاطنا الغالب الذى منه تنشأ عقول وتتكون مذاهب ، لأن ثمة طريقا آخر للفكر يجب أن تكون له فى حياتنا أولوية بل إن

تكون له «أعلوية»- إذا صحت هذه الكلمة- على ماعداه وأعنى به ذلك الفكر المبدع الأصيل غير المسبوق والذي من شأنه أن ينبع من واقع حياتنا التي نحياها حتى ولو اضطررنا إلى مراجعة أفكار الآخرين .

وبعد هذا ، فلأبين للسائل المتحدى ، وجها من وجوه النكبة الفكرية التي تنكب بها ، إذا ما أنفقنا معظم طاقتنا الفكرية على فكر الآخرين وشرحه ، بدل أن نتجه بمعظم جهودنا العقلية نحو نشاط عقلى أصيل يقيم لنا مناخا ثقافيا جديدا يتلاءم مع ما تتطلبه ضرورات حياة جديدة نحياها فالقاصرون المقتصرون بفكرهم على فكر آخر- قديم أو حديث ، موروث أو منقول عن آخرين - يقدمون لنا الأذى من وجهين : أولها أنه لا جديد فيما يقدمونه ، لأنه على أحسن الفروض يعرض علينا تحليلا جديدا لصورة فكرية كان أبدعها مبدعها لظروف أحاطت به ، وقد لاتكون محيطة بنا ، وأرجو ألا يفهم من ذلك بأن مثل ذلك العمل الفكرى مرفوض من أساسه إذ هو مطلوب ونافع شريطة أن يؤخذ فى حدوده ، وهو أنه أقرب إلى «التاريخ» يقدم إلينا مادة الفكر عند سابقين أو لاحقين ، وقد يخلط علينا الأمر ، فنظنه فكرا يصلح لمعالجة شئون حياتنا الواقعة جملة بجملة وحرفا بحرف ، هذه واحدة ، والأخرى هى أن المفكر على هذا النحو المعلق والشارح لفكر الآخرين ، إذا ما وصل إلى نتائج أنتزعها مما يعلق عليه ويشرحه ، قد يوهنا بصدق نتائج صدقا موضوعيا تطبيقيا ، مادامت هى صادقة فى استدلالها من أصولها التي استنبطت

منها ، وليس كل قارئ قد اكتسب القدرة على التفرقة بين الحالتين ، مما يترتب عليه موقف فكرى شبيه بما نحن فيه اليوم وهو أن تشيع فينا أفكار ، لها صدق الاستدلال من أصولها ، فنظن أنها كذلك صادقة صدق التطبيق على الواقع الجديد .

إنه إذا كانت النهضة العربية قد أبطأت الخطى فلم تلحق بالركب إبداعا وكشفا وريادة وتغييرا لوجه الأرض فإن لذلك أسبابه وسبب من هذه الأسباب أن رجال الفكر من الأمة العربية قد اتجهوا بمعظم طاقاتهم نحو فكر قد فرغ منه أصحابه فقتلوا به موضوعا لفكرهم ووقفوا هم وأوقفوا أمتهم معهم عند مواضع أقدامهم وكانوا بموقفهم هذا من الأتباع .

٣

سألت خيالى : هلا بحثت لى عن صورة أصور بها للناس حياتنا الفكرية على حقيقتها العارية ؟ إنى أريدها صورة واضحة الدلالة بحيث تقترب من أفهام المثقفين على اختلاف درجاتهم ، ففى جماعة المثقفين صحاح ، وانصاف ، وأرباع ، فأجابنى الخيال بأن رسم لى دكانا يعرض الملابس الجاهزة صنوفا واشكالا ، فهناك قطع الثياب العربية من كل طراز ولكل الأحجام ، ومعها قطع الثياب الغربية كذلك على اختلاف ألوانها وأشكالها وأحجامها ، وفى صحن الدكان

زحام ، لا هو بالكثيف الذى يوصف بأن ليس فيه موضع لقدم
تضاف إلى أقدام الحاضرين ، ولا هو بالخفيف الذى يبدى أرض
المكان وكأنها خالية ، وتنظر فى الصورة فترى الزبائن وقد انصرف كل
فرد منهم إلى نفسه يقيس على بدنه هذه القطعة أو تلك من الثياب
المعروضة ، غير عائى بما يفعله سواه .

شكرت الخيال على سرعة استجابته ، وهنأته على دقة صنعته ،
والحق أن الصورة التى قدمها قد جاءت من إحكام الدلالة بحيث
تصلح لرسام الكاريكاتير ، فهى تكشف عن تفصيلات المعنى
المطلوب لكل ذى عين تبصر ، وتنطق بأبعاد ذلك المعنى لكل ذى
أذن تسمع ، إذ المعنى وأبعاده ، هو ما اجملناه فى الحديتين
السابقين ، وخلاصته - كما هو ظاهر فى العنوان - إن رجال الفكر من
الأمة العربية يغلب عليهم أن يبحثوا عند الآخرين عن أفكار
جاهزة ، فينتقى كل منهم ما يناسب قده الفكرى فيرتديه ، ثم هم بعد
ذلك ينقسمون جماعات ، فمنهم من يستريح فى رداءه فلا يحاول حذف
منه أو إضافة إليه ، وهو مع ذلك يمشى بين الناس « مفكرا » أو
« مثقفا » رفيع الفكر غزير الثقافة ، ومنهم من يأخذه القلق ، شعورا
منه بأنه إنما يرتدى ثوبا لم يغزل هو خيوطه ، ولم ينسج هو قماشته ،
كلا ، ولا هو الذى صنعه ثوبا ، إنما هو اشتراه شراء ، وارتداه
ارتداء ، نعم يأخذه القلق أن تكون هذه هى حاله ، فيبحث لنفسه
عن مواضع فى الثوب تحتل التعديل والتحويل ، فيفعل ذلك إشباعا
لرغبته الظائمة فى أن تدرجه الأيام مع المبدعين ، وأقصى ما يذهب

إليه ذلك القلق المبدع ، هو أن ينبش في الرداء الذى اشتراه نبشاً
لعله واجد فيه موضعاً فاتته دقة الحياكة فأنحلت خيوطه ، فيصلح منه
فساده ليباهى بما صنع ويفاخر .

إننا نقسم أنفسنا بين مذاهب الفكر فى شتى ميادينه : فهذا ميدان
للفكر السياسى ، وذلك ميدان للفكر الاقتصادى ، وثالث للفكر
الفلسفى ، وهكذا ، وأسأل كيف انقسمنا مذاهب فى تلك الميادين
تضحك ملء شديك ، فهذا هو ذا دكان الأفكار الجاهزة مرة أخرى
ندخله لبيتاع كل ما يروق له من مذهب ، ثم نخرج فاذا بنا قد
انقسمنا فى مجال السياسة يمينا ويسارا ، وفى مجال الاقتصاد إنغلاقا
وانفتاحا ، وفى مجال الفلسفة مثاليين وتجريبيين ووجوديين وجدليين
وكل ما وجدناه من بضاعة معروضة ، إننا لانبدأ بالمشكلة التى تتعقد
بها حياتنا الفعلية فنبحث عن الفكرة التى تحلها ، بل يبدأ كل منا
بالفكرة التى اجتلبها ليبحث لها فى حياتنا عن مشكلة وقد لا يجد فيظل
المسكين قائماً بفكرته قاعداً بفكرته ، حالماً بفكرته يقظاً بفكرته ،
لا يجد لها متنفساً فيما تضطرب به حياتنا العملية من مشكلات .

إنه ليسير كل اليسر أن تنقل عن سواك قولاً يحمل فكرة ، ثم
تجعل مشغلتك أن تنظر فى القول المنقول لتنسل منه فروعا تبشر الناس
بها إذا كنت مؤيدا للفكرة المنقولة ، أو لتنسل منها فروعا تفزع بها
الناس إذا اخترت لنفسك أن تعارض تلك الفكرة المنقولة ، نعم هو
يسير كل اليسر أن تبني كلاماً من عندك على كلام استعرت من
صاحبه ، لكنه عسير كل العسر أن تواجه مشكلة فى دنيا الواقع

المحسوس لتجد لها حلا تبتكره من ذهنك ابتكارا ، وإننى لأرجو من القارئ أن يتمهل فى قراءته عند هذا الموضع من الحديث ، لأنه إذا ما أمسك بالفرق الذى أشير إليه بين الحالتين ، كان - فيما أعتقد - قد أمسك بعلة العلل فى قصورنا الفكرى وسأضرب لكل حالة من الحالتين مثلا يوضحها ، فى الحالة الأولى - وهى حالة الفكر المنقول - نسوق هذا المثل : الصراع بين طبقات المجتمع ينشأ من الفوارق الاقتصادية بين الناس وتذويب تلك الفوارق قين أن يزيل الصعاب ، فها هنا يستطيع المؤيد أن يخرج من هذا الكلام كلاما ينادى به أن لابد من أن يكون زارع الأرض هو مالكها ، أو ما يقربه من أن يكون مالكها ، وبهذا ينتفى الفارق بين مالك وأجير ، لأن الطرفين قد تلاقيا فى رجل واحد ، وكذلك إذا جعلنا عامل المصنع عضوا فى إدارته ، زال الفاصل بين رأس المال والصانع ، وهكذا ، كما يستطيع المعارض لذلك القول أن يستخرج منه ما ينقضه ، كأن يقول - مثلا - إن الفوارق بين الناس لا تجعل منهم « فئات » تختلف فيما بينها دون أن يؤدى ذلك الاختلاف إلى أعلى وأدنى ، ويترتب على ذلك أن نجعل لكل ما يحسنه ، فالإدارة لمن يجيدها ، والعمل لمن يتقنه ، ولسنا هنا نريد أن ننتهى إلى التخريج الأول ، ولا إلى التخريج الثانى ، وكل ما نريده هو أن نوضح للقارئ كيف يسهل عليه أن يخرج كلاما من كلام ، مادام الأمر لم ينبع من أرض الواقع الذى نكابد ، وانتقل بعد ذلك إلى مثل نسوقه للحالة الثانية ، وأعنى الحالة التى نواجه فيها واقعا نحو الذى نريد أن نغيره ، ونبحث

له عن فكرة نغيره بها ، وليكن المثل الذى نختاره هو التوسع فى الأرض المزروعة ، وهو ما يقتضى البحث عن طريقة تزرع بها الصحراء ، فها هنا تجد الموقف الفكرى قد اختلف فى طبيعته من وجهين : أولهما أنه لا يتصدى للتفكير إلا أصحاب الاختصاص العلمى ، وثانيهما أن مجال التطبيق يفصل لنا بين فكرة صائبة ، وأخرى مخطئة ، فى الحالة الأولى يفتح مجال القول لمن يعلم ومن يجهل على حد سواء ، ويمكن لاختلاف الرأى أن يظل قائماً إلى الأبد دون أن يجد أحد الفريقين ما يحسم به صواب رأيه وخطأ رأى خصومه ، وأما فى الحالة الثانية فالأغلب أن ينتهى الموقف العلمى إلى رأى واحد ، ثم تنحصر المشكلة فى طريقة التنفيذ ، وليس فى المرافحة بين رأى أخطأ ورأى أصاب .

وقد يقال لى هنا : إنك قد جئت لنا بمثلين لا يتميان إلى بحر فكرى واحد ، ولذلك لم يعد يجوز أن تقارن بينهما على نحو ما فعلت الآن ، فقد كان المثل الأول الخاص بالصراع الطبقي وما ينتج عنه ، من النوع الذى يدركه رجال الفكر بالبصيرة الاجتماعية ، وهو نوع قد تجد من الناس من يملك بصيرة تدرك حقائقه ، فى حين لا يملك آخرون مثل تلك البصيرة فلا يدركون من تلك الحقائق شيئاً ، ومن ثم يقع بين الفريقين اختلاف فى الرأى اختلاف لا سبيل إلى حسمه ، وأما المثل الثانى الخاص بالصحراء وزرعها ، فالفصل فيه بين خطأ وصواب ، مرجعه إلى التطبيق العملى . ولذلك فهو أدخل فى باب العلوم الزراعية التى هى فرع من العلوم الطبيعية ، أقول إنه ربما أقيم

هذا الاعتراض على المثلين اللذين قدمتهما لأوضح بهما الفرق بين حالتين من حالات « الفكر » فيحسن بنا - إذن - أن نسوق مثلين آخرين يقعان معا في بحر فكري واحد لتسهيل المقارنة ، وليكن المثل الأول الذى نوضح به الحالة الأولى ، هو أن يبدأ المفكر الاصلاحى عملياته الفكرية من الفكرة القائلة بوجوب طلب العلم من المهد إلى اللحد ، وهو قول قديم فيه كثير جدا من الصواب في توجيه الإنسان في مجال التعليم ، وله في الفكر التربوى المعاصر قرين يشبهه كل الشبه إذ يقول علماء التربية اليوم بوجوب التعليم الذى يدوم مع المتعلم طول حياته ، بعد أن كان الظن هو أن تنتهى العملية التعليمية بانتهاء الأشواط الدراسية فى المعاهد أو الجامعات ، ولنجعل مثلنا الثانى الذى نوضح به الحالة الفكرية الثانية هو أن يطلب من وزير التعليم إعادة النظر فى نظم التعليم القائمة لاصلاحها بحيث تخرج للأمة مواطنين فى مقدورهم دفع الوطن إلى الأمام دفعة حضارية يلحق بها عصره وما يقتضيه .

فانظر مليا إلى هذين المثلين المتقاربين فى الهدف ، ولكنها يختلفان اختلافا بعيدا فى منطق التفكير الذى يتطلبه كل منهما ، وهو الاختلاف الذى أسلفت لك عنه القول بأنك إذا أمسكت به ، فقد أمسكت بخصيصة قد تكون هى المسئولة عن قدر كبير من وجوه التخلف فى الفكر العربى المعاصر ، فأما المثل الذى ضربناه للحالة الأولى ، فالفكر فيه يبدأ من « مبدأ » يفترض فيه الصواب ، بحيث يكون مفهوما للمتكلم والسامع معا ، أنه ليس موضوعا للبحث

والمناقشة والقبول والرفض ، وإنما هو « مبدأ » يبدأ منه التفكير ثم يسير سيره المنهجي نحو ما قد يتكشف له من نتائج تبتثق له من ينبوع ذلك « المبدأ » الذى اتفقنا بادئ ذى بدء أنه مأخوذ مأخذ التسليم . ولكن ماهو السير المنهجي الذى أشرنا إليه ، والذى ينظم للعملية الفكرية خطواتها فى مثل هذه الحالة ؟.. إنه منهج التوليد ، توليد المعانى بعضها من بعض ، أو هو- بتسمية أخرى - منهج الاستنباط ، الذى يعتصر « المبدأ » السالف اعتصارا ليستخرج منه ما أمكن استخراجه من عصير ، ومادام « المبدأ » نفسه مقطوعا بصوابه ، فكل نتيجة تعتصر منه تصبح بدورها مثله مقطوعا بصوابها ، كأن يقول المفكر لنفسه : إنه مادام « المبدأ » هو « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » إذن ما يعد علما هو كلام موجود بالفعل هنا أو هناك ، فى هذا الكتاب أو ذاك ، أو هو شيء محفوظ فى الذاكرات ، ويجب البحث عن حفظته أينما كانوا « لنطلب » ما عندهم منه ، وهو سعى لا ينقطع من لحظة الميلاد إلى لحظة الموت ، فالطفل منذ ولادته يبدأ فى تجميع المعلومات ممن حوله ، ليعلم كيف يتكلم ، وماذا يأكل ، وعلى أى نحو تكون ثيابه ، ويكبر قليلا قليلا منتها من مرحلة عمرية وبادئا مرحلة عمرية أخرى ، فلا يكف فى كل مرحلة عن « الطلب » باحثا عن المعلومات المطلوبة فى مظانها ، وهى - كما ترى - سيرة يعتمد فيها الأصغر سنا والأقل خبرة ، على من هو أكبر سنا وأكثر خبرة ، ومن هنا تنبع أخلاقيات ضرورية تفنن للصغار كيف يسلكون ازاء الكبار ... إلخ ، فنحن أمام بناء فكرى

لا إبداع فيه ، ولا جديد فيه ، لأن الطاقة الفكرية كلها منصبة على « مبدأ » مسلم بصوابه منذ البداية ، وعليها أن تستخرج من البئر ماءها ، ماوسع دلائها أن تخرج من ذلك الماء الكامن في مخبئه .

وننتقل إلى المثل الثاني الذى يوضح الحالة الثانية ، وهى أن يهم وزير التعليم مع من يعاونونه ، باصلاح النظام التعليمى بحيث يخرج لنا شبابا من طراز جديد مرغوب فيه ، فها هنا تتغير أمام المفكر نقطة البدء عما كانت عليه فى الحالة السابقة ، كما تتغير خطوات السير ، فلسنا هنا أمام « مبدأ » موروث ، قبلناه قبول التسليم ، بل نحن أمام وضع معين لنظام تعليمى معين ، يراد إعادة النظر فيه ، لنبقى على مانبقى منه ، ونغير منه ما لا بد له أن يتغير ونحذف منه ما يرى وجوب حذفه ، ونضيف إليه ما نرى ضرورة إضافته ، أى أنه ليس فى الوضع التعليمى القائم مانسلم له مقدما بضرورة البقاء ، كلا ، ولا فيه مانسلم مقدما بضرورة إلغائه ، فالبدء مختلف - كما ترى - عن البدء الذى رأيناه فى الحالة الأولى ، ودقق النظر فى جوهر الاختلاف بين الموقفين ، تجد أنه بينما كان مانبدأ به فى الحالة الأولى هو قول ورثناه ، نرى أن مانبدأ به فى الحالة الثانية هو صورة للمواطن الجديد كما نريد له أن يكون فما يستقبل من السنين ، وهكذا كان « الماضى » هو ينبوع المعرفة فى الحالة الأولى ، وأصبح ينبوعها فى الحالة الثانية مستقبلا لم يولد بعد ونريد أن نمهد لولادته ، ويكون ذلك التمهيد بتحليل الوضع التعليمى الراهن ، تحليلا نقارن به العناصر القائمة عنصرا عنصرا ، بالهدف المنشود ، الذى هو المواطن فى صورته

الجديدة التى نسعى إلى إيجادها بعد أن لم تكن موجودة ، وبهذا التحليل والمقارنة نعلم ماذا نحذف ، وماذا نضيف ؟ .
إنهما وقتان مختلفتان مختلفتان اختلافا بعيدا ، ولم نقصد بالأمثلة السابقة إلا توضيحا بسيطا مسرا لما تختلف به حياة علمية نحياها بالفعل ، عن حياة علمية من طراز آخر نود لو عرفنا كيف ننشئها لنحياها فليس الأمر مقصورا على أننا نغترف من تراثنا أفكارا مبدئية نأخذها مأخذ التسليم ، ثم نحصر نشاطنا الفكرى على توليد مضامينها ، بل إننا لنوسع فى هذا المدى ، لنبلغ به حدوده القصوى ، وذلك بأن نقل عن العصر الجديد أفكاره كذلك لتكون هى المادة التى تدرس فى معاهدنا وجامعاتنا ، ولا ضير فى ذلك ، لأن « العلوم » كلها تقريبا هى اليوم من صنع غيرنا ، ولا خيار لنا فى أمرها إلا أن نقلها إلى طلابنا ، لكن الضير كل الضير يكمن فى أننا نهج نحوها نفس النهج الذى نلتزمه فى مجال الفكر الموروث ، واعنى أن نقف من المنقول الفكرى موقف التسليم ، ولذلك جاءت العملية التعليمية كلها على أيدينا وكأنها عملية تحفيظ وحفظ لمسلات لا مجال فيها للمراجعة والسؤال .

وقد تقول : وماذا تريدنا أن نصنع بحقيقة علمية ثبت صوابها نظرا وتطبيقا ، إلا أن نعرفها ؟ إنه إذا جاز لمجادل أن يجادل فى مجالات الآراء والظنون ، فلا محل للمجادلة فى علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء وما إليها - قد تقول هذا على سبيل الاعتراض لكنك بهذا القول لم تذكر من حقيقة الموقف التعليمى إلا نصفها

فالعملية التعليمية « مادة » و « طريقة » ، فأما المادة العلمية ذاتها ، في علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء وغيرها من علوم ، لاجمادة فيما صح منها كما قلت ، ويبقى بعد ذلك السؤال المهم ، وهو : كيف يوصل المعلم إلى المتعلم تلك الحقائق العلمية التي ثبت صوابها نظرا وتطبيقا ؟ ولا فرق في هذا السؤال المهم بين مرحلة ومرحلة من مراحل التعليم ، من المدرسة الابتدائية إلى كليات الجامعة ، أما مانحن صانعه اليوم ، فهو أن نقدم إلى الطالب نصوصا تحمل المواد العلمية المطلوب دراستها ، على اعتقاد راسخ عند المعلم والمتعلم معا ، بأن المطلوب هو الامام بما قد حملته تلك النصوص ، ومضمار التفاوت بين طالب وطالب ، بل بين أستاذ وطالب ، ينحصر في « كم » حفظ الدارس من ذلك المحتوى ؟ والأكثر حفظا هو الأعلى درجة في سلم العلماء .

ذلك هو مانحن صانعه الآن ، أما الذي كان ينبغي لنا أن نصنعه ، هو أن يتلقى الدارس الحقيقة العلمية المعنية مقرونة بطريقة اكتشافها ، وبمقدار ما استطعناه في هذا السبيل ، يتخرج الدارس وقد أضاف إلى المادة العلمية طرائق الوصول إليها ، ومن شأن ذلك أن يخرج الدارس ومعه منهج العلماء ، ليس فقط فيما قد تلقاه من حقائق العلم ، بل فيما عساه ينشأ من مواقف يستشكل علينا حلها ، ولعل هذا الفارق الجوهرى بين دارس يحفظ مادته العلمية ، ودارس آخر ألم بالمنهج الذى يؤدي إلى كشف تلك المادة العلمية ، هو الذى يفسر لنا ظاهرة شائعة بيننا شيوعا جعلها تبدو لنا وكأنها جزء لا يتجزأ

من طبائع الأمور ، وهى أن تفاجئنا مشكلات يعجز عن حلها
علماءنا ، فنستوفد لحلها « خبراء أجنب » وتساءل : أين تلقى هؤلاء
« الخبراء الأجانب » تعليمهم ، بحيث أصبح فى مستطاعهم مالم يس
فى مستطاع علمائنا ؟ وبمحيثك الجواب الذى تعلم منه أن ما درسه فى
مادة العلم هو نفسه ما درسه علماءنا ، فتساءل من جديد : ومن أين
إذن جاء الفرق ، الذى جعلهم يفرزون « الخبراء الأجانب » الذين
يقدرون على ماقد عجز عنه علماءنا ؟ ولا جواب على سؤالك هذه
المرة ، سوى أن علماءنا « حفظوا » مادة علمية فذهبوا معها فى دنيا
التطبيق إلى مداها ، لكنهم لم يزودوا بالطريقة التى يلجئون إليها إذا ما
أشكل عليهم أمر لا وجود له فيما حفظوه ، وها هنا نجىء « بالخبير
الأجنبى » الذى أضاف إلى مادته العلمية طريقة الكشف عنها ، فإذا
ما استحدثت فى مجاله العلمى أشكال لم ترد فى المادة المحفوظة توسل
إلى حله بوسائل البحث العلمى .

ألم أقل لك إنه مثل واحد من حياتنا الفكرية يكفىك - إذا
أطلت تدبره - لتقع على علة أولى بين علل أخرى ، تفسر لك جانباً
من التخلف العلمى الذى يصيب حياتنا فى الوطن العربى ، وتلك
العلة الأولى هى أننا نصب طاقتنا الفكرية على فكر آخريين ، وقبلنا
نصب تلك الطاقة على « موضوع » بكر لم يسبقنا إلى بحثه أحد ،
وذلك لأننا - كما أسلفت القول مراراً - ندرّب تدريجاً جيداً على
تناول النصوص العلمية التى تركها لنا سوانا ، ولا فرق هنا بين أن
يكون ذلك « السوى » من آباءنا نحن فى ماضيهم المبدع ، أو أن يكون

من الغرباء ، ففي كلتا الحالتين تؤول إلينا نصوص ، ندرسها ، أو ندرس ملخصاتها ، وعلى أحسن الفروض نحاول استنباط مايمكن استنباطه منها ، لكن ذلك كله شيء ، والتدرب على قراءة كتاب الطبيعة كما تبدى في ظواهرها شيء آخر .

خشوعنا لما هو « مكتوب » أيا كان كاتبه ، وأيا كان موضوعه ، ومن أى عصر جاء ، هو ظاهرة تلفت النظر ، وقد استوقفت بالفعل أنظار غيرنا ممن يتابعون العربى فى حياته الفكرية ، وذهب بعض هؤلاء إلى حد الغلو فى تعليقاته لهذا التوقير الذى يبلغ منا إلى حد الخشية الخاشعة أمام مانصادفه مكتوبا ، لاسيما إذا كان ذلك مما ينتمى إلى الماضى بسبب من الأسباب ، فقال أحد المعلقين من أهل الغرب إن سر ذلك ربما يرجع إلى أن هذه المنطقة الجغرافية الشرق أوسطية ، هى التى اخترعت أحرف الهجاء فى الكتابة ، فكان لها عند أهل المنطقة مايشبه التقديس ، فلما انتقلت فكرة الكتابة باستخدام الحروف ومركباتها من هذه المنطقة إلى اليونان الأقدمين ، نظروا إليها نظرتهم إلى سلعة نافعة استوردوها من أصحابها ومبدعيها فلم يشعروا إزاءها برهبة تمنعهم من الجرأة عليها تحليلا وتركيبا ورفضا وقبولا ، هكذا قرأ هذا الكاتب لما كتبه أحد المعلقين من أهل الغرب على موقفنا نحن - أصحاب الاختراع - مما اخترعناه ، وأن هذا الكاتب ليذكر جيدا كم أخذه الغيظ مما قرأ ، متبها صاحب التعليق بالانحراف العقلى انحرافا مبعثه التعصب ولاشئ غير التعصب الالزم ، فحتى حين يكون لنا الفضل على مستقبل الفكر الإنسانى

كله ، باختراعنا لهذه الوسيلة العبقريّة ، التي تجعل الكتابة من بضعة حروف تفكّ وتركب ، فتسع مركباتها اللامتناهية فكر الإنسان إلى يوم الدين ، أقول إنه ختي ونحن نبتكر للدنيا هذه الوسيلة العبقريّة يخيء مثل هذا المنحرف المتعصب فيبحث فيها عن ثغرة تشين أصحابها .. كان هذا ما قاله هذا الكاتب قولة غاضب حين قرأ التعليل المذكور لرهبة العربيّ مما هو « مكتوب » وهاهو ذا الكاتب نفسه يجد الظاهرة تعترضه في مجرى تفكيره فيطلب لها التعليل ، وإذا كان لا يزال على رفضه الغاضب لما قدمه من تعليل ذلك الرجل المنحرف المتعصب ، فإذا إذن يراه الآن تعليلًا يرضيه ؟ إنها حقيقة لا أظنها منكورة من أحد ، وأعني ما قد أسلفناه من أن العربيّ في يومنا هذا ، حتى وهو في أعلى درجات القدرة الفكرية ، لا يعرف أين يصب طاقته العقلية إلا أن يتجه بها نحو ما يتلقاه من أقوال الآخرين ، وهؤلاء الآخرون يكونون مرة من أسلافنا نحن حين نقرأ شيئًا مما خلفوه ، ويكونون مرة أخرى من أبناء الغرب فيما ننقله عنهم مترجمًا ، فهو في كلتا الحالتين يقف أمام « الفكرة » - جاءته من أولئك أم من هؤلاء - وكأنه قد وقف في محراب للصلاة ، ولا يجد عنده من سبيل سوى أن يتجه بقوة فكره ليصبها على الفكرة المنقولة ، أي أن أقصى ما عنده هو أن يسوق قولًا يعلق به على قول جاءه من سواه ، ولا يفتني هذا النوع الغريب من الشلل الفكريّ ، أن يجعل المفكر العربيّ قوله نقدًا يظهر به عيوب القول المنقول ، لأنه سواء قبل أم رفض هذا الذي بين يديه ، فهو على أي الحالتين تابع جعل وجوده الفكريّ مرهونًا بوجود من سبقه

إلى فكرة قدمها إليه فكأنه قدم الغذاء الذى لولاه لهلك صاحبنا جوعاً بكل ما حباه الله به من مواهب النقد والتحليل .

وإذا لم يكن موقفنا إزاء ما يحىء إلينا من فكر منقول عن ماضينا نحن مرة ، أو عن ماضى الغرب وحاضره معا مرة أخرى ، ضرباً من الشلل العقلى الذى يصيبنا ونحن أمام نص مكتوب ، فبماذا نصفه ونسميه ؟ إن ما يظنه هذا الكاتب تعليلاً مقبولاً لهذه الظاهرة التى هى أن فكرنا منصب أغلبه على فكر جاءنا من سوانا ، وقلماً ينصب على موضوع خارجى بصورة مباشرة كان يتجه نحو ظاهرة طبيعية يفسرها بقوانينها ، أو نحو موقف اجتماعى أشكل علينا ولتلمس منه مخرجاً ، أقول إن الظن الذى يغلب على هذا الكاتب ، هو أن موقفنا هذا فى التوجه بفكرنا إلى فكر ابتدعه سوانا ، إنما جاء نتيجة طبيعية لمنهج « الحفظ » الذى انتهجناه فى حياتنا العقلية كلها ، منذ أسدل التاريخ ستاراً كثيفاً على إبداعنا الفكرى ، وكان ذلك مع الفتح العثمانى لبلادنا فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، فمنذ ذلك الحين انطفأت فىنا جذوة الإبداع فانقلبت الحركة العلمية بين أيدينا لتتحصص فى تقليب ما قد مضى مما تركه السلف ، تتناوله حفظاً لنصوصه ، أو حفظاً للملخصاته ، أو حفظاً لشروحه ، وامتد هذا الاجترار الفكرى ثلاثة قرون ، فلما جاءت أوروبا إلينا بعلمها الجديد فى أول القرن التاسع عشر ، واضطرونا إلى فتح مدارس ومعاهد ثم جامعات آخر الأمر ، لتدريس هذا العلم الغربى الجديد ، انتهجنا نحو هذا العلم الوافد ، المنهج نفسه الذى كنا عندئذ نعالج به تراث أسلافنا ، وأعنى

منهج « الحفظ » ، فإذا يصنع الموهوب منا في حالة كهذه ، سوى أن
يتجه بمواهبه العقلية نحو ما ألقى إليه من السلف أو من أبناء العلم
الجديد على حد سواء ، فيدير فكره حول فكرهم ؟ .. وهكذا مضينا
لاحيلة لنا في عالم التفكير إلا أن نعلق فكرا على فكر ..

حياة قلقة

العصر كله متميز بموجة غمرته بالقلق ، لا يقتصر فيه القلق على ذلك الحد الذى لاحياة لإنسان بدونه ، بل جاوزه حتى أصبح علامة لا يخطئها بصر ، وليس بأى منا حاجة إلى أن يقرأ عن قلق العصر فى صحيفة أو كتاب ، بل تكفيه حياته هو مرجعا كلما أصبح به صباح أو أمسى مساء ، لأنه يحس فى كل لحظة وكأنه مقبل على مجهول : ترى ماذا تجبئ له اللحظة الآتية ، ويقرأ الصحيفة اليومية أو يستمع إلى مذياع أو تلفاز ، ليعرف أخبار الدنيا ، وإذا بمعظم أخبارها ، فى كل نشرة اخبارية يقرأها أو يستمع إليها ، قتل ، وخطف ، وتعذيب وتدمير ، وأغرب ماتراه فى هذا كله ، هو أن أفضع الجرائم تقترب محتمية بأشرف القيم ، وإن الكثرة الغالبة من الضحايا هم الأبرياء ، الكل فى قلق تتمزق منه الأعصاب ، وعلته فى أغلب الظن هى أنه عصر جاء ليكون حلقة وصل بين حضارتين : حضارة منها بلغت ختامها بحرين عالميتين ، فى أولاهما (١٩١٤ - ١٩١٨) ارتجت الجدران ، وفى ثانيتهما (١٩٣٩ - ١٩٤٥) انهار البناء ، فبعد أن كان الناس يحبون على قوانين وقواعد ونظم ثبتت ثباتا جعل كل فرد

قادرا على أن يعرف في يومه كيف يكون غده ، بحيث يعد له العدة وهو على مايقرب من اليقين بأن مايتوقع حدوثه في غده سيراه محققا رؤية العين حين يحل مواعده ، لكن هذا الثبات كان يخفى وراءه مايجفيه من ظلم الظالمين : فقد كاد العالم عندئذ ينقسم قسمين ، أحدهما يمسك بالرقاب ، يستغل الضعيف ويستذله ، والآخر يخنق .

كان مسرح الأحداث في القرن الماضي يشهد التقيض ، فهو عصر استعمار الأقوياء للضعفاء ، ولكنه كان في الوقت نفسه عصر الأفكار الجديدة التي بذرت بذورها ، لا لتنمو وتورق فور غرسها ، بل لتنضج وتثمر بعد حين ، فقد كان القرن الماضي هو العصر الذي تحولت في أوائله الرؤية ، من سكونية يرونها في الكون ، بمعنى أنه لا زيادة في الكون ولا نقصان ، وكل ما في الأمر حركة تنقل ذرات المادة من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا بقانون محكم محسوب ، حتى لقد غلبت الفكرة بأن اللحظة الحاضرة يمكن لصاحب العلم أن يستدل منها كل الماضي كيف كان ، وكل ما هو آت كيف يكون ، فتغيرت الرؤية من تلك السكونية إلى دينامية حركية يرونها في الكون ، فهو كون ينمو ويمتد ، ثم هو كون يبدع فيه جديد كل لحظة ، وإذا رمزنا للرؤية السكونية السابقة ، والنظرة الدينامية السكونية السابقة ، والنظرة الدينامية اللاحقة ، برمزین يوضحان الفرق بينهما ، قلنا إن الأولى أشبه بآلة تضبط الوقت في دقة لا تخل ، وليس فيها إلا قطع من مادة أحكم تركيبها ، بحيث تؤدي ما تؤديه كما يتظر لها أن تؤديه ، فلا زيادة ولا نقصان ولا انحراف عن الطريق

المرسوم ، وأما الرؤية الثانية فيمكن الرمز لها بشجرة تنمو ، إن عالم النبات بكل علمه لا يستطيع أن يتنبأ لها على وجه الدقة كيف تنمو : كم عدد الفروع وكم عدد الأوراق ، وبأية صورة تتعرج الفروع ، أو تستقيم ، وبأية طريقة تتعرق كل ورقة بخطوطها ؟ كان الكون فى الرؤية الأولى مواتا إلا من احياء هذا الكوكب الأرضى ، فأصبح الكون حيا بما ينمو ويتسع ، وبما يبدا فيه كل لحظة من جديد . أحدثت هذه الرؤية الجديدة التى استهل بها القرن الماضى حياته ، رجة فى عالم الفكر كله ، فتغيرت وجهات النظر ، فأخذت فكرة « التطور » تسود وتنوع ، فتغيرت بها منهج النظر إلى الكائنات ، فإدام التطور - وليس الثبات - هو الأساس ، إذن فجوهر أى شىء هو تاريخه ، فالتغير معناه أن يكون الكائن المعين - كل كائن وأى كائن - سيرة تمتد على فترة من الزمن ، وإذا رصدنا مراحل تلك السيرة لحظة لحظة ، كنا أمام ما يشبه الرواية ، فالذى نراه من شجرة ، أو من نهر ، أو من عصفور ، أو من إنسان ، إنما هو إحدى لحظات وجوده ، وهى لحظة تختلف عما سبقتها وعما سوف تسبقها . وإذا كانت سنة الكون وكائناته حركة ونموا وسيرة ، فهل يعقل أن يظل الشعب الحاكم حاكما والشعب المحكوم محكوما ؟ ! إذن لابد من ثورة أو ثورات تتفجر لتمحو الثبات الذى كان ، ولتعمل على إيجاد ما يتغير به وجه الحياة ، وكان لابد لهذا التغير الجارف من حروب تدك الحصون القائمة ، فكانت الحربان العالميتان الأولى والثانية ، وما قام بينهما وبعدهما من ثورات اقليمية هنا وهناك .

وفي سنوات قلائل بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) أخذت الأقطار الواقعة تحت حكم الرجل الأبيض تستقل قطرا بعد قطر ، وقامت هيئة الأمم المتحدة على زعم بأن متفرقا من الأمم قد اتحد ، فلم تمض بعد ذلك إلا سنوات ثلاث ، حتى اعلن ميثاق حقوق الإنسان ، فأخذت التغيرات الكبرى في بنيان الحياة الإنسانية تتسع أبعادا وتعمق أغوارا ، لأنها تغيرات سارت في خطوط افقية تشمل كرة الأرض بأسرها ، ولا يقتصر التغير الواحد منها على بلد بعينه يضرب بجذوره في أرضه حتى لا تنتقل عدواه إلى جيرانه ، فهناك التغير في مكانة « العامل » الذي استهدف أن تكون للعمال كلمة أعلى صوتا ، وأجر أكثر ، ورتبه اجتماعية أعلى ، وامتدت الحركة لتوحد بين العامل والعامل عبر الحواجز القومية ، إذ اصبحت القرى بين العاملين بسواعدهم وأيديهم أوثق آصرة من الصلة التي تربط العامل ومواطنيه في البلد الواحد .. وهنالك التغير في عالم المرأة ، وقد امتد هو الآخر في ابعاد افقية جعلت للمرأة في جميع انحاء العالم حركة واحدة ، لأن حقوقها الضائعة تكان تكون مشتركة ، لا يختلف فيها بلد عن بلد إلا في القشور دون اللباب ، واللباب هو أن تعد المرأة « إنسانا » له كل حقوق الإنسان التي أعلن ميثاقها في أواخر سنة ١٩٤٨ ، إذا ما جدواها إذا قيل لها - مثلا - إن لها مثل الرجل حقا في الحرية والمساواة ، ثم لا تكاد تسمع عن هذه الحقوق عند عتبة الدار حتى تصطدم داخل الدار بمن يسلبها باليسار ما كانت أخذته باليمين منذ قليل !!؟ وذلك لأنها تنظر فإذا

هى لم تزل مرهونة بكلمة مجنونة ينطق بها زوج فى لحظة غاضبة ، فتجد نفسها معلقة فى الهواء ، وتغيرات أخرى كبيرة وواسعة شملت الطفل وحقوقه ، والمسن وحقوقه ، والمريض أو المعوق وحقوقه ، وهكذا وهكذا ..

وربما كان ما هو أعمق من تلك التغيرات جميعا ، وهو التغير الجذرى الذى تغيرت به وجهة النظر إلى « الثقافة » ومعاييرها ، فبعد أن كانت وجهة النظر خلال القرن الماضى وأوائل هذا القرن - وأعنى فترة الثبات التى اشرت إليها هى أن للثقافة معيارا واحدا ، وهو ثقافة الغرب ، أو ثقافة الرجل الأبيض ، بمعنى أن درجة التقدم أو التأخر فى الحياة الثقافية للفرد الواحد ، أو لشعب من الشعوب ، تقاس بمقدار قربها أو بعدها من ثقافة الرجل الأبيض ، ثم انقلب الميزان بعد استقلال الشعوب فيما أصبح « تقريبا » يسمى بالعالم الثالث ، إذ أعقب ذلك الاستقلال السياسى نتيجة طبيعية ، هى أن تستقل الثقافات بموازينها الاقليمية ، دون الحاجة إلى ميزان الرجل الأبيض وثقافته ، فلكل شعب حياته ، وتاريخه ، وعقائده ، وتقاليده ونظمه الاجتماعية ، وماذا تكون ثقافته - إذن إلا أن تكون تعبرا عن هذا كله ؟ ماذا يقول الشاعر إذا لم ينبض قلبه مع إيقاع الحياة التى يحياها هو وذووه ؟ وعلى أى الصور نجىء شخصيات الرواية والمسرحية إذا لم تكن مستمدة من الخبرة الحية للأديب وهو فى خضم الحياة الجارية مع بنى أمته ؟

هى إذن كما ترى ، تغيرات واسعة وعميقة جاءت كلها إشعاعا

من تلك الفكرة العظيمة الخصبية التي ولدت في أوائل القرن الماضي لتغير وجهة النظر إلى الكون وإلى الحياة من أساسها ، فبعد أن كانت القاعدة المرجعية لما هو صواب في أى شيء ، هى أصل ثابت يجرى على سنن معلومة ومحسوبة ، أصبح أساس الحكم شيئا آخر ، هو مدى حيوية الاعتمال الداخلى الذى يضطرم في كيان الكائن المعين ، أو الجماعة المعنية ، فيغيرها بما تستطيع به أن تنمو وأن تبذل ما هو جديد ، وأن تشكل بيئتها لصالحها ، ولاتقف موقفا سلبيا تتلقى فيه المؤثرات الخارجية لتتولى تشكيلها .

لكن هذه التغيرات الكبرى لا تبلغ غاياتها بين يوم وليلة ، إنها بمثابة خلق جديد لمجتمع جديد ، ويزيد الأمر عسرا ، أن الأمر ليس موكولا كله لرغبة الإنسان ، فلا يكفي أن يقول الإنسان لنفسه : أريد كذا ، فإذا الشيء المراد قد تحقق ، لأن لكل رغبة أعداءها ، فإذا كان العمال قد تحركوا واتحدوا عبر الحواجز القومية ، ليجعلوا للمهارات الحرفية والفنية مكانتها التى تستحقها ، فهناك أصحاب الأموال ومعهم أصحاب المهن كالأطباء والمهندسين ورجال القانون ورجال التعليم ومن جرى معهم هذا الجرى ، يتمنون أن تظل لهم امتيازاتهم الاجتماعية القديمة ، وإذا كانت المرأة قد أخذتها الصحوه أخيرا وبدأت تشعر بوجودها إنسانا كامل الحقوق ، بالمعنى الصحيح الذى يتناول الجوهر ، وليس بقشور شكلية ثانوية لا تنفع ولا تشفع ، فهناك الرجل الزوج الذى يحلم بأن يكون كسلفه سيدا وحوله الجوارى ، ثم إذا كانت الشعوب المحكومة قد استقلت ،

فهناك حكامها الأقدمون تشتد قبضتهم على سلطانهم القديم ،
ففعّلوا ما فعله الذئب في حكايات الأطفال ، قالت لهم أمهم قبل
خروجها سعيًا وراء القوت ، لا تفتحوا باب الدار لأحد سوى ،
فجاء إليهم الذئب مرتديًا ثيابا كثياب الأم وقرع الباب ، وهكذا فعل
الحكام الأقدمون للشعوب التي ظفرت باستقلالها ، وكيف يتم لهم
استقلال والعلم ليس علمهم ، والصناعة ليست صناعتهم ، فهم -
إذن - ما يزالون اتباعا في صورة جديدة ، ما ينالون من العلم وثمراته
إلا ما يتصدق به عليهم حكامهم الأقدمون أنفسهم !!

ولك أن تضيف إلى ذلك كله ، أنه إذا كان المستعمر الخارجي
قد حمل عصاه على كتفه ورحل ، فقد حل محله - تقريبا - مستعمر
داخلي يحمل القوة المغناطيسية التي تجذب كنوز البلد إلى خزائنه بقدرة
قادر ، ويبقى جمهور الشعب على حاله يعمل ليملاً خزائن آخرين ..
وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء الآخرين من مواطنيهم - بعد أن كانوا
من الغرباء - ما قاله شاعر عربي قديم : « إذا كنت مأكولا فكُن أنت
أكلي » !!

هذه الارتجاجات كلها قد زعزعت هياكل الحياة الثابتة التي
كانت ، تمهيدا لوضع ثابت جديد يأتي ، ولكنه لم يتكامل بناؤه
بعد ، فأدى ذلك إلى قلق في حياة الناس أصولا وفروعا ، لا يكاد
يتاح لأحد منهم أن يعلم في يقين أو ما يقرب من اليقين ، ماذا يكون
مصيره ومصير بيته غدا أو بعد غد ؟ .. ولقد رأيت شابنا قد انحرف
عن جادة الطريق بصورة ملحوظة ، بحيث أصبح كثيرون منهم -

برغم شبابهم - ينبشون الماضي ليجدوا فيه ركنا آمنا يعتصمون به ،
وبحيث إذا وجدوا كتابا لكاتب قديم ، وقدم إليهم كاتب من
معاصريهم ومواطنيهم كتابا ينقض ما قاله المؤلف القديم ، ففي حالة
واحدة - ربما - من كل مائة حالة يتجه شبابنا بثقته إلى من يعاصره
من مواطنيه ، لأن القديم عنده أصدق رأيا ، وأكثر إيمانا ، وأشد
إخلاصا .. فكيف نتوقع لشباب وقف مثل هذه الوقفة الراضية أن
يهم بيناء حاضرنا ، فضلا عن أن يمهّد لمستقبل مأمول ؟!!!

الحياة التي يحياها أبناء هذا العصر مضطربة قلقه ، لأنه عصر
جاء - كما قلت - همزة وصل بين حضارتين : حضارة كانت وأخرى
سوف تكون ، وكأنما عصرنا ليس مقصودا لذاته بقدر ما هو نهايات
لماض مضى وآت في طريقه إلى الظهور ، وداخل هذا القلق العصري
العام ، يضيف العالم العربي قلقا خاصا به ، فقد زرع شيء في أرضه
اسمه اسرائيل ، فاستقطب جزء كبير من حيوية الجسم العربي لتتصرف
إلى الدخيل المشتول في أرض غير أرضه ، حتى أصبحنا أمام مصير
مجهول ، ولم نجد من المأزق مخرجا أيسر من أن تتجه أعضاء الجسم
العربي ليعترك بعضها مع بعض ، بل وليقتل بعضها بعضا ، فالكبد
يقتل القلب ويريد مع ذلك أن يعيش ، أو القلب يقاوم الرئتين
وبحسب أنه سيبقى بعد ذلك مع الأحياء ، وكانت المحصلة الأخيرة
لهذا الاضطراب العام والخاص ، أن وجدنا أنفسنا أمام ازدواجية
خلقية متقطعة النظير ، تضطربنا المؤثرات الخارجية والغرائز والعواطف
الداخلية معا إلى ممارسة الحياة على نحو يحقق لنا النجاح أو ما يبدو

وكأنه نجاح ، ولكننا فى الوقت نفسه ننظر إلى موقعنا من التاريخ فزى
أن الشقة قد اتسعت بين ما نحياه بالفعل من جهة ، وما كان ينبغى لنا
أن نحياه من جهة أخرى ، فتلجأ إلى الازدواجية التى أشرت إليها ،
وهى أن أظهر أمام الناس وكأننى على ميراثى الثقافى القيمى الذى به
كنت ما كنته على امتداد التاريخ ، وأما وراء الأستار وخلف
الجدران ، فحياتى هى حياتى التى أساير بها الأيام فى تقلباتها ..

فارق بعيد بين المظهر والحقيقة فى حياتنا ، بين الظاهر والباطن ،
بين المعلن والمستور ، أدى بنا إلى نرجسية من نوع عجيب ، ننظر إلى
صورة وجوهنا منعكسة على سطح الماء - كما حدث فى أسطورة
النرجسية - فنقع فى حبها حباً أين منه حب قيس لليلى ، فنشيد
بأنفسنا لأنفسنا ، ونكون نحن المتكلم ونحن السامع ، ونكتب فى
غرامنا بأنفسنا قصائد الغزل لنقرأ نحن ما كتبناه ، وكأن كاتماً للصوت
يحول دون أن يبلغ صوت القراءة إلى آذان الآخرين ، وإذا قلنا إنه
قد أصبح لنا من أجل هذا رأى فى أنفسنا وللدنيا رأى آخر ، لهان
الأمر لأنه لا يضيرنا أن تذهب الظنون بهؤلاء الغرباء كيفما ذهبت ،
لكن موضع العجب هو أننا نحن أنفسنا إذ نقرأ قصائد الغزل التى
نظمنها فى حب أنفسنا ، نرفع صوت القراءة لعلنا نصدق أنفسنا ،
ومع كل هذا الجهد يبقى شىء فى نفس يعقوب لا يريد أن يصدق ما
يسمعه !!!

حياة قلقة هى التى يحياها العصر كله ، ثم يضيف كل بلد إلى
دواعى القلق العام المشترك ، عوامل اقليمية خاصة تزيد حياته قلقاً

يدبر له هذا الجانب الحيوى المفقود ، ووجدناه أميا لم يظفر بحقه من التعليم ، فقلنا إنه لابد للتعليم منذ الآن أن يكون حقا للجميع يشبه حقهم فى الماء والهواء .. إلى آخر ما كان الجمهور قد حرم منه وأردنا له أن ينعم بحقه فيه ، لأن « العدل » الاجتماعى يوجب علينا ذلك ، لكننا من ناحية أخرى وجدنا أن الناتج الاقتصادى كله لا يكفى لسد هذه الحاجة ، فما بالك وشرط الاقتصاد الناجح هو أن يخصص جزءا من الناتج ليضاف إلى تمويل عملية الإنتاج ، لنضمن زيادة ما تنتجه زيادة تتناسب مع زيادة السكان من جهة ، وتحقق ظروفًا أنسب للتنمية الاقتصادية بنسبة معقولة ، وهكذا أوجب علينا تحقيق « العدل » الاجتماعى ، ما لا تساعد عليه الكفاية الانتاجية ، فوقعت حياتنا فى تناقض لا أدرى كيف السبيل إلى الخلاص منه ، وليست هذه المشكلة خاصة بنا ، بل ولا هى خاصة بالعالم الثالث ، إذ رأينا بلادا فى العالم الأول تستبد بها نقابات العمال بحيث تطالب بأجور وبأوقات فراغ ، لا تتناسب مع الانتاج . ومعنى ذلك قريب جدا من معنى الانتحار ، ومن هنا نشأت مقولة « المعادلة » الصعبة التى أريد بها فى الأساس ، وجوب إيجاد النقطة التى يتحقق بها أكبر قدر من العدل الاجتماعى مع أكبر قدر من التنمية الاقتصادية ، بمعنى أن يحول جزء من ناتج هذا العام ليضاف إلى تمويل النشاط الانتاجى فى العام الذى يليه ، و « الصعوبة » المشار إليها فى هذا التعادل ، ناشئة من أن تحقيق العدل الاجتماعى تحقيقا جزئيا ، كاف وحده لابتلاع الناتج كله ويطلب المزيد ، فكأننا نطالب بشيء كالمستحيل ، حين

على قلق ، فقد ضاع الشعور بالأمن في كل أرجاء العالم ، ومع ضياع الأمن قل العفاء على طمأنينة النفس ، وحوصر الفرد من الناس في ظروف علمية وصناعية جديدة ، فقد معها فرديته الحقيقية برغم ما تؤكد له الحياة السياسية أنه حر ، وأين هي الحرية في حياة تشكلها وسائل الإعلام التي تعطى المتلقى ما تعطيه ، دون أن تكون له حيلة في الرد والمناقشة والرفض ؟.. إنها عملية « غسيل » لمخ المتلقى توجهه على نحو يتوهم معه أنه هو الذى يوجه نفسه ، وكأننا أمام صورة كالتى صور بها « اسينوزا » وهم الإنسان حين يظن أنه حر الإرادة فيما يدع وفيما يختار ، إذ قال اسينوزا في ذلك أن الحجر تلقيه ، فيرتفع في الهواء ويقطع شوطه ثم يقع على الأرض عند النقطة التى كان يمكن للعلم أن يحسبها مقدما فيحدها تحديدا دقيقا ، أما الحجر نفسه فلو أنه منح حياة كحياتنا لتوهم أنه قد قام برحلة في الهواء اختارها لنفسه ورسمها ، ووصل إلى مستقره من الأرض وفقا لخطة التى رسمها !! وهكذا حياة الفرد فى عصرنا وكيف حوصرت بأجهزة علمية تركه شبه مرغم على الطريق الذى يسير فيه !.

وجاءت دول العالم الثالث التى نحن منها ، فوضعتها الظروف التاريخية فى مأزق فوق المأزق التى تشارك بها الآخرين ، خلاصته أننا حين تولينا شئون أنفسنا - بأنفسنا كسائر البلاد التى اكتسبت حريتها ممن أعتصبها - وجدنا جمهورنا العريض محروما من حقوقه فى نواح كثيرة ، وكان علينا أن نرد له شيئا من تلك الحقوق الضائعة : لم يكن ينعم بالحد الأدنى من طعام ومسكن وثياب ، فقلنا إنه لابد أن

نطالب بعدل اجتماعي وببنمية اقتصادية لا بد منها في وقت واحد ..
عندما تستقر أوضاع الحياة على قواعد معروفة ومتعارف عليها ،
وذلك في فترات تستتب فيها صور الحياة الحضارية ولو إلى حد
معلوم ، عندئذ تقل المشكلات التي تستعصى على الحل أو بعبارة
أخرى تقل الأسئلة التي يبحث لها المسئولون عن جواب فلا يجدونه ،
وذلك لأن معظم المواقف قد رسمت لها حلولها فسارت الأمور سيرا
أشبه بالسلوك الغريزي في جماعات التل والنحل ، أما والعالم الآن -
كما ذكرنا - يحتاج مرحلة انتقالية بين حضارتين ، فكثيرة جدا هي
الأسئلة التي تنشأ عن مواقف وأزمات ، فلا يجد لها المتخصصون
حلولاً يمكن أن يستقر الناس عليها ، فما قد تبدو عليه الصلاحية
اليوم ، يغلب أن تبدى نواقصه غدا فيتغير ، لا عن قصور في العلم
أو في دراسة المشكلات ، بل إنها هي طبيعة الظروف الراهنة تقضي
بذلك لسرعة التغير في مجرى الحياة العملية ، الشأن في هذا كالشأن
في اسرة أرادت الانتقال من مسكنها إلى مسكن جديد ، وأخذت في
نقل أثاثها وأشياءها ، فنقلت منه جزءا وبقي جزء . فلا المسكن القديم
بات صالحا ، ولا المسكن الجديد تم اعداده ، أو قل إن شأن المرحلة
القلقة التي يجتازها العالم الآن ، كشأن الغلام في مرحلة المراهقة ، فلا
هو قد اكتمل نضجه شابا عرف طريقه فيعامل معاملة الرجال ، ولا
هو في مرحلة الطفولة الصريحة فيعامل معاملة الأطفال ..

تلك هي حالة العصر الذي كتب علينا أن نعيش فيه ، كلنا يريد
أن تدور عجلة الزمن لتنتقل الدنيا في أمان إلى الوضع الحضارى

الجديد ، لكننا نختلف فى الأسلوب ، فالشيوخ ومن يشبهونهم فى الأناة والتدبر ، يريدون للنقلة أن تندرج خطوة خطوة فلا يرتج البناء ، وأما الشباب ومن هم فى حكمهم ، فيريدون دفع العجلة فى سرعة أكبر مما تختمل فيلجأ كثيرون منهم إلى العنف والانحراف ، إن هذا الكاتب لا يسيء الظن بهؤلاء الشباب من حيث الرغبة فى الاسراع بحركة التغيير ، لكنه فى الوقت نفسه يرى أنهم يخطئون الوسيلة الصحيحة ، لأن التضحية بالأبرياء على هذا النطاق الواسع ، بل إن التضحية ببرىء واحد تقتله غدرا وأنت تعلم أنه برىء ، يستحيل أن يعود على الناس بالخير ، وإلا لجاز أن تغرس بذور العلقم المر وتتوقع أن ينبت لك منها اطيب الثمار !

قلقة هى الحياة فى عصرنا ، لكن هنالك فرقا جوهريا بين قلقى الراشدين وقلقى المراهقين ، فهناك من الشعوب من استطاعوا أن يتصوروا الهدف فى شىء من الوضوح ، فعرفوا كيف يسرون بسفائهم لتخترق الموج المضطرب ولتنجو من العاصفة ، إنهم على كثير من ادراك ما وراء هذه المرحلة الانتقالية ، فيعرفون كيف يدبرون أمورهم لتتجه خطوات سيرهم نحو ما يرجحون له أن يكون هو لب الحضارة وأساسها فى القرن الحادى والعشرين ، وربما وجدوا ذلك يسيرا عليهم لأنهم هم صناع العلوم فى يومنا هذا ، وهم الذين يسكون بزمام السير فى شتى نواحي الحياة ، من فنون ، ونظم ، ولذلك سهل عليهم أن يتصوروا على أى صورة يحىء ما سوف يحىء فى الحضارة الجديدة ، إننا نسمع عن المفاتيح الأساسية التى بدأت تفتح

مغاليق المستقبل المجهول ، مثل الكمبيوتر وأشعة الليزر والقوة النووية ، فهم الذين يملكون في أيديهم تلك المفاتيح ، وهم على شيء من المعرفة الصحيحة كيف يطوروها فتتكشف صفحة الحياة الجديدة المرتقبة .

فهل يسع هذا الكاتب العربي وأمثاله ، إلا أن يدير بصره نحو وطنه وأمته ، ليرى صورة الحياة الثقافية القائمة ، ليعلم إلى أي حد نحن على علم بحقائق الطريق الذي يسير فيه التاريخ ؟ إننا على أحسن الفروض نتابع الغرب وهو يقلب صفحات الحياة المتغيرة في عصرنا ، وكلما فتح منها صفحة جديدة ، تمكن نفر منا من المشاركة في قراءتها ، وإذا هم هناك قد أوقفوا الحركة عند صفحة بعينها أوقفنا نحن الحركة عندنا ، وليس في وسعنا شيء غير ذلك ، لأنهم يبدأون ونحن التابعون ، وخلاصة ذلك إن غدنا نحن مجهول لنا ، ومن أين لنا استباقه بمعرفة ونحن في حركة التاريخ الحاضرة لا نسمع صوت أقدامها فننتظر لعلنا نسمع صداها !!

وإذا كان قلق الحياة في زماننا قد نشأ أساسا من فجوة وقعت بين حاضر واقع ومستقبل منتظر الوقوع ، إذ لو كنا في عصر استقرت فيه قوائم حضارته ، لتشابه غدنا ويومنا ، إذن فقد كان المأمول من رواد حياتنا الثقافية أن ينفذوا بمبدعاتهم سحب الحاضر ليطلعوا الناس على قبسات من مستقبل محتمل الحدوث ، لكل مثل هذا النفاذ بالبصائر خلال الحاضر استطلاعا للمجهول ، كان يتطلب منا أن نكون على بينة بما يحدث في يومنا ، من وثبات في ميدان العلم ، إلى تيارات

خافية في دنيا السياسة والنظم الاجتماعية ، لأنك لا تستطيع أن تستدل من الواقع إلا إذا كنت على علم بهذا الواقع ، وأعنى العلم الذى يتج عن ممارسة ومكابدة ، وليس العلم الذى تتناقله خطفا عن اشاعة يذيعها زيد فيتلقفها عمرو ، ولا عمرو عرف سر الأمور ولا زيد كان على علم صحيح به ..

فإذا كانت اقطار العالم كله تحيا اليوم حياة قلقة فرضتها طبيعة المرحلة التاريخية التى نجتازها ، فإن هنالك فرقا بين قلق يعرف أصحابه ولو على سبيل الاحتمال كيف السبيل إلى اختراقه وصولا إلى ما وراءه ، إذ هو على بعض العلم بذلك الماوراء ، وبين قلق آخر يسير أصحابه وكأنهم فى جب معتم لا يعلمون إلى أين هم سائرون . .
وهل تسألنى : وماذا تريد منا أن نصنعه ؟.. إن الذى أريده ولو على سبيل التمنى والرجاء ، هو أن يتقل رواد الثقافة فينا من موقف المتفرج إلى موقف اللاعب ...

العربي اليوم غامت رؤيته

سؤال تلقيته على امتداد السنين . لا أقول مرة أو عشر مرات أو مائة بل تلقيته مئات المرات ، هل للعربي فلسفة ؟ وإذا كانت فما هي ؟ ولو كان السؤال آتيا ممن لا يعرف عن الفلسفة رأسا ولا ذنب ، لكان الأمر ، لأننا عندئذ نحيل جهله بالموقف العربي في هذا الشأن إلى جهله بعالم الفكر الفلسفي في جملته ، دون أن تأخذنا الدهشة من سؤاله : ولكنه كثيرا ما أتانا السؤال من دارسها ، مما يدل على أن الأمر كان لا بد له من وقفة دراسية فيها الدقة والشمول ، لكننا لم نفعل كأنما الأمر أهون من أن يثير اهتمام الدارسين : ولكن من أين تجيء إليه أهميته ؟ هكذا قد سأل سائل فنجيب قائلين :

الفكر الفلسفي في جوهره إنما هو « تأصيل » ظواهر الحياة السابجة على السطح المنظور لزدها إلى عمق نجد فيه « ينبوع » الخفي ، الذي فيه انبثقت تلك الظواهر التي رأيناها على سطح الحياة اليومية متفرقة وكان الظاهرة الواحدة منها لاشأن لها بأخواتها ، أما وقد كشفنا - بالفكر الفلسفي - أساسها الواحد المشترك الذي أقيمت عليه جوانب حياتنا المختلفة جميعا ، كما تتفرع فروع الشجرة من جذعها ، فعندئذ

تبلور الرؤية وتتضح ، لأننا على الأغلب واقعون على صفة مشتركة تصف جميع ظواهر حياتنا ، ففى بأعيننا أين تقع بين أفراد الأمة الواحدة روابط الرحم كما نرى كذلك المميز الأساسى الذى يميز أمة من سائر الأمم فى لغاتها وحركاتها وسكناتها .

على أن الأمة الواحدة وإن تكن وحدانيتها تلك ظاهرة - على الأرجح - فى طريقة تفكيرها على امتداد تاريخها إلا أن هذا التاريخ الواحد نفسه ، مع محافظته على الأساس الموحد ، قد يتشكل بألوان متباينة مع تباين الظروف فى كل عصر على حدة ، هذا من جهة الأمة الواحدة المعينة ومن جهة أخرى بالنسبة إلى مجموعة الأمم التى تتعاصر معا فى ظروف عصرها فإنك لابد واجد بينها فى كل عصر على حدة ، وبرغم اختلافاتها النوعية عنصرا مشتركا يلفها جميعا فى مناخ متشابه مادامت تعايش عصرها ، ولم تتخلف عنه مرتدة إلى ماضىها . ونضرب لك مثلا يوضح لك هذا القول (عصرنا القائم) ، فانظر إلى كل أمة ممن يشاركون فى بنائه ، تجد لها فى أعماق حياتها قاعا من خطها التقليدى الثابت ، مع اشتراكها مع غيرها فوق ذلك الخط الثابت فى مناخ فكرى متجانس ، هو المناخ الذى تتميز به حضارة هذا العصر القائم ، فلئن كانت الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا ، وفرنسا ، والروسيا ، واليابان ، مثلا - مشتركة كلها فيما يقتضيه مناخ هذا العصر بعلمه وصناعته من صفات لامفر من التكيف لها إذا أراد الإنسان أن يتحقق النجاح الذى يرجوه ، فكل واحدة منها تعود بعد ذلك فتلوذ بجبلها الممتد مع تاريخها لتعتصم به فتأمن من الزلل ،

فالولايات المتحدة الأمريكية « براجماتية » الطابع - بمعنى أنها تميل إلى الحكم على الفكرة المعينة بنتائجها لا بأصول نشأتها ، والانجليزى واقعى فالنظرة فى حكمه على الأفكار للتمييز فيها بين ماأصاب وما أخطأ بمعنى أنه يبحث للفكرة عن مصادرها الحسية التى عنها تولدت الفكرة ، فإذا وجد لها سنداً تدركه الحواس كانت مقبولة ، وإذا لم يجد قال : إنه لاحس هنا وإذن فلا معنى ، إذا « الحس » والمعنى عنده شىء واحد ، ويشير إليها باسم واحد فى لغته ، والفرنسى على خلاف الانجليزى لا يطمئن للفكرة إلا إذا تعقب نسبها إلى منابتها فى منطق العقل الخالص ، مما قد يترتب عليه أن يكتفى الانجليزى لقول الفكرة بأن تكون « مرجحة » الصواب ، وأما الفرنسى فتطمئن نفسه إذا وجد « اليقين » فمجرد الترجيح هو من شأن الحواس فى طريقة ادراكها ، وأما اليقين فلا يتحقق إلا إذا أقيمت على الفكرة براهينها المستندة إلى العقل ومنطقه فى استدلال تلك الفكرة من سابقة لها مؤكدة الصواب ، واليابانى فوق مشاركته لقادة العلم والصناعة فى عصرنا بكل مايقضيه ذلك من خصائص يرتد إلى سند من تقاليده الثقافية يستريح له ، وهو سند تغلب عليه نزعة الذوق الفنى والانتماء الأسرى الدافئ وأما الروسى ، فقد عرفناه حتى أوائل هذا القرن ريفى النظرة تحكمه أقلية ارستقراطية على رأسها قيصر ، فلما ثار ثورته سنة ١٩١٧ ليدخل القرن العشرين ، أخذ منه العلم والصناعة فساير بهما سائر أقطار الغرب وازاح عن صدره عبء الارستقراطية وحكم قيصر ، إلا أنه لم يرتد إلى مناخه الريفى الذى كان ، أو قل إنه وسع

من قاعدة الروابط الأسرية التى عرفتها الحياة الروسية كما عرفتها كل أرض تغلب عليها الزراعة والقرى ، بحيث أراد أن يجعل الأمة كلها أسرة واحدة ترتبط بما يشبه الروابط الأسرية القديمة نفسها مع اختلاف الأسماء ، لكنه يبدو أنه أسرف فى هذا التحوير حتى خرجت حياته عن عرفها السابق ، فانتج ذلك ما انتجه وهانحن أولا نرى الروسى اليوم يعيد النظر ، وهذا القول الذى نقوله عن روسيا ، يصدق مثله على الصين .

فإذا عن العربى كما نراه اليوم - وكما رأيناه فى أمسه ؟ لعلك تذكر شيئا مما كنا قد تذاكرناه معا فى حديثنا عن «العروبة» وخصائصها وهى خصائص تميز المنطقة الشرق أوسطية بأسرها منذ أقدم التاريخ ، سواء استخدمت لها كلمة «عروبة» أم لم تستخدم ، فاسم «العروبة» أحدث من النمط الثقافى ذى الخصائص التى أشرنا إليها وحددناها فى مجالات الدين والفن والأخلاق ، وأسس النظام الاجتماعى ، واللغة من حيث طرق اشتقاق مفرداتها وتركيب تلك المفردات فى جمل .

وغير ذلك من الأصول التى تبنى عليها الثقافات ، فقد كان بين ماذكرناه عن النمط الثقافى الذى نحيا فى اطاره هذه المنطقة الجغرافية كلها ، إن مفتاح هذا النمط مستمد من خصائص الصحراء فى لانهايتها التى تبدو للبصر وتحسها البصيرة ، ومع تلك اللانهائية يضاف الثبات وعدم التغير إلا فى أضيق الحدود ، فالشمس ساطعة لا يحجبها سحب ، والسماء زرقاء حتى إذا ما نشر الليل سواده لمعت

النجوم واضحة بسامرها المقيم ويهتدى بها المسافر .

وأما معالم الأرض فيومها يشبه أمسها : السهل هو السهل والنجد هو النجد والكثيب هو الكثيب ، ومن هذه اللانهاية الثابتة استمد ساكن الصحراء مفتاح هيكله الثقافى فى أصوله ودعائه .

فلا غرابة أن يكون الإيمان الدينى فى هذا النمط الثقافى أصل الأصول وركيزة الركائز منذ فتح له التاريخ صفحاته وعلى امتداد العصور بعد ذلك ، وذلك لأن التأثير بلا نهائية الكون وثباته ، استنادا إلى رؤية العين وإدراك البصرة يهيم النفس للإيمان بالله الخالق الواحد الأحد الصمد ، إذا ما نزل الوحي بهذه العقيدة على نبي أو رسول فلم يكن غريبا أن مثل هذا الوحي لم يتزل على أنبياء ورسل إلا فى هذه المنطقة فكان للدين الذى أوحى به خصائص تميزه عما بشر به أصحاب الديانات الأخرى فى سائر أنحاء الأرض ، والذى يهمننا من هذه الحقيقة فى سياق حديثنا هذا هو أن أصبح مرجع العربى - أو قل ساكن هذا الاقليم الصحراوى الممتد من المحيط غربا إلى الخليج شرقا - هو ما أوحى به إلى أنبيائه ورسله ، مما يحقق له ما كانت فطرته قد انفعلت به ، من لا نهائية الحقيقة وثباتها .

فقد يجد العربى أن إدراكه لما حوله تتفاوت درجاته من حيث اليقين ، فليس ما يعلمه عن طريق الرواية ناقلا عن ناقل ، مساويا فى درجة التيقن من صوابه لما يعلمه عن طريق الحس المباشر باحدى الحواس من سمع أو بصر أو أية حاسة أخرى ؛ وليس هذا الذى أدركه بالحواس مساويا فى درجة التيقن من صوابه ، لما يدركه

بالعقل استدلالاً منطقياً سليماً ، فنحن حين نعلم أن زوايا المثلث تساوى زاويتين قائمتين ، لا نقنع بصحة ذلك اعتماداً على مثلث نرسمه على ورقة أمامنا ونقيس زواياه بمقياس تراه العين وإنما نلجأ في ذلك إلى إقامة البرهان «العقلى» على صحة هذه الحقيقة الرياضية عن المثلث وزواياه وهنا قد يميل النمط الثقافى العام السائد فى أمة معينة بأصحابه إلى الوقوف عند ما قد أثبتته العقل بالدليل البرهانى فلا يتساءلون بعد هذه النهاية فى درجات اليقين - قائلين - لأنفسهم : وماذا فوق ذلك من درجات ؟ ولكننا قد نجد كذلك نمطاً ثقافياً آخر ، يسود أمة أخرى ، يميل بأصحابه نحو ذلك التساؤل ومن هذا القبيل نمط الثقافة العربية - وأعنى الشرق أوسطية - فرجل كالإمام الغزالى ، عندما أخذ (فى كتابه « المنقذ من الضلال ») يفصل القول فى درجات الإدراك من حيث صحة ذلك الإدراك عندما وصل به التصاعد إلى درجة الإدراك «العقلى» لم يجده كافياً لليقين ، مما اضطره إلى افتراض درجة أعلى ، عندها تتم طمأنينة القلب بأن ما أثبتته العقل هو صحيح ؛ وكانت تلك الدرجة الأعلى عنده هى - كما عبر هو عنها - « نور يقذفه الله فى القلب » ؛ وهى درجة تدخل بالإنسان فى دائرة الإدراك الصوفى .

وعند هذا المنعطف من سياق الحديث ، نقف وقفة قصيرة تؤكد فيها سمة من أبرز ما يميز النمط العربى فى رؤيته الثقافية العامة من سمات وهى قدرته على الجمع بنظرة واحدة بين الجانبين : العلمى والصوفى ، فإذا استعرضنا الأنماط الثقافية الكبرى التى عرفها التاريخ

« وقد تكون ظروف عصرنا قد أزالَت كثيرا من الفواصل بين تلك الأنماط » وجدنا ثقافة الشرق الأقصى تجنح بميولها نحو الرؤية الصوفية لما يدركونه من الأشياء والمواقف ، والرؤية الصوفية هي إدراك مباشر بالبصيرة ، أو بالقلب ، كما نقول أحيانا ، أى إنها « تتذوق » الحقيقة ولا تحتاج فى اثباتها إلى أدلة العقل ومن ثم تضخم دور « الفن » فى حياتهم ، وكادت « الخبرة » الذاتية أن تكون هى السند القوى الذى يركن إليه أئمة العقيدة فيهم ، وأما أوروبا فقد غلب عليها نمط « العقل » فى تدليله وتحليله ، كما هو واضح فى التراث اليونانى ، وبين هذين الطرفين قام نمط ثقافى ثالث ، هو النمط العربى ، الذى دمج دجما فريدا بين حياة العقل وحياة القلب ، بحيث ترى « العالم » وكأنه يتحرك مع خطوات عقله على خلفية مؤمنة ، كما ترى « المتدين » يتحرك مع نبضات إيمانه وكأنه يبطن خلفية عقلية .

وعلى مثل هذا الدمج بين الجانبين قام البنيان الثقافى وما يصاحبه حتما من « رؤية » عامة إلى الحياة الإنسانية وأوضاعها ، وإذا لخصنا الاطار الهيكلى الذى تستند إليه هذه الرؤية قلنا إنه مؤلف من « نص » مسلم بصوابه - ثم عملية عقلية منطقية تستنبط من هذا النص نتائجه وأحكامه فإذا وقف الدارس عند « النص » كان بمثابة من اكتفى بما يطمئن له القلب ، وإذا انتقل من النص إلى ما يلزم عنه ، كان بمثابة من اضاف عقلا إلى قلب فاكتمل على يديه الاطار . ولست أريد هنا أن أقصر « النص » على النصوص الدينية وحدها بل أوسع المعنى ليشمل أى شىء آخر مما وجدناه بين أيدينا من

أقوال القدماء أو المحدثين فالذى يهمنا الآن هو تصوير اللفظة الثقافية التى تتميز بها الوقفة العربية .

فلما عاشت الدنيا بشرقها وبغربها عصرا - أو عصورا - تعتمد فيها من الناحية الثقافية على « نصوص » وما يستخرج منها ، كان للأمة العربية السبق والريادة لأنها وجدت نفسها فى ظروف تتلاءم مع فطرتها الأولى وقد بينا لك فيما ذكرناه - أن تلك الفطرة الأولى قد انبثقت من لا نهائية الصحراء وثباتها - والصحراء هى البيت العربى الكبير - فأصبح النموذج المتبقى هو أن يضع العربى بين يديه ، بادئ ذى بدء - حقيقة كبرى تكون منه فى موضع التسليم - ثم يحىء بعد ذلك أعماله لعقله فيما قد وضعه بين يديه ، ولعلنا نجد الشبه قريبا بين هذه الوقفة الإدراكية عنده ، وبين النظم الاجتماعية التى اختارها لحياته وهى نظم - كالأسرة أو القبيلة - يشتد فيها التماسك بين أفرادها ، حتى ليتطلب الأمر عادة أن يوكل الأمر إلى رب الأسرة وحده ، أو إلى شيخ القبيلة دون أن يكون للفرد الواحد حق المراجعة فيما قضى به صاحب الأمر ؛ فرأس النظام هنا يقابل الحقيقة الكبرى التى توضع موضع التسليم فى الحياة الفكرية ومسالك الأفراد حين يوجهها رئيس الجماعة تشبه النتائج التى تلزم بالضرورة عن المقدمة الكبرى فى عالم التفكير .

وإنى لأخشى فى هذه المناسبة أن يختلط الأمر على قارئ دارس فيسأل : ألم يكن الفكر اليونانى القديم قائما - عند كل مفكر على حدة - على « مبدأ » عام يعطيه المفكر مكان الصدارة من بنائه

الفكرى ، ليقس إليه الفروع صواباً وخطأ ؟ فلماذا لم تحدث - تلك المبادئ هناك تشكيلا اجتماعيا - أو نظريا ، مثل ما أحدثته ما اسميته بالحقيقة الكبرى فى الموقف العربى ؟ والإجابة على ذلك هى أن « المبدأ » هناك كان من اختيار صاحبه بحيث جاز لأى مفكر آخر أن ينصرف عنه ليتخذ لنفسه مبدأ آخر ، وأما الحقيقة الكبرى فى النمط العربى فقد جاءت إلى الإنسان معطاة من طبيعة المكان أولا ، ومؤيدة بالوحى الدينى ثانيا ، فلا اختلاف عليها بين مفكر ومفكر . ولو بقى العربى ملتزما بما أثرت به طبيعة المكان وما أيده وحى الأديان لأضاف فى حياته الفكرية إلى « النص » المكتوب ، متخذاً إياه نقطة ابتداء لعملياته العقلية نقطة ابتداء أخرى تسير مع النص المكتوب مسيرة التوائم وأعنى بها كتاب « الكون » فى ظواهره واحداثه ، وإذن تكون « القراءة » التى أمرت بها الآيات القرآنية الكريمة ، والتى كانت أول ما نزل به جبريل على النبى عليه الصلاة والسلام أقول إن القراءة تصبح قراءتين : قراءة « الكلمة » وقراءة « المخلوق » فأما الأولى فطريقها - كما ذكرنا - هو أن نضع « النص » المكتوب فى موضع الصدارة ثم نستولد مضمونه وفحواه ، وأما الثانية فطريقها أن نسلط النظر على ظواهر الطبيعة كما تقع على البصر والسمع محاولين استخراج قانونها الذى تسير بمقتضاه ولقد كانت هذه القراءة الثانية متروكة - أو تكاد - فى كل ما سبق به التاريخ قديمه ووسيطه ، وكان مقسوما لغيرنا أن يلتفت إليها منذ أربعة قرون فيقفز بتلك اللفتة قفزة جاوز بها عنان السماء . (والعنان هو السحاب) ، ووقف العربى

عند قراءة واحدة تنصب على الكلمة المكتوبة المقروءة ، وهو المجال
الفكرى الذى بلغ فيه مكان الريادة حين لم تكن قد أضافت إليه
مصدرا آخر ، ولو سار العربى فيما أمره دينه أن يسير فيه لأمكن أن
تستمر له ريادته على أنه لا يجوز لنا أن نسو في هذه المناسبة عن
الإشارة إلى فرق هام بين العربى القديم إبان مجده الإبداعى فى القرون
الأولى من تاريخه الإسلامى وبين العربى الجديد الذى كتب عليه أن
يعايش حضارة علمية لا يشارك فى بنائها ويستهلك انتاجها ، وذلك
الفرق الذى تقصد إليه هو أن العربى القديم ، وأن يكن ظهوره فى
التاريخ قد سبق ظهور العلوم الطبيعية ظهورا يجعل لها السيادة فى
التوجه الحضارى ، إلا أن هنالك من ميادين البحث العلمى التى
جال فيها العقل العربى عند آبائنا الأولين ، ما يقتضى من المعالم
وقفة شبيهة جد الشبه بوقفة العالم الباحث فى ظواهر الطبيعة برغم أن
مادة تلك الميادين مؤلفة من كلمات وليست مؤلفة من « أشياء »
فعلماء « اللغة » - مثلا - إذ يصبون طاقتهم الفعلية على المادة اللغوية
ليستخرجوا ، ما كمن فيها من قوانين يشبهون عالم الطبيعة وهو يصب
طاقتهم العلمية على ظاهرة من ظواهر الطبيعة كالضوء أو تكوين الجسم
وطرق علاجه إذا مرض وهكذا ، لأن « اللغة » حين ، تؤخذ مأخذ
التحليل والتعليل واستخراج القواعد ، فهى إنما تؤخذ مأخذ أية
ظاهرة أخرى من ظواهر الدنيا ، إذن فأمرها فى هذه الحالة لا يكون
شبيها بأمر « المقدمات » التى يضعها باحث بين يديه لينحصر كل
جهده العلمى بعد ذلك فى توليد النتائج التى تترتب على تلك

المقدمات ومعنى ذلك هو أنه يمكن القول عن العربى الأول ، أنه كان نهج النهجين معا ، لكل نهج منها ميادينه ، : منهج توليد النتائج من مقدمات تؤخذ مأخذ التسليم ومنهج تناول موضوع شىء خارجى تناولاً مباشراً كما يتناول علماء الطبيعة ظواهر الطبيعة فى بحوثهم العلمية إلا أن منهج التوليد كان - بطبيعة الحال - أكثر شيوعاً .

وعلى ضوء هذا الذى أسلفناه فلنتنظر إلى العربى فى موقفه الراهن لنرى كم وضحت رؤيته وكم غامت ؟ مع التذكر بأن « رؤية » الإنسان فى موقفه من الحياة يتوافر لها وضوحها إذا كان على وعى شديد بتفصيلات « الهدف » الذى يسعى إلى بلوغه سعياً يلائم إطاره الثقافى الذى يصون به هويته التاريخية ؛ وانظر إلى مختلف الشعوب الغربية التى تقوم مجتمعة بأقامة البنيان الحضارى فى عصرنا تجد لكل شعب منها ما ينفرد به تحقيقاً لهويته برغم اشتراكهم جميعاً فى إقامة البنيان مما يوضح لنا فكرة « الرؤية الثقافية » التى لا غناء عنها إذا أراد الإنسان أن يتحضر وأن يصون كرامة نفسه فى آن معا .

وأول ما نلاحظه عن العربى فى هذا العصر أمران : الأمر الأول هو أنه يأخذ من حضارة العصر ولا يعطيها - كأنه سقط من حساب البناء المبدعين ؛ والأمر الثانى هو أنه لم يعد على بينة من حقيقة الجوهر الذى يجعل من العربى عربياً وفى هذه الغيوبة فقد الحس الذى يميز به ما يأخذ وما يدع بحيث تبقى له عروبه غير مشوبة بشائبة تطمس معالمها فتغمرها فى غمرة النكرة المجهول ! فأما عن الأمر الأول وهو أنه قد أصبح يأخذ من حضارة عصره ولا يعطيها وهو

موقف سلبي نقفه للمرة الأولى في تاريخنا ، وإذا أقول ذلك فإنما أضع في اعتباري الوطن العربي في شموله ، لأن أجزاءه قد تفاوتت جزءا عن جزء في نصيبها من الابداع الحضارى كلما نشأت على وجه الأرض حضارة جديدة ؛ فإذا خصصت القول هنا لأجعل مصر مداره ، ازدددت يقينا بصدق ما أقوله ، وهو أنها للمرة الأولى في تاريخها ، ظهرت فيها للناس حضارة ، فرضيت لنفسها إلا تكون في صفوفها الأولى ؛ ولقد كان لكل حضارة من كبريات الحضارات التي أقامها الإنسان ، مدار خاص ومذاق متميز ، فبعد أن انفردت مصر وحدها - أو كادت - بالابداع الحضارى الكبير الخالد لعدة آلاف من السنين أخذت ألوان حضارية أخرى تتوالى في الظهور ؛ وإن القارئ ليظلم نفسه ويشوه التاريخ ، إذا مر مرور الكرام (كما يقولون) على عبارة « عدة آلاف من السنين » لأنه إن فعل كان كمن يسوى بين جبل الهملايا في شموخه الجبار وكومة من رمال لا ترتفع عن قامة فرد واحد من الناس ؛ فلعدة آلاف من السنين « وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى » (كما قال حافظ ابراهيم) أقول إنه بعد ذلك الابداع الفنى الجبار ، ظهرت حضارة اليونان ولعلت ثقافة أثينا لكنها في ذلك أخذت بعض مددها من مصر ، ثم لم تكد تمتد بضع مئات من السنين (ولا نقول « آلاف » السنين كما قلنا عن مصر) حتى خبا مصباحها لتسرع مصر عندئذ إلى حمل الشعلة الجديدة فتقيم في الاسكندرية بديلا للمصباح الخالى منارة من العلم والفلسفة وغيرهما من فروع الثقافة ، وجاءت حضارة

الرومان فما هي إلا أن وجدت من الاسكندرية ندا عنيدا لروما ، وفي غضون العهد الرومانى ظهرت المسيحية فاضطلعت مصر بدورها العظيم بدءا من احتفاء العائلة المقدسة بحماها ، ومرورا باحتضان العقيدة الجديدة ورعايتها في وجه الوثنية الرومانية وكانت مصر هي أول من أقام الأديرة في التاريخ المسيحى ، ومن الاسكندرية ، عبرت الديانة إلى روما ثم أفرزت مصر الكنيسة القبطية ، وظهر الإسلام فآمنت مصر بالإسلام ديناً ، وبالعربية لغة وما كانت لتفعل هذا بتلك السرعة وذلك الشمول لولا أن لديها من ثقافتها ما يتقبل الدين الجديد واللغة الجديدة في يسر شديد وما أن أسلمت مصر ، وجرى لسانها بالعربية حتى صارت في بناء الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية رائدة .

هكذا تتابع الحضارات والثقافات فكان العربى فيها جميعا مبدعا أصيلا أو آخذا من إبداع غيره ليعطيه كما أخذ إلا هذه الحضارة العلمية الأخيرة فقد اختار لنفسه فيها موقف من يأخذ ولا يعطى ، فهل وجد في جوهر عروبه ما يرفض « العلم » الطبيعى الذى هو من حضارة عصرنا عمودها الفقرى ؟ لماذا يميل عامة جمهورنا إلى السخرية بقدرة العقل الإنسانى ، وما يتج عنه من علوم تبحث في « مادة » الكون لتستخرج قوانينها تلك القوانين التى على أساسها قامت مخترعات لم تكن في مستطاع الخيال أن يتصور قيامها ؟ نعم - إن لنا مدارس ومعاهد وجامعات أصبحت تعد بالآلاف لا بالمئات وفي كل قاعة من قاعاتها يرن صوت العلم الجديد لكننا نتلقى هذا كله

بغير إيمان فنخرج منه بلمسة من أطراف الأصابع ، فقد نستخدمه وسيلة لكسب العيش ولكننا سرعان ما نرتد إلى موقف الرفض الذي يقفه سواء الجمهور بتوجيه ممن يملكون أدوات التوجيه فلا غرابة أن نبقى في عصرنا غرباء نقطف منه ثماره التي أنبتها بناء العصر ثم نتنكر له ومن ثم كان الأخذ ولم يكن العطاء .

ذلك عن الأمر الأول وأما الأمر الثاني الذي هو بمثابة التعليل الذي يفسر لنا الأمر الأول فهو ما نلاحظه من غيبوبة العربي عن حقيقة جوهره ولو وعاهها لاهتدى .

فلن كان الطابع السائد في حياة الأمريكي هو أن يبحث عن الفكرة التي تلد النتائج العاملة على استثمار الطبيعة وظواهرها والطابع السائد في حياة الانجليزي أن يجعل مداره هو حواسه في الحكم على المواقف العملية بالصواب أو بالخطأ موحدا في ذلك بين الحواس والعقل بمعنى أن ما تدركه الحواس هو المادة الخام التي تصنع فيها مدركات العقل والمدرك العقلي لا يقبل إلا إذا شهدت الحواس على صوابه والطابع العام في حياة الفرنسي هو العودة بالفكرة المراد الحكم عليها إلى أصولها العقلية التي نبتت منها ، والطابع العام في حياة الروسي والصيني هو أن تؤخذ الفكرة التي يصلح بها المجموع بغض النظر عما يصيب الأفراد من نفع أو ضرر والطابع العام في حياة الياباني هو محاولة الجمع بين المستوى الذي يصلح به المجموع والمستوى الذي يشيع الخصوصية للفرد في أسرته وهكذا (وهذه الأحكام العامة كلها إنما سبقت على سبيل التقريب لا على سبيل الدقة) ..

أقول إنه إذا أمكن العثور في حياة تلك الأمم على طابع عام يميز كل أمة منها بما تختص به حتى لو شاركت سائر الأمم في التيار العصري الشامل فقد كان الأولى أن نجد للأمة العربية في حاضرها ذلك الطابع العام الذي يميزها لأنها أعمق من معظم الأمثلة التي ذكرناها ضرباً يجذورها إلى ماضٍ بعيد .

ولقد ذكرنا لك فيما أسلفناه أن العربي بحكم محيطه الصحراوي الكبير أقرب إلى أن يتشرب رؤية تجعل سندها ذلك المطلق اللامتناهي بما له من ثبات ودوام وجاءت إليه ديانات تتسق مع تلك الرؤية الفطرية فاكتمل له من خبرته بأرضه ومن وحى السماء يتزل على رسله وأنبيائه الميزان الذي يفرق به بين من انحرف عن جادة الطريق ومن اهتدى إلى سواء السبيل فمن وقف في نظرته عند الجزئي المفرد الزائل فقد انحرف ومن جاوز الجزئي المحدود العابر إلى اللانهاى اللامحدود الخالد فقد اهتدى وهو ميزان - كما ترى - واضح المعالم يتناول أول ما يتناول حياة الإنسان في مسالكها متى يصح السلوك ومتى يفسد ؟ ومن هنا كانت الصور الحضارية كلها التي نبتت على الأرض العربية ، تعنى في المقام الأول بالأخلاق قبل عنايتها بالزروع والمصنوع إنها لم تكن تقيس قيمة الإنسان بوفرة إنتاجه ولا بكثرة ماله ولا بشدة نشاطه وسرعة خطواته بل كانت تقيسها - قبل أن تنظر في هذه الأمور كلها ، إلى سلوكه هل يؤدي أو لا يؤدي إلى حسن العلاقة بربه وبضميره الخلقى وبالأخرين من أفراد الناس ؛ إننا إذ نقول ذلك على سبيل المقارنة بين الغربي وغيره في رؤيته وموازينه فإنما

نقوله على سبيل التغليب وإلا فلكل أمة نصيبها من جوانب الحياة ثم يبقى السؤال عن الأولوية لأي جانب تكون عند هذه الأمة أو تلك ونظرة فاحصة إلى العربى اليوم وكيف ينظر ، كفيلة بأن تبين كيف تمزقت رؤيته شدا وجذبا بين أقطاب متضاربة حتى لتجد فينا من يحيا حياته برؤية غربية خالصة كما ترى إلى جواره من يحيا حياته على صورة السلف البعيد وكأن الزمن قد جمد والحياة لم تتغير وبين هذين الطرفين النقيضين تجد كل الدرجات متفاوتة فى اغترافها من هذا الاناء أو ذاك ويبدو أن العلة الأولى فى هذا التمزق هى أن أبوابنا فتحت فجأة فى أوائل القرن الماضى على حضارة الغرب الحديث فبعد أن تدرج ذلك الغرب فى تحديث حضارته على أسس جديدة غير التى كانت فى العصور الوسطى وصل إلى نقطة متقدمة من الشوط وهنا وقعت المواجهة والمفاجأة كما يصطدم القطار السريع بعارض على قضبانه فيتحطم العارض ولا يمس القطار بأذى فهكذا تآثرنا أمام صدمة الحضارة الغربية جماعات جماعات ، فلما أفقنا من الواقعة أخذت كل جماعة منها تشدد قبضتها على ما وجدت نفسها فيه ، تدافع عنه وكأنه الحق كله والباطل هو سواه .

وقد كان يمكن للأمة العربية أن تأخذ الثقافة الجديدة التى أفرزتها حضارة العصر فى الغرب ، لتبحث لها عن مكان يلائمها فى الاطار العربى ولم يكن ذلك ليستحيل عليها لأن « العلم » هو محور الغرب الحديث ، ولم يكن النظر العلمى قط غريبا على هذه الأمة منذ ظهورها على مسرح التاريخ فهند وعث وأخذت تتفهم ما حولها ،

وجدت بين يديها « الحقيقة » الكبرى ماثلة أمام عينها في الأفاق
ونابضة مع دقات قلبها في العقيدة الدينية وما كان عليها إلا أن تحسن
استنتاج الحقائق الفرعية من تلك الحقيقة الأولى وفي مثل هذا
الاستنتاج يولد « العلم » ؛ وإذا كان الغرب الحديث قد أقام حضارته
الجديدة على علم من نوع آخر غير العلم الذى يتمثل فى استنتاج
النتائج « اللفظية » من مقدماتها « اللفظية » أيضا ومدار هذا النوع
الآخر هو استقراء « الأشياء » أو ظواهر الطبيعة ؛ فقد كان فى حياة
العربى العلمية جوانب كثيرة تدل أقوى دلالة على بشائر وبوادر لمثل
هذا النوع من النظر أقول إنه كان يمكن للأمة العربية أن تهضم فكر
الغرب الحديث هضمًا يزيد لها صحة ولا يصيبها الأذى لكنها لم تفعل
حتى ألزمتها الحاجة إلى علم الغرب وصناعته فاشتريتها بالمال حيناً ،
وبحريتها حيناً .

فبأى رؤية تنظر الأمة العربية اليوم ؟ لقد غامت رؤيتها وتعذر
الجواب .

صورة الإنسان

كان ذلك على وجه التحديد .. يوما في أواخر سنة ١٩٥٠ ،
عندما جلست على مائدة الغداء في فندق بالقاهرة ، واستأذن شاب
إنجليزي في نحو الثلاثين من عمره ، في أن يشاركني بالجلوس إلى
المائدة ، ثم ما هو إلا أن تبادلنا أطراف الحديث ، فعرفت أنه أديب
يكتب الرواية والمقالة ، يحاضر في الأدب الإنجليزي بجامعة بغداد ،
وجاء إلى القاهرة ليقضى إجازة عيد الميلاد ، وليجمع مادة يستعين
بها في الرواية التي يكتبها ، معترضا أن يحمل مصر عنصرا أساسيا من
عناصرها ، ولم تكن جلسة الغداء قد انتهت حين سمعنا من مائدة
بجوارنا صوتا مشحونا بانفعال المسيطر الأمر ، يتوجه به نحو عامل
يخدم في غرفة الطعام ، ولم ندر ما الذي فعله العامل أو قاله .. مما
استثار في « الزبون » المتجبر المتكبر جبروته وكبرياه ، إلا أن العبارات
التي وجهها إلى العامل دلت على أن ذلك العامل قد استباح لنفسه
تقريب المسافة الاجتماعية بينه وبين « الزبون » ، فخطبه بضمير
المخاطب المفرد ، بدل ضمير الجمع علامة على الاحترام الواجب ،
فربما أشار إلى معطف موضوع على مقعد قريب ، سائلا : أهذا

معطفك .. ومثل هذه الصيغة في الحديث لم تكن تجوز بين خفيض ورفيع من درجات الحياة .

بل إنه لم يكن يجوز من الخفيض أن يخاطبه بلغة الخطاب المباشر بأية صورة جاءت ، وإنما الخطاب في هذه الحالة يجب أن يوجه إلى حلقة وسطى بين الطرفين كالسعادة ، أو الخسيرة ، أو الجناب ، أو أى شىء من هذا القبيل ، فكان على العامل أن يسأل قائلا : هل هذا معطف سعادتك ، أو معطف حضرتكم ، أو معطف جنابكم ؟ أو ما يؤدى هذا المعنى الدال على وجود فاصل يفصل الطرفين حتى لاتجىء المخاطبة نقطة التقاء بين الرفيع والخفيض من أبناء الوطن الواحد .

فلما ذهب الصرخة واصداؤها ، وهدأت قاعة الطعام مرة أخرى إلا من طقطقة الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين ، سألتى الأديب الإنجليزي : ما الذى حدث بين الرجلين ؟ قلت له إن خلاصة ما حدث هو أن العامل تحدث إلى الزبون بلغة توحى بأنهما «رجلان» فنظر إلى الإنجليزي نظرة الدهشة قائلا : وكم هما إذن ؟ أليسا رجلين ؟ قلت له : نعم إنها كذلك في دنيا الأبدان ، أما في عالم الحساب الاجتماعى فأحدهما - وهو العامل - صفر والآخر لست أدري كم يساوى لأنى لا أعرفه ، فرمما كان بحكم منزلته الاجتماعية مساويا لألف رجل أو ألفين أو عدة آلاف ؟ وأحس الإنجليزي بالطبع نبرة السخرية الخزينة في إجابتي ، فصمت قليلا وسألتى : متى وكيف فى رأيك تحدث ثورة لتغيير هذه الأوضاع ؟ فأجبتة بقولى :

أما « متى » فلا علم لى بغيث ، وأما « كيف » فلا كيف فى الموقف إلا كيف واحد هو أن يقوم الجيش بالثورة نيابة عن الشعب ، لأن ما سوى الجيش من فئات ، فىهم القلق الئائر وليس لديهم أدوات التنفيذ ، فجاءات الطلاب - مثلاً - لا تملك غير الحناجر للهناف ، وجاءات العمال لا تملك إلا الاضراب عن العمل ، مما يضر أكثر مما ينفع .

وفرغنا من الغداء وافترقنا ، كل فى سبيله ، لكننى لم أنس المصرة المدوية التى صرخ بها ذلك المتجبر المتكبر فى وجه العامل لغير ما سبب يحيزه انصاف ، وكان أول ما دار فى خاطرى تعليقاً على ذلك الذى حدث ، عبارة همست بها لنفسى قائلاً : نعم إن ذلك العامل صفر اجتماعى يأبىها المتجبر المتكبر ، لكنه صفر نفيس ، واعجبتنى هذه العبارة التى همست بها لنفسى ، ولم أخلع ملابسى لارتدى ثياب البيت ، إلا بعد أن جلست إلى مكتبى وفرغت من مقال جعلت عنوانه « الصفر النفيس » ودفعت به إلى مجلة للنشر وهو مثبت فى كتاب يضمه مع طائفة أخرى من مقالات كنت أكتبها يومئذ بأنفاس من لىب ، وأذكر إن كان بين ما قلته فى ذلك المقال موجها حديثى إلى ذلك المتعطر المجهول ، إن ذلك الصفر البشرى الذى نراه على نحو ما تراه ، إنما هو اليوم صفر لأنه يقف على يسار العدد ومن ذا يدريك كم يساوى هذا الصفر نفسه عندما يحدث ما يحدث فيستقل من يسار العدد إلى يمينه ، أنه عندئذ قد يساوى ألفاً ، أو عشر آلاف أو ما مكنته طاقته أن يكون .

ذكرت تلك الذكرى للحظة عشتها ذات يوم من شهر ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، ذكرتها الآن حين هممت أن أكتب عن صور الإنسان بصفة عامة ما مقوماتها ، وصورة الإنسان العربي بصفة خاصة ماذا حققت من المثل الأعلى وماذا فاتها أن تحققه في المرحلة الحاضرة من تاريخها ؟ إذن فسؤالنا الأول هو عن الصورة المثلى ما هي ليقاس عليها ؟ لقد كان لرجال الفكر في هذا المجال اجتهادات بدأت لكى لا تنتهى ، وعلينا نحن أن نستعرض ونقارن ونختار ، وأول صورة مما يستحق الذكر ، هي الصورة التى قدمها الفيلسوف اليونانى القديم - أفلاطون - إذ كان فى سبيله إلى تحديد « العدل » تحديدا واضحا ، لكى يجعل منه الأساس الذى تقام عليه الدولة المثلى ، واستطردت المحاوره حول معنى « العدل » استطرادا مستفيضا يستعرض مختلف المعانى التى يمكن أن يفهم « العدل » على أساسها ، حتى انتهى به الأمر إلى ضرورة تحليل النفس الإنسانية إلى عناصرها فى هذه التجزئة ما يوضح الصورة ، فوجد هو ومحاوروه من تلاميذه أن النفس مؤلفة من عناصر ثلاثة ، لكل منها صفة إذا توافرت ، كانت له بمثابة « الفضيلة الخاصة به » ، وتلك العناصر الثلاثة هي « العقل » وفضيلته « الحكمة » و « القلب » وعواطفه وفضيلته « الشجاعة » و « البطن » وشهواته وفضيلته « العفة » ، فإذا اجتمعت تلك الفضائل الثلاث معا تحقق بذلك العدل ، أى أن العدل محصلة مجموعة فضائل وليس شيئا قائما بذاته ونفهم ذلك الرأى فيها أوضح ، حين نتقل بالحديث من الفرد البشرى الواحد ، إلى المجتمع وما يقع فيه من تفاعل بين

أفرادها ، فهأنا نقول إن المجتمع يصبح مجتمعا عادلا ، إذا « تعادلت » فيه القوى الثلاث ، فهألك عالم الحاجات الطبيعية الغريزية ، وهألك العواطف وانفعالاتها ، وكل من هأتين القوتين تدفع وتندفع ولا تتزن وتتعاذل إلا إذا جاءت قوة العقل فأمسكت لها الزمام بمحكمتها ، لتترك لكل منها حرية الحركة فى حدود لا تنطفى ولا تتجاوز المعقول ، وقد ترك لنا أفلاطون صورة تصور ما أأاده ، عربة يجرها جوادان يمسك بلجامهما سائق مدرب ، أما الجوادان فهما دوافع العاطفة ودفعات الشهوة ، وأما السائق فهو العقل يلجم الجوادين بمحكمة تضبط لها إيقاع الحركة .

تلك - إذن - هى إحدى الصور ، أو قل أحد التصورات التى صور بها الإنسان ، لا لتقف أمامها تتلقاها فى سلبية وسكون ، بل لتستدل منها - إذا قبلناها - ما يترتب عليها من حقوق للإنسان ومن واجبات عليه ، وظهر الإسلام حين ظهر لتتفرع عنه حركة ثقافية بلغت أوجها بعد أربعة قرون من ظهوره ، وكان بين رجالها عندئذ « مسكويه » الذى كتب عن فلسفة « الأخلاق » كتابة ربما تفرد بها دون معاصريه ، وكان مما لفت النظر عند كاتب هذه السطور ، أن يجد « مسكويه » قد أخذ بالصورة الافلاطونية المثلثة العناصر ، وتساءل هذا الكاتب يومئذ . ألم يكن الأجدر بمسكويه أن يضيف إلى العناصر الثلاثة عنصرا رابعا لتلتئم الصورة مع الثقافة الإسلامية الجديدة ، ألا وهو عنصر « الدين » نعم ، قد يكون « مسكويه » قد ذكر بين تفصيلات الحياة الخلقية عددا من أخلاقيات الإسلام ، إلا

أن الصورة العامة عنده بقيت عربية تجرّها عواطف وشهوات ويلجمها سائق العقل بحكمته .

فإذا فرضنا أن « مسكويه » أراد إضافة جانب « الدين » مع احتفاظه بصورة العربية ذات الجوادين والسائق ، فأين يكون موضعه ليأخذ مكانه الصحيح من الحياة الأخلاقية ، هكذا سأل هذا الكاتب نفسه ، فكتب مذكراته التي علق بها على كتاب « الأخلاق » لمسكويه وأجاب بما معناه ، إن الدين يوضع في مكانه الملائم إذا وضع في الإنسان المسك باللجام ليكون ذلك الإنسان رمزا يرمز إلى هداية الدين وتخطيط العقل معا وفي آن واحد ، أليس الإنسان السائق لحياته في مسالك الأرض بين سائر الناس ومختلف الكائنات يريد لحياته « عدلا » أو قل « تعادلا » واتزاناً يمسك بالعناصر جميعا لتعاون كلها فتصبح وهي متعاونة أقوى مما تكون وهي فرادى متنازعة ؟ فن أين يأتي الإنسان السائق بالمعايير التي ترسم له الحدود الفاصلة بين خطأ وصواب ، أو بين حرام وحلال ؟ نعم إن الصورة الأفلاطونية قد ذكرت صفة واحدة لكل من العناصر فللعاطفة شجاعة ، وللشهوة عفة ، وللعقل المسك بزمامها حكمة يهتدى بها ، لكن هذه الصفات ينقصها التحليل والتفصيل ، فما هي فروع القيم التي تحكم العاطفة ، وما هي فروعها التي تحكم الشهوة ؟ هاهنا نجد تفصيلات المعايير المطلوبة في « الدين » نزلت على الناس وحيا لتضع لهم الحدود والمعايير ، ولتذكر أن « العدل » اسم من أسماء الله الحسنى ، يتضمن معناه إيجاد التوازن بين أطراف الخلق

جميعا ، كما يتضمن وجوب التعادل في النفس الإنسانية التي « سواها » سبحانه وتعالى « فآلهمها فجورها وتقواها » وإذا نحن أردنا أن نضع ذلك المتغطرس الذي صادفناه متجبرا متكبرا في طغيان ، في صورة العربة ذات الجوادين والسائق بعد تعديلها ، لرأيناها يحيا حياته مع الجوادين وينقصه الدين والعقل معا ، اللذان بهما تتحقق صورة الإنسان .

إنه إذا كان السائق في صورة العربة التي أسلفناها ، يمثل من الإنسان جانبه الراشد المرشد ، بما انطوى عليه من « دين » يفصل الضوابط و « عقل » يشرف على خطوات التنفيذ ، فمن هذه البداية تنفرج لنا فروع إذا ضممناها بعضها إلى بعض اقتربنا من صورة الإنسان ، كما يراد للإنسان أن يكون ، وأول ما نلقى عليه الضوء في هذا الصدد هو إننا إذا جعلنا سندنا المزدوج هو الدين والعقل فكأننا قلنا إنه « الإرادة » أولا و « العلم » الصحيح ثانيا ، فبغير إرادة الإنسان تصبح مجموعة المعايير الخلقية التي يفرضها الدين مجرد قائمة من أسماء يحفظها من يحفظها ليكرها اللسان كرا كما يكر التلميذ قطعة من المحفوظات عن غير فهم لمعانى كلماتها ، لكنها الإرادة هي التي تنقل تلك المعايير الخلقية من دائرة المحفوظ إلى دائرة السلوك الفعلي مع الناس والأشياء فإذا كان المعيار - مثلا - هو افعل ما أقوله ، وأقول ما أفعله ، بحيث يتطابق القول مع العمل نقلتني الإرادة بهذا المعيار إلى تطبيقه الفعلي بكل ما يحتاج إليه ذلك التطبيق من أمانة وشجاعة لأن التباين بين القول والعمل جبن وخيانة ، فهو جبن لأنه

لا يقوى على مواجهة الناس بحقيقة ما استتر ، وهو خيانة لأنه يضلل الآخرين .

ذلك هو جانب « الإرادة » المتضمن في العقيدة وأما جانب « العلم » الصحيح بمقائق الأمور فهو ما يؤدى إليه جانب « العقل » من سائق العربة ، ولا يعلل هذا الكاتب كلما وردت كلمة « عقل » أن يذكر قارئه بمعناها الصحيح ، الذى هو نمط إدراكى تتم به حركة انتقالية من شواهد معلومة إلى ما يستج عنها مما كان مجهولا ، أى أن « العقل » حركة استدلالية دائما ، وما ليس كذلك من أنماط الإدراك الأخرى فلكل نمط منها اسمه الخاص ، فإذا كان عند سائق العربة (الذى هو جانب الرشاد من الإنسان) قد فرضت عليه معايير معينة لتطبيقها في سلوكه ، وإذا كان لابد له من « إرادة » تنقله من دنيا « المبادئ » الخلقية إلى عالم الأشياء حيث يكون التطبيق العملى ، فكيف يتاح له أن يخطو خطوة واحدة في عالم الأشياء إلا إذا عرف ما استطاع معرفته عن تلك الأشياء وطبائعها ، فهذا قبح ، وذلك ماء ، وهكذا ؟ وكلما كان العلم بمقائق الأشياء صحيحا ، كان الترجيح أقوى بأن الإنسان سيخطو بمعاييره الخلقية في دنيا الأشياء خطوات آمنة من الزلل .

وعلى أساس هذا الشرح لجانبى الإرادة والعلم الصحيح ، تنبثق للإنسان حقوق يجب ألا ينازعه فيها أحد فهي حقوق نابعة له من صميم فطرته التى فطره عليها خالقه سبحانه وتعالى فمن وجوب « الإرادة » فى الحياة الإنسانية الكاملة ، يتولد حق « الحرية » لأن

الإرادة جوهرها « اختيار » يكون الإنسان الذى يختار لنفسه هذا الفعل دون ذاك مسئولاً عن اختياره أمام ربه يوم الحساب ، ثم يزداد حق الإنسان فى الحرية شدة ورسوخا عندما نجد أنه نتيجة تلزم عن جانب « العقل » وما يودى إليه من علم بالأشياء علماً صحيحاً ، فإذا قامت بينات معينة أمام « العقل » فكيف يجبر عليه فى استدلال ما يمكن استدلاله من تلك البينات ، على أن حق « الحرية » إذ ينبع للإنسان من كونه إنساناً ذا إرادة تختار ، وذا عقل يستدل ، لاتحددها حدود إلا إذا اصطدمت بحريات الآخرين ، وهنا يجب البحث عن نقطة التوازن ، أو التعادل ، أى النقطة التى تحقق « العدل » بين أعضاء المجتمع الواحد ، وهذه الوقفة التى يقفها مجتمع حين يعادل بين حريات أعضائه معادلة لا تحجىء معها حرية مطلقة لزيد على حساب حرية مقيدة لعمرو ، إنما هو موقف ما كان لينشأ ما لم يسبقه اعتراف ضمنى بحق أساسى آخر من حقوق الإنسان ألا وهو حق « المساواة » فى الفرص المتاحة برغم تفاوت القدرات .

الحرية ، والعدل ، والمساواة ، وغيرها من حقوق الإنسان التى تقتضيها فطرته ذاتها ، ولا ترتب بمنحة يأذن بها حاكم أو لا يأذن هى من أهم المقومات التى تبنى عليها صورة الإنسان ، وفى هذه المقومات تختلف العصور ، كما تختلف الشعوب داخل العصر الواحد ، إلا أن هذه الأسماء التى نطلقها على تلك الحقوق كثيراً ما تؤخذ لمسا بأطراف الأصابع ، وكأنه يكفينا أن تكون مذكورة فى معاجم اللغة ، أو مخزونة فى الذاكرة ليجرى بها اللسان عند الطلب وليست

هى بمثابة خرائط ترسم للناس صور الحياة العملية ، فجدير بنا - إذن - أن نقف وقفات قصارا عند بعضها ، ندقق النظر فى مضامينها لنرى كيف ينبغى لتلك الأسماء أن تؤخذ ، ولنبداً بالحرية التى تجرى على ألسنتنا وأقلامنا جريان الماء على الجبل ومع ذلك فإن هذا الكاتب يزعم أن ما قد تسلل من معانيها إلى حياتنا العملية هو أقل من القليل ، أول تلك المعانى هو أنه لاحرية لجاهل فى الميدان ، الذى هو جاهل بحقائقه ، ولا يكون الإنسان حرا إلا فيما قد عرفه وتتفاوت درجات الحرية بتفاوت تلك المعرفة نوعا ومقدارا ، فإذا أدخلنا فى غرفة الآلات الاليكترونية رجلا لا علم له بشىء منها ، لم يكن له وهو فيها حرية بالمعنى الذى يجعله قادرا على التصرف فيما حوله ، وإذا نحن وسعنا دائرة هذا المثل ليشمل العصر الالكترونى الذى دخلته الحضارة منذ قريب ، كان من حقنا أن نقول - بصفة عامة - إن عددا كبيرا من شعوب العالم الثالث مفقود الحرية بالنسبة إلى هذا العصر ، حتى وإن استورد شيئا من تلك الأجهزة ولم يكن لدى أبنائه خبرة تكفى لاستيعابها ، وإذا وسعنا توسعه أخرى لمفهوم « الحرية » من هذا الجانب ، قلنا إنه لا حرية لمن لا يعلم ، إننا نقنع عادة من مفهوم « الحرية » بالمعنى الجزئى الذى نقصد إليه ونحن فى مجال السياسة ، حيث نطالب بحق الفرد الراشد فى انتخاب نوابه ، وحق صاحب الرأى فى أن يعبر عن رأيه حتى ولو كان مضادا لرأى الحاكم والحكومة ، وذلك لأن هذا الجانب السياسى من مضمون « الحرية » سهل التناول ، لكن الحياة أعقد جدا من أن تكون كلها

سياسة ، ومن أن يكون المطلوب هو حق الانتخاب وحق إبداء الرأي حتى ولو كان هذا الرأي لا يؤثر في مجرى الأحداث ، هذا كله مهم ومطلوب ، لكن هنالك أيضا ما هو مهم ومطلوب ، وذلك أن يطمح الإنسان في التحرر من قيود الكون وقوانينه ما استطاع إلى ذلك سبيلا فكيف نزيح عن كواهلنا عوائق المسافات وحرارة الجو وبرودته ، وجذب الأرض لقلّة الماء وكمون المواد الضرورية في جوف الأرض ، ؟ كيف نستغل أشعة الشمس وقوة الريح وموج البحر ؟ كيف نفوص إلى قاع المحيط تمهيدا لمعرفة واستغلال كنوزه ؟ كيف نقهر عائق الزمن فأنواع الغذاء يفسدها الزمن ، وأنواع المحصول الزراعى مرهون بمواسمه في أوقات معينة ، فكيف أتغلب على هذه الحوائل ، ليكون النبات واللحوم والخضر والفاكهة وغيرها موجودة في كل مكان من العالم ، وعلى مدار السنة بأربعة فصولها ؟ ، إنه بالعلم وحده تتحطم هذه القيود ، ويتحرر الإنسان وهكذا تتسع آفاق الحرية لمن يعلم ، وقد يتصدق بشيء من ثمرات حريته تلك لمن وقف أمام الطبيعة أصم وأبكم وأعشى حتى حرم الحرية بأعلى معانيها وهو لا يدري .

ذلك - إذن - جانب له خطره في إدراكنا للحرية ومعناها ، لكنه يفلت منا فلا نراه ، وجانب آخر لعله أعمق أثرا وأجل خطرا في تكوين الرؤية الصحيحة للحرية ومعناها وهو خاص بجرية العقل فيما هو يفكر عندما يعترضه ما يستحق التفكير ، وشرح ذلك هو أن من ضرورات التفكير العقل أن يكون هنالك أمامه عتبة يقفز منها إلى ما

يمكنه الكشف عنه من الحقائق ، فالعقل ضرب من الفاعلية لا يتحرك من فراغ وإلى فراغ ، بل لابد له من محطة قيام يبدأ منها رحلته ، وهى عادة تؤخذ من معلومات سابقة ثبتت صحتها ، فإذا لم يكن ذلك ، افترضها المفكر افتراضا يسوقه على سبيل الاقتراح الذى يمكن أن ينطوى على حل المشكلة التى هو بصدد حلها ، إلى هنا ولا اعتراض من أحد على هذا الاجراء المنهجى ، المحتوم ، وعلى سبيل التوضيح المبسط افترض أن المشكلة المعروضة على العقل لحلها هى مشكلة التعليم الجامعى وطريقة الارتفاع بمستواه ، فهناك يبحث المفكر عن محطة القيام لعقله ، فإما يلجأ إلى قراءة عما صنعه بلاد أخرى فى مشكلة كهذه ، أو ما قاله مفكرون آخرون - حديثا وقديما - عن مثل هذه المشكلة ويقتنع بصحة ما صنعه أو ما اقترحه آخرون ، فوضع أقوالهم نقطة بدء له ، ليستدل منها مانحن صانعوه فى جامعاتنا بناء على ذلك ، آخذين فى اعتبارنا اختلاف ظروفنا عن ظروفهم ، وإما ألا يجد المفكر شيئا يقتنع بصحته مما قاله ، أو صنعه الآخرون ، فيقدم هو لنفسه فكرة على سبيل الاقتراح ، ثم يستخرج منها نتائجها ليرى ماذا تكون الخطوات العملية عند التنفيذ .

تلك هى طريقة العقل فى سيره إزاء المشكلات التى يجعلها موضعا لتفكيره ، إلا أن هذه الطريقة نفسها كثيرا جدا ما تؤدي بالإنسان إلى موقف عجيب من الجمود الفكرى ، وذلك حين يظن أن ما قد جعلناه فيما سبق محطة قيام فى بعض عملياته الفكرية إنما هو من قبيل الحقائق الثابتة التى لا يجرؤ عقل على التكرار له وتغييره ،

ناسيا أو متناسيا أن تلك البدايات المنهجية هي دائما مقبولة على سبيل الافتراض وتبقى مابقيت نتائجها قادرة على حل المشكلات المراد حلها ، أما إذا ماتبين ذات يوم أنها لم تعد صالحة لمواقف جديدة استحدثتها ظروف جديدة فلا مناص عندئذ من أن نستبدل فروضا غيرها يستند إليها العقل في منهج سيره ، وفي هذا التغيير تكن « حرية » من أعظم ضروب الحرية التي لم يظفر بها الإنسان من قبل بكل القوة التي ظفر بها في العصر الراهن ، ولا عجب إن رأينا العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية جميعا ، قد غيرت أسسها عندما استدارت أواخر القرن التاسع عشر لتدخل في القرن العشرين ، فالعلوم الرياضية بينت أن الفروض التي تقام عليها ، هي فروض يمكن تبديلها بغيرها ، بحيث يمكن للأنساق الرياضية أن تتعدد بتعدد فروضها ، ولم يعد الأمر كما ظن الأسبقون على طول التاريخ ، أن ينظر إلى فروض البنى الرياضية على أنها في ذاتها حقائق كونية ثابتة ، وكذلك العلوم الطبيعية ومعها العلوم الاجتماعية ، أدركت أنها أمام وجود لا يتصف بالثبات ، بل هو في كل ظاهرة من ظواهر وجود دائب التغيير ومن ثم لم يعد في حدود الممكن إلا أن تصاغ القوانين العلمية مؤسسة على مبدأ إحصائي يعتمد على المتوسطات ، فإذا كان العقل قد اكتسب هذه الحرية الجديدة في عصرنا ، أعنى حرية أن يغير في المبادئ الأولية التي كانت تبنى عليها العلوم ، ولم تكن قط عرضة للتبديل والتعديل ، فإذا نقول في مشكلات الحياة الجارية ، إذا ما أردنا أن نتصدى لحلها ، فهل يعقل أن نتحرج في تغيير المبادئ

التي كان يظن بها الثبات فنبقيها متورطين في قبولها ، لكي تفيدنا في مجال الحلول التي نسعى إلى الوصول إليها ؟ ، انظر إلى أوجه مختلفة من حياتنا العملية ، نجدنا مقيدين بقيود نظن أنها في قوتها وثباتها أصلب من الحديد فلا نغير منها شيئا ثم نعانى المر من صعاب تترتب عليها : فللأحزان عندنا مراسم ، وللأفراح مراسم وللزواج مراسم ، وللمواسم والأعياد مراسم ، وكل هذه المراسم قد أصبحت كالثوب الذي قصر وضاق على صاحبه ، الذي طالت قامته وضخم حجمه ، وترانا كمن ألقى في الماء رجلا وأوصاه ألا يبتل بالماء ، إذ على هذا النحو نتصدى لكثير من مشكلاتنا الاجتماعية نريد اصلاحها مع الحفاظ على مراسم يفترض لها الثبات ، وبهذا نحرم عقولنا من ركن هام من أركان حريتها .

ثم أرادت لنا الأقدار أن يقذف بين أيدينا بنوع جديد من الأدوات التي كان يمكن لها أن تكون وسائل لمزيد من الحرية ، فإذا هي تنقلب لتصبح وسائل لعبودية من نوع جديد ، وربما كانت هذه المفارقة شاملة للعالم كله بدرجات متفاوتة ، وأعنى بتلك الأدوات وسائل الإعلام الجديدة : المذياع ، والتلفاز ، بصفة خاصة ، فقد كان يمكن لها أن يكون وسيلتين لتربية المواطن بكل درجاته ، تربية يتسع بها أفقه بالمعرفة فيكون أقدر على الحكم الصحيح ، وأقرب إلى التسامح كلما وجد من يخالفه في الرأي ، ووجهة النظر ، لأن هذا التسامح نتيجة مباشرة لاتساع المعرفة والمقارنة بين المختلفات وهكذا لكن خاب الرجاء في كثير مما رجونه من هذه الوسائل الإعلامية

الجديدة ، بسبب يأتي قبل غيره من الأسباب وهو وضع هذه الوسائل تحت سلطة الحكومة ، فيثبت فيها صاحب السلطة مايسيطر به على الجمهور المتلقى ، ولا غرابة أن نجد كلما نشبت ثورة في بلد ، أو قام انقلاب في صورة الحكم ، أسرع زعماء الثورة أو الانقلاب إلى الاستيلاء على مراكز الإعلام المسموع والمرئي وهذا الاستيلاء يكونون قد حققوا ثلاثة أرباح النجاح ، لأن الاستيلاء على تلك الوسائل معناه الاستيلاء على عقول المشاهدين أو السامعين ، ويزيد الطين بلة في هذا المضمار ، أن أصبحت تلك الوسائل من أقوى ما يستخدمه المستعمرون من وسائل ، ليملكوا العقل والخيال ، فيسهل اصطبياد الفريسة وكبار المستعمرين هم أنفسهم كبار الأثرياء ولذلك يمكنهم تقوية موجاتهم الإذاعية بما لا يستطيع أن تقاومه الضحية بمجهودها الضعيفة المحدودة ، وتكون الخلاصة تشويها في صورة الإنسان يشل قدراته الناقدة ، بالوسائل نفسها التي كان الرجاء أن تؤدي بنا إلى صورة أعلى وأفضل . ذلك كله ، ولدينا ما يضاف إليه ، يقال عن حق « الحرية » الذي أسلفنا لك القول بأنه حق ينبثق مباشرة في كون الإنسان ذا إرادة شاءها له من خلقه وسواه وعدله ، لكننا أسلفنا لك كذلك بأن حرية الإنسان مشروطة بحريات الأفراد الآخرين ، ومن هنا ينشأ لنا حق آخر يغيره تشوه صورة الإنسان ، وهو حق « العدل » الذي يعادل بين حريات الأفراد حتى لايطغى أحد على أحد ، ولا تحسبن أن مثل تلك المعادلة تتحقق للناس بين يوم وليلة ، فالتاريخ يشهدكم انقضى من قرون كانت الحرية لرجل واحد في المجتمع ، هو

الملك ، أو شيخ القبيلة ، أو كائنا من كان « الرأس » الذى يتحكم فى البدن ، ثم تقدم الإنسان خطوة لتكون الحرية حقا لفئة كبيرة من الشعب ولا بأس عندها فى بقاء فئة أخرى تظل عبيدا لها ، ومرت قرون مرة أخرى قبل أن يطلع على الإنسان فجر يوم جديد ، نكون فيه الحرية - من الوجهة النظرية - حقا للجميع ، وأما من الوجهة العملية ، فقوى يطفى على ضعيف ، ويكون له بذلك الطغيان حرية أكثر مما يبقى منها للضعيف ، وهاهنا يزداد العبء على من يضطلعون بإقامة العدل ..

والحديث لا ينتهى ، إذا كان موضوعه « صورة الإنسان » كيف هى : وكيف كان ينبغى لها أن تكون .

الثقافة العربيّة إلى أين؟

كالسائر نحو هدفه البعيد ، أضناه السير ، فوقف يتلفت وراءه ، ليرى كم قطع من الطريق وكم بقى ، كهذا السائر المكدود الحائر كنت ، حين سألتني من سألني قائلاً : ماذا تتوقع لمستقبل الثقافة العربيّة ؟ وذلك أنى وقفت أمام السؤال لأنظر ورائى ، كى أثبتت قبل أن أجيب ، أين نحن الآن ؟ وكيف كنا ، لعلى بذلك أهتدى إلى إجابة مرجحة الصواب ، عما نتوقعه للثقافة العربيّة فى مقبل الأيام ، قريبها وبعيدها ، لكننى ماكدت أحاول استرجاع الذى كان ، حتى تساءلت : وما الذى تعنيه بالذى كان ؟ أهو ما قد مضى من هذا القرن العشرين ؟ أم هو ما قبل ذلك ، قافلاً بخطاك خطوة وراء خطوة حتى تبلغ الأوائل الغامضة ، التى بدأ عندها الشىء الذى نسميه بالثقافة العربيّة ؟.

ومع كلمات هذا السؤال ، حين ألقىته على نفسى ، وجدت ذاكرتى تتقلّب لى عبر مراحل التاريخ فى خطف سريع ، فلمحت على بعد تشابها يلفت النظر ، بين قديم وحديث ، من حيث تتابع المراحل ، مع بعد بعيد بين الحالتين ، من حيث قوة الصحة وضعف

المرض ، فأخذتني فرحة من وجد الطريق الموصل إلى إجابة مقنعة عن سؤال السائل : كيف ترى مستقبل الثقافة العربية ؟.

فلقد ارتسم أمام مخيلتي خطان متوازيان ، كان أحدهما مقسمًا سبعة أقسام ، وأما الثاني فقد بدأ في مسابرة المتوازية مع الخط الأول ، عند المرحلة الثالثة ، وكأنه أخذ المرحلتين أخذ المحاماة الباردة ، لا أخذ المكابدة والمعاناة والمعاشية الدافئة ، نعم لقد ارتسم ذلك الخطان المتوازيان في مخيلتي ، فكنت كمن ينظر إلى خريطة واضحة المعالم أشد ما يكون الوضوح ، خريطة تصور مسار الثقافة العربية قديمًا وحديثًا ، تصويرًا يكاد ينطق لي بالإجابة عن السؤال المذكور : ماذا ترى في مستقبل الثقافة العربية ؟.

كان الخط الأول من الخطين المتوازيين ، هو خط القديم ، الذي جعلته يبدأ من القرن الأول الهجري ، ويمتد إلى القرن العاشر الهجري (من السابع الميلادي إلى السادس عشر) فكان أول قسم من أقسامه خلال القرن الأول الهجري ، بمثابة عين «الموضوع» ، الذي سيصبح المدار الرئيسي لما يسمى بعد ذلك باسم «الثقافة العربية» ، وبهذا كان القسم الأول من خط السير ، أقرب إلى أن يكون «حياة» تنبض ، منه إلى أن يكون تنظيرًا بالفكرة ، وصياغة للمبادئ والقوانين والقواعد ، ومن ثم كان الأجمل بنا أن ننظر إلى تلك المرحلة الأولى من مراحل السير ، نظرتنا إلى أساس البناء ، الذي لا يعد طابقًا من طوابق ذلك البناء ، ومع ذلك فهو الشرط المسبق ، الذي بغيره لا يكون بناء ولا تكون طوابق .

والقسم الثانى من الخط الأول ، هو القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ومعه جاء التفكير والتنظير ؛ فكأنما قال العربى المسلم لنفسه : إن موضوعى هو كتاب الله وسنة رسوله ، فلا بد لى من العلم بهما علماً يوثق به ، ولكن كيف لى أن أبلغ ذلك العلم الثابت ، قبل أن أكون على دراية تامة باللغة العربية وهى لغة الكتاب الكريم والحديث الشريف ؟ فلأن تكون لغة بعينها هى اللغة التى نتحدث بها ونكتبها وننظمها شعراً وأدباً ، فهذا شىء ، وإما أن تكون على «علم» بتلك اللغة (وأرجو أن تقف لحظة عند كلمة «علم») فذلك شىء آخر ، وإذن فلنجمع أدوات البحث العلمى ، بكل ما يقتضيه من جمع المادة اللغوية نفسها ، فى مفرداتها ، وفى تراكيبها ، وفى قواعد نحوها وصرفها ، وفى جمع الشواهد التى نستند إليها فى كل ما ينتهى بنا البحث العلمى إليه من مبادئ وقوانين وقواعد ، فذلك كله شرط أساسى لمن يريد أن يفهم حق الفهم كتاب الله وسنة رسوله ، ومن هنا قامت علوم اللغة قياماً كان وحده كفيلاً بأن يرفع الثقافة العربية إلى أعلى عليين ، وهى بعد فى أول خطوة على الطريق ، ومع علم اللغة جاءت علوم الفقه بأحكام الدين ، فما دامت اللغة العربية قد أسلمت مفاتيحها إلى علمائها ، فقد كان أول ما استخدمت فيه تلك المفاتيح ، هو أن يستخلص الفقهاء أحكام الشريعة .

فلما جاء القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) كان ذلك هو القسم الثالث على خط السير فى الثقافة العربية ، فهاهنا كان العربى المسلم قد رسخت قدماء فى بيته - لغة وديناً - ففتح نوافذ البيت ،

ليرسل منها بصره إلى حيث يستطيع ذلك البصر أن يمتد ، ولقد استطاع أن يمتد إلى كل ما كانت الدنيا قد عرفت من قبل ، وأخذ العربى ينقل إلى بيته كل ما استطابه من علوم الأوائل ومعارفهم ، وقد ينفعنا فى هذا الموضوع من حديثنا ، أن نميز بين نوعين مختلفين فى ذلك المنقول ، وذلك لأن أحد النوعين سيكون عند العرب مادة ثقافية للصفوة دون الجمهور العريض ، وأما النوع الثانى وحده فهو الذى سيتسع مداه ما اتسعت دائرة الجمهور ، وأعنى بأول النوعين ما ترجم عن اليونان من فلسفة وعلم ، كما أعنى بالنوع الثانى شيئاً أقرب إلى ما نسميه اليوم بلغة عصرنا « علومًا إنسانية » إذ كان قوامه تصوفًا وأدبًا وفنًا ، نقل عن الهند وفارس ومصر .

فلما جاء القرن الرابع الهجرى ، وامتداده فى القرن الخامس ، كنا من خط السير الثقافى عند قسمه الرابع ، وفيه انصهرت كل المواد الثقافية السابقة فى بوتقة واحدة ، وأصبحنا أمام نضج بلغت به الثقافة العربية ذروتها ، ففيها من الفلاسفة القارائى وابن سينا ، وفيها من الشعراء المتنبى وأبو العلاء ، وفيها من المفكرين التوحيدى وإخوان الصفا . وفيها من نقاد الأدب عبد القاهر الجرجانى ، وفيها مما لا يتسع المقام الضيق لذكر شىء فيه ، وحسبنا - فيما له صلة بموضوع حديثنا هذا - أن نعلم أن تلك المرحلة من مراحل السيرة الثقافية ، كانت مرحلة النضج .

وماذا بعد أن نضجت الثمرة ، وبلغت كمالها ؟ كانت الخطوة التالية - وهى القسم الخامس فى خط السير - هى مرحلة راجع فيها

المثقف العربى نفسه ، وكأنه وقف لیتساءل : ترى هل بعدت بی الشقة عن جادة الطريق ؟ ترى هل ذهبت بی الروافد الثقافية الوافدة إلى من خارج الحدود ، إلى أبعد مما كان ينبغي لی أن أبعد به عن خطی الأصل ؟ ثم ما هو أضل سبيلا : هل تكون الفلسفة التى أخذتها عن اليونان ، وعن أرسطو على وجه التحديد ، كما تمثلت تلك الفلسفة فى ابن سینا ، هل تكون تلك الفلسفة حاوية لما يتناقض مع دين الإسلام ؟.. أسئلة كهذه تشكك بها المشككون فى قيمة ما جاء به الناقلون من خارج الحدود : وكان فارس هذه الحركة ، هو الإمام أبو حامد الغزالی ، فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) فى كتابه « تهافت الفلاسفة » .

ولم تكن حركة الرفض لقمضى دون أن يتصدى لها من يردّها فما مضت بعد حركة الغزالی الرافضة بضع عشرات من سنين لم تبلغ أن يكمل بها قرن من زمان ، حتى أجاب المغرب العربى فى الأندلس - متمثلاً فى الفيلسوف ابن رشد - على المشرق العربى فى محاولات رفضه للعناصر الدخيلة فى الثقافة العربية ، وكان العنوان الذى اختاره ابن رشد لكتابه الذى رد فيه على ثورة الغزالی ، واضح الدلالة ، إذ أسمى كتابه « تهافت التهافت » أى أن ما هو متهاافت بتناقضاته - ليس فلسفة أرسطو كما مثلها ابن سینا - بل هو ما جاء به الغزالی فى كتابه « تهافت الفلاسفة » - ولم أدع هذه الفرصة تفلت من یدى - قبل أن أشد انتباه القارئ إلى نقطتين هامتين لنا الآن : أولاهما ذلك التجاوب الحى فى حياة الثقافة العربية حينئذ ، ففكر عربى فى هذا الطرف من

الأمة العربية ، يرد على مفكر عربى فى ذلك الطرف من الأمة العربية ، وبمثل هذا التجاوب والتجاذب والمحاوره واللقاء ، كانت هنالك «ثقافة عربية» يتدفق ماؤها فى نهر قوى التيار ، موصول الاتجاه ، فقارن ذلك بما نحن فيه اليوم من تجرؤ وتفكك فى حياتنا الفكرية والأدبية وغير ذلك من جوانب ، حتى لكان كل واحد منا جزيرة قائمة وحدها فى محيط واسع ، فإذا صرخ صرخاته كان سعيد الحظ لو سمع صداها مرتدًا من سفوح الجبال ، وأما زملاؤه البشر ، فقد سد كل منهم إحدى أذنيه بالطين ، وسد الأخرى بالعجين فلا يسمع حتى صرخات نفسه إذا صرخ ، ولذلك جاز سؤال السائلين : أحقًا هنالك ما يصح تسميته بالأمة العربية من ناحية الفكر والأدب وغيرها من عناصر الحياة الثقافية ، تلك واحدة ، وأما الأخرى ، فهى أن من رفض ثقافات الغرباء ومن تقبلها كان كلاهما يصدر فى رفضه أو فى قبوله عن بحر من العلم بتلك الثقافات التى يرفضها أو يقبلها ، فالغزالي حين قدم رفضه للفلسفة الأرسطية ، قدمه عن علم تفصيلي كامل بما يرفضه ، وكذلك قل فى ابن رشد حين أجاب ، فقارن هذا بما نحن فيه اليوم ، إذ يجرؤ الرفض والعامل معًا ، على رفض ما لا يعرف عنه شيئًا ، أو قبول ما لا يعرف عنه شيئًا ، لأننا قد أصبحنا فى شغل عن تحصيل المعرفة ، والذى يشغلنا هو لا شيء !

ونعود إلى ما لنا فيه ، فلقد سرنا مع الثقافة العربية فى عهدها القديم ورأياتها بعد انطلاقها من الإيمان بالدين الجديد ، تدخل مرحلة

التعبئة العلمية استعدادًا لفهم ذلك الدين فهمًا صحيحًا ثم انتقلت - بعد أن اطمأنت منها النفس - إلى الأخذ عن الجيران ما كانوا يملكونه من ثقافات ، وبعدئذ مزجوا الأصيل بالوافد فحصلوا بذلك على ثمرة ناضجة من إبداعهم ، وهنا فرع الفازعون من أن يكون العربى قد ضل السبيل فى ثقافته ، لكن سرعان ما نهض من استطاع أن يعيد الطمأنينة إلى النفوس ، ونضيف الآن إلى هذه المراحل الست التى ذكرناها ، مرحلة سابعة - هى صحوة أخيرة جاءت بعد ذلك الأخذ والرد ، ويكفى أن نذكر عملاقًا كابن خلدون ممثلًا لتلك الصحوة الأخيرة ، التى بها ختم عهد قوى مبدع شديد الوعى بذاته وبما يحيط به .

فماذا بعد ذلك ؟ .

كنا عندئذ قد قطعنا من شوط الثقافة العربية - بعد ظهور الإسلام - تسعة قرون ، وكانت قد بقيت ، بدءًا من لحظة التوهج الأخيرة إلى وقتنا هذا ، نحو خمسة قرون وإننى لأزعم أن ثقافتنا العربية - خلال تلك القرون الخمسة - قد جاءت على نمط شديد الشبه فى تعاقب مراحلها ، بالنمط الذى سارت عليه القرون العشرة الأولى ، بفارق هام بين الحالتين ، ففى القديم كان السائد هو صحة الأقوياء ، وفى الحديث بات السائد هو مرض الضعفاء ، فى القديم كان الأخذ عن الآخرين أخذًا يشبه التغذية بالغذاء الذى يزيد الدماء الفتية الشابة فتوة وشبابًا ، وفى الحديث أصبح الأخذ عن الآخرين أخذًا يشبه حقن الكسيح بأمصال لعله يستقيم على قدميه .

فالقرون الثلاثة الأولى من الحقبة الحديثة ، وأعني : الفترة الممتدة بين أوائل العاشر الهجري والثالث عشر (وهي المقابلة لما بين أوائل السادس عشر وأوائل التاسع عشر بالتاريخ الميلادي) يمكن النظر إليها على أنها مرحلة قامت بالدور الذي قام به القرن الثاني الهجري ، وذلك من حيث هي فترة حاول فيها العربي المسلم أن يتمكن بالدراسة من أصول لغته وأصول عقيدته ، على ألا ننسى الفرق بين الحالتين ، فشتان بين عالم ينتج العلم إنتاجًا مما يشبه العدم ، وتلميذ يتناول بالدرس والحفظ والشرح ذلك الانتاج ، فإذا كان القرن الثاني الهجري قد شهد علماء اللغة ينشئون لأول مرة شيئًا اسمه علوم اللغة ، وشهد فقهاء الدين ينتجون لأول مرة شيئًا اسمه علوم الدين ، فقد جاءت فترة القرون الثلاثة الأولى من تاريخنا الحديث ، لتتعلم علم هؤلاء ، وتحاول استيعابه وفهمه وتطبيقه ما كانت لتطبيقه وسيلة .

على أننا نود هنا أن نلاحظ شيئًا هامًا في المقارنة بين فترة القديم المبدع وفترة الحديث الحاكي ، وهو أن القديم سار شوطه الثقافي «صعودًا» خطوة بعد خطوة ، فكانت الخطوة التالية تضيف جديدًا إلى ما جاءت به الخطوة السابقة ، وأما في الحديث ، فقد سارت أمورنا خطوطًا تتوازي من أول الطريق إلى آخر الطريق ، وكل الاختلاف بعد ذلك هو تفاوت الخط الواحد - قوة وضعفا - بحسب الظروف التاريخية الطارئة حينًا بعد حين ، فإذا كنا قد جعلنا القرون الثلاثة الأولى في مرحلة الحديث من تاريخنا الثقافي ، فلم نقصد بذلك أن طابعها المميز قد انتهى بانتهائها ، بل ظل ذلك الطابع قائمًا فينا إلى

يوم الناس هذا ، وما هو ذلك الطابع المميز؟ هو أن نقف عند حد الحفظ ومحاولة الفهم والشرح والتطبيق لما أبدعه الآباء الأولون .
وجاء القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) لينقلنا إلى مناخ ثقافى جديد ، هو المناخ الذى أصبح فيه للعلم الطبيعى الجديد وجود بيننا ، وهو كذلك المناخ الذى أخذ النتاج الفكرى فى الغرب يتسلل إلينا عن طريق الترجمة . إذن فلقد دخلنا فيما يشبه القرن الثالث الهجرى ، الذى قلنا فيه إنه فتح النوافذ لتدخل ثقافات الآخرين إلى الساحة العربية ، ومرة أخرى ننبه حتى لا ننسى الفارق بين «الروح» السائدة فى عملية النقل عن الآخرين فى الحالة الأولى ، والروح التى سادت تلك العملية نفسها فى الحالة الثانية ، فلقد كنا فى الحالة الأولى ننقل لنكون سادة على ما نقلناه ، بمعنى ألا ننظر إلى المنقول نظرة الفقير إلى ما ينعم به الأغنياء ، بل كنا ننظر إليه نظرة القوى يضيف باختياره قوة إلى قوته ، وأما فى الحالة الثانية فقد أخذنا ننقل عن الآخرين نقل المعوز عمن عنده القوت .

وفى هذه الخطوة الثانية - شأنها فى ذلك شأن ما كان فى الخطوة التى سبقتها - جاء الموقف الذى اتخذه ، لا ليحول عند الانتقال بثقافتنا إلى الخطوة الثالثة ، بل إنه جاء ليبقى خطأ ممتداً مع سائر الخطوط فى حياتنا الثقافية إلى يومنا هذا ، وأنه لما يستوقف النظر حقاً ، عند المقابلة بين تاريخنا الثقافى الحديث ، وتاريخنا الثقافى القديم ، أنه كما حدث فى حقبة القديم أن أخذ «العرب» من المسلمين يحبون التراث الأدبى العربى الذى ورثوه عن العصر الجاهلى ، اعتزازاً

منهم بالثقافة العربية الأصيلة ، وبصفة خاصة في الشعر ، وذلك في مواجهة «الموالى» - أى جماعة الفرس من المسلمين - الذين أثاروا روح التفخار بمجذبيهم الثقافى (وهو ما يسمى فى التاريخ «بالشعوبية») ، أقول إنه كما حدث فى الماضى من إحياء للثقافة العربية الأصيلة ردًا على من كانوا من غير الأرومة العربية يفاخرون بتراسهم ، كذلك حدث هذا الإحياء للتراث العربى القديم ، مع بدء حركة الترجمة عن الغرب الحديث ، وكان ذلك فى مدرسة الألسن ، برئاسة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى - فى ثلاثينيات القرن الماضى ، وإنما أريد بإحياء التراث العربى - أن يوازن ثقافة الغرب المنقولة إلينا بالترجمة ..

إذن فهذان خطان فى حياتنا الثقافية الحديثة ، قد أخذنا يسيران متوازيين منذ أوائل القرن الماضى : خط يحى التراث للانتفاع به - أو لكى يقاس فيه ، وخط ثان ينقل علوم الغرب وفكر الغرب ، وهما الخطان اللذان شطرا حياتنا التعليمية شطرين : فشطرها يقصر دروسه على ميراثنا من الآباء الأولين ، وأما الشطر الثانى فيكاد بدوره يقصر دروسه على المنقول من علوم الغرب وفكره ، على أن بين هذين الشطرين نقطة التقاء هى غاية فى الأهمية والخطورة ، وتلك هى أن المدارس فى أى من الشطرين ليس عليه إلا أن يحفظ ويفهم ويشرح ويطبق فى الميدان الذى درس فيه ، فدارس منقولات الغرب يحفظها تمامًا كما يحفظ دارس التراث ما يقدم إليه من بقايا تاريخه القديم ، فلا فرق بين حفظ هنا وحفظ هناك إلا فى مادة المحفوظ ، فلا أهل التراث أبدعوا كما أبدع آباؤهم الذين خلفوا لهم ما خلفوه ، ولا أهل المنقول

عن الغرب أبدعوا وأضافوا الجديد كما يفعل من نقلوا عنهم ما نقلوه .
ومع ذلك فقد انتقلت حياتنا الثقافية الحديثة إلى خطواتها الثالثة
التي تقابل الخطوة المشابهة لها في تاريخ القدماء ، وأعني بها خطوة
«النضج» الذي تكاملت به الثمرة بعد مزج الوافد والأصيل في جنيان
ثقافي واحد ، وهو النضج الذي وصفنا به حياة الأولين خلال القرن
الرابع الهجري مع امتداد له في القرن الخامس (العاشر والحادي عشر
بالتاريخ الميلادي) ، وأما في حياتنا الحديثة فمرحلة النضج الذي نشأ
من مزج الثقافتين : الموروثة والمنقولة ، فهي على وجه التحديد في
عشرينيات هذا القرن مع امتداد في ثلاثينياته ، فها هنا نجد أعلاماً في
شقي الميادين ، كان أهم ما يميزهم الجمع الواعي بين الثقافتين :
الموروثة والمنقولة ، جمعاً أتاح لهم أن تنقدح في أذهانهم وفي
وجدانهم - نتيجة لتفاعل الثقافتين - شرارة الإبداع ، فلأول مرة في
تاريخ الثقافة العربية ، ظهرت الرواية (قبل العشرينيات بقليل)
وظهرت مسرحية الشعر ، ومسرحية النثر ، ولأول مرة في تاريخ
الثقافة العربية في عصرها الحديث ، ظهرت الفنون التشكيلية من
تصوير ونحت ، ولأول مرة سارت حركة النقد في اتجاهها الجديد ،
ودع عنك تلك الشعلة الملتهبة التي ظهر نورها في عشرينيات القرن
وثلاثينياته من صراخ ينادي بحقوق الإنسان في الحرية ، وفي العدالة ،
وفي الفردية .

ولكننا نحذر مرة ثالثة من أن نسوى من حيث المضمون الثقافي ،
بين مرحلة النضج عند السلف ومرحلة النضج الحديثة التي أشرنا إليها ،

وإلا فأين فينا من هو أبو العلاء المعرى ؟ وأين فينا من هو ابن سينا ؟
فالتشابه الذى نشير إليه بين القديم والحديث إنما هو تشابه لا يعدو
الشكل الظاهرى فى تتابع الحلقات من السلسلة الواحدة .

كنا - إذن - إلى خاتمة الأربعينيات من هذا القرن ، فيما جعلناه
مرحلة النضج الثقافى ، الذى عرف كيف يجمع تراثاً عربياً إلى جديد
آت من الغرب ، وهو الشبيه المقابل لما حدث فى القرن الرابع الهجرى
ممتداً إلى القرن الخامس ، وهنا بالنسبة إلى تاريخنا الحديث ، نشبت
الحرب العالمية الثانية فخرجنا منها كما خرج العالم بأسره ، والروح
تنتفض فرعاً ، وتلهب رغبة فى أن يتغير مجرى التاريخ ، وكان من
أهم جوانب التغير المطلوب فى شتى الأقطار التى كانت حتى ذلك الحين
ترزح تحت نير التسلط الغربى بأسمائه المختلفة ، من حكم فعلى يسيطره
الاستعمار الغربى على هذا البلد أو ذاك ، إلى احتلال - إلى انتداب ،
وما شئت من أسماء أخرى ، تختلف لغة وتجتمع كلها عند معنى
واحد ، وهو أن يكون للغرب الأوروبى والأمريكى سيطرة على سائر
أقطار الدنيا إلا قليلاً منها ، فكانت الرغبة حامية فى نفوس الأقطار
المغلوبة على أمرها . فى أن تتحرر وتستقل وتصبح دولا ذوات سيادة ،
وهذا بالفعل ما أخذ يتحقق بسرعة غريبة ، وجاء ذلك التحرر
للشعوب فى الوقت نفسه الذى انجهت فيه القلوب والأنظار نحو أن
ترتبط أمم الأرض فى هيئة متحدة ، تتولى حل مشكلاتها بطريق غير
طريق الحرب ، ومن ثم سارت تلك الأمم فى ازدواجية تلفت النظر ،
فكل أمة منها ترسل وفودها إلى هيئة الأمم المتحدة - وكأنها متحدة

حقاً ، لكن كل أمة منها – في الوقت نفسه تعمل جهدها على أن تعلن قوميتها الخاصة المتميزة لغة ، وثقافة ، وثنائياً ، وكل شيء ، فبمقدار ما تجمعت الشعوب ، عادت وتفرقت حرصاً من كل شعب على سلامة هويته .

ولم تشذ عن ذلك الاتجاه العام ، الأمة العربية بكل شعوبها ، فبدأت موجة ثقافية – أو قل إنها قويت واشتد دفعها – وهى الموجة الرافضة لثقافة الغرب ، والرافعة لواء ثقافة قومية خالصة ، ولكن من أين يبدأ العمل على تنفيذ هذه الرغبة ؟ يبدأ بإحياء الدين فى قلوب الناس ، وفى عقولهم ، وفى سلوكهم ، وفى اعتزازهم بأنفسهم ، ومع الدين يحيى إحياء اللغة العربية كما عرفها الآباء الأولون ، ونجىء كذلك تقاليد الماضى ، والإشادة بأبطال الماضى ، إلى آخر هذا الاتجاه القومى ، وبالبداهة تتجمع جماهير الشعوب وراء دعوة كهذه ، إذ هى – على الأقل – تسامر ما قد ألفوه وعرفوه ، وهكذا جاءت مرحلة الرفض التى تقابلها قديماً وقفة الغزالي وابن تيمية ومن ذهب معها فى هذا الاتجاه .

لكننا قد أسلفنا القول بالنسبة إلى مرحلة الرفض فى تاريخنا الماضى ، بأنه من الطبيعى أن ينهض من يقاومها ، وتكون هذه المقاومة عن طريق أضواء تصب على الثقافة الأجنبية المرفوضة ، لبيان وجهة النظر الأخرى ، التى ترى الصحة والصواب فى تقبل الغذاء الفكرى من أى صوب جاء .. وأخيراً يصحو من غفل وسها ، فتكون يقظة ، وهذا بعينه ما حدث فى تاريخنا الحديث ، إذ ما هى إلا أن

ارتفعت أصوات تصحيح الخطأ ، على أن ذلك لم يفلح حتى اليوم -
واليوم هو أواخر الثمانينيات - لم يفلح في أن تعادل كفتا الميزان .
ومع ذلك ، فمن ذا الذى يتعقب المسيرة الثقافية العربية ، ولا
يتوقع في رجحان شديد ، أن يتحقق في مستقبل قريب اعتدال
الكفتين في إطار ثقافى موحد جديد ؟.

صورة مصغرة

١

أما العربي المشار إليه في هذا العنوان ، فهو هذا الكاتب الذى تلاحت الأعوام على طريق عمره عقوداً عقوداً ، ولم يكد العقد الثانى منها ينتصف ، عندما أخذت مراهقة حياته تتحول إلى شباب ، حتى بدأت رحلته الجادة على أرض فرشت بأشواك وحصوات ، لا تخلص يمين قدميه من شوكة ثقفيها إلا لتقع اليسرى على حصاة ترميها ، لكن الطريق بكل ما ملاها من الشوك والحصى ، تكشف مع نضج الشباب وصلابة إرادته ووضوح هدفه ، عن حياة اختارت لنفسها أن تكون حياة علم وتعليم ، وثقافة وتثقيف ، وقراءة وكتابة ، منذ بواكير العشرينيات من عمرها ، وإلى هذه اللحظة التى يمسك صاحبها بالقلم ليكتب ما يخلص به للقارئ ما كان قدمه إليه فى ستة وعشرين حديثاً ، صممت خططها قبل أن تبدأ ، لتصور وقفة صاحبها بين محصول ضخّم من خبرة عقلية وعاطفية ، جاءت من ينابيع الثقافتين : العربية والغربية ، وقد مضى عليه حتى اليوم ثلاثون عاماً امتدت به من سنة ١٩٦٠ إلى الآن ، وهو يلتبس لنفسه طريقاً يطمئن إليها

نفسه وعقله معاً ، تمكنه من رؤية موحدة ينسج خيوطها من واقع خبرته الحية فى دنيا العلم والثقافة ، لا يبالى من أى الثقافتين جاءت خيوطها ، شريطة أن يجد نفسه آخر الأمر ، أمام رقعة أحكم نسجها بحيث شملت بين لحمتها وسداها ، خيوطاً تقوى فى كيانه عناصر هويته مصرياً عربياً ، وخيوطاً أخرى تجعل من ذلك الكيان البشرى إنساناً أصلاح ما يكون الإنسان فى مشاركته الإيجابية لأداء دوره فى حياة عصره الذى خلق ليعيش فيه .

وكان هذا الكاتب قد خلص لنفسه إلى مثل هذه الرؤية الموحدة الواحدة ، التى يجد أنه بها هو المصرى العربى الإنسان الذى يأخذ من عصره ويعطيه ؟ نعم ، إنها رؤية عرفنا أشباهها فى أعلام حياتنا الثقافية الحديثة ، منذ رفاة الطهطاوى حتى طه حسين ، إلا أنه يبلغ من جحود لنعمة الله عليه ، مبلغ الجحود الذى يتجاهله به كثيرون إذا تناسى ما قد أداه . فى سبيل التعبير عن تلك الرؤية ، تعبيراً جاء فى دقة تحليله ، وفى سعة فيضه ، وفى درجة شموله لأركان الحياة ، على صورة لم تسبقها صورة أخرى تنافسها فمذ أصدر سنة ١٩٧٠ كتابه فى « تجديد الفكر العربى » وإلى هذه المجموعة الأخيرة من أحاديث « عربى بين ثقافتين » أخرجت له المطبعة أكثر من عشرين كتاباً ، تدور كلها حول هذا الموضوع الواحد . وهو البحث عن عناصر الرؤية الجديدة وكيف تنسج ولن يغير جحود الجاحدين من حقيقة الأمر شيئاً ؟ ولعل لا أجاوز حدود المصلحة العامة من أجل منفعة شخصية ، إذا ذكرت للقارئ نبأ قد يكون له مغزاه ،

وهو أن هذا الكاتب قد حدث له أن كتب وهو في أمريكا أستاذًا زائرًا خلال العام الجامعي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ عما وجدته - ولم يكن يعلم بوجوده - هناك من نظام يتيح للمقالات التي يكتبها كبار الكتاب أن تنشر في عدة صحف تصدر في عدة ولايات في آن واحد ، وعندئذ تمنى هذا الكاتب أن يرى نظامًا كهذا في الوطن العربي ، فتصدر مقالة يكتبها طه حسين أو العقاد في صحف القاهرة ، وسائر العواصم العربية في صباح واحد ، والعكس صحيح بالطبع ، وهو أن تصدر في صحف القاهرة مقالة الكاتب الكبير في أى من العواصم العربية ، في وقت واحد مع صدورها في صحيفة بلده ، كان هذا ما تمناه هذا الكاتب منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، ولم يكن يدري وقتئذ أن الزمان سيمضي به نحو أربعة عقود ، ليرى أن ما قد تمناه في ذلك اليوم البعيد لكبار الكتاب في الوطن العربي قد تحقق في شخصه هو ، وكأنه حلم الأمس تفسره أحداث اليوم ، فقالت في صحيفة الأهرام بالقاهرة تنشر - باتفاق مع الأهرام - في صحف أربعة أقطار عربية في صباح ظهورها بالقاهرة ، ولم يكن للكاتب بشخصه أى جهد ، يبذله في تحقيق ذلك . فلم يخطط خطوة واحدة ليسعى ، ولم يتحدث مع إنسان واحد بكلمة واحدة ليقترح ، بل لعله سمع بالنبا بعد أن وقع الحدث ، وأنها لسعادة ليس له سعادة بعدها أو قبلها ، أن يرى أقطار وطنه العربي قد أرادت أن تقرأ كلمته ساعة ظهورها . وكم كان يتمنى إلا يمتري لسانه في هذه الحالة من الرضى عن النفس بقطرات من حنظل

النكران والجهود ، ينثرها هنا قلم أو يدل عليها صمت أبكم .
كانت سلسلة الأحاديث الأخيرة التي قدمها «عري بين ثقافتين»
مؤلفة من ست وعشرين حلقة ، تعاونت كلها على رسم «رؤية»
واحدة تصور وجهة النظر التي يرى الكاتب بها كيف يمكن للعربي أن
يحيا عربياً معاصراً لزمه ، أو قل مشاركاً في بناء عصره ، وقد شملت
هذه الوجهة من النظر تسع زوايا ، تفرقت في حلقات السلسلة على نحو
ربما لم يمكن القارئ من تعقب الروابط التي جعلت من الأحاديث
فكرة واحدة ، وفيما يلي صورة مصغرة تجمع للقارئ ما قد تفرق
وتناثر .

١ - كانت النقطة الأولى فيما أدرنا حوله الحديث ، وهو حديث
هدفه أن يستطلع صورة الصيغة المقبولة لحياة العربي الجديد . إذا أريد
لتلك الحياة أن تحقق للعربي هويته العربية ، وأن ترهف قدراته - في
الوقت نفسه - تجاه العصر وحضارته ، على أن يندمج الجانبان في
شخصية منسقة متكاملة ، هي شخصية العربي الجديد ، أقول إن
النقطة الأولى في هذا السبيل ، كانت عن «المبادئ» وطريقة النظر
إليها ، فأحق شيء بالبحث ، عندما يكون الهدف هو الكشف عن
طبيعة الحياة الثقافية من أي جانب من جوانبها ، أو من مجموعة تلك
الجوانب متكاملة بعضها مع بعض في كيان واحد ، هو أن نبحث وراء
التفصيلات الكثيرة الطافية على سطح الحياة العملية الجارية كما هي
مرئية مسموعة ، عن «المبدأ» الذي يضم جميع تلك التفصيلات في
كيان منضبط بقواعد وقوانين ، وذلك لأن الوقوف عند تلك

التفصيلات ، قد يمكن الباحث من الوصول إلى ضرب من المعرفة يشبه ما يسمى ، بالتاريخ الطبيعى لظاهرة معينة من حياة النبات والحيوان ، بمعنى أن يقتصر الباحث على تنظيم الشواهد والملاحظات ، وتبويبها ، وتنسيقها فى صورة تروى كيف ينمو الكائن الموضوع تحت البحث ، وكيف يتكاثر وكيف يثمر ، وكيف يدير حياة نفسه وقاية من الأخطار ، وجمعاً للغذاء وهكذا ، لكن مثل هذا التاريخ الطبيعى لموضوع البحث ، برغم تقديمه صورة متماسكة الأطراف ، تعين على معرفة موضوع البحث ، فهو لا يقدم الأساس ، أو العلة الأولى ، التى « تفسر » تلك الحياة ، وتعلل وجودها وطريقة سيرها . فإذا أردنا - إذن - أن « نفهم » الثقافة العربية من جهة ، وثقافة الغرب فى عصره الراهن من جهة أخرى فهما يساعدا على أن نتبين إمكان اللقاء أو استحالة ، كان علينا أن ننفذ بالبصائر خلال تفصيلات الحياة الثقافية هنا وهناك . لعلنا نكشف عن « المبادئ » الأولى التى أنبتت تلك الفروع الكثيرة البادية للعين فى حياة الناس الظاهرة ، وأن نكشف كذلك عن نظرة الإنسان إلى تلك المبادئ ، من حيث ثباتها أو قابليتها للتغير .

وفى سبيل كشفنا عن هذه الحقائق ، رسمنا بادئ ذى بدء صورة هيكلية للسلوك البشرى ، كما يراها علماء علم النفس المعاصرون ، فاكتفينا من ذلك بعرض الوحدات البسيطة التى ينحل إليها سلوك الإنسان بكل مركباته ومقوماته ، فإذا بالوحدة البسيطة الواحدة تتألف من ثلاث حلقات : الأولى هى « المثير » أى العامل الإدراكى الذى

يتلقاه الإنسان من محيطه ، كأن يسمع صوتًا ، أو يرى ضوءًا ، أو يشهد حشرة إلخ ، والحلقة الثانية هي طريقته الداخلية في مواجهة هذا الذى رآه أو سمعه - وتلك الطريقة هي محصلة تربيته ، ومع اختلاف العوامل التربوية في البيت والشارع والمدرسة إلخ ، يختلف أسلوب التلقى قبولاً أو رفضاً أو حياداً . والحلقة الثالثة هي النمط السلوكى الذى يرد الفعل ردًا يجعل ذلك السلوك متواءمًا مع المثير الخارجى وما أحدثه في النفس من حالة الرضى أو الفزع .

وعلى أساس هذه الخريطة للوحدات الهيكلية في السلوك البشرى ، رأينا أن مكن السر في خصوصية الوقفة الثقافية عند الفرد الواحد ، أو عند شعب في مجموعه هو في الحلقة الوسطى ، فالفردان من ثقافتين مختلفتين ، قد يشتركان في مثير واحد كأن يفاجئهما معًا حيوان مفترس . فتجىء الحلقة الوسطى التى تختلف في أحدهما عنها في الآخر . فتحمل أولهما على الفرار التماسًا للسلامة ، وتحمل الثانى على محاولة اصطياد الحيوان طمعًا في فرائه اللين ، وقريب من هذا المثل . ما يحدث في دنيا السياسة فيعتدى مستعمر على إقليم معين ابتغاء سلبه لخيرات ، وها هنا قد تحمل الحلقة الوسطى أهل إقليم معتدى عليه . تحمله على أن ينكش أمام المعتدى حفظاً للأرواح ، في حين تدفع الحلقة الوسطى عند شعب آخر على مخاطر المقاومة حتى ولو فنى أفراد الشعب جميعًا ، ونستطيع أن نستطرد في ضرب الأمثلة حتى تشمل الحياة الثقافية في جميع ميادينها : السياسة وعلاقة الحكومة بالشعب ، الفن وما هو مقبول منه وما هو مرفوض ، معاملة الحيوان الأليف والنظرة إلى الموت ، الاهتمام

بالطبيعة في مختلف ظواهرها إلخ .. إلخ ، فحاصل الجمع لصور السلوك تجاه هذا كله . هو «ثقافة» الشعب من جانبها الفعلى ، الذى يعود بدوره فينعكس في ثقافة المبدعين من ذلك الشعب أنغامًا ، وشعرًا ، ورواية وحكمة وتصويرًا وغير ذلك من صور الإبداع . وإن مضمونات الحلقة الوسطى هذه ، لا تأتى من فراغ ، بل هى - كما أسلفنا - وليد التريية والنشأة . وهذه بدورها لم تولد من لا شيء ، بل استحدثتها «مبادئ» غرست في ضمير الإنسان غرسًا نتيجة لمجموعة الأوامر والنواهى .

وعند هذه «المبادئ» نقف وقفة قصيرة فنسأل : أيجوز للإنسان - فردًا أو شعبًا . أن يغير من تلك المبادئ وفق ما يقتضيه ازدهار الحياة العملية ؟ وعن هذا السؤال يجيبنا جوابان : فالعربى في جملته جواب بالنفى القاطع ، لأن تلك المبادئ إنما هى محاور الحياة كلها ، وهى ليست من صنع جيل واحد أو جيلين ، بل هى مسيطرة من أول يوم في تاريخ الشعب ثم هى ليست من صنع أحد من الناس . بل هى أوامر ونواه جاءت للناس وحيا عن طريق الأنبياء والرسل ، وأما جواب إنسان الغرب في عصره هذا - لم يكن كذلك دائما - فهو أن مبادئ الحياة متساوية في موقعها مع مبادئ البحث العلمى ، فكما يبدأ البحث العلمى فى ظاهرة معينة بافتراض ما يفسر تلك الظاهرة ويستخرج قانونها ، فإذا أفلحت نتائج ذلك البدء الافتراضى ، كان بها ، وإلا فلا حرج فى أن نستبدل به بدءًا آخر لعله يعين على نتائج أفضل وأقرب إلى الصواب ، فكذلك يكون الأمر فى نقاط البدء عند

مواجهتنا لمواقف الحياة العملية (وما «المبادئ» إلا نقاط بدء) بمعنى أننا إذا توارثنا مبدأً في الحياة وتبين لنا نجاحه فيما أردنا أن تنجح فيه ، كان بها . وإلا فلا حرج في أن نستبدل به مبدأ آخر .

هاتان هما الوقفتان : وقفة-العربي-التوارثية ، ووقفة إنسان الغرب في هذا العصر : والرأى المقترح من هذا الكاتب إزاء هذا الاختلاف ، مؤسس على أن موضوع الاختلاف الحقيقي بين الطرفين ، هو أنه بينما يجعل العربي مبادئه ضمن اختصاص الحلقة الوسطى من البناء الهيكلي للسلوك - كما سبق أن عرضنا - نجد إنسان الغرب يضع مبادئه ضمن محتوى الحلقة الأولى ، أى أن العربي يجعل مبادئه جزءاً من ضميره ، في حين يجعل إنسان الغرب مبادئه جزءاً من مدركاته للمثيرات التى يتلقاها من محيطه ، وإذا كان هذا هكذا فلتتناول بالفحص الدقيق تلك المبادئ التى وضعها العربي موضع تقديس ، لموقعها من حياته الوجدانية . لعلنا واجدون أن ما يصدق على بعض تلك المبادئ لا يصدق على بعضها الآخر . فليس من شك أن فيها ما قد ورد أمراً أو نهياً في العقيدة الدينية ، وفي هذه الحالة وجب أن تبقى حيث هى ، جزءاً من الضمير لا يقبل التغيير ، لكن قد يكون هناك مبادئ أخرى . لم تكن وحيًا من الوحي ، بل أنشأتها الحياة العملية في عصر معين ، وعندئذ يجوز لعصر آخر أن يزحزحها من موضعها في الحلقة الثانية . لتحال إلى متغيرات الحلقة الأولى . وأمثلة ذلك كثيرة في علاقاتنا الاجتماعية بين حكومة وأفراد ، بين أفراد وظواهر الطبيعة ، بين نظم التعليم ، ونظم الحكم النيابي ، ونظم

الزراعة والصناعة والتجارة إلخ : ومن ذلك كله ننتهى إلى النتيجة الآتية ، وهى أن الفجوة القائمة اليوم بين العربى وعصره ، من الناحية الثقافية والحضارية ، تضيق بدرجة ملحوظة - إذا أخرجنا المبادئ التى لا علاقة لها بعقيدة دينية ، والتى أثبتت التجارب بأنها عوامل ضعف وليست عوامل قوة إذا أخرجناها من دائرة الضمير الوجدانى ومكوناته ، لتصبح جزءاً من متغيرات الإدراك ، ليكون من حقنا أن نغير فيها ونبدل بغير حرج ولا تأنيب ، مادامت قوة الحياة العملية تقتضى ذلك التغير والتبديل .

٢ - إذا كان مرادنا صيغة ثقافية للعربى الجديد ، تجمع له هويته التاريخية التى ميزته عربياً ذا نمط فكرى ووجدانى وسلوكى معين ، إلى قدرة تضاف إلى ذلك كله للمشاركة فى عصره مشاركة إيجابية . يأخذ بها من عصره ويعطيه ، بحيث يندمج التاريخى الماثور مع الحديث المكتسب دمجاً عضوياً لا تكلف فيه ولا تصنع . أقول : إنه إذا كان ذلك هو مرادنا فى مجال الثقافة القومية ، فرمما أعاننا على سداد التفكير ووضوحه ، أن نرسم لأنفسنا صورة عن العربى فى هويته التاريخية أولاً ، ثم نعقب عليها بصورة أخرى نبرز فيها تلك العناصر الأساسية التى جعلت العصر الحاضر هو ما هو . وبعدئذ ننظر كيف نضع العربى التاريخى فى عصره ، فنرى ماذا يحذف منه وماذا يضاف .

ولقد عرضنا فى أحاديثنا بشىء من التفصيل العناصر الأساسية التى أقامت للعربى التاريخى بنيته الثقافية على مدى تاريخه . وهى بنية شاركت فيها الرقعة الصحراوية كلها ، من المحيط الأطلنطى إلى الخليج

العربي ، ولم يمنع هذه المشاركة الشاملة أن يكون الامتداد الصحراوي المذكور مخضراً بالزرع في الواحات ووديان الأنهار . اللهم إلا أن نجد في الوديان بصفة خاصة - وفي مقدمتها وادي النيل - مزيجاً أخلاقياً مركباً من مؤثرات الحياة الزراعية المستقرة ومؤثرات الحياة البدوية المتحركة - ومن هذا التجانس - الغالب بين أبناء البيت الصحراوي العظيم . أرسى أول عماد من عمد الرؤية الثقافية في أرجاء هذا الامتداد المتنامي ، وكان ذلك العماد القوي المتين وليد الطبيعة الصحراوية من جهة ، والوحي الديني عن طريق الرسل والأنبياء - حيثما ظهوروا - من جهة أخرى - فبحكم الأثر الذي تخلفه الصحراء في نفس ساكنها يغلب على هذا الساكن ، وقد رآه محوطاً بأبعاد من أرض وسماء يسودها ثبات نسبي في المعالم المادية - وفي حالات الجو ، ومع الثبات النسبي فيما يشاهده ساكن الصحراء وما يحسه ، جاء انطلاق البصر إلى ما ليس له نهاية إلا الآفاق تظهر بعدها آفاق . أينما توجه البصر؟ ومن هنا كان الأرجح أن تنطبع نفس الصحراوي بحالة توهمه لتقبل اللانهاية في الوجود مكاناً وزماناً ، مقرونة بفكرة الديمومة الخالدة لذلك اللامتناهي ، ثم جاءت ديانات اختلفت مصادرها على امتداد التاريخ إلا أنها اتفقت جميعاً في عنصر جوهرى مهم ، وهو الحياة الآخرة بعد هذه الحياة الدنيى ، ثم أن تقام الموازين يوم الحساب ، لينال الإنسان ، ما هو خليق بما قد عمل في حياته بمقدار ما يرجح به ميزته أو يخفف .

ومن هذا الأساس الجوهرى غرست في نفس الصحراوي - أينما

كان موطنه من أطراف هذا الوعاء الصحراوى الواسع الأرجاء - طريقة للتفكير، تبدأ بطرح حقيقة مجردة عامة ، ثم نجىء بعد ذلك استدلالات استنباطية تتولد منطقياً من تلك الحقيقة المبدئية المطروحة ، وجددير بنا فى هذا الموضع أن نستبق الإجابة عن سؤال قد يلقيه على نفسه سائل فيقول : ولكن أليس ابتداء العملية الفكرية مما هو مجرد وعام ، نزولاً إلى ما يتولد عنه من نتائج تستنبط منه هو أيضاً ما تتميز به الفكر اليونانى القديم ، الذى شق للثقافة فى الغرب . طريقاً غير طريقنا ؟ والإجابة هى نعم ولا ، أما نعم فهى لأن ذلك بالفعل ما قد غلب على الفكر اليونانى ، وعلى أساسه أقيم المنطق الأرسطى لهم ولنا ولكل آناء الزمان ، وأما « لا » فلأن ثمة فرقاً بين أسلافنا واليونان فى ذلك ، وهو أن الحقيقة العامة المجردة التى يطرحها اليونانى يستدل منها ، هى من عنده هو ، لا يلوم غيره بها ، وبذلك قد تختلف من مفكر إلى مفكر آخر . وبالتالي تختلف النتائج ، وأما عند أسلافنا فى أقطار البيت الصحراوى العظيم . وعلى تعاقب الحضارات ، فقد كانت الحقيقة الأولية المطروحة . فى تجريدتها وشمولها ، مأخوذة - على الأغلب - عن عقيدة جاء بها وحى . أو فرضت على الناس لتكون موضع إيمانهم الدينى ، أو منقولة عن سلف إحاطهم القدم بشىء من التقديس لا يدع للمحدثين فرصة الشك فى صوابه .

وكان ميلنا نحو الفكر المجرد ، الثابت ثباتاً نسبياً على مر الزمن ، متفقاً مع عقيدتنا الراسخة فى حياة آخرة وفى يوم للحساب (والحديث هنا منصرف إلى المنطقة الشرق أوسطية .. منذ الحضارة المصرية القديمة

فأتيا مع عصور التاريخ) ، ومن ثم أمكن لتلك الوجهة من النظر ، أن تكون هى أعمق الإنابيع إيماء للفنان ، وللأديب وغيرهما من مبدعى الثقافة بشتى أشكالها : فالفنان أقرب إلى استلهاام الحقيقة المجردة فى دوامها ولا مجدوديتها ، منه إلى استلهاام الحقائق الجزئية العابرة ، يصدق هذا فى التصوير وفى الشعر وفى صور الابداع الأخرى ، فإذا رسم المصور المصرى القديم . اكتفى بالخطوط الاطارية للجسم الذى يصوره ، وإذا رسم الفنان العربى فيما بعد ، فهو قد تبلغ به نزعة نحو التجريد حد الأشكال الهندسية يؤلف منها زخارفه ، والأشكال الهندسية هى غاية ما يصل إليه التجريد ، ودقق النظر فى الذوق العربى الأصيل فى الابداع الأدبى ، تجد الجرس فى نبرة اللفظ ، والايقاع فى توازن النغاث ، تصادف الإعجاب الفورى عند السامع ، إعجابًا قد لا ينتظر صاحبه ليرى إن كانت تلك الألفاظ المنغومة قد حملت معنى أم جاءت خاوية ، وإذا كانت موسيقية اللفظ ، مفردًا ومركبًا ، هى أساسًا وهدفًا عند الأديب العربى ، كان معنى ذلك أن مبدأ «التجريد» غالب عليه فكرًا وفتًا وأدبًا .

وغلبة التجريد على الرؤية العربية ، قد تتحقق فى مواضعها الصحيحة ، فتعلو درجة الابداع ، وقد يساء استخدامها فتبهط تلك الدرجة إلى ركافة وخواء ، وانظر إلى العربى حين يوفق فى تكثيف خبرته بالحياة فى أقوال حكمية قوية السبك ، حسنة الايقاع ، سهلة الحفظ . عميقة المعنى ، أو بتكثيف خبرته فى شعر محكم لا ترد فيه لفظة واحدة لغير هدف فى البناء الشعرى ، ولعل هذه الرغبة الفطرية

عند العربي في الایجاز المكثف ، الذى يسهل حملة في الذاكرة وهو يحوب الصحراء على ظهر بعيره ، تكون مميزاً عاماً يميز اللغة العربية من حيث هي لغة بالقياس إلى اللغات الأخرى ، إذ هي تعرف كيف تطوى مجموعات مفرداتها عناقيد عناقيد ، تحت أصول «ثلاثية» (على الأغلب) لكل أصل ثلاثي منها أسرته اللفظية الكبيرة التي تنبثق من أرومته كما تنتمي شجرة الأنساب الضخمة إلى جد واحد ، أو كما تتبع القبيلة شيخها .

نحن - إذن - مع ثقافة العربي (مع توسع في معنى كلمة «عربي» ليشمل الرقعة الصحراوية من خليجها إلى محيطها ، ويشمل الثقافات الشرق أوسطية من قديمها إلى حديثها ، لما فيها من تجانس في الأصول ، برغم ما يتعرض له هذا التعميم الواسع لكثرة الاستثناء واحتمال الخطأ) .

أقول : إننا - إذن - مع ثقافة العربي في رؤية جمعت على نحو فريد ، شيئاً من خصائص الوجدان الذاتي في انطباعاته وميوله ، إذ العربي كما عرضناه ، يجد طمأنينة نفسه وهو في مجال التفكير العقلي ، إذا رأى نفسه أمام نص يتمتع بصدق مقبول ، لما يستند إليه من إسناد موثقة . فيتناول هو هذا النص بتحليلات تخرج عناصره المكونة في بنيته اللغوية ، إلى علانية النتائج ليراها كل ذى بصر ، وإننا لواجدون في هذه الوقفة الاستنباطية ، التي تبدأ بما يضمن ثبات الصدق من أقوال مأثورة لتنتهى إلى ما يثبت صدقه بالتبعية الاستدلالية. أقول : إننا لواجدون في هذه الوقفة ما يشبع خصوصية الذات عند اختيار المقدمات المسلم

بصدقها ، وما يشيع - في الوقت نفسه - موضوعية العقل في النتائج التي تم توليدها من مقدماتها بمنطق علمي سليم ، وفي هذا الالتقاء في الموقف الفكري الواحد . لما هو ذاتي وما هو موضوعي في آن معاً ، أميز ما يميز الثقافة العربية ، فلا النزعة الذاتية استوعبتها ، ولا استطاعت الموضوعية أن تنفرد بالسيادة ، وهو التقاء يتحقق على نحو ما في الفن العربي وفي الأدب العربي ، ففي الفن يرسم الفنان ما يرسمه في أطر رياضية ، هندسية التكوين ، وفي الأدب يحرص الشاعر أو الناثر إذا أراد نثرًا أدبيًا تصب العبارات في قوالب هندسية كذلك ، ثم تضاف موسيقية النغم ، وفي هذا وذاك ، محاولة - غير مقصودة ربما - لأن يكون للذاتية نصيبها في نفس الوضع الذي يكون للموضوعية فيه مكانها ، فإذا كان تاريخ الثقافات القديمة قد أوشك أن يفصل الموضوعية العلمية ليجعلها نصيب اليوناني القديم ، عن الذاتية الصوفية والفنية ليجعلها نصيب الشرق الأقصى ، فقد جاءت الثقافة العربية لتستعصى على هذا التقسيم ، لكونها موضوعية ذاتية معاً في كل موقف (وهذا تعميم يقبل استثناءات) ولم يكن غريباً - إذن - أن يقبل العربي فلسفة اليونان وعلمها إلى آخر المدي ، وأن يقبل تصوف الهندي والفارسي إلى آخر أعماقه (وكانت فارس من الناحية الثقافية أقرب إلى الشرق الأقصى) على أن العربي لم يعزل موضوعية العلم في فرد . وذاتية المتصوف أو الفنان في فرد آخر ، بل كانت عبقرته في جمعها معاً في الموقف الواحد ، كما أسلفنا .

وعلى هذا الأساس نخطي: إذا حسبنا العربي في ثقافته « شرقاً » كما

نخطئ كذلك إذا حسبناه «غرباً» ، لأنه شرق غرب معاً ، على نحو
ربما انفرد به دون غيره ، وهنا يحىء سؤال يطرح نفسه ، قائلاً : وماذا
ينقص العربى - إذن - مما يحول بينه وبين أن يشارك فى حضارة
عصرنا ، التى هى حضارة أساسها العلم الطبيعى بصفة خاصة ، وإذا
كان العربى مفطوراً على موضوعية العلم ، فهو مؤهل لعصره ، ثم يزيد
على عصره بالجانب الذاتى فى رؤيته ، فأين تكمن الحوائل التى حجبت
عن عصره ، أو حجبت عصره عنه ؟.

وهو سؤال تجبىء الإجابة عليه فيما نعرضه عن خصائص هذا العصر
فى حديثنا التالى .

٢

٣ - ذكرنا فيما سبق نقطتين من نقاط تسع ، نرسم بها صورة
مصغرة لأحاديث « عربى بين ثقافتين » ، كانت أولاهما توضيحاً لوجه
الاختلاف بين العربى فى نظره إلى شئون حياته ، من جهة ، وإنسان
الغرب فى عصره القائم ، وذلك فيما يختص « بالمبادئ » وعرضنا وجهة
نظرنا فى طريقة دمج وجهتى النظر فى كيان ثالث ، يصون للعربى
هويته ، ويتيح له فى الوقت نفسه قدرة على مواجهة عصره بما يتفق مع
ظروف الحياة التى استحدثت فيه ، وكانت النقطة الثانية فيما أسلفنا
ذكره ، خاصة بتحليل الشخصية العربية الأصيلة ، تحليلًا يبين بعض

ملاحظتها الأساسية التي لا بد لنا من الحفاظ عليها حفاظا لا يترك فرصة أمام قوة العصر لمحو شيئا منها ، ولقد رسمنا هذه الصورة لشخصية العربي ، لنرى كيف تستطيع الحياة في عصر الناس هذا ، وأن تشارك في بنائه ، دون التفريط في شيء من معالمها ، فكان من الضرورة أن نتبع تلك الصورة بصورة أخرى نصور بها هذا العصر ببيان ملاحظته الكبرى ، وهذا هو سبيلنا الآن في هذه النقطة الثالثة .

وأن الصورة المطلوبة لتشتد وضوحا وإيضاحا ، إذا قلنا عن تاريخ الغرب الحديث كله ، وهو تاريخ يمتد نحو خمسة قرون (من أول القرن السادس عشر إلى آخر القرن العشرين) أنه قد تميز بما سبقه إبان مايسمى في التاريخ الأوروبي بالقرون الوسطى بإضافة العلوم الطبيعية ومناهجها إلى دنيا العلم كما عرفها أهل تلك العصور الوسطى وما سبقها من عصور قديمة ، إذ كانت الوقفة العلمية خلال ذلك الدهر الطويل ، الذي لبث نحو خمسين قرنا - تقتصر نظرتها العلمية على توليد النتائج من معرفة سابقة تؤخذ مأخذ التسليم وكان العلم الرياضي في ذروة ذلك النوع التوليدي من ضروب العلم ، إذ تبنى الرياضة - كما هو معلوم - على مسلمات تؤخذ بغير برهان ، لكي تنحصر العملية العلمية بعد ذلك في استخراج ما يترتب على تلك المسلمات ، وأما ما هو خاص بالكون وظواهره وقوانينه فقلما حاول العلم ، اقتحامه ، اللهم إلا أفرادا من العلماء ، مهاكثروا فهم قلة قليلة لاتساوى في عددها جماعة العلماء في مدينة واحدة ، خلال جيل واحد ، في عصرنا الراهن ، فكان اعتماد الإنسان في معالجته لأمر الواقع وضروراته ، قائما على « خبرة »

الخبراء بالممارسة العملية في ميدان معين ، إذن فليس إسرافا في القيم أن نقول عن « العلوم الطبيعية » ومناهج البحث في ميادينها ، من حيث هي ظاهرة تسود العصر لتطبعه بطابعها ، ولا تقتصر على أفراد تناثروا في أقطار الدنيا عبر القرون ، إنها ظاهرة ولدت في أوروبا عند منحنى الزمن الذى دخل به تاريخ الإنسان الأوروبى عصره الحديث .

لكن القرون الخمسة التى امتدت من النهضة الأوروبية إلى يومنا هذا ، لم تكن كلها على صورة واحدة في تصورها « للطبيعة » وظواهرها ، وهو تصور له أثره الفعال على الإنسان وهو يحاول قراءة تلك الظواهر لاستخراج قوانينها ، والذى يهمنى الآن في اختلاف التصور على النحو المذكور ، هو ما قد حدث في هذا الصدد ليجعل من القرن العشرين عصرا علميا فريدا قائما وحده بخصائصه المميزة ، دون القرون السالفة عليه في التاريخ الحديث ، وكان أساس التغير في عمق أعماقه يرجع إلى تحول في تصور النابغين من رجال الفكر خلال القرن الماضى ، لحقيقة الكون وكائنه ، فبعد أن أقيم العلم فيما انقضى من قرون التاريخ الحديث ، على فكرة القصور الذاتى لجميع الكائنات - ربما يستثنى منها الإنسان وحده - بمعنى أن الكائن الطبيعى أيا كان نوعه ، قاصر بذاته على أن يغير من حالته من حيث الحركة والسكون ، فهو إذا كان متحركا في اتجاه معين - لبث على حركته تلك إلى أبد الأبدى ، إلا إذا صادف عاملا خارجيا يصدمه فيغير مساره ، وكذلك إذا كان هنالك كائن في حالة سكون ، فهو يظل على سكونه إلى أن يدفعه عامل خارجي إلى الحركة ، فتغير هذا التصور من أساسه ،

وأصبح المبدأ هو دينامية الكون في مجموعه ، وفي كل كائن من كائناته ، فالحركة التي لاتعرف السكون هي أساس الوجود ، بدءا من الذرة وما تقوم عليه من كهارب ، وحسبك في هذا الصدد أن تتذكر بأن كل شيء في الوجود قوامه ذرات ، إذن فقوامه حركة داخلية هي صميم وجوده .

ومن هذا التصور الجديد نشأت وجهات نظر تتناول كل شيء في حياة الإنسان ، لتجعل التغير والتطور والتقدم أساسه ، فإذا اختلف رجال الفكر فيما حولهم ، فإنما يختلفون في أسلوب التطور والتقدم كيف يقع وليس هو اختلافا بين تطور ولا تطور ، وكانت نظريته « النسبية » ذاتها وليدة التصور الجديد ، وكان من أهم ماتفرع عن النظرة الجديدة أن استبدل الإنسان برؤيته السابقة التي كانت تجعل من الماضي عصرا ذهبيا ، رؤية جديدة مستقبلية فالعصر الذهبي هو ماسوف يتكون بجهود الإنسان ، وليس هو فيما قد كان ، وكان يمكن أن يأخذ إنسان عصرنا بفكرة التغير والتطور الدائبين في عالم الكائنات ، دون أن يأخذ بفكرة « التقدم » لأن الشيء قد يتغير من حال إلى حال ، ويتقل من طور إلى طور دون أن يكون في ذلك تقدم مما هو أقل كمالا إلى ما هو أكثر كمالا ، لكنه المناخ الفكري العام السائد في عصرنا ، تغلب عليه فكرة « التقدم » ملحقة بما هو حادث من تغيرات وتطورات ، وهاهنا يكون التاريخ وحده شاهدا ، فهنا يكن من نكسات انتكس بها سير التاريخ ، إلا أن خط السير في مجمله سائر بالإنسان إلى ما هو أكثر علما ، وأسلم صحة ، وأكثر حرية وأكثر مساواة وهكذا ، مما يقطع

بحدوث التقدم ملازما في الحياة الإنسانية على الأقل ، لحدوث التغير والتطور في عالم الأشياء والظواهر الأخرى .

إن للعصر الواحد - عادة - صوتا واحدا ، برغم ما قد يبدو على السطح المرئي المسموع من منازعات وحروب ، وربما كان أصبح ما يوصف به عصرنا في صوته الواحد - فيما يرى هذا الكاتب على الأقل - هو حرية الإنسان ، تلك الحرية التي كلما اتسعت رقعتها ، وارتفعت درجتها ، قال الإنسان هل من مزيد ، فالإنسان في عصرنا هو المحور ، وحرية هي الصميم ، لكن إذا كان هذا هكذا ، فما شأن - العلوم الطبيعية وكونها طابع العصر الحديث كله ، بما في ذلك صورتها الجديدة التي ظهرت في القرن العشرين ، وما تميزت به من تقنيات (تكنولوجيا) ماشأها في حرية الإنسان ؟ وهنا نلفت نظر القارئ إلى مانراه جوهريا في تشكيل الفكر العربي الجديد ، وهو أن الكثرة الغالبة منا تكاد تقتصر في فهمها للحرية على الجانب السياسي وحده ، الذي يفك عنا قيد المستعمر الخارجى أولا ، وقيود الحياة الاجتماعية حين تكون حجرات عثرة في سبيل التقدم ثانيا ، لكننا في هذا التصور للحرية نهمل جانبا ، لعله هو الجانب الذى إذا تحقق لنا انفتح لنا الباب الذى ندخل منه إلى الحرية في أوسع رحابها من جهة ، وإلى مشاركة العصر في خصوصية رسالته ، من جهة أخرى ، وأعنى بذلك الجانب حرية الذين يعلمون ، في المجال الذى يعلمونه ، فلا حرية لإنسان في مجال يجهل طريقة السيطرة عليه ، فالفارس الذى يحسن سياسة جواده والتحكم فيه ، حر إذا ما كان المجال مجال فروسية

وقتل ، ولكن ضع على ظهر الجواد من لا دراية له بسياسة الخيل ، كانت هزيمته مؤكدة عند لقائه بالفرسان ، وهكذا قل في موقف الإنسان من كل شيء ، بين أن يحمله وأن يعلمه تجده مفقود الحرية في حالة جهله يتمتع بالحرية في حالة علمه ، وبمقدار ما قد حصل من ذلك العلم يكون مقدار حريته في ذلك المجال المعين .

فإذا كنا اليوم في عصر العلم بالطبيعة وأسرارها ، فعنى ذلك هو أننا في عصر حرية من نوع جديد ، هي حرية الإنسان حيال ما يحيط به من ظواهر الكون ، وفي هذا المجال حقق الغرب قدرا من السيادة لاشك في ذلك ، واخفق العربي في أن يشارك بقطرة من هذه السيادة إلا مايجود عليه به صانع العلم في الغرب ، وهنا يبرز السؤال : أفي طبيعة العربي مايعجزه عن الإبداع في العلم بالطبيعة ؟ والجواب بالنفي القاطع ، تأسيساً على ماقدمناه في حديثنا عن «العروبة» ومقوماتها ، أفي عقيدته الدينية مايحول بينه وبين ذلك الإبداع ؟ والجواب هنا أيضا هو نفي قاطع ، لأننا تؤمن بدين يحض على العلم صراحة بظواهر الكون ، ويأمرنا أمرا مباشرا بأن «نقرأ» معالم الكون فوق قراءتنا لما نتعلمه بالقلم وما يسطره ، فليس أمام العربي عقبة تمنعه من المشاركة الإيجابية في بناء عصره مع سائر البناة ، اللهم إلا تربية وتعليم وأعلام ، لم نعرف حتى اليوم كيف نجعلها وسائل لآخراج المواطن العربي الجديد .

٤ - أما النقطة الرابعة فيما يستدعي التفكير عن العربي في موقفه بين ثقافته الأصيلة التي كانت من مبدعات أسلافه ، وما قد استحدثته حضارة هذا العصر من ظروف قد لاتصلح له ولايصلح لها ، فإذا هو

صانع بميراث عزيز عليه إزاء عصر جديد ؟ إنه على كثرة ماتناول هذا الكاتب موضوع « التراث » وما عساه يؤثر به في العربي المعاصر سلبا أو إيجابا ، فهو يزداد إيمانا بأن مشكلة « التراث » مصطنعة إلى حد كبير ، وربما كانت علة اصطناعها هي أن طائفة ضخمة من العرب المتعلمين ، قد أوشكت أن تنحصر فيما يقرأ من كتب السلف ، فأصبح هذا المصدر الوحيد هو عالمهم الذي عاشوا فيه طلابا للعلم ، ويعيشون فيه رجالا من أصحاب العلم ، فن الطبيعي لكل إنسان أن يعلى من شأن مصدر علمه ومورد رزقه ، وإذا كان لهذا المصدر والمورد من يقاومونه فهم غالبا ما يكونون من طائفة أخرى ، انحصرت مصدرا وموردا في عالم آخر ، هو عالم المعرفة المنقولة عن بناء عصرنا من علماء ومفكرين وأدباء ورجال فن وغيرهم .

ولكننا إذ أغضضنا النظر عن ذلك الجانب الشخصي في الاختيار أو الرفض ، ونظرنا في تراثنا نظرة موضوعية محايدة ، تجسمت أمامنا مغالطة منطقية عجيبة ، لا يبعد أن تكون هي التي أحدثت لنا هذه البلبلة كلها في موضوع « التراث » وموقفنا منه في عملية التحديث إذا ما رغبنا فيه وأردناه ، وتلك المغالطة المنطقية هي في توهمنا بأن « التراث » هو كتلة واحدة ، إما أخذتها وحملتها ، وإما تركتها ، وحقيقة الأمر بعيدة كل البعد عن هذا التصور الوهمي العجيب ، فما نسميه « تراثا » هو عالم إذا كان له أول فليس له آخر ، وإذا كان له آخر فليس له أول ، إنه عالم أوسع من المحيط ، يشتمل على جميع ما أبقت عليه الأيام بعد أن فعلت عوامل الفناء فعلها ، مما انتجت عصور

توالت على الدنيا بعد عصور ، وفي ذلك الخضم الهائل آثار من كل ما يطوف بخاطرك وما لا يطوف من فنون القول وضروب الفكر ، وألوان الفن والأدب ، وما شئت وما لم تشأ مما خطه قلم ، أو أزميل ، أو رسمته فرشاة المصور ، أو ملأ تناوله بالجد والحساب علماء الرياضة والفلك وغيرها من علوم ، ومن ذلك المحيط الزاخر بمحتواه ، الذي لا يسعه واسع ولا يصل إلى أعماقه غواص ، تنشأ لنا ثلاث حقائق (بين ما ينشأ) لا يرتاب في أيها مراتب : الأولى ، وهي أن ذلك التراث موجود ، أراد أبناء هذا العصر ، الذين هم الوارثون ، أم لم يريدوا ، والثانية هي أنه يستحيل على فرد أن يحيط بهذا الموجود كله ، وأنه لمن أراد أن يختار من ذلك الكم الهائل ما شاء وما استطاع ، وهولن يعدو أن يكون ما تكون الحبة من كومة الغلال ، والثالثة هي أن الفرد الواحد في حالة الاختيار ، يحمل به أن يختار شيئاً يتفق وميله ، حتى يتم في شخصه تواصل بين الماضي والحاضر ، وأمام هذه الحقائق الثلاث ، ماذا يعني ما نسميه « إحياء التراث » ؟ أنه يعني مجموع ما قد حصله المحصلون الذين اختاروا ما اختاروه ، فدرسوه أو طالعوه ، إذ ليس من الإحياء أن يعاد طبع القديم ليرص على رفوف المخازن ، وإنما يكون إحياء القديم بأن يصبح في قلب حي من الأحياء أو في عقله ، لا على سبيل الحفظ عن ظهر ذلك القلب أو العقل ، بل ينخرط مع غيره من أجزاء المعرفة الموجهة للإنسان في سلوكه ، إننا كثيراً ما نتحدث عن العالمين بترائنا ، وكان تراثنا له « عالم » معين يحمله على كتفيه ، وحقيقة الأمر إنه قسمة بين ملايين العارفين ، كل في حدود اهتمامه وتخصصه ،

ومع ذلك فيجب التفرقة بين ماهو علم وما هو فن وأدب ، في هذا التراث ومن يحبونه في قلوبهم وعقولهم ، فبينما للعلم متخصصون يختلفون باختلاف المجال ، فإن معظم الأدب - شعرا ونثرا - يمكن أن يكون من شأن الجميع ، وأهميته عظيمة في تعاطف المحدثين مع القدماء ، وخلاصة مانريد قوله في هذا الصدد ، هو أن « التراث » وإحياءه يجب أن ينظر إليه من زوايا الافراد ، لينظر إليه موضوعا موضوعا وكتابا كتابا ، ليكون لكل فرد ما يختص به ، فتزول بذلك « الكلية » الوهمية التي تجعل من التراث كله موضوعا واحدا يحمله كل فرد على حده ، وتحييه الحكومات والهيئات كأنه عبء ثقیل المهم فيه أن يتراح عن الصدور .

وعلى ضوء هذا الذي أسلفناه ، نسأل عن دور التراث في تكوين العرني المعاصر ، فيجيبنا الجواب في ترتيب بعكس الوهم القائم ، فبدل أن نتوهم العرني وقد حمل تراثه على ظهره ، وأراد الدخول به إلى عصره ، نعيد الترتيب ونقول ، إن العرني في ممارسته لحياته في عصره عليه أن يختار من تراث السلف ما يعينه روحا وعقلا في حياته بلا تكلف ولا افتعال ، فمن ذا الذي لا يريد « لغة » عربية في حياته ، ومن ذا الذي لا يريد أن ينبض قلبه مع نبضات شاعر صنع من تلك اللغة زهرة عطرة ؟ من ذا الذي لا يريد أن ترتفع ثقته بنفسه بأن يتقدم إلى عصره متميا إلى سلف يفاخر بهم ؟ .

٥ - أما النقطة الخامسة فهي وقفة متسائلة في صدق يأتي أن نخذع النفس عن حقيقة أمرها في موكب الحضارة العصرية وثقافتها ، وتلك

الحقيقة المرة هي أن موقعنا من ذلك الموكب هو موقع الضعيف يسير في المؤخرة تابعا لمن ساروا في الطليعة يشقون الطريق ، ولم تكن الأمة العربية وحدها هي التي رضيت لنفسها بهذا الموقع ، بل زاملها فيه بلاد كثيرة أخرى ، أراد لها التاريخ أن تعد « شرقا » إذا ما قسم العالم إلى شرق وغرب ، ليكون اسم « الشرق » دالا على الضعف والتخلف ، وليكون اسم « الغرب » دالا على القوة والتقدم ، ثم لم يلبث التاريخ أن أضاف قسمة أخرى لأقطار الأرض بأن قسمها « جنوبا » و « شمالا » ليدل باسم « الجنوب » على الفقر والعجز ، وليدل اسم « الشمال » على الغنى والقدره ، لكن إذا كان ثمة ما يبرر لكثير من الشعوب الضعيفة الفقيرة المتخلفة العاجزة أن تكون كذلك ، لأنها لاتستند إلى ماض حضارى ثقافى رائد ، فإذا يبرر هذه النكسة للأمة العربية ؟ ماذا أصابها لتدرج مع « الشرق الجنوب » ولا تلحق « بالغرب الشمال » ؟ ترى ما هو العامل الفاصل بين هذين القسمين ؟ أيكون ذلك العامل أساسا هو القوة العسكرية ، قويت هناك فسيطرت ، وضعفت هنا فهان شأنها وغزاها من غزاها ؟ يجوز وعندئذ لايسعنا إلا أن نلاحظ مقارنة بيننا - نحن الأمة العربية - وبينهم ، فأولا : إن حضارتهم وما يلحق بها من ثقافة ، إذا رددناها إلى مصادرها ، كانت اليونان والرومان القديمتان هما المنبع ، فما حاصر « الغرب الشمال » بكل قوته وعلمه وتراثه إلا امتدادات تطورات من ذلك النبع الكلاسيكى ، وأما حضارتنا أو قل حضارتنا المتتابعة مع أجنحتها الثقافية فهي إذا ردت إلى ينباعها الأولى ، كانت تلك ينباع هي الإيمان الدينى وما يتفرع عنه

بعد ذلك من ظواهر حضارية وثقافية ، وثانيا - إنهم حين أصبحت في أيديهم القوة العسكرية ، استخدموها في البطش بمن وجدوه ضعيفا ليستثمروه وليستذلوه ، في حين أننا نحن عندما كنا أصحاب قوة عسكرية ، فقد استخدمناها في جهاد ننشر به الدعوة وبعبارة أخرى ننشر به حضارة وثقافة .

وأمام هذه المقارنة الموجزة السريعة ، فإن سؤالا يلح علينا كلما صدمتنا الفوارق الواسعة بيننا وبينهم في القوة ، والمغامرة ، والعلم وسرعة التغير ، والثروة ، وهو سؤال يسأل : ما الذى ينقصنا حتى انتهى أمرنا إلى ما انتهى ؟ أين ذهبت الطاقة الحضارية والثقافية التى ما فتئت تتفجر وتومض ببريقها هداية للآخرين ؟ إنه لا يبقى أمامنا فرض نفرضه لتعليل هذا التدهور إلا أن نقول : ربما كانت القدرة على إبداع العلم الطبيعى ، الذى يقرأ الكون ويستخرج قوانينه ، وسرعان ما تتجسد تلك القوانين فى أجهزة وآلات تشق الفضاء ، وتغوص فى الماء ، وتزيد إنتاج الصانع ومحصول الزارع مئات المرات عما كانت ، ومن تلك القوة يكسب الإنسان من الحرية ما لم يكن يحلم به لأنها هذه المرة حرية من نوع فريد وفعال ، وأعنى الحرية التى تزيح عن عاتق الإنسان ماتقهره به عوامل الطبيعة ، حتى باتت العلوم الطبيعية وما يتولد عنها ، من أبرز ما يميز هذا العصر ، ونحن نسأل أياكون رفضنا العميق لهذه العلوم ، هو ما شل فينا المشاركة فيها ، فكان ما كان من سيادة أصحابها وتبعية الآخرين ؟ لكنه سؤال مردود علينا ، لأننا ندين بدين يكرر لنا الحض على قراءة خلق الله ، من زرع ، وحيوان ،

ونجوم ، ومطر ، ومئات الظواهر الطبيعية التى ساقتها آيات الكتاب الكريم ، فإذا أضفنا هذا الحافظ الدينى ، إلى ما نبغ فيه أسلافنا من علوم رياضية ، عندما كانت هذه العلوم هى وحدها التى تشغل العلماء ومعها ضروب العلم الأخرى التى إن لم تكن رياضية ، فهى تنهج منهج الرياضة فى توليد النتائج من المقدمات ، أقول : إننا إذا أضفنا تاريخنا العلمى إلى حفز الدين لنا نحو العلم بالكون ، حق لنا أن ندهش لما أصابنا ، لكنها دهشة المتفائل. بأن ينتهى بنا عصر البيات الشتوى الذى غمرنا قرونا حتى غفونا عن ركب الحضارة الجديدة ، إلى يقظة لا تريد منا إلا شيئا واحدا فينصلح الأمر ، وهو أن نضيف إلى ماقد وراثته من مجد ، قدرة جديدة نكتسبها بالدخول فى معمعان البحث العلمى بمعانيه الجديدة وبوسائله الجديدة ، دخولا نصدر فيه عن إيمان قلبى ، ولا نكتفى فيه - كما نكتفى الآن - بلمسات الأصابع ، نعم ربما نكون قد عبرنا جسورا كثيرة نحو هذا الهدف ، لكننا فى كل ذلك كنا كمن يحوم حول الحمى ولا يقتحم أسواره ليغزوه .

٦ - وأما النقطة السادسة فهى عن حياتنا « الفكرية » ومدى فقرها ، وما نغنيه بالحياة « الفكرية » هو شئ لا يندرج فى مجموعة « العلوم » ، وكذلك لا يندرج فى عالم « الفن والأدب » ومع ذلك فالأفكار الكبرى ، كالحرية ، والديمقراطية ، والمساواة إلخ تمد أطرافها لتسرى فى دنيا العلوم وفى عالم الفن والأدب على السواء ، لامن حيث هى جزء من مضمونات هذا أو ذاك بل من حيث هى بمثابة شروط مسبقة يجب أن تتوافر ليزدهر هذا وذاك معا ، ليست الأفكار من جنس

قوانين العلم ، ولا هى من جنس مايدعه الفنان أو الأديب ونخذ هذه الأمثلة من عالم « الفكر » : لمن من أبناء الشعب يكون الحق فى صنع القرار ؟ هل تكون التجارة مع الخارج حرة أو مقيدة ؟ ماذا نرى فى مجانية التعليم ؟ أيها أحق بالوجود : أن يتحد العالم كله فى وحدة دولية ، أم أن تترك الأولوية للشعور الوطنى والانتماء القومى ؟ وهكذا فهذه أسئلة يتوقف على سداد الإجابات عليها تشكيل الحياة ، ومع ذلك فهى أسئلة لا تجيب عليها العلوم بل يجيب « الفكر » عند « المفكرين » .

وإذا استعرضنا حياتنا الثقافية كما هى قائمة ، وجدنا جانب « الفكر » أضعف جوانبها ، إذ قد يكون لدينا مايرضينا فى الأدب والفن ، وأما فى عالم « الأفكار » فنحن تحت خط الفقر ، وذلك يعود - إلى سببين : أولهما أن « الفكرة » من الأفكار الكبرى ، تنمو مع الزمن ، فليست « الحرية » اليوم تعنى للمعاصرين ذلك المعنى الضيق الذى كانت تعنيه للقدماء ، ومع ذلك فنحن نسهب عن هذه الحقيقة ونقنع فى حياتنا الفكرية بما ورثناه عن آبائنا ، فإذا لم نقنع بموروثنا نقلنا عن الغرب أفكاره ، فلا يكون الفكر فكرنا ، والسبب الثانى فى ضعف الجانب الفكرى من حياتنا الثقافية ، هو عسر الضوابط التى تضمن للفكرة أكبر نصيب ممكن فى نجاح تطبيقها على الحياة العملية ، وليس فينا من يصبر على عناء التحليل الذى يتعقب العناصر الداخلة فى تكوين الفكرة ، وتعقب تلك العناصر إلى أدق تفصيلاتها ولا عجب أن ساد الغموض الشديد معظم ما نعرضه على الناس فى هذا السبيل .

٧ - النقطة السابعة هي أننا قد عكسنا الترتيب الطبيعي بين الفكر السياسى من جهة وتطبيقه من جهة ثانية ، فالطبيعى أن يفكر المفكرون ثم يجيء رجال السياسة فيتشربون الحصيلة الفكرية ليجروها في قنوات الحياة العملية ، لكن الذى يحدث على الأغلب فى حياتنا هو أن تسبق إرادة القائد السياسى فكر المفكر ، وسرعان ما يجعل هذا المفكر نفسه ظلا لما أرادته السياسى فتنتج نتيجتان كلتاهما مصدر للخطر ، الأولى أن تعدد الإرادات بتعدد القيادات ، فلا يتاح لروافد المفكرين العرب أن تجتمع فى نهر واحد عظيم والثانية أن تجيء الأفكار خادمة لعواطف القيادات وشهواتها ، فتفقد أهم الضوابط العقلية التى تضمن لها قدرا من الصواب .

٨ - ولقد حللنا الشخصية العربية على ضوء تاريخها ومنجزاتها ، فوجدناها فى هيكل بنائها تتألف من قبول إيماني بحقيقة كبرى لا تنتهى إلى حدود تحددها ، ثم تجيء بعد ذلك قدرات عقلية فتستنبط من تلك المقدمة الكبرى نتائج وبهذا التركيب جمع العربى إيمانا إلى علم ، وكان هذا الدمج بين الجانبين فى رؤية واحدة أهم سمة ميزت فكره وثقافته ، ثم ذهبت عنه القوة المبدعة ونال منه الضعف ، فغابت عنه رؤيته بشقيها ، فلا الجانب الإيماني ظل حيا ولودا كما كان ، ولا القدرة على الفاعلية العلمية التى تستولد النتائج قد بقيت بعد أن نضب معينها ، ولو عادت إلى العربى ثقته بنفسه لأعاد هيكله القديم أصلا إيمانيا وفروعا علمية ، ثم أدمج فيه ركائز أخرى تحمل جانبا جديدا هو قراءة كتاب العالم ،

٩ - وأما النقطة التاسعة والأخيرة ، فهي أقرب إلى نظرة مستقبلية ، نرجو بها للعربي نهضة ، ينجو بها من حياة التبعية والمحاكاة ، ليدخل عالم الإبداع .

الفهرس

٥	مقدمة
١٠	هذا الكاتب العربى
٢٥	أين نضع المبادئ؟
٤٠	العروبة موقف ١ ، ٢ ، ٣
٨٣	هذا هو عصرنا ١ ، ٢ ، ٣
١٢٤	العربى بين حاضره وماضيه ١ ، ٢ ، ٣
١٧١	جسور عبرناها
١٨٥	من مواطن الضعف ١ ، ٢
٢١٤	مازق حرج
٢٢٩	إرادات مبعثرة
٢٤٣	من اشاعات التوحيد ١ ، ٢
٢٧١	جمود الفكر ما معناه؟
٢٨٥	فكر على فكر ١ ، ٢ ، ٣
٣٢٨	حياه قلقه
٣٤٣	العربى اليوم غامت رؤيته

صورة الإنسان.....	٣٦٠
الثقافة العربية إلى أين ؟.....	٣٧٦
صورة مصغرة ١ ، ٢.....	٣٩٠

رغم الإيداع : ١٩٩٠/١٩٥٥
التقييم الدولي : ٨ - ٤٠٢ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشارقة

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

مكتبة د. زكاي نجيب محمود

تجديد الفكر العربي
ثقافتنا في مواجهة العصر
مجتمع جديد أو الكارثة
حياة الفكر في العالم الجديد
من زاوية فلسفية
في حياتنا العقلية
في فلسفة النقد
هذا العصر وثقافته
هموم المثقفين
في مفترق الطرق
عن الحرية أتحدث
المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري
في تحديث الثقافة العربية

قشور ولباب
مع الشعراء
جنة العبيط
الكوميديا الأرضية
أفكار ومواقف
موقف من الميتافيزيقا
قصة عقل
قصة نفس
شروق من الغرب
قيم من التراث
رؤية إسلامية

قرش جنية

١٢٠٠٠

دار الشروق